

إسحاق ما شباش

المطروودون

ترجمة

وليد تحقاه

مايكوب 2016

يخطو كاتب الشعب في جمهوريات الأديغي، والقبرتاي - بالقر، وشركيسيا، والاتحاد السوفيتي، وروسيا، الحائز على جائزة شولوخوف، وجائزة الأكاديمية الأديغية للآداب، إسحق ماشباش خطوة أخرى في تسجيل رؤيته للحرب القفقاسية - الروسية بروايته هذه "المطردون"، بعد "حجر الرحي" و "خان جري" و "الأسيران" و "جاسوس". وتؤرخ رواية "المطردون" المراحل الأخيرة للحرب التي لم يشهد التاريخ حرباً أشد منها ظملاً.

يؤرخ إسحق ماشباش بصدق وأمانة على عاداته في رواياته التاريخية المأساة التي جرت للشعب الأديغي في القرن التاسع عشر ، فيضعها على مرأى من عينيك: تأليف أول مجلس للأديغة يشبه البرلمان الأوربية، والإحباط الذي أصابهم من عدم تحقق ما أناطوه به، ثم إحراقه. ثم طردهم من أرضهم حين لم يبق لهم من القوة ما يكفي للوقوف في وجه الجيش القيصري المدجج بالسلاح، ولا من يأملون مساعدته.

لا يجوز أن ننسى المصيبة التي حلت بالعرق الأديغي رغم مرور وقت طويل على الحرب القفقاسية. إذا كنت أنت لا تعرف ماضيك وتاريخك فلن يكون في متناول الأجيال التالية ما يعرفونه عنهما. ولن تستطيع التخطيط لمستقبلك. هذه الأفكار وغيرها هي أهم ما في كتاب التاريخ.

مايكوب 2014.

"... لا يزال صدى الحرب القفقاسية التي فني فيها كثيرٌ جداً من البشر يصل إلى كثير من الروس. ليجعل الله الجنة مثوى الناس الذين قضوا في تلك الحرب الظالمة، أو طردوا مكرهين من بلادهم، فقضوا في بلاد الغرب. ولا ينس أولادنا مآسي تلك الحرب التي تبتعد عنا في الزمن، وليعملوا حتى لا تتجدد مثل تلك الحرب"

مقتطف من خطاب يلتسين رئيس جمهورية روسيا الاتحادية الذي وجهه إلى شعوب القفقاس في الذكرى 130 لانتهاى الحرب القفقاسية.

أجري وراء تاريخ قرن الأديغة المشؤوم وأناديه،
ولا صوتَ لصداي، يعاودني وجعي وضيقِي،
وقرني يقول لي: ما حاجتكِ إليه، لا تستدعه.
كان طريقُ أسلافك في زمن سالف جسراً للجهنم.

الفصل الأول

نهض محمد أمين من مجلسه إثر الحزن القلق الذي داهمه فخرج من الغرفة، وجلس تحت شجرة الجوز الكبيرة أمام الغرفة وهو يتخيل أن شمس الصباح التي تذيب ثلج قمم جبال الأبراخ البيضاء، غير القريبة وغير البعيدة، تحرق قلبه أيضاً. ولم يستقر في هذا المكان فتوجه إلى حيث يحتفظون بحصانه، ولكنه رجع بسرعة فدخل الغرفة التي يُتلى فيها القرآن. وجلس إلى المصحف، ومرّ براحة يده الناعمة على غلافه المذهب. ومع أنه نهض براحة نفس واضحة بعد أن تلا منه بعض الوقت بصوت خافت طليق فقد تمثّل لعينيه منظر الشمس التي تحرق عمود الصباح، فأعاد المنظر إلى الغرفة.

"أرسلني منذ أكثر من عشر سنوات الشيخ شامل موفدُ الله من داغستان نائباً عنه إلى بلاد الأبراخ - قال محمد أمين أسيايوف لنفسه - لم أشهد إلى الآن مثل هذه الحالة من اليأس مع أبي وقعت في محن كثيرة خلال هذه السنوات... الله الذي لا إله إلا هو سيفهمنا ويرحمنا. ولما كنت تختبر إسلامنا في دنيانا العارية بجيوش الروس الكفار التي حشدها حولنا قيصر روسيا فأني لا أشكو ما أعاني من مشاقّ يا ربّ. الأبراخ الذين زعمتني عليهم، والذين لا يتفقون على شيء، أحملهم على أن يحموني بدماء الكفار. والقبائل الأديغية الأخرى من البجدوغ والشابسغ والقبرتاي والبسلني، بمن فيهم الويخ، ليست أحسن من هؤلاء إذ يتبادلون نظرات الشك. ومع ذلك لا أحكم على مجموعهم أنهم أناس أدياء. عند هؤلاء كثير من العادات التي تزين المرء مما ليس في بلادنا. دعك من رجولتهم وصراحتهم واستقامتهم. لم ألتق إلى الآن بعرق بشري أستطيع مقارنته بالأديغة. حقاً هم مبالغون في عنادهم، متسامون... يا ربّ ماذا يجري في بلاد الداغستان؟... وما أخبار الشيخ شامل الذي أدعو له الله أن يغمره

بعطفه؟"

ركب النائب محمد أمين بعدما أخبر حراسه أنه لن يفارق إلى مسافة بعيدة، فلا يتبعوه.

شمس المهاجرة التي تأبى أن تتزحزح من مكانها لم تعد حمراء كما في الصباح. الجو حار ولكن النهار غير معكر كالأيام السابقة، ولا يبعث على الضيق. والغابة المتناسقة المتعددة الألوان التي بدأ يُؤثر فيها الخريف المسرع إليها تمر أمام العينين صاعدةً نازلة. والغابة الممتدة على يمين سهل (شحه غواشه) المحصور بين (حاجحُر) و (داخه) تبتعد رويداً رويداً باتجاه (مخوش). والريح التي تجري على أقدامها لا تستطيع مقاومة أصوات حوافر الخيل فتضيع وراءها غلالة الغبار الرقيقة.

الجيش الروسي يقف رتلاً على امتداد الطريق الحجري الحديث القادم من مايقواب بطول 20 فيرستاً¹ مشاة وفرساناً وعربات وثيراناً ومدافع تجرها البغال. والأبناخ الذين يشعرون بالإهانة لما يجري في أرضهم يقفون جماعات جماعات في القمم المحاذية يراقبون السهل المحاذي لنهر شحه غواشه الممتد عرضاً مقدار ثلاث إلى أربع غلوات² للخيل، حيث يصطف الجيش الروسي. وتُسمع أصوات بنادقهم القديمة التي تشتعل على حجر الصوان. ويلوحون بسيوفهم وكأنهم يهددون الجيش الغريب.

- لا تتحرشوا بأعدائنا الأبناخ، لا تُحادثوهم... ولا تتهاونوا في حرصكم. -
يلجّ الجنرال فيليبسون على ضباطه.

¹ الفيرست وحدة قياس روسية قديمة تساوي 1668 متراً. المترجم. والخواشي التي لا يُشار إلى صاحبها في ما يلي من الرواية هي للمترجم.

² الغلوة مقدار رمية سهم أو ثلاثمئة ذراع، والذراع خمسة وأربعون سنتيمتراً تقريباً.

"لا تلتفتوا إلى أعدائنا، أنشدوا، وعُدُّوا السير!" يجيب صدى أغنية المسير الحربية أصوات الضباط التي تنادي في كل اتجاه. تطغى الأغنية الغريبة على امتداد الطريق من قلعة مايقواب إلى (حاجخ) ويصل الصدى إلى قرى الأبراخ المتناثرة في مضيق (فُجْبَس)، وإلى أبعد منها.

طار النائب محمد أمين بقلبه من فوق الجيش الروسي الذي يمتد على طول المضيق الواصل إلى (عُزْرِبِل) وحتّى في أرض الداغستان حيث يحارب جيش الجنرال بارباتينسك، ووصل بقلبه إلى قرية (غونيب) التي يقيم فيها الإمام شامل، وسأل نفسه كما لو كان لأول مرة: "يا ربّ مَنْ يُطلّعي على ما يجري هناك؟ كن رابط الجأش يا كبير الحكيم. قلبي معك وإن كنتُ بعيداً عنك. لينظر الله إلينا بعين الرحمة وليحمنا! ولكن كما سبق وأخبرتكَ، ليست الأمور في بلاد الشركس على ما يُرام. يحشدون على تخومها جيش الكفار..."

- أيها الأبراخ! - صرخ برج حسن وهو يطلق النار في الهواء من مسدسه كأنه سمع أفكار النائب المتلاطمة - الله معنا ولو أننا في موقف صعب؛ لا داعي لليأس.

- أهذا أنت يا برج من لا يسيطر على مسدسه! - حين ترجل محمد أمين من الحصان بحيث لا تميز مزاحه من عتابه قفز رفاهه من صهوات خيلهم. - لا يمكن يا حسن أن تفعل شيئاً بجيش الكفار هذا الكثيف كالجراد بمسدس واحد. يجب التفكير في إجراءٍ ما. أظن أن موعد جلسة الأبراخ الطارئة قد حان.

- كان من المستحسن أن نعرف حقيقة نوايا الجنرال فيليبسون نحونا... - قال أقمُعتُ مَرْتوقوه متردداً.

- نوايا هؤلاء واضحة... - غمغم داوُرُ بجَز متلفتاً إلى جانبيه، ثم سخر من

الجيش الروسي بصوتٍ أعلى: - اسمعوا إلى طريقة غناء هؤلاء! يشحذون لنا ثانية بغنائهم رؤوس رماحنا الأبراخية...

- لنمضِ، ما الفائدة من أن نرهق عيوننا وآذاننا بمراقبة الكفار! أمامنا كثير من المهمات... - امتطى محمد أمين الحصان شاعراً بثقل جسمه على غير عادته. ولما أبطؤوا قليلاً بالخيل قال لبرج الواقف على يساره: - أكلفك يا حسن إبلاغ الزعماء بالقدوم إليّ خلال ثلاثة أيام. لا، لا تستطيع إنجاز المهمة في هذه المدة، لنقل: خلال خمسة أيام. وقال للفارسيين وراءه: وأنتما يا مرتوقوه وبجز اجمعاً مختاير القرى يوم انتهاء اجتماع الزعماء.

- هل تستطيعون أيها النائب إنهاء اجتماع الزعماء في خمسة أيام؟- سأل بجز. - ومن يعرف هذا؟... ألا تعرفون ما أصعب انقيادنا نحن الأبراخ... ليست مسائل الحرب سهلة الحلّ، والكفار يصعب إرضاؤهم. ألا يمكن أن يصبح اتفاقهم أسهل إن أخبرناهم أن المختاير ينتظروننا؟... ثم استدعى النائب قائد حرسه: - يا مَرْزِج اطلب من مستطليعنا ابتداء من مساء هذا اليوم مراقبة مرتفعات حاجخ. ودون أن يُظهر على نفسه أنه مهموم بمجموعات الفرسان المنشورة في الغابات الجبلية، والتي ملأته قلقاً منذ الصباح أكثر من جيش الروس الذي يملأ سهل الأبراخ، همس في أذن برج حسن: - لن نثير القلق في بلاد الأبراخ ما لم نعرف النوايا الحقيقية للجيش الروسي.

- ولكن لا يليق بنا أن نقعد مكتوفي الأيدي أمام الجيش الغريب الذي يزحف نحونا أيها النائب.

- نعم، نعم - أجاب النائب بعد قليل. - ومع ذلك أحتاج إلى ثلاثة أيام بلياليها أختتم فيها القرآن. وأنتم خلال هذه المدة تقابلون الزعماء واحداً واحداً، وتهدّثوهم، وتطلبون منهم البقاء جاهزين. - والآن أضاف إلى ما قاله بصوت

يسمعه مَنْ وراءهما: - أعدت التفكير في مهلة الأيام الخمسة التي سألني عنها
داور بجز فرأيتها قليلة. وأنت يا أفعُت ما رأيك في الموضوع؟
- الرأي رأيك يا محمد أمين - أجب أفعُت مرتوقه باختصار، مفتخرًا
باستشارة النائب له.

- إن كنتم ترون هذا فلنعتمد على الموعد الجديد... - "يا ربي ما أخبار
داغستان بلادي؟..." - لم يستطع محمد أمين إلا أن يفكر ثانية في الموضوع
الذي يشغل باله دائماً.

- مع أنه لم يبق للنائب إلا منحدرٌ ومرتفعٌ للوصول إلى قريته فقد صلى صلاة
العصر بالجماعة عند إحدى السواقي. وبعدما ساروا نصف ساعة يلتفون حول
الرابية ظهرت قرية محمد أمين في المساحة الخالية من الشجر من التل الآخر.
وحين رأى الفرسان والراجلين المتجمعين حول بيته سأل نفسه "ماذا أقول الآن
لهؤلاء؟" غير أنه وجد بسرعة ما يقول لهم:

- يا رجال الأبراخ الشجعان الذين أثق فيهم وأصدّقهم، ويعرف كلٌّ منا الآخر
قلباً وروحاً، ليرضَ الله عنكم لاجتماعكم، وأنا راضٍ عنكم. لا داعي لليأس،
نحن نقف على أرضنا، وسماؤنا تُظَلِّلنا. أنتم تجلبون الراحة للأسر والعشائر التي
جئتم منها. الله الكبير الذي نأتمر بأمره معنا، وهو سندنا ومحط أملنا. نحن
ننتظر الساعة التي يطلبنا فيها إليه. لا تخطوا خطوة واحدة باتجاه جيش الكفار
الذي يمتحننا به دون أمر منه.

وكما يقال إن للخبر أرجلاً كثيرة فحين وصل الخبر الوحيد الذي ينتظره النائب
من داغستان سريعاً عن طريق البريد بتبديل الخيل، وحطّ في أرض الأبراخ، دعا
إلى الله وقلبه عند الشيخ شامل لأنه كان مستعداً منذ زمن غير قصير للخبر
المريع "المهم أن تكون سالماً ولو كنت أسيراً... كان الله الذي أوفدك قد كتب

لك هذا المصير فحدث. لن ينسانا أنت وأنا أينما كنا. وسيغمرنا بعطفه وحنانه". ثم مسح براحتيه على لحيته السوداء الكثيفة، وسأل الفارس الذي سيستأنف سفره:

- على روايتك يأخذون موفد الله إلى روسيا.

- نعم، هذا الصباح ودّعْتُ بنظراتي موفد الله في موقع (بروشنه أوكوب). لا يا نائب، لم ألاحظ عليه إجباراً ولا شعوراً بالإهانة. يرخلونه بأفخر عربة تتبدل أحصنتها عبر المراحل. ومعه زوجته المدللة (فوانت)، وأمامه خمسون فارساً روسياً، ووراءه خمسون، بالإضافة إلى مستطليعي الطريق. لم أستنتج مما رأيت أنه أسير.

- الأمر حسنٌ هكذا - قال محمد أمين، وبعدما صمت مدة أضاف بصوت عميق منكسر: - ما الفائدة من أن يكرمك آسروك بعدما اقتلعوك من أرضك، وأبعدوك عن سمائك التي تُظَلُّك، وعن أحبابك؟ هكذا تدبير الأمور في دنيانا العارية... من يدري ما مصيرنا نحن أيضاً؟... - سأل نفسه "كيف سيتصرف الأبراخ إذا سمعوا أخبار من أرسلني إليهم؟" ونادى كبير حراسه: - اسمع يا مرزيج: اصحب فارسين، واعبروا بضيفنا الليلة سراً نهر لا با.

أفاق النائب في اليوم التالي، وقد غيّر موعد اجتماع زعماء الأبراخ المحدد سابقاً إلى موعد أقرب، معتبراً مهمة الاجتماع مما لا يستدعي المماطلة. وقبل أن يمثل أمام الاجتماع، فكّر في طريقة لمقابلة الجنرال فيليبسون قائد الجيش الروسي الذين يتحصن مقابل قرية حاجوغ، قائلاً لنفسه "من يعرف كيف سيتصرف معك من ليسوا أبناء جلدتك، معتبرين أنك خدعتهم؟ الأفضل أن تعرف أين تنجو بجلدك إن حصل شيء". ولكنه لا يرى من اللائق مقابلة الجنرال الروسي سراً، ولا أن يعقد معه اتفاقاً ينجو فيه بشخصه. وإن اصطحب شخصاً واحداً

فالسر متى ما تجاوز الاثنين لم يعد سراً، وحينها سيعرف الأبراخ ولن يغفروا له. ولم ير من اللائق أيضاً أن يهرب بنفسه منهم بداعي الجبن.

"وهل ما جرى للشيخ شامل أفضل إذن؟..." - يخطر للنائب محمد أمين. - لا، لا أدبته. ولكن إن قلت إن عواطف كل مرؤوسيه كانت معه فأنا أخدع نفسي. وأعرف أن كثيرين سيقولون "لو مات وأسّنة رماح الكفار في صدره قبل أن يسلم نفسه أسيراً لهم لكان رجولةً منه" ولكن سلاماً سيئاً يبقى أفضل من الحرب. أيمكن ألا يكون لنا نحن الأبراخ مخرج؟ ماذا سيكون موقفهم منا إن تصالحنا مُراعين مصالح الطرفين؟ أنرضخ لواقع احتلال روسيا أرضنا بالسلاح مقابل ألا يقتحم جيش الكفار جبال الأبراخ ولا ينقضوا شرعة الأبراخ الأثرية، ولا يتدخلوا في دينهم الإسلامي، ونحافظ على العلاقات التجارية بين الطرفين، ولا يُجنّدوا شبابنا في جيشهم... وماذا أيضاً؟ إن فكرت عميقاً فستظهر لك أمور جديدة تنفّرك من السلام. ولكن هل يحتاج الروس إلى كل هذا؟ مع من سنقيم مثل هذا السلام؟ مع الجنرال فيليبسون أم مع القيصر الذي سيزور القفقاس؟ بالنسبة لي يستوي الطرفان. لا أريد إلا أن أفارق بسلام الأبراخ الذين احتجت إلى عشر سنوات، وبشق النفس، لأفرض عليهم أن يتقبلوني... أستطيع الآن أن أتسلل من بينهم. ولكن كيف سيأتي على ذكرى الأديغة الذين يقولون "الروح ثباع والشرف يُشترى"؟ لو فارقتهم نظيفاً من الجانبين لكان أفضل، لو تحقق لي..."

قطع برج حسن وداور بجز أفكار النائب المتلاطمة.

- تفضلاً، السلام عليكما يا صديقيّ العزيزين. - استقبل النائب ضيفي الصباح بوجهه الطلق المرائي دون أن يُظهر عدم ارتياحه - اجلسا، قبل لحظات خطرنا لي. ولماذا ليس أقمعت معكما يا حسن بي؟

- وعليكم السلام، أيها النائب الذي ندعو الله له أن يُريه صباح دنياه الجميل بعين الرضا. - قال برج حسن الذي أُضيف إلى اسمه "بي" فصار "حسن بي" على الطريقة التركية، ومزج مع مستقبله: - كما يقول جماعتنا الأديغة لسنا من الضيوف الذين تُقدّم لهم قشطة الصباح. كنا مارين على داركم في طريقنا إلى قرى الأبراخ في سهل فُجّبس، فعرجنا لنُطلّعك باختصار على مجريات اجتماع الزعماء، ونتشرف برؤيتكم في الوقت نفسه.

- لو بدأتما حديثكما برغبتكما في رؤيتي لسررتماي أكثر. - رد النائب عليهما بالمزاح - ولكن لا شيء يعدل أن يتذكرك الناس الذين تعيش من أجلهم، خيرٌ من أن ينسوك. حياكما الله، ورضي عنكما، وهذا شعوري أيضاً نحوكما. أرجوكما أن تشربا شايّاً ساخناً مع زبدة جاموس طازجة. وإن لم يكن عندكما الوقت فالشكر لكم على زيارتكما، وبارك الله فيكما. والآن أسمعكما.

- أعتقد أننا بلّغنا أكثر أعضاء الهيئة العامة للجمعية إن لم يكن كلّهم. - أضاف برج إلى كلامه - وكل الذين بلّغناهم ردوا علينا "كلامكم كلامنا، وفعلكم فعلنا".

- حسنٌ أن نتشارك آراءنا ونتفق - لم يُقصّر محمد أمين عن ضيفيه في حلو الكلام. وأضاف إليهما أنه ليس قاعداً عاطلاً عن العمل - وأنا في هذه الأيام قابلي كثير من الناس المنشغلين بقضايا الأبراخ. وتناقشنا فيها. ما أخبار (توبا) من نواحي الأبراخ يا تُرى؟

- أوفدنا أقمعتٌ إلى تلك الناحية... - أجاب برج، وأضاف باسمًا: - توبا من مناطق الأبراخ التي يعرف الله وحده ما تعاني من اختلاف الآراء كأحصنة لا أزمّة لها.

- وأنا، بعد الله، أعرف هذا - قال داور بجز، وفصّل ما يعرف ضاحكاً: -

يقولون لنا: "لا تسمحوا لجيش الكفار أن يتوجه إلينا. وإن هزموكم فسُريكم كيف كان يجب أن تقاتلوهم".

- ماذا بيدنا؟ قال برج حسن كائناً ألم قلبه - هذه طبيعتنا نحن الأديغة... -
نسمح للأعداء، في غياب دولة لنا، أن يصرعونا واحداً واحداً.

- أتعن يا حسن بي، يا من جعل الله يومه مئة، أن العيب في الأديغة وحدهم؟
سأل محمد أمين كائناً ألم قلبه، شاعراً بالعار من أنه لم يتمكن من إتمام مهمته
التي أرسل من أجلها إلى بلاد الأبخاز لترتيب أمورها وإنجاز وحدتها وتفاهاتها،
وأجاب بنفسه: - وفي بلاد الداغستان تصادفك اختلافات من هذا النوع.
ولكننا لن نستسلم لليأس مهما حاول الكفار معنا. لينظر الله إلينا بعين الرحمة
وليُرحمنا!

لم يكن ضيفاً محمد أمين غير المنتظرين قد ابتعدا عن الباب حين بدأ يفكر في
مقابلة الجنرال فيليبسون مع حلول الظلام، ليس باسم الأبخاز الذين يقودهم بل
باسمه وحده. هل سيقول لهم: استسلمت لكم وأحالفكم؟ لا، هذه خيانة. إن
فعل هذا فبأي عين سينظر إلى نفسه، دغك من الآخرين؟ سيفرغ القضية التي
حارب من أجلها في سنواته العشر الأخيرة من معناها، ويسلم نفسه أسيراً
للكفار؟! أليس إقناع الطرفين المتجابهين بحلاوة السلم، كما يقول الأديغة
"ينضج لحمنا دون أن يسودّ شيخنا" أفضل من أن تكون أسيراً؟ الأبخاز في
موقف صعب، والجيش الروسي الذي حارب عشرات السنين في أرض الأديغة
لم يبرح مكانه. يذرع محمد أمين الذي يفكر، مُصاليماً بين ذراعيه وراء ظهره، في
إمكانات الصلح بين الطرفين. يقف إلى جانب النافذة، ويبتعد. وأخيراً يجلس
ويرتب أفكاره باللغة العربية.

الفصل الثاني

استدعى محمد أمين النائب مرزيج ساعة هبوط الظلام، وقال له:

- حضر لي حصاني؛ أريد أن أنزهه، وسنكون وحدنا أنت وأنا. ولا حاجة لثالث معنا.

مهما كان نهار الصيف طويلاً فهو قصير في الجبال. أظلمت دنيا الأبراخ ما إن غابت الشمس وراء الجبل. وبدأ كأن وقع حوافر الأحصنة قد حَفَّت. وساد الظلام الخفي الأرض. وحين تركا وراءهما ظاهر القرية وبدأا يقتربان من جبل حاجخ قال مرزيج المتأخر بضع خطوات عن النائب:

- أيها النائب يا من أدعو له الله أن يبارك للأبراخ معروفيه، خلّقنا وراءنا حدود القرية، والجهة الأخرى لا نعرف ما فيها.

- قف بجاني إن كنت خائفاً، ولا تمش ورائي.

- إن رأنا أحد أقف في محاذاتك فسيصيب علينا.

- قف! من أئتما؟! وقف ثلاثة فرسان من القوزاق أمام الفارسين الأبراخيين، وثلاثة من ورائهم.

- أنا أسبالوف محمد أمين، وهذا رفيقي. أوصلونا إلى الجنرال فيليبسون دون ضجيج. - قال النائب لمن اعترضهما بصوت واثق، وبلغة روسية سليمة.

كان من عادة الجنرال فيليبسون أن ينام باكراً ويصحو مع الفجر. فلما أبلغوه فجأة باسم من لا ينتظره البتّة، فيما حاجبه يخلع له جزمته، سأل غير مصدّق:

- من قلتم لي؟ - ربما أخطأتم؟

لا، يا سيادتكم لم نخطئ. - أجاب حامل الخبز النقيب الركن سيرديوكوف. -

زعيم الأبراخ أسبالوف محمد أمين يود مقابلتك.

- الآن حالاً. أدخلوه إلى الغرفة الأخرى، ولا تتعالوا عليه، استقبلوه استقبالاً

لائقاً بالضيوف. - عاد الجنرال ذو الجسم الضخم فارتدى جزمته من جديد. وأدار ناصيته الكثيفة التي بدأ الشيب يغزوها إلى الجانب الآخر من جبينه العالي العريض. ونصب شاربيه الكثيفين المتهدلين بإصبعيه. وذرع أرض الغرفة بضعة مرات دون أن يستعجل ملاقة ضيف الليل، قائلاً لنفسه: لينتظرنني إذ جاءني مبادراً. ووقف قليلاً يتأمل ظلمة الليل من خلال النافذة، ثم مضى يصحبه ضابطان إلى الغرفة التي ينتظره فيها محمد أمين. وسلم على زعيم الأبراخ الذي نهض لاستقباله، ولما قعد قال له: أسمعك أيها النائب الذي أُكِّنَ له كل الاحترام.

- أريد أن نتكلم على انفراد - قال محمد أمين للجنرال، وحين خرج سيرديوكوف النقيب الركن والضابطان المرافقان له على امتعاض بإشارة من رأس الجنرال، خرج مرزبج معهم أيضاً. ولما بقيا وحدهما أضاف أسيايوف النائب إلى كلامه: - لن ندخل في مسألة تعارف أيها الجنرال لأننا لا نعرف بعضنا أيها الجنرال الآن فحسب. أنا أعرف بعلم الله تعالى ما جرى في داغستان. ولما كان من تدير الله فلا علاقة لأيّ كان بما جرى. ولكني من جهتي لم آت إليكم لكي تأسروني. بل جاءت بي إليكم مسألة السلام بينكم وبين الأبراخ التي كلّفني الله بها؛ لذا أود معرفة رؤيتكم للأمر. والأفضل ألا نسوّف القضية.

مع أن الموضوع الذي جاء من أجله النائب محمد أمين زعيم الأبراخ كان خبراً ساراً مفاجئاً للجنرال فيليبسون فقد التقط الكلمة التي لم تعجبه؛ يقول لنا "سنتصالح" بدلاً من "روسيا أقنعت الأبراخ بأنهم رعايا روس فليوقفوا الحرب العبيثة". غير أن الجنرال أجاب وهو يقول لنفسه "هذه الكلمة يمكن تأويلها كما تريد":

- السلام الذي يوقف سفك الدماء حسنٌ في أي زمان أيها النائب. ولكن

قبل أن نتكلم في طريقة الصلح يجب أن نفكر في شكله. مضى على اتفاقية أدريانا بول¹ بين روسيا وتركيا، والتي منحت الأديغة لروسيا ثلاثون عاماً. أهم مستعدون أن يلقوا السلاح ويعترفوا بسيادتنا عليهم، ويعيشوا معنا بسلام؟

- جواب هذا السؤال سهلٌ عليّ أيها الجنرال إذ لا أحد غيرنا في هذا المكان، ولا يُسجَّل ما يقال. افهم كلامي "ستصلح"، واستغلُّوه كما تشاءون. ولكني أرغب في أن أفارق الأبراخ بسلام، وبينكم اتفاقٌ صلح مكتوبٌ، وأن أتحالف معكم على الخير، دون أن تفكروا في أن أحارب معكم.

- إن كان هذا رأيكم، وكنت واثقاً أن الأبراخ سيطيعونك أيها النائب، فأنا أمنحك كلمة شرف مما يمنح الضباط بأننا لن نُفشي سرَّك إليهم. أوافقك لأن ما جئت لأجله موضوع مهم. سنفكر في أفضل طريقة لإنجازه، وسنجيبك.

- أكرر أيها الجنرال: ليس هذا الموضوع مما يحتمل التسويف.

- أنا فهمت ما تريد أن تقوله، ولكن لا تنسَ أيها النائب أن في تفليس قياداتٍ أعلى مني، وفي سان - بطرسبورغ من هو أعلى منا جميعاً. ثم إن

¹ بعد ما انتهت الحرب الروسية التركية يكتب ف. ن. ريباسيف في كتابه "المسألة الشركسية. أولمبياد 2014. سياسة جورجيا في القفقاس": في عام 1829 حسب ما نصَّ عليه اتفاق سلام أدريانا بول بين روسيا وتركيا فإن تركيا تمنح أراضي الأديغة لروسيا. وهكذا "تنازلت" تركيا لروسيا عن أراضي الأديغة. والصحيح أن هذا التنازل لم يكن له أي معنى. والسبب أنه، كما كان يقال في أوروبا، لم تكن تركيا حرة في أن تتنازل عما لا تملك. وإن أردت الحقيقة فالتك لم يكونوا يوماً مسؤولين عن الأديغة، إذ أن الآخرين لم يخضعوا يوماً لأحد، وعاشوا حياتهم أحراراً. ولم يرضخ الأديغة للنظام الذي استمده قيصر روسيا من تلك الاتفاقية. وفي عام 1830 زحفت الجيوش الروسية على الأديغة الذين لم يقبلوا بسلطة بطرسبورغ. وفي شمال غرب القفقاس نشبت حرب جديدة. واستمرت تحمد قليلاً ثم تشتعل من جديد حتى أيار عام 1864 المؤلف.

الوثائق التي ستكون بيننا تحتاج إلى عمل كثير.

- أنا جَهَرْتُ مثل هذه الوثيقة يا غريغوري إيفانوفيتش. - خاطب محمد أمين الجنرال باسمه واسم أبيه لاكتساب ثقته، وسلّمه الورقة. - أظن أن ما فيها يرضي الطرفين. - ثم أضاف بعد قليل: - لا تُخطئ أيها الجنرال في ما عبّرت عنه بقولك "إن كنت قادراً على تطويع الأبراخ" إذ أُنِي لا أتعهد بما لا أستطيع. سيكون ما في الورقة باللغة العربية وجهةً نظرهم. كان حسناً أن تضيفوا إليها بالروسية ما يناسبنا، ثم تعيدوها إليّ. الحق أني لا أحتاجها هذه اللحظة. تكفيني النسخة التي احتفظت بها من أجل اجتماع وجهاء الأبراخ بعد غد.

- إن كان ما في هذه الورقة سيؤكّد صدقه بنفسه أيها النائب فلن أقصّر من جهتي في شيء. وسأعبد إليك في بضعة أيام ما كُتِب بالروسية ممهوراً بخاتمي. - استشر زعماءك أيها الجنرال إن شئت، سيسرّهم ولا أظنهم سيعترضون بشيء. وإن أوصلت إليّ ما جئت على ذكره فسأدفع الأبراخ القانطين إلى مصالحتكم إذ أين يذهبون هاجرين أرضهم. وكونوا واثقين من مرزيج لأنه هو من سيكون حارسي، وهو ورائي دائماً في كل مناسبة. وأود أن أعرف من تثق به أيها الجنرال.

- النقيب الركن نيكولاي بيتروفيتش سيرديوكوف. وحين ننتهي من إجراءات السلام بيننا سنوقع كلانا في أسفل الوثيقة.

- سأوقع لأن هذا أمرٌ قدّره الله - نهض محمد أمين راضياً بما سمع وبما علّق به. قال فيليسون في نفسه وهو يودع ضيف الليل الطارئ باسمًا: "إن كان هذا ما تريد يا أسيالوف فسأطوّع الأبراخ الذين لم يرضخوا للسلاح بهذه الورقة التي تتقبل كل ما يُكْتَب عليها ريثما يأتيني جواب سُؤالي الوثائق منه من تفليس ومن سان - بطرسبورغ. ثم نرى ما سيحدث"

يسخر محمد أمين النائب من حادثه: "انظر كيف يتظاهر هذا الذي لا يسيطر على طرفي شاربيه المتهدلين بأنه ليس مخوَّلاً في شيء... سيستشير تفليس، وسيرسل مبعوثاً إلى سان - بطرسبورغ... افرح أيها الكافر إن وعدوك بالمصالحة ولا تأتِ على تفاصيل تلك المصالحة مصدّقاً أن الأبراخ الذين طوّقتموهم قانطون الآن. هؤلاء لن يخالفوا أمري غير أنني إن فارقتهم دون أن أدعهم في أرض المهلكة مضيت مرتاح الضمير لأني كرّست عشرّاً من سنواتي الخمسين لهم. اغفر لي يا ربي مفارقتي الأبراخ موفّقاً بين مصلحتي الشخصية وقضية السلام. ارحمني، هذه هي الخدمة الوحيدة التي يمكنني أن أقدمها لهم..." - لا يجوز يا مرزيج أن يعرف أحد بالمكان الذي كنا فيه. سيفهم الأبراخ لاحقاً الأمر. هل تسمعي؟

- نعم أيها النائب، نعم. سنفهم الأمر لاحقاً. أنا أعمى وأصم. قولك قولي وفعلك فعلي.

الفصل الثالث

مع أن صباح الصيف جاء بالحرّ فالنسيم البارد يجعلك في منأى عنه. الشمس التي لم تلتفت إلى الجبل ذي القمة البيضاء الذي أشرقت من خلفه ترتفع في سماء السهل حيث يجتمع زعماء الأبراخ التسعة والثمانون، والمخاتير الذين يزدون على الخمسمئة. وتظهر من جهة الغرب بعض السحب الرقيقة الممزقة، تتلاقى وتتباعد خلصة. والشهر الذي قضم منه الخريف القادم جزءاً متعدداً الألوان متناسق. ومع أن طبيعة بلاد الأبراخ جميلة فالحزن بادٍ عليها بسبب احتشاد القطعان الروسية على سفوح الجبال. ولا يقتصر الحزن على الناس بل يبدو أيضاً على طريقة تجمع الفرسان وقلقهم.

- لا أدري إن كان الجنرال فيليبسون تراجع عن اتفاقنا؛ أراه تأخر في الجواب.

— غمغم داور بجز مهموماً بعدم مجيء الموفدين الروس.

— لا يزال أماننا نصف ساعة — قال محمد أمين وهو يقرأ في ساعته الفضية التي تنفتح وتنطبق. — هؤلاء لم يجعلونا نرتاب في شيء منذ أن شرعنا في محادثاتنا للسلام. وكذلك أرسلوا إلينا في الوقت المحدد الورقة التي توثق بالعربية والروسية اتفاقنا. ولم ي حذفوا كلمة واحدة مما كتبنا نحن فيها. وقد أطلعنا اجتماع الزعماء أمس على الاتفاق ووافقنا عليه. والمخاتير الذين جمعناهم مطَّلعون على الأمر. وما بقي هو أن يتفق الطرفان على قبوله.

— حسنٌ إن كان هذا رأيك أيها النائب. — قال برج حسن مؤيداً كلام النائب، واختتم بشكوكه — غير أن هؤلاء يقولون اليوم شيئاً، وغداً شيئاً آخر. — نعم، نعم. قلب الكافر يتبدل في اليوم سبع مرات... — قال أحد المخاتير الأقرب إليه.

— لو كانت حياة البشر تجري على هذه الدنيا الفانية كما نشتهي لربما ما جرت لنا كل هذه المصائب يا حسن بي. — حافظ النائب على هدوئه مع أن تعليق المختار أثاره. ثم أضاف مُسمِعاً القريين منه والبعيدين: — لن نتجاوز ما يقدره الله تعالى لأن الاتفاق الذي سنعقده مع قائد جيش الكفار الجنرال فيليبسون لا يجري دون علمه تعالى، نبتهل إليه أن يرحمنا وينظر إلينا بعين العطف ويحمينا. ها هم الروس قادمون لم يحددونا. — لفت النائب أنظار المجتمعين إلى الجهة التي تأتي منها مجموعة الفرسان المؤتمرة بأمر الجنرال فيليبسون، وشاورهم: — ماذا نفعل؛ أنستقبلهم؟

— إن كانت نواياهم حسنة نحونا استقبلناهم. — تتمم برج. — ولكن إن قال من حاصرونا بالسلاح إنهم سيصالحونا فلن ننسى كوننا أديغة. سنرسل بضعة فرسان لملاقاتهم حين يقتربون منا دون أن نخفّ جميعنا لاستقبالهم.

صحب داور بجز الفرسان القوزاق إلى ساحة الاجتماع بعدما قبل مهمة اصطحابهم غير متحمس لها، معوضاً امتعاضه بالفخر بما كُلف به. ثم سلّم حصانه إلى أحد الشباب، وعاد إلى مكانه بين الوجهاء.

قال براغنه إسلام ذو اللحية والشوارب الشقراء مختار قرية تامبي حبله، لأخيه الأكبر من أمه:

- انظر يا عُفَس؛ طرفا شاربي الجنرال يتهدلان على راحتهما. ألم يكن قادراً على أن يزيح شاريه عن طرفي شفتيه إلى إحدى الجهتين؟

- ورفاقه القوزاق، ما أقل حياءهم إذ يرتدون زِينَا معتدين به!... - أجب مَرَزخوي بكر الواقف في الزاوية غير مُطيقٍ ما يرى - لو كان يناسبهم كنتُ هنا... يخدعوننا بما ليس لهم من لباسنا المتناسق.

- ليت الأمر اقتصر على زِينَا، بل يسلبونا أرضنا... - أضاف عُفَس إلى ما قال بكر.

- من حسن حظكما أن والدكما براغنه ميشكا لم ير في شيخوخته هذه المآسي التي يتسببون لنا فيها... لم يستطع بكر الآن إلا أن يقول.

ابتعد محمد أمين النائب عن الجنرال فيليبسون خطوة واحدة، وتوجه إلى مؤتمر الأبراخ بصوت حازم:

- أيتها الجماعة، يا موفدي إقليم الأبراخ الأتقياء، اسمعوني! وأنت يا براغنه إسلام، يا من أدعو لوالده ميشكا الذي كان قلبه عامراً بالإيمان أن يفتح له باب جنته، تَرَجِّم للجنرال فيليبسون ولأصحابه باللغة الروسية الصافية التي اكتسبتها من والدك ما سأقوله بالأديعية. ما في هاتين الورقتين من اتفاق السلام - يعرضهما النائب على المؤتمرين أمامه - مكتوب بالروسية وبلغة القرآن. اطلعنا عليهما البارحة واليوم. ولا يختلف محتوى أي من الورقتين بكلمة

واحدة عن الأخرى لأننا اتفقنا نحن ومن أتاننا باسم الجيش الروسي على أن نتبنى معاً ما جاء في هذا الاتفاق الذي أقسمنا عليه. أترجم لكم إلى الأديغة الورقة المكتوبة باللغة العربية، لغة القرآن، متفقين، أنتم وأنا، على الثقة التي أولاني إياها الله العلي فأصغوا بقلوبكم وتحلّوا بالصبر. — كان المنادون والمبلّغون يرددون كلمات محمد أمين في كل مكان من ساحة المؤتمر.

— أيها النائب يا موفد الله المبارك — نادى تسي حاترباي (وكانوا ينادونه أيضاً بالأسود الفاحم)¹ الرجل النحيف المتين المنتمي إلى أسرة متنفّذة — عندي لك سؤال قبل أن تترجم لنا الاتفاق إلى الأديغة: هل الأبراخ فقط هم من أقسموا على ما في هذه الورقة أم أقسم عليها أيضاً الروس القادمون إلينا؟ خرج الجنرال فيليبسون الذي ترجم له براغمته إسلام السؤال بدلاً من النائب الذي وُجّه إليه، وقال وهو يحاذي محمد أمين:

— ما جئناكم به الآن أيها المحترم تسي هو عهد الجيش الذي أقوده. أردنا كسب الوقت لأن من سنستشيرهم بعيدون. ولكن بما أننا لا نتصرف دون علم هؤلاء فلا أشك أنهم سيوافقونا لأنهم يرون أن كل سلام أمرٌ إيجابي. — وقال لنفسه "لا تنسوا أنكم لستم رعايا القيصر عبثاً"

— حسنٌ أنك لا تشكّ في الأمر أيها الجنرال، ولكن من الصعب تصديق أي اتفاق لم يمر على القيصر نفسه. والآن سؤال آخر: هل ما سمعناه بشأن الشيخ شامل صحيح؟

— صحيح، وجرى اصطحابه برضاه ومع أسرته إلى روسيا.

— دون أن يأخذ صفة الأسير؟!... — الآن وُجّه بكر الذي كان يعرف الخبر

¹ القوسان من المؤلف.

ولكنه استغرب تعبير "برضاه"، السؤال إلى محمد أمين: إذن ماذا سيكون مصيرك يا نائب؟

- وأنا سيكون لي مصيرٌ ما بعلمكم. أدعو الله أن يبدّل بأيامكم أياماً أحسن. أهم موضوع أماننا اليوم يا بكر هو موضوع صلحنا. سأطّلعكم باللغة الأديغية إن سمحتم لي يا موفدي الأبخاخ على ما في هذه الورقة. وأنتم المخوّلون بأن توافقوا أو لا توافقوا. ولكن لا مخرج لنا اليوم غير هذا إن سمعتم نصيحتي. ولا أظن أخبار ما يجري في الشابسغ غرباً لا تصلكم... ولذا بما أننا اليوم في وضع ميؤوس منه أطلعكم على الاتفاق الذي هو سبب اجتماعنا:

"نحن - الأبخاخ، المخاتير والزعامات، كل الأبخاخ، متنفذي الأسر، والفلاحين الأحرار¹ والعبيد - نُقسم أن نكون مخلصين لروسيا حسب عاداتنا: مخلصين للقيصر الأكبر، رعايا له إلى الأبد، وننفذ ما تأمر به سلطاته، ونطيع من يكلفهم بزعامتنا، وألا نفتخر بأي جريمة أو سرقة بحق روسيا، وأن نسلّم إلى الحاكم كل من يفعل مثل هذا كي يعاقب ويُعزّم تبعاً لجرمته، وألا نساهم في ما يرتكبه المجرمون الفارون، وأن نحمي أرضنا من أمثالهم، وألا نسمح للأشرار وأصحاب النوايا الخبيثة أن يعيشوا بين ظهرانينا. وأن نسلّم الهاربين من وجه العدالة الروس فوراً إلى أقرب سلطة روسية.

وفيما نحن نصوغ هذا التعهد أعلّمنا أعلى سلطة بتطلعات شعبنا واحتياجاته

¹ ترجمة كلمة "فُقُولاً" من الموسوعة الفرنسية: (tfokolt)، أو الشعب الحر، كما تشرح. غير أنهم كانوا تابعين للسيد المالك في بعض القبائل، كما سيرد بعد أسطر في اتفاق النائب وفيليبسون، وكما في رواية خان جري للمؤلف نفسه. وقد يختلف وضعهم من قبيلة إلى أخرى.

فأبلغنا الجنرال فيليبسون كتابة ما يلي: حين يقسم شعب الأبخاز بحين الولاء لقيصر روسيا، ويؤكد هذا القسم بأربعة عشر فئ رهاً لضمان طاعتهم، فهم أحرار بناء على أوامر الجنرال فيليبسون في الاستفادة من المزايا الممنوحة من القيصر لرعيته؛ سيبقى لنا ديننا الإسلام، ولن يعارضونا في شيء، وإذا أراد أيُّ منا الحج فيأمكنه السفر، وحده أو مع أسرته، عن طريق إستانبول أو غيره؛ ولن يدفع الأبخاز ضريبة، ولن يُساق أبناؤهم إلى الجيش، ولن يُساووا بالقوزاق. وستُمنح الحرية لأبناء الأبخاز الراغبين في الخدمة في الجيش الروسي. وسيمارسون خدمتهم كسائر الجنود على قدم المساواة والعدالة. وستبقى أفخاذ قبيلة الأبخاز المتنوعة على ما هي في حريتها وفي تنوعها. وأراضي الأبخاز تكون لهم وحدهم. ولا يحق لقوى القوزاق الاستيلاء على أي قطعة أرض للأبخاز مهما كانت صغيرة. وتحمي روسيا أملاك كافة الناس بفعل سلطنتها. وكعادة الأبخاز منذ الأزل يبقى للأسر المتنفة عبيدها وفلاحوها الأحرار. وعلى روسيا أن تعيد دون مقابل كل عبد أبقي يهرب من الأبخاز. ويُمنح عرق الأبخاز الحرية في افتتاح مراكز تأديب بما يتناسب مع احتياجات إقليمهم ومع العادات السائدة. وعلى قائد جيش القفقاس ترتيب أنظمة هذه المراكز. وسيقيم الحاكم الروسي للأبخاز في مايقواب. وهذا الحاكم سيكون موفد الأبخاز إلى الحاكم الأعلى، ومُعتمد حاجاتهم وصلاحيه هذا الحاكم في التدخل هي اقراراف بعضهم الخيانة، أو من تُقدّم بحقه شكوى في سلوكه، أو ضد بعض المخاتير الذين يمثلون العرق ويُطاعون ويصدر منهم في الوقت نفسه ما يُعدُّ سوء سلوك. ونقسم على تنفيذ ما ورد في هذا الكتاب باسم عرق الأبخاز، وباسم الله، وبنيه العظيم محمد، وباسم الكتب الأربعة التي أنزلها الله: الإنجيل والتوراة والزبور والقرآن. وندعو الله أن يَحْيِي السلام على هذا الاتفاق. بسم الله الرحمن الرحيم.

أمين".

- ما ترجمته لكم إلى الأديغية وهو في هذه الورقة - يعرض محمد أمين النسخة العربية ملوّحاً بها للحضور - إن كنتم يا زعماء الأبراخ المتنفيين المدعويين باسم جميع الأبراخ، وأيها المخاتير الوجهاء، وكل من حضر اجتماعنا المصيري، مضمراً لنا الخير أو غير مضمّر، موافقين فكرروا ثلاث مرات القسم ليكون بمثابة إعلان موافقتكم.

- ولماذا لا نوافق وقد نطقتم بما في قلوبنا! - صاح أفعُت مرتوقوه الذي كلّفه محمد أمين أن يقول هذا، ووافقه شخص آخر في الجهة المقابلة، وتجاوب معه أحد المخاتير معلناً موافقته. وبدأ النقاش بين المئات الذين كانوا واجمين إلى الآن.

- مهلاً أيها النائب، يا موفد الله المبارك إلينا - صاح عُفَس - أنا من جملة من سيعاهدون غير أي لا أعرف إن كان الجانب الروسي سيعاهدنا بالمقابل... ومع ذلك سأسألك عن أمر يشغل بالي: هل سيلتزم أبناء جنسنا الشابسغ بقسَمٍ مثل قسَمينا؟

- يا براغنه! - صاح مرزيج غاضباً من بين الناس الذين يقف معهم - حتى لو لم يلدك ميشكا الذي تحمل اسم أسرته، مالك تهتم بما لا يجب عليك الاهتمام به؟ ما علاقتنا بالشابسغ؟ الآن كل امرئ ونفسه. قل ما يقولون، وافعل ما يفعلون!

- أيها الفلاح مرزيج! - انفجر براغنه عُفَس غضباً من الكلام الذي وُجّه إليه. - إن كنت تعيّرني بوالدي معتدّاً بكونك كبير حراس النائب فأنت مخطئ - هو رباني وأنشائي. ولا تستهين بأبناء قومنا الشابسغ. هؤلاء يقاومون، كما نحن، ما يحدث لقومنا من إبادة.

- صحيح، تقول الحقيقة يا أخي الصغير. - خرج الآن مرزُحوي بكر الرجل الثخين الممتلئ الذي ثبتوا عليه اسم والده المتوفى بديلاً عن النسبة، من بين من يقف بينهم بكل قوة، ووقف إلى جانب عُفس.

النائب الذي أدرك أن عاقبة المهارات سيئة أكّد على حارسه المعتدّ بجسامته: - كفى يا مرزيج! وأنت يا عُفس أتفهم لهفتك على أبناء قومك الشابغ. وأنا أتألم لحالهم كما تتألم. ولا أظننا وحدنا في هذا الشعور؛ أتوقع أن يكون لأعضاء المؤتمر أيضاً هذا الموقف. - وأضاف النائب محمد أمين مُسمِعاً الأبعاد في الاجتماع: - أبتهل إلى الله العزيز العليّ الذي نطيعه اليوم بملء إرادتنا وأضع فيه أُملي أن يجعل الشابغ ينهجون نهجنا. آمين يا إلهي. - وحين ضجّ المؤتمرون المسلمون المجتمعون في الساحة، بمن فيهم براغنه المترجم، بدعائهم امتطى محمد أمين حصانه الذي قرّبوه إليه ليظهر بوضوح أمام الحشد، وناداهم مرة أخرى ملوّحاً بوثيقة القسم: - إن كنتم موافقين على عهد الأبراخ فلنردده، كما اتفقنا، ثلاث مرات!

- وأنا عندي سؤالان قبل أن نفعل هذا أيها النائب - قال بكر متمهلاً بصوت عالٍ غليظ - ما هذه الأسماء الإنجيل والتوراة، والاسم الثالث الذي نسيته، التي تذكرها إلى جانب القرآن؟

- أيتها الجماعة؛ أقول لكم، بما أن الفلاح مرزخوي بكر سأل عن التوراة والإنجيل والزبور: هذه كُتُب الدين المسيحي. وهذه التي يُقسم عليها من يتصالحون معنا. - أجاب محمد أمين قائلاً لنفسه: "هؤلاء يجب أن نقطع عليهم طريق الأسئلة قبل أن يثيروا ضجة على طريقة الأبراخ".

- لا بأس إذن! إن كانت هذه هي الكتب المعتمدة للتوبة والقسم فأنا موافق أيها النائب - أنهى بكر كلامه - وتنازلتُ عن السؤال الثاني. ولكن كنا نتمنى

أن تُطلِّعنا على ما تنويه بشأن مصيرك الشخصي لأننا لا نخلو من القلق عليك يا أيها الموفد المبارك الذي شَرَّفنا به الله.

- سيكون مصير نائبنا وزعيمنا المبارك كمصيرنا بعدما عشنا عشر سنين معاً من المشقة ونحن نقول ما يقول ونفعل ما يفعل، وبعدها هدانا إلى الدين الإسلامي الكريم، وقاسمنا أفراننا القليلة وآلامنا التي لا نهاية لها. - أجاب برج حسن الذي لم يساهم في الحديث إلى الآن بدلاً ممَّن وُجِّه إليه السؤال.

- أما قلتُ لكم - أسرع محمد أمين الذي ما يزال يُصلِّح من جلسته على صهوة الحصان، منتشياً بالكلام الجميل الذي كان يشتهيهِ فسمعه - أنتم من أقلق لأجلهم، لا أنا. أنا سأعيش أينما كنت، سواء كنتُ في ضائقة أم كنت مرتاحاً، والله في قلبي. سيكون مصيري كمصيركم. غير أنني، إن وافقتموني، كنت أودُّ أن أشارك الشيخ شامل، وهو الذي أرسلني إلى الأبراخ الأبطال الذين أنزل الله عليهم دنياهم الفانية، ما يتحمله. أنا واثق أن الله العليَّ العظيم الذي يبتهل إليه البشر ولا يبتهل هو إلى أحد سيَّسمعنا. وسنعيش راضين بما كتبه لنا. والآن دعونا ننجز قسَمنا، والله الذي نأتمر به في قلوبنا.

جفلت الغربان التي سمعت المجتمعين يرددون قسَم الأبراخ ثلاث مرات متتالية، واهتزت أعالي الأشجار، وصهلت له بعض الخيول.

قال الجنرال فيليبسون الذي كان يعرف تفاصيل الاتفاق الكاذب ذي المهلة القصيرة، لبراغته إسلام المترجم المصاحب لمجموعة الفرسان الأبراخ المرافقين لموكب الجنرال، وهو يودَّعه:

- تعرف الروسية جيداً... وعندك اسمٌ إسلامي... - ثم أضاف مازحاً: - ونصُّ القَسَم الذي قبلتموه اليوم ينصُّ على تسليمنا أمثال والدك براغونوف الذين هربوا إليكم.

- والناس الذين توفاهم الله من أمثال ميخائيل إيزوتوفيتش، والذين تحوّلوا إلى أبزاخ وغيرّوا دينهم، ولم تسألوا عنهم، ويعيشون بين ظهرانيّنا، من رجال ونساء، ليسوا قلائل. ولكنّهم لن يعودوا إليكم ولو سلّموهم لكم... - وفي هذه اللحظة تمثّلت أمام عينيّه الفتاة الروسية نات - نات التي كان مرزخوي بكر يربّيها. وتذكر عُجْبَس ابن أخيه الأكبر عُقْس.

الفصل الرابع

أصوات المنادين المتجاوبة التي ارتفعت وقت شرب الشاي على طريق قرية (تامبي حبله) كانت تقول شيئاً واحداً: "... الروس والأبزاخ أنجزوا اتفاقاً يقضي بإيقاف سيل الدماء والعداء بين الطرفين..."، "الجيش الروسي يتراجع وتعود إلينا مراعيّنا وأراضيّنا الزراعيّة..."، "... ووعدوا بإجلاء القوزاق الذين وطّئوهم في أرضنا..."، "... افرحوا فالسلام يسود الأبزاخ!..."، "... دعونا نشكر النبي محمد أمين¹ الذي أرسله الله العلي العظيم إلينا، والذي حمانا شر الكفار، ولنبتهل إليه أن يُدِيعه على رؤوسنا..."

- ماذا يا ترى يقول المنادون ذوو الأشدّاق الواسعة؟ - ترجل مرزخوي بكر القادم من القرية المجاورة مغممماً، ولمّا لم تستقبله ابنته الصغيرة خلافاً لعادتها نادى باتجاه البيت: - أين أنت يا نات - نات، لماذا لم تستقبليني... إليه، وأنت يا ابنة آل تازة² أين اختفيت؟

¹ كذا! والحق أن ما ترجمه بعبارة "مؤدّ الله" يمكن ببساطة أن يترجم بنبية. بل إنّ محمد أفندي أحد أبطال هذه الرواية يصرّح أكثر من مرة بأنه نبي يتصل بالله. ولكي تورّع عن استعمال كلمتي "نبي ورسول".

² من تقاليد الأديغة ألا ينطق الرجل اسم زوجته، بل يكتي عنها بأيّ اسم مستعار، أو تعبير مفهوم كما هنا.

حين دخل بكر إلى الممرّ سمع من خلال باب غرفة الجلوس المفتوح:

- لا تبكي يا ابنتي الصغيرة، يا نات - نات! هؤلاء سيقولون الكثير، والله لن أسلمك لأحد!... وهاهو أبوك عائداً...

- ماذا جرى لكما أنتما الاثنان؟

- ما زلتُم تقولون اطمئنوا - قالت زوجته جائشَر دون أن تترك ابنتها ذات الخمسة عشر عاماً تفارق حضنها - رميمونا في مصيبة... ليرم الله نائبكم الذي جمعكم وجنراله الكافر في مصيبة لا مخرج منها! ألا يجب أن تفكروا في ما تقولون وما تفعلون يا مَنْ بارك الله فيكم؟

- نحن فرحون بالسلام الذي أقمناه في بلاد الأبراخ وأنت يا ابنة آل تازة تلعيننا وتدينيننا.

- يا بكر، لا سمح الله أن ألعنك؛ وهل في الدنيا فرحةٌ تساوي رؤية السلام يسود أسرتك، وأن تعيش حتى ترى فرحة أولادك؟! ولكن هذا لا ينطبق على أسرنا... - والآن بدأت الأم وابنتها البكاء معاً.

- أيّ مأتم تقيمَان؟! - جلس بعدما نخرها بدلاً من أن يُسكتهما. ثم خاطبهما بصوت أرقّ وهو يعصر سوطه في راحته: - أخبراني بمن أساء إليكما كائنًا من كان.

- ألا تسمع ما يُعلن المنادون؟!

- هؤلاء أصحاب الأفواه الواسعة لا يطلبون إلا أن يجبرونا على الفرح... مهلاً، مهلاً... - "... لما كان المجلس الأعلى للأبراخ قرر إعادة الفارين الروس إلى ناحيتنا، ناحية بلاد الأديغة، كائنًا من كانوا، سواء كانوا رجالاً أم نساءً، وبغضّ النظر عن أعمارهم، إلى أصحابهم دون مقابل مادي، فلا أحد يستطيع مخالفته..." - تصل الكلمات إلى بكر، ويشهد على ما يسمع: -

صحيح، هذا جزء من القرارات المتخذة في المؤتمر...

- تات¹، لن أذهب إلى أي مكان يا تات!- تنتزع نات - نات بقوامها الرشيق نفسها من أمها وتعلق بعنق أبيها -لا تسلّمني إليهم!

- كفى، لا تبكي يا ابنتي. وهل عجيبٌ إن اتخذوا مثل هذا القرار في الاجتماع؟... هذا لا يتعلق بك... بل بالرجال، بالرجال لابسِي القبعات... لم يبقَ أحدٌ في قريتنا منهم بعد براغنه ميشكا الذي رحل إلى العالم الآخر. أنتِ لم تكوني بلغتِ الثانية من عمرك حين وجدْتُكِ على ساحل (فَرَزَه) جالسةً على جثمان أمك.

- نعم، يا ابنتي. عبَرَ بك أبوك في تلك اللحظة المأساوية القرى القوزاقية وهو يسأل عن أسرتك، ولكن لم يعرفك أحد. لا نعرف اسم أسرتك، بل لا نعرف إلا أنك كنت تنادين نفسك قائلة: "نات - نات".

- حسنٌ أنكم لا تعرفون اسم أسرتي!... - أسرعت نات - نات بالقول وهي تمسح دموعها. ثم أنهت فجأة: - ولو لم يكن براغنه إسلام يعرف اسم أسرته القوزاقية لكان أفضل، وكذلك ابنه (زَيْش)...

- ما الذي يدفعك إلى هذا الكلام يا ابنتي؟ - سأل بكر ابنته مستغرباً ما يسمع، ونظر بطرف عينه إلى امرأته.

- وهذان، الأب والابن، رجلان، يلبسان قبعة... - قالت الصبية وعادت إلى جانب أمها.

- لهذا السبب تقولين!... - أخفى بكر ألم قلبه. ثم أضاف كأنه يخاطب نفسه

¹ التاء الأولى هي ضمير الملكية للمتكلم الجمع، بمعنى "خاصَّتْنا" أو "مُلْكُنا"، والثانية: نداء الأب الذي هو في اللغة الأديغية: "ته" بنصف فتحة، فيصبح المعنى: "أبانا" بافتراض حرف نداء قبله. ويخجل الأديغي غيرُ الطفل أن ينادي أباه بضمير ملكية المفرد: يا أبي.

بلا معنى: - هؤلاء آل براغنه، الأب عُفَس والابن إسلام، تحولوا إلى أدغيين حقيقيين حتى لم تبق ضرورة للسؤال عنهما. - وأنهى بعد فاصل قصير: - وزبش الذي أتيت على ذكره وابن عمه عُجَبَس شابان أدغيان لا يُعلى عليهما في أدغيتهما.

- وأنا فتاة أدغية! - جزمت الآن نات - نات.
- نعم، طبعاً، أنت فتاة أدغية. تفهم الله سبحانه مأساتنا فمنحك إيانا. -
قالت جانشر هذا، وانفعلت من كلامها وبكت.
- هذه الآن مبالغة يا ابنة آل تازة، اسمعا، بدلاً من جلوسكما هكذا حضراً لي فطوراً.

- ها هو حالاً. - نهضت الصبية بخفة وأحضرت الإبريق وحوض الغسيل، وقدمتهما لوالدها ليغسل يديه، وأتبعتهما بالمنشفة. وها هي تقول له وهي تضع المائدة أمامه: - ما الذي يبرّد الشاي المغلي في الموقد في ظل هذه الحرارة الشديدة، لا يزال ساخناً جداً. والبرك لا يزال ساخناً، كانت نانا غطته. وقشطة الجاموسة سميكة جداً. تفضل يا تات، بالهناء!

- هل قلتِ "الجاموسة"؟ - امتدح بكر ما سمعه مستغرباً: - ما أحسن ما لفظتِ اسمها الحقيقي¹!

- وهل نسيت يا بكر - كانت جانشر أيضاً مرتاحة لما سمعت - هذا ما كان حمونا يسمى به الجاموس.

- وجدّي كان يحب قشطة الجاموس. - لم تبق الصبية خارج نقاش الأب والأم.

¹ يريد أن يقول إن اسمها المتداول هو حرفياً: ثور الماء أو بقرة الماء.

- وأنت؟ - ابتسم بكر الذي كان يدهن البرك الساخن بالقشطة.

- وأنا أحبها!

- اجلسي إذن وكلّي معي قشطة الجاموسة!

- لا - صرخت نات - نات - لن تقبل نانا. تقول إن رب الأسرة يجب أن يأكل وحده لينزل الطعام إلى معدته. تعالي يا نانا، دعينا نترك تات يأكل على راحتته. والآن هل تعرفان ما سأقول لكما؟ توقفنا عن مناديتي بـ "نات - نات" وناديتي: نَفَسْت.

أعاد بكر اللقمة التي غمسها من الصحن الخزفي. وبدلاً من أن يقول لها "ليس تصرفاً صحيحاً أن أغَيّر الاسم الذي سماك به أبواك إلى اسم أديغي" امتدح الاسم الروسي الذي تحوّل إلى اسم أديغي:

- لا يا ابنتي، لا أعرف لماذا تطالبين تغيير اسمك وأنت تملكين اسماً جميلاً. أليس اسم "نات - نات" ما كان يناديك به جدُّك؟

- كان يُجلّسني في حضنه قائلاً وهو يمسح على رأسي: "نات - نات طفلي المدللة، أنتِ مثل لقمة طعام أو شربة ماء لي".

- نعم، نعم، يا صغيرتي. كان جدك يحملك على ظهره مردداً هذا الكلام. - لمحت جانشر لزوجها فيما تؤيد كلام ابنتها: - ربما تريد تغيير اسمها لأن براغنه عُجّس يناديها باسم آخر...

- وأيُّ اسم يعرفه هذا الثرثار عُجّس ينادي به ابنتنا؟ - سأل بكر غاضباً مُبعداً المائدة ولمّا يُكمل طعامه.

- لا أعرف يا حسرتي، يضيف إلى "نات" اسماً صعبَ النطق.

- ليس من أجل هذا نان... - قالت نات - نات بصوت منكسر، ثم حددت الاسم الذي يناديها به عُجّس حين يكونان وحدهما: - ليس فقط

لأنه يناديني "ناتاشا - ناتالا" ... ألم تسمعا ما قاله المنادون ...

- هل تسمعين يا ابنة آل تازة ما تقوله نات - نات؟ - سأل بكر وغضبه على زوجته أكبر من لومه لها، ثم واس ابنته بكلام ألطف: - لست أنت المعنية بهذا الأمر يا ابنتي، بل أنا.

" ألم تسمع ما يقوله هذا التافه عُجْبَس حفيد بُرَاغْنَه ميشكا لابنتنا الصغيرة؟! ... - يسأل بكر الذي لم يكمل فطوره وهو يتفحص قوائم فرسه. - أيُّ "ناتاشا ناتالا" هذا الذي يناديها به؟ كثيرون من يظنون أن والدي هو من سماها نات - نات. حين وجدتها على ساحل (فَرْزَه) وسألتها عن اسمها أجابني: نات - نات، واضبنا في أسرتنا على مناداتها بهذا الاسم. والآن بدؤوا حين أصبحت تتخذ قوام فتاة بالغة يعيدون إليها وعيها بهذا الاسم ناتاشا - ناتالا... وأضيفَ إليه القرار المتخذ من قبل فيليبيسون ومؤتمر الأبراخ بأن يُعاد إلى ذويه كل روسي انتقل إلى طرف الأبراخ. متى كانت نات- نات روسية؟! ليست هي بل نحن لا نتذكر الأمر... ألسنة الناس التي لا تمل من الثرثرة تُدَكِّرُ بما نسيت، وتُفْنَعُك بصدق الكذب... - لجأ بكر مع القلق الذي ألمَّ به إلى ظلّ الإسطبل. - وأنا بقيت أُوْجَل الأمر إلى اليوم والغد فلم أستطع هذا العام زيارة شجرة البلوط التي دفنتُ في فيئها المرحومة أمَّها. ولماذا أتكاسل وأمامي النهار بكامله؟ أنزّه حصاني في الوقت نفسه، وأبلغ والدته نات - نات أن ابنتها صارت صبية، وأريخُ ضميري..."

ركب بكر وخرج إلى ظاهر القرية، وحين بدا منزل براغنه إسلام حاد بسرعة عن طريقه. استقبله مختار القرية إسلام كأنه كان في انتظار صديقه الأسن:

- تفضِّل يا بكر، تفضل!

- حياك الله يا إسلام، لم أقبل أن أتجاوز باب منزلك بعدما رأيته.

- أرى في وجهك أمراً يُقلِّقك.

- ليس ما يُقلِّقني سراً. هذا موضوعٌ أذاعه المنادون في القرية... القرار الذي أُتخذ بإعادة الناس الذين صاروا جزءاً منا إلى القوزاق تحوّل إلى همّ لابتننا. تبكي، تُفني نفسها.

- أهذا هو الموضوع؟.. - تظاهر إسلام بالضحك وأردفه برأيه: - إما أن المنادين لم يفهموا على نحوٍ صحيح ما بلّغناهم إياه وإما أنهم يتصرفون كما يريدون. ثم إن رجال الدين يمارسون نصيبتهم من التضليل في الموضوع.

- الآن فهمت. - وافق بكر على تفسير المختار. - ولا أعرف لماذا لا يسكت أخي الأصغر الإمام محمد... ارتاد المدرسة، وحبّ، ونُصّب إماماً على قرية تامبي حبله فورطونا. كان الأفضل من هذا، وقد بلغ الخمسين، لو تزوج... - ما كنتُ لأسمح لك أن تتكلم على أخيك الإمام بهذه اللهجة لو لم يسمح "للإمام" التركي الجاسوس عبد الله أن يخدعه، ولو لم يقف إلى جانب نائب الداغستان القوموق¹ في ما قاله وفعله، وما لم يقله ولم يفعله... ولكن لا أعرف كيف يشمل القرار ابتكم. آه حقاً، الآن فهمت. الآن، قبل لحظات كلّمْتُ المنادين ألا يُشيّعوا ما لم يفهموه. قرار مجلس الأبراخ يتعلق بالرجال الروس الذين انضموا بأنفسهم إلى الأبراخ. وإذا كانت ابتكم فهمت الأمر هكذا فالقرار يشملني أيضاً. - سخر إسلام مما قاله بشأنه هو، واختتم كلامه: - ومع ذلك ففي اليوم الذي اختتمنا فيه مجلس الأبراخ وجّه لي الجنرال فيليبسون الذي كنتُ أترجم له، ونحن نشيّعه، الكلام نفسه.

- إذا كان فيليبسون وجّه إليك كلامه ففي القرية من يوجّه إلى نات - نات

¹ عرق بشري من أصول تركية يعيش في الداغستان. المعجم الأديغي.

الكلام نفسه... - ثم فصل بكر الذي لا يُطاعه قلبه: - لا أكتمك أن ابنكم عُجْبَسَ يناديها بالروسية ناتاشا - ناتالا.

- ماذا قلت! - سأل براغنه مستغرباً، ثم اختتم جازماً بالجواب الذي فهمه: - سأحرّم عليه من أجلك أن يثرثر متفصلاً بلغة والدي المرحوم الروسية والقوزاقية.

- كفى يا براغنه - ندم بكر على ما قاله. - لا تدعنا، وقد تقدّمنا في العمر، نتدخل في شؤون أولادنا في ما يخص كلام المنادين. اسمع، رافقي إن لم يكن لديك مانع إلى حيث أذهب.

- يا بكر، قل حين تحتاج: إمّش معي، وليس: إن كنت تريد، هكذا كان المرحوم والدك مرزخوي ووالدي ميشكا يقولان. سأركب معك، غير أنني لن أسألك عن وجهتك.

الطبيعة جميلة لأن الخريف في منتصفه تماماً. وإذا أطلت على أعالي غابة (قُجْبَس) بدت سلسلة قمم بيضاء متراففة من ناحية (طوابسه). والغابات الفسيحة التي تنزلت من هذه المرتفعات متجاوزةً حوافّ نهر شحه غواشه بعد قُجْبَس، وابتعدت إلى نواحي فرزه ونهر لايا، لا تشبع من النظر إلى الأوراق الحمراء - الصفراء لأشجارها. والشمس الباهتة التي حمّما فيظ الصيف ترتفع إلى وسط السماء. ورغم انقطاع النسيم فإنّ وقع حوافر الأحصنة ورفرفة أجنحة الطيور الفزعة منها تُسقط الأوراق الصفراء من الأشجار، فتتطاير في النسيم كالفرشات الملونة.

- هذا هو يا إسلام ما حدث لنا... - قال بكر وهما يتسلقان أحد المرتفعات الواقعة بين مايقواب وشحه غواشه حيث يضيق النهر. - نحن اعتدنا على بلاد الأبراخ ذات الجمال الأخاذ غير أن الجميع يطمعون فيها.

- وليست بلاد الأبراخ وحدها، يمكن أن تبدأ من بلاد الوبيخ إلى القبرتاي مروراً بالشابسغ والمخوش والبسلني، فتقول: كل بلاد الأدبغة مستهدفة. حتى في هذه اللحظة، رغم أننا صالحننا الجيش الروسي في الأبراخ، نتجول فيها خائفين حذرين. الحق يا بكر أيها الكبير، أريد أن أسألك: ألا يمكن أن تُطلعني، ولو على نحو محدود، على المكان الذي نقصده دون أن نُغرق أنفسنا في قضايا الأدبغة التي لا نهاية لها؟

- المكان الذي نقصده يا إسلام جزء من جوانب القضية الأدبغية أيضاً فلا تستعجل. سأطلعك لثقتي بك على سرٍّ من أسرار أسرتنا متى انحدرنا من المرتفع المقابل لنا، وصرنا بعد بضع غلوات على ضفة فرزه... - همز بكر حصانه فأسرع، ولم يتأخر إسلام المشغول بأله بالسر الذي لم ينكشف بعد. وبعدهما ما وصلا إلى فرزه، وسارا بمحاذاة الضفة بعض الوقت، ترجل بكر عند شجرة البلوط الكبيرة، وأشار لصاحبه إلى القبر الذي يبرز منه حجرٌ شاهداً صار الآن بمستوى الأرض: - هذا قبر والدته نات - نات.

- ومن يعرف قبرها؟! - صرخ براغته إسلام مما سمع. - كيف تعرف أنه قبرها؟ - ربما كان الله أرسلني إلى الطفلة نات - نات... حين هربتُ إلى هذا الاتجاه يلاحقنا القوزاق. صادفتُ الطفلة التي تجلس إلى جثمان أمها المتوفاة، أنزلتُ الأم إلى الأرض، وجئتُ إلى البيت بمن كانت تسمي نفسها نات - نات... تعال نقف في حضرة القبر لأبلغ المرأة التي تسكنه بما جئتُ لأجله. ولكن لنقرأ لها دعاء قبل كل شيء، ولنختمه بـ آمين. - حين انتهى الاثنان من الدعاء وأيديهما مرفوعة إلى وجهيهما، قال بكر لإسلام: - وأنت يا إسلام اقرأ دعاء آخر.

- أيّ دعاء؟ ألم ندعُ معاً؟

- أتكلّم على الدّعاء الخاص بقومها الروس. سمعت مرة المرحوم أباك ميشكا يلقّنك إياه وأنت صغير.

- كان والدي علّمني "يا أبانا الذي في السماء..." - ما الذي جاء بهذه المسكينة وعندها هذه الطفلة إلى نواحيننا؟" قال إسلام لنفسه، وأضاف لبكر: - أقول هذا ولكننا نحن أيضاً لا نفهم الدّعاء بلغة القرآن... - لام نفسه، ثم صرّح بسبب مجيئه إلى القبر: - أعرف أنكِ روسية ولكن لا أعرف اسمك ولا نسَبكِ أيتها المرأة التي لم تشهد فرح ابنتها. وها قد جئتُ بصحبة إسلام ابن براغنه ميشكا الذي تحول إلى أديعي صميم بيننا واعتنق الإسلام لأقول لك: ارتاحي في قبرك، وليجعلك الله من أهل الجنة! لا تقلقي على ابنتك، نحن نزيها. ومهما قاسينا من شقاء فمصيرها مصيرنا. ها هم أبناء قومك الروس والأبزاخ عقدوا صلحاً. سنعيش معاً كما كتب الله علينا لأن كل ما يجري إنما بأمره. في وقت ما في المستقبل حين تصبح نات - نات في سن البلوغ سأجيء بها إلى قبرك، وستمسح بيدها على شاهدة قبرك. وأنا أعمل ما بوسعي من أجل ابنتك التي صارت ابنتي...

- نعم، نعم. - ربّت إسلام على كتف بكر المنفعل جداً - قدّمت للمرأة المسكينة ما تستطيع دون أن تسأل عن أصلها. هيّا إلى البيت فقد مالت الشمس إلى الغروب. - وبعدما مشيا بعض الوقت لم يستطع إسلام أن يكتّم ما فكّر فيه وهما عند القبر: - ما الذي أتى بالمرأة التي كانت تحضن الطفلة التي كانت تكاد تتعلم المشي؟

- ومن أين لنا أن نعرف؟ الله وحده من يعلم. لو لم تكن في مشكلة كبيرة لما أتت المسكينة إلينا... - قال بكر لبراغنه مهموماً بما لا يعرف: - ما رأيّت وما سمعتَ يبقى بيننا يا إسلام. - ثم أكمل بعد لأيٍ: - لا أدري لماذا فتحتُ لك

قلبي... ربما لأنه كان عليّ أن أنقّس عن ضيقي، أو، لا تؤاخذني، لأن دماً
روسياً يجري في عروقك... لا أعلم، لا أعلم، الله سيفهمنا...

- نعم يا بكر، نعم، الله سيفهمنا وسيغمرنا برحمته. هل يعرف أخوك الأصغر
الإمام بهذا الموضوع؟

- نعم يعرف. طلبتُ منه أن يُقسم على القرآن - أسرع بكر بالحصان وقال
لمن ورائه: - غير أي لا أثق بأخي الذي لا أراه في السنة إلا مرتين أو ثلاثاً.
الآن كانت أشعة الشمس الغاربة هي التي تُحرق دون دخان السحابة الرقيقة
السوداء التي أسرّها في كبد السماء...

الفصل الخامس

ظهرت في بلاد الأدبغة في الشهرين التاليين للاتفاق الذي عُقد بين الأبراخ
والجنرال فيليبسون آراء وأقاويل كثيرة، فإذا أيدَّ البجدوغ والقبرتاي والبسلني
سلام الأبراخ فإن الشابسغ والويخ والساز - الأباطة اعتبروا الأبراخ مخدوعين
ومدفعين إلى الخطأ. ولم يبق في أي مضافة ولا في أي اجتماع أو مؤتمر
موضوعٌ أهمُّ من هذا. بل كلما اجتمع شخصان لم يتكلما إلا فيه.

والجنرال فيليبسون الذي وجد فرصة لالتقاط أنفاسه، والذي يقول شيئاً ويفعل
غيره لم يخلد إلى الراحة: كان يشقّ طرقاً في الجبال تحت ستار خدمة الأبراخ
البريفي النوايا. ويقتلع الغابات التي تقف أمام هذه الطرق، ويفتح الأسواق
التي يبيع ويشترى فيها سكانُ الجبال الأبراخ، والقوزاقُ سكانُ البلدات الكبيرة
المحيطة بالأبراخ. ويرسل الأطباء إلى الأبراخ إن احتاجوا، والأدوية، ولا يصرف
الأبراخ الآتين إلى المستوصفات العسكرية دون معاينتهم. وإن احتاجوا أرسلهم
إلى مايقواب. وكان حريصاً على استمرار السلم بين الأبراخ والجنود الروس،
وبين سكان البلدات القوزاقية الكبيرة وسكان القرى الأبراخ. ويحاسب كل من

يخالف القانون كائناً من كان. ولكن الحق أن كل هذه الإجراءات كانت لإرضاء القيصر الذي التزم أمامه، والقادم إلى بلاد الأديغة.

اقتنع أغلب الأبراخ بالسّر الذي يتضمنه اتفاق السلام، وكان أربعة فقط ليس بينهم أيّ أبزاسي يعرفون حقيقة الوضع: القيصر ألكسندر الثاني، والجنرال فيليبسون، ومحمد أمين النائب، وممثل القيصر في تفليس بارياتينسك. ومع أن الأخبار الأخرى التي يجري تناقلها في طول البلاد وعرضها كانت مجرد أقاويل بعضها صحيح وبعضها كاذب فقد كان الاتفاق أقرب إلى خدعة للأبراخ. غير أنهم كانوا بعيدين عن الاقتناع بالخدعة؛ كانوا كمن أحسّ بالنار غير أنه لم يحترق بها بعد.

كان الشابسغ الذين تُشوى أراضيهم على نار القوزاق، والوييخ الذين تصل إلى أنوفهم رائحة هذا الشواء أشدّ الناس قلقاً من الوضع. وجاء إلى بلاد الأبراخ مندوبان عن هؤلاء، وهما زان قوه قارباتر، وبرزج جراندوقه، برفقة ثلة من الحرس، عبّر الطريق الوحيد المفتوح الخالي من الجنود الروس، طريق طوابسه الجبلي، وتوقفا صباحاً عند مضافة النائب محمد أمين.

وفجأة طار الخبر في أرجاء الأبراخ متنقلاً من قرية إلى أخرى. ووصل بريد الخيل المتتابع من حاجخ إلى قلعة مايقواب في ساعة. وكان أمرُ الجنرال فيليبسون مختصراً:

- لا يُسمح لموفدي الشابسغ الذين يقاتلوننا بالاختلاط بالأبراخ الذين صالحونا. أوصِلوا الأمر الذي يقضي بتسليمهما حالاً إلى النائب أسيالوف. وكانت آراء الناس الذين وصل إليهم خبرُ موفدي الشابسغ والوييخ مختلفة: "ماذا يريد الشابسغ الذين لا شأن لهم بنا حتى يأتوا إلينا؟"، "وهل الوييخ

الذين لا يعرفون أين يتجهون أحسن من الشابسغ الحكوف¹؟"، "كانوا يسخرون منا حين نرتاد أسواقهم على ساحل البحر ملقّبين إيانا بالأبزاخ الطحالب²، ويسلبوننا جهازاً"، "الروس الذين تصرّفنا بحكمة فصالحناهم يفتحون لنا عبر الجبال طرقاً لم تيسّر لنا طوال عمرنا، وافتتحوا لنا الأسواق دون حاجة إلى أن نذهب بعيداً. ويعالجون مرضانا، وخفّت صداماتنا القاتلة..."، "لو سمعنا كلام زان سفري الحكيم، والد زان قاربتر، وتشاورنا في موضوع الوحدة الأدبغية لربما لم يجر لنا ما جرى..."، "والحاج برزج جراندوقه رجل حكيم عاشر كثيراً من الناس وله خبرات عميقة، وقابل السلطان التركي..."، "لا تصدع رأسي ببرزج ذي العمامة المتسخة..."، "الشابسغ المراءون والوبىخ والساز - الأباطة الجُربُ ليسوا أناساً صالحين..."

- عيب علينا - قال مرزخوي بكر لا يُطبق الجمع المتنافر الذي وجد نفسه فيه - لا تدعونا نتكلم بسوء على الضيوف الذين عبروا كل هذا الطريق الخطر. سيستأوون إن وصلهم كلامنا. سيقولون عنا إن الأبزاخ تخلّوا عن أدبغيتهم.

- ما يقوله الفلاح مرزخوي صحيح، - أيد غش مرزبج بكراً، وأبدى رأيه: لنصبر بشأن ضيوفنا، لا تدعونا نتكلم عليهم بسوء! هؤلاء أمامهم مهمة؛ لم يأتوا ضيوفاً في إقامة طويلة. أظن أن فطنة نائبنا، وهو السبب في الصلح الذي دشّنه الأبزاخ المسلمون بفضل الله تعالى، وراء محبتهم إلينا.

- هذا حسن يا مرزبج، نحن مرتاحون إلى أن الله العلي العظيم الذي نبتهل إليه ولا يحتاج هو إلى أحد كلّف نائبنا بهذه المهمة. - قال غمشت مولى الذي لم

¹ كان من المكونات الرئيسة للأدبغة.

² ربما يقصد باللقب كون الأبزاخ فردين كالطحالب التي هي مجموعة خلايا تدوم الواحدة إلى جانب الأخرى بلا جذور ولا سيقان ولا أزهار.

يكتف باعتناقه الإسلام بل ارتدى القلنسوة البيضاء المسبغة على أذنيه، والتي تشهد، لا على على صحة إسلامه فحسب، بل على عمله بتعاليمه. - ولكن يسرنا أن نُطْلِعنا على ما جاءنا به ضيوفنا؛ ألسن يا مرزيج موضع ثقة نائبنا محمد أمين وساعده الأيمن. وسيرضى الله عنك، ويغمرك برحمته.

- بعد الله سبحانه وتعالى، وبعد موفده محمد النائب، وبفضل المهمة التي أسندوها إليّ في شأن قضية الأبراخ، نحن أيضاً نعرف طرفاً من الموضوع - قال مرزيج معتداً بنفسه، قائلاً في سرّه: "توقعت أن يسألني هذا المنحوس، ضيف كل الموائد، ما لا يخطر لغيره من الناس"، واختتم بكلام يوحي بالريبة والخوف: - ولكن الأفضل ألا تسأل عن سر رجال البلاد الأربعة الذين يتداولون في المضافة أسرار البلاد. لن تكونوا بعيدين عن الساحة حين يحتاجونكم أو يستشيرونكم.

- نعم يا مرزيج، نعم أيها الكبير. أنت فطيرٌ، تختلف عنا. استفدت كثيراً من حكمة النائب. - لا يزال الفلاح الذي ثبت عليه اسم "مولي" يسأل - لا أعرف رابع الذين سمّيتهم رجال البلاد الأربعة. من هو يا تُرى؟ - من طرف الشابسغ زان قوه، ومن طرف الوبيخ برزج، ومن طرف الأبراخ أسبالوف النائب؛ أيكون من نسيت ذكره هو ممثل مختاير الأبراخ جاري برج حسن بي؟
بدأ بعض الفلاحين الذين رأوا غش مرزيج ذا الأنف الكبير والعينين الواسعتين والشفتين الغليظتين والذقن الناتئة يزداد سواداً على سواد يتعدون خلسة. وفي اللحظة نفسها اضطرب حشد الأبراخ الذين رأوا مجموعة من الجنود الفرسان الروس قادمةً من جهة حاجخ، محتارين في تأويل سبب ظهورهم. ونادى داور بجز الحارس على درج المضافة العامة:

- إهدؤوا؛ لا خطر! وأنت يا مَرْتوقه اصحب برائنه إسلام ومرزخوي بكر

وغش مرزيج واستقبلوا الروس بسلام. - أوكلَ مهمة استقبال الضيوف إلى متنفذ آل أقمعت، ودخل هو إلى غرفة الضيوف متمهلاً.

- كان كبيرنا زان قوه سفري يقول إن العالم يسير على قوانينه الواضحة - توقف داور بجز عند الباب كي لا يقطع كلام الحاج برزج، مع أن الخبر الذي وصل إليهم كان مما لا يُتوقع. - النهار يتبعه الليل، والشمس الغاربة تُشرق من جديد. وبعد الشتاء ربيع، والصيف يتبعه الخريف، والثلج يسقط، والمطر يهطل، وليس الرعد والبرق دائمي الحضور. ما يحدث في العالم كثير... والأديغة الذين لهم لغة وعادات وتقاليد واحدة، العرق المفتت الذي يأنف من الوحدة والاتفاق، جزءٌ من هذا العالم... نعم يا قارباتر قلتَ كلاماً جيداً. حتى اللقالق التي تهاجر إلى الجنوب تعيش متحدة متعاونة راضية بمن يتزعمها، مطبوعة له. ولولا هذه الوحدة والانصياع لناهت اللقالق في الطريق، وتبددت وسط السماء. وهذه الوحدة يا قارباتر هي التي كان يسعى إليها والدك سفري طوال عمره. انظروا إلى أين أودى بنا ما لم نستطع تحقيقه.

- أوافقك يا ضيفنا العزيز في أن الدنيا التي بمتحننا فيه الله العلي العظيم لها نظام واضح. - قال أسبالوف النائب لنفسه مبتسماً في سرّه: "أظن هؤلاء جاؤوا ليحاسبونا لأنني دفعتُ الأبراخ إلى أن يفعلوا ما لم يستطيعوه طوال عمرهم، ولكن من جهتي أنا لن تستخلصوا شيئاً مني. راحلة طريقي جاهزة" وأنتم أيضاً تعرفون أنه لا يجوز لمسلم أن يتناسى أن كل ما يجري إنما يجري بعلم الله العلي العظيم. ولأن الأبراخ أدركوا هذا فقد منحوا قضية السلم الأولوية، وجعلوا من أنفسهم مثلاً لأبناء قومهم الأديغة... لن أكنتم أني أنا وزان قوه سفري - ليجعل الله الجنة مأواه - لا تتفق أقوالنا وأفعالنا، بل كنا يُشهر أحدنا السلاح في وجه الآخر. ولما كان الله هو من يقمّ الحق فليغفر لنا كلينا... -

قال النائب، ثم أضاف: - ومع ذلك فقد بقي في ذاكرة الأديغة مثال الرجل الحكيم. ولو أصغينا لأرائه لربما ما وصلنا إلى ما وصلنا إليه. ولكن لا تدعونا نعتبر ما حققه الأبراخ خطأً مع أن الأديغة يفضلون الرأي الخمير على الرأي الفطير. وأنت يا زعيم مختير الأبراخ برج حسن بي لماذا لا تساهم في النقاش؟ - وماذا أضيف واليوم الذي سيظهر فيه الحقُّ ربما ينتظرنا... - قال برج حسن بي الذي لم يكن يطيق كلام النائب.

- نعم يا حسن بي، نعم - قال النائب كأنه مستعد للإجابة عما سمع - أمامنا جنةُ الله الأحد الذي نبتهل إليه أن ينظر إلينا بعين الرضا وجهنمه. ما الأمر يا داور؛ هنالك ما يُقلق؟

- ظهر عدد من الجنود الروس في ظاهر البلدة فأرسلتُ عدداً من فرساننا بقيادة أقمعُ مرتوقه لاستقبالهم. وأمرتُ العامة المحتشدين أن يكونوا مهذبين في ملاقاتهم.

- حسناً فعلتَ يا داور. ماذا ينوون يا ترى؟ أليس عجباً أن يتصادف مجيؤكم ومجيؤهم؟!... هيا جددوا المائدة! وهؤلاء سنستقبلهم حسب عاداتنا.

- لا أيها النائب - جزم زان قوه قارباتر - لم تأت إليك لنجلس على المائدة مع موفدي جيش القيصر الذي في الأديغة على يديه. فهمنّا أنه لاخير في مجيئهم. ومع ذلك، فبعدما سمعنا وقع حوافر أصدقائك أعدائنا، لن ننقض عاداتنا الأزلية إن وافقني صاحبي الأسنّ، لأن الأديغة يرون أن الضيف يقرر متى يأتي، والمضيف يقرر متى ينصرف.

- أنت على حق يا قارباتر - وافق الحاج برزج رفيقه الأصغر سنّاً، واختتم مبتسماً: ولكننا لن نصم النائب الذي نحن في ضيافته بالقول المأثور - "من يكره الضيوف لا يُنضج لحمه"، ولا نشكّ في قولهم "ضيف الأديغة في مأمن".

فإن تصرفنا كما سبق وقلّت يا قارباًتر فسيُعيب علينا الأبرّاح، ولن يقبل مضيّفنا سلوكنا.

- أهملّت في ما قلّت أيّها الحاج، يا من جعل الله يومه منّةً، قولهم "الضيف لا ينزل على ضيف آخر"¹ وأضيفُ إليه "المضيف يكره استقبال ضيفين معاً كما أن الضيف لا يحب ضيفاً آخر معه". ولكننا مهما تصرفنا معهم وتصرفوا فلن نقرّانكم بهم فنقتل روح الأدبِعة فينا. هيا يا داور لا تتأخروا في معرفة نوايا الضيوف غير المنتظرين!

رجع داور بجز قبل أن يمضي وقت طويل إلى الغرفة.

- أنت أيّها النائب مقصودُ مجموعة الجنود الروس الذين لا ينوون التّرجل عندنا، ويقودهم الكابتن الركن سيرديوكوف.

- وأمثال هؤلاء العدميّ العادات لا يجوز استقبالهم... - استأذن النائب ضيوفه قائلاً لنفسه: "لا شك أن أحدهم أبلغهم باستقبال ضيوفنا": - إذا سمحتم لي ولم تؤاخذوني فسأقابل الكفار الذين على باب الدار. وأنت يا حسن بي أرجو أن تشاغل ضيوفنا الأعزاء.

كان الجنود العشرة يقفون في ثلاثة أرتال يتوسطها القائد كما وصفهم داور. والفرسان الثلاثة المرافقون لأفمغت مرتوقوه يقفون أمامهم على صهوات خيلهم. والعامّة يملؤون الفسحة المقابلة لمنزل محمد أمين. والنائب يقول لسيرديوكوف الكابتن كأنه يراه لأول مرة:

- ترّجل أنت أيضاً لأنّي أنا على الأرض فأقضي واجبك.

- هذه الورقة المتضمنة الاحتجاج - قال الكابتن بعدما ترّجل - كتبها إليك

¹ يعني تحييد انصراف الضيف الأول للجيء الثاني.

الجنرال فيليبسون الذي أقام الصلح مع الأبراخ.

- استلم يا إسلام الورقة التي أرسلها الجنرال فيليبسون، وترجمها لنا على مسمع من الجميع إذ لا سرّ بيننا.

- "هذا الاحتجاج موجه إلى زعيم الأبراخ محمد أمين أسيايوف النائب. -
يترجمُ براغمته إسلام إلى الأديغية - وصلنا خبرُ استقبالك أعدائنا الذين لم
يصالحونا زعماء الشابسغ والويخ فنبيلغك أن زعيم الأبراخ المتصالحين معنا لا
يحق له أن يفعل مثل هذا. وعليك أن تُبعدَ حالاً ضيوفك الذين ينقضون
صلحنا من إقليم الأبراخ على مرأى من موفديّ لأننا نعرف أنك غير قادر على
تسليمهم لنا. ونلجّ عليك ألا تكرر مثل هذه التصرفات. وانتظر الجواب.
التوقيع: قائد جيوش شمال غرب القفقاس فيليبسون"

- هل سمعتم أيها الأبراخ أننا لا يجوز أن ننقض اتفاق الصلح؟ - سأل محمد
أمين مُسمِعاً المحتشدين على الباب، والأبعد، والضيوف في الغرفة، ثم صحح
الموقف بسرعة: - ولكن هذا لا يعني ألا يختلط بنا أحد، ولا ألا تزوروا أنتم
أقرباءكم وأبناء عشائركم وأهاليكم الأبعدين. ليس الأبراخ من الناس الذين
يغلقون أبوابهم على أنفسهم ويحبسونها في بيوتهم، ولا ممن يقاطعون جيرانهم، أو
ينزلون عن أبناء قومهم. إنهم أناس صالحون، يُعزّون الضيف، ويقولون الحق.

- أنت على حق يا نائب - وافقه أحد الفلاحين.

- وهم أحرار - أضاف غيره.

- وليسوا محرومين من الرجولة!

- لا يصالحون الكفار بل يقتلونها.

- اهدؤوا لحظة أيها الأبراخ يا أمة محمد! - رفع النائب يده في وجه الناس
المتوترين، وتوجه إلى موفدي القيصر:

- أسمعون هؤلاء وتروهم؟... جواب هؤلاء هو ما ستنقلونه إلى من أوفدوكم.

- ونادى أقمعت قائلاً لنفسه: "يجب أن أنجو بجلدي حالاً من هؤلاء، لا يجوز أن أقيم فيهم مزيداً من الوقت" - عبروا بمؤلاء سالمين إلى خارج الإقليم.

- وحين عاد النائب أسياالف إلى الغرفة برأ نفسه أمام برج حسن مخفياً ما يعتمل في قلبه، متظاهراً بالندم على الصلح الذي أقامه مع الجيش الروسي: - ما كان يجوز الوثوق بجيش الكفار لو كنت أصغيت إلى نصائحك أحياناً يا حسن بي، يتدخل في ما يعنيه وما لا يعنيه... - ثم توجه بالكلام إلى الحضور:

- لا داعي للقلق أيها الضيوف. اطمئنوا. لن نتصرف كما يطلبون منا. سمعتم ما قال العامة الأبراخ، ونحن نؤيدهم. ولكن حتى لو لم يكن إلا العيب فقد جعلني ما حدث أفكر في وجود جواسيس بيننا. سنتعامل مع هؤلاء ما إن تتخذوا طريقكم. لو توقفت أيها الضيوف الأعزاء، ولو لم ينصرف العامة لجعلتكم تتحدثون إليهم. والأفضل لو استطعنا جمعكم بمخاتير القرى... نحن الأبراخ قدينا أنفسنا بأنفسنا على ما يبدو، لم نعد أحراراً في ما نقول أو نفعل في بلادنا.

- لا داعي للقلق كما هو رأيك يا محمد أمين فلا تلم نفسك إلى هذا الحد. - قال برزج الحاج الذي يعرف حُبث محمد أمين - نعرف وضعكم، وقد تفهمناه. كان الأفضل لو اتجهتم إلينا قبل أن يصدأ القيد الذي قيدتم به أنفسكم دون أن تنتظروا انكساره من تلقاء نفسه. هيا يا قاربتر، سنركب طريقنا والنهار أمامنا. لا نعرف ما يجري في نواحيها منذ البارحة.

- لا تظنوا أننا مللنا منكم، وأننا نطلب منكم الإسراع في الرحيل إن قلنا لكم رافقتكم السلامة يا ضيوفنا الأعزاء. دنيانا التي نعيشها هي دار ابتلائنا من الله سبحانه. - قال النائب دون نفاق وإن كان ارتاح لما سمعه من الضيوف. ثم

توجه إلى برج وقال له: - دون أن نثير الشغب يا حسن بي أنا سأشيع الضيوف، وأنت تابع مهام المختار التي تُشيع الهدوء في صفوف الأبراخ.

الفصل السادس

- لماذا احتشد كل هذا العدد؟ حتى الطريق لا يسعنا! - قال النائب وهو يودع ضيوفه إلى الطريق السري الذي يعرفه هو - لبيب مرزيج إلى جانبي رقيقاً، وليُعد الآخرين. - وحين وصلوا إلى الطريق الذي يريده بعدما مشوا قرابة نصف ساعة، دَلَّ الضيوف على الطريق باختصار: - لن ندخل في مراسم الترحيل والمصافحة يا برزج ويا زان قوه. أدلّكم على الطريق الذي لا يعرفه غيري لأننا مسلمون بيننا ثقة متبادلة. ستصلون مرتاحين إلى شاطئ بحركم إذا سرتم بكل جدٍ على هذا الطريق حتى تغيب الشمس الحمراء وراء جبل آزشت. مع السلامة، لتبقوا في صحة جيدة. مَنْ غَيْرُ الله يعرف متى نلتقي ثانية؟ وأين سنجتمع إذا لم يكن أحد غيره يعرف الطريق الذي خطّه لنا؟... - استدار محمد أمين فجأةً بحصانه وأسرع قائلاً لنفسه "حين جمعني الله الأحد إلى إخواني في الدين، لا في الأصل، الأديغة - الأبراخ فعلتُ لأجلهم كل ما استطعت بما أمدني من قوة. وما تحقّق لي كثيرٌ، وما لم يتحقّق ليس قليلاً... ومن أين جاء الكفار الذين هاجمونا؟... وما أقواهم! طردوا الفُرس الذين احتلوا القفقاس، وقربوا إليهم الكُرج¹ والأرمن. واحتلوا بلاد الشيشان والداغستان وغزوا بلاد الأديغة باتجاه البحر الأسود... لا أقول هذا عن ضعف في قلبي؛ فافهمي وارحمي يا إلهي العظيم. لا أمل لي غيرك وإن أخطأت في ما أهدف إلى فعله وفي ما سأفعل. لا بأس أن يكون مصيري مصير موفدك الشيخ شامل... لا

¹ سكان جورجيا.

أعني بهذا أني لا أتألم لمصير الأبراخ السليمي النوايا الذين وزعت فيهم شبابي ومعتقدي، ولا أنهم خانوني. من عرف، وكيف كنا سنعرف أن كل ما حدث لنا كان سيحدث؟ وكما فهمتُ الآن متأخراً لم أفكر في أن أجد في تركيا التي كانت تخدعنا وتُضللنا مكاناً آمناً. والآن ما شأن روسيا التي سأُتجه إليها؟..."

- الشمس غابت يا نائب، والطبيعة هادئة تماماً... - قال غش مرزيج، فصحا محمد أمين من أفكاره.

- ماذا قلت يا مرزيج؟ نعم، والشمس غابت، والدنيا هادئة... أظن أن ضيوفنا وصلوا إلى مرتفع طوابسه. وكيف سيعرف هؤلاء الأديغة القلقون ما ينتظرهم في المكان الذي يتجهون إليه من نار الحرب الهائلة؟ هذا هو ترتيب دنيانا العارية يا مرزيج: تغيب الشمس فيظهر القمر، وتحتشد النجوم في السماء. هذه المصاييح الخافتة أليس مصدرها قلعة مايقواب؟... تعال لندخل إليها. ونكسب ودّ الجنرال فيليبسون الذي يحفوننا اليوم. ولكن يا مرزيج، بما أننا أنت وأنا نثق أحدهنا بالآخر، فأنت لم تر شيئاً ولم تسمع.

تنصّت الفارسان حين اعتليا طرف مرتفع مايقواب: مع أن كل شجرة صامتة في قلب الغابة تخفي وراءها خطراً فهما أيضاً لا يصدران صوتاً سوى صوت تنفسهما. وتُهرّ شحه غواشه الهائج يشبه حياة الأبراخ المضطربة. وتصدر من الضفة الأخرى بعض أصوات الكلاب. وتبدو المنعة الروسية من بين ألسنة النار الموقدة إلى جانب المراصد الثلاثة العالية.

حين خرج الفارسان من غابة المرتفع ووصلا إلى ضفة النهر اعترضهما المستطيلعون القوزاق الثلاثة:

- توقفاً، من أنتما؟

- "آزشت" - حين قال لهم النائب بكل برادة كلمة السر فتحو لهما الطريق،

وذهب بهما الفارس القوزاقي الثالث إلى باب الجنرال فيليبسون مع عدد من الفرسان.

- كنت واثقاً أيها النائب من مجيئك، ولكن ليس هذا المساء. - استقبل الجنرال ضيفه الليلي بفتور مع أنه كان سعيداً بقدومه.

- لو كان كل ما نشتهي في ديانا الفانية يجري كما نريد أيها الجنرال... - بدأ النائب محمد أمين أسيايوف يناور حول الجواب، واختتم بالمرجح: - من كان يعرف أن زعماء الشباب والويخ سيأتون إلينا. وأن تُوصل إلينا احتجاجك في وقت قدومهم تماماً... - ثم أضاف متصنعاً المزاح: - تعرف على ما يبدو يا جنرال كل ذبابة تطير في الأبراخ.

- بدأت معرفتي بالأمر منذ هذا الصيف يا زعيم الأبراخ - ردّ فيليبسون بالمزاح. - ولكن علينا أن نعرف أيضاً كيف ستتصرف معنا حبات نُدفُ ثلج الشتاء، وكيف سيتعامل معنا الأبراخ الذين سيثير دفء الريح قلوبهم. ولما كان كلُّ منا موضع ثقة الآخر فسأقول لك ما عرفت من أمرك اليوم: لم يعد الطريق الذي عُدت به بضيوفك سراً، لاعليك ولا علينا.

- عرّجتُ عليك يا جنرال لأني توقعت هذا منك. ولكن لماذا نصدع رأسينا اليوم بما لم يعد له قيمة. هناك طرق سرية أخرى تتفرع من جبال الأبراخ... ولا أظنك تجهلها. أنا قمْتُ بما يترتب عليّ من ناحيتكم. وما يشغل بالي اليوم هو كيف سأفارق الأبراخ الذين تزعمتهم عشر سنوات. فهمتُ يا غريغوري إيفانوفيتش ما تريد أن تقوله. لا أستطيع ولو أسرّني الآن أن أحمك بسوء التصرف معي، ولكننا كلينا نعرف أن الأبراخ لن يقبلوا منك هذا الإجراء. وكما كنا اتفقنا قبل إبرام الصلح، فلو أخرجتني من بينهم قائلاً: "يكفي ما تزعمت الأبراخ الذين لست منهم" لتوجهتُ إليكم وضميري راضٍ بما أقول وأفعل.

وأرجو أن يفهمني الله ويرحمي في هذا السلوك.

"ما جرى لهذا الجالس مقابلي ينطبق عليه قولهم: "في أوقات الضيق كلُّ وما ينقذ به نفسه" - ابتسم الجنرال فيليبسون - الشيخ شامل الذي أسرناه، وهذا الذي أمامي يتصنع الإمامة ألبا علينا معظم سكان إقليم الأديفة، شمال القفقاس باسم الحرب الدينية، والآن بعدما أخفقا يتوسلان إلينا. وكما يقول الأديفة أنفسهم "لا تخرج ولا تدخل ولا تقَع عيني عليك وأنت في البيت"، أو إذا أردت تعبيراً أدقّ يريد أن يخرج من الموقف وحالُه "نضج لحمه ولم يسودّ سيخه". ونحن قادرون أن نقدم لك مثل هذه الخدمة دون أن نخسر الكثير. من حسن حظك أنك أطعنا متحلياً بالفطنة والخبث في ما يعود عليك بالفائدة، فحملت مرؤوسيك الأبخاز على إطاعتنا في "قضية الصلح". ولو أطلعناهم الآن على حقيقتك وإيمانك الكاذبة لمزقوك إرباً إرباً. ولكننا لن نخدم بأيدينا أساس الجسر الذي أقمناه. أقمنا الجسر معاً ولبيق على رأسي عصوبنا الخير المرئي، والشرّ الخفي... إنه يحمي بنا في الوقت الذي يُعزّه فيه الأبخاز. وسأقول له ما أعرفه عنه في هذا الشأن".

- أظن أيها النائب أن الأبخاز مرؤوسيك يعاملونك كما تعاملهم؟ - سأل فيليبسون طارق الليل.

- لا أعرف لماذا تقول هكذا أيها الجنرال. - جفل محمد أمين من السؤال المفاجئ، وأعاد السؤال بسرعة، ناطقاً باسم المضيف، وبصوت أدعى إلى الثقة: - أهنك مشكلة ثارت من ورائي ولا أعرفها يا غريغوري إيفانوفيتش؟ - لأني أتساءل: من يعرف إن لم يكن هناك مثلُ هذا... نحن في دنيا لا نعرف فيها ما سيحدث في يومنا، دعك مما سيحدث غداً.

- أنت على حق في هذا يا جنرال. أوافقك الرأي. من كان يعرف أن الأبخاز

الذين عاشوا عمرهم أحرار القلوب والعقول سيصالحونكم؟ حتى أنا لم أصدق حتى حدث ما حدث. كما يقال: المضطر يتسلق ضفة النهر العمودية، فلا أقول إنه ليس بين من طوّعتهم من لا يحبني، ومن لا ينظر إليّ شزراً، ومن يصفني بالغريب. ولذا، ولأن من كسبوا القضية ينظرون إلينا بعيون مختلفة، كيف لي أن أعرف ما سيقدره هؤلاء بحقي غداً أو بعد غد. أودّ أن أفارقهم دون مزيد من التأخير.

- ماذا تتأمل منا أيها النائب في شأنك؟

- سأجمع هيئة المخاتير يوم الجمعة القادمة، ولذا أتمنى أن تخبروها في ذلك اليوم أنكم تأخذونني من بينهم كما فعلتم بالشيخ شامل. ولن يخرج الأبراخ عن طاعتكم في ما ستقررونه بشأني لأنهم يفتخرون دائماً بأن تستشيرهم. وإذا كان الأمر بيدي فسأرافقكم حالاً على طريق بطرسبورغ على حصاني.

- والأسرة؟ - بدا من صوت فيليبيسون قلقه الشخصي على أسرته هو البعيدة.

- ستبقى أسرتي بين الأبراخ وهي منهم في الأصل. - أجب باختصار النائب أسياولوف الجاهز لمثل هذا السؤال، ثم صحح التعبير: - وهذه لن يسمح الله أن أهجرها. لا بد أن يجمعني بها يوماً ما. إن شئتم دعوا الأبراخ يصدّقون أبي أسيركم... - أنهى محمد أمين الآن بصوت أخفّ.

- لا، يا نائب - أقفل فيليبيسون المسألة غير المنتظرة - لا تدعنا نقترف هذا الخطأ. سنخسر ما قلنا وما فعلنا إذا سمع الأبراخ كلمة "أسير". لا أهمية لمن يودّك ومن لا يودّك ما دمت زعيم الأبراخ. ستدعى إلى سان - بطرسبورغ لحل موضوع ما يريده الأبراخ وما لا يريدهونه.

- هذا حلّ جيد يا جنرال. سأتصرف كما تقررون. لا أريد منكم إلا أن تعبروا بي نهر بشره.

- لن نوصلك إلى نهر بشزّه وحدنا - طمأن الجنرال النائب الذي كان يسمي نفسه الأسير. - سنجعل الأبراخ يشيعونك إلى النهر برفقة مئة فارس.

- هذا رقم كبير يا جنرال. - اختتم النائب الذي عادت إليه الروح مازحاً مع الجنرال - حسناً سنرى ما يأمر به الله.

- وهذا صحيح. ونحن سندعو الله من أجل أن يحقق لك كل ما تريد. وسنعضدك. ولكن من يصلح زعيماً للأبراخ من المقربين إليك؟

- لو سألت أي رجل من الأبراخ، بمن فيهم حارسي مرزيج، - ابتسم محمد أمين - لما وجدت بينهم من يعترض. لهذا كان الشيخ شامل أرسلني إليهم حين زاروه في الداغستان على شكل وفد من زعمائهم... برج من بينهم رجل حكيم فطن، وخبيث، ولكنه غير أهل للثقة. وداور وأفمغت وتسي ليسوا أفضل منه... والحق يا جنرال ما حاجتكم إلى زعيم ذكي؟ ألا يكفي أن تختاروا من بينهم صاحب قبعة كبيرة يفخر بنفسه إن أشار بإصبعه إشارة مهينة؟...

"لم نعد نريد شيئاً إلا أن تفارق الأبراخ الذين يسمونك بالداغستاني القوموق"¹ - صافح الجنرال النائب مودعاً وهو يكظم غيظه - لا تعلّمنا ما يجب أن نفعل وما لا نفعل في حين أن ما على لسانك غير ما في قلبك. تسخر من الأبراخ معتقداً أنه ليس بينهم من يصلح أن يحل محلّك لأن غايتك لم تتحقق... لو لمّحنّا لهم مجرد تلميح إلى خداعك لهم لاستلوا روحك ولو لم يبق إلا صاحبك مرزيج ذو الرأس الهزاز. ولكننا لن نضّر أنفسنا بأن نقحمها في هذا الموضوع. المكان الذي سنصحبك إليه اتّسع لكثيرين من أمثالك. ستجد أنت أيضاً نوعاً من الملجأ..."

¹ تسمية النائب باسم قبيلته الداغستانية على جاري العادة بمناداة الشخص باسم أسرته أو عشيرته.

- مع السلامة يا نائب - قال فيليبيسون لضيفه الليلي كأنماً حقيقة مشاعره نحوه، وابتسم له - لا أظنك تحتاج إلى مرافقين من الفرسان في نواحيننا.

- إن قلت لك نعم - لا تجرّني إلى الخطأ يا جنرال - لن يقبل مني ليلي المظلم وطريقي السري... - مزح النائب مع فيليبيسون، وحدد بصوت أهدأ اليوم المتفقّ عليه: - الجمعة القادمة موعدنا.

الفصل السابع

السفر غيرُ السري لمحمد أمين قَسَمَ الأبراخ - على غير ما توقع - إلى فريقين: المحتشدون على ضفاف نهر شحه غواشه، ونهر فُجْبَس، ونهر فَرَزْبَشه فريق؛ وأهل توبا المقيمون في الجبل، وسكان طوابسه الواقعة على الشاطئ فريق آخر. الأولون الذين صالحوا جيش القيصر المتمركز قريباً جداً منهم، وإن كانوا يعيشون اليوم في سلام، مهمومون بما سيحدث لهم غداً. وهذا القلق يثير فيهم أقوالاً متفاوتة. والفريق الثاني الذين وصلتهم أخبار الجيش المعادي والصلح قِيلاً عن قِل يعيش أكثرهم ، ولا يعرفون بعدُ حقيقة العدو ، يعيشون وأملهم ومِنَعَتُهُم هما انعدام الطرق إلى أماكن سكنهم. وهناك من لا يهتمهم شيء مهما جرى في الأبراخ ما لم يمَسَّهم أنفسهم.

ولكن أغرب شيء هو أن الطرفين - ومعهما الطرف الثالث - وإن اتفقا في الاجتماع الأعلى للأبراخ الذي عُقد اليوم لمناقشة موضوع محمد أمين، في جو بارد كثير المطر، اختتموا يومهم دون أن يحْمِلُوا الأمر ما لا يحتمل، بصلاة الجمعة بإمامة محمد أمين نفسه.

- حياكم الله أيها الأبراخ، أنا راضٍ عنكم - خاطبهم محمد أمين ذو الواحد والأربعين عاماً بصوت حادّ ، كأنماً قلقه من الرحلة الطويلة التي تنتظره، ومن الاستقبال المتوقع له حيث يذهب. ثم استراح وأراح السامعين قليلاً، وأضاف:

- لينشر الله بينكم الوفاق، ليكن الله دائماً في قلوبكم؛ إنه رحيم. أعزّوه؛ من يسكن الله قلبه فالجنة بانتظاره. ومن ينسه فطريقه سراط جهنم الضيق. الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر! - كرر ثلاث مرات متتالية، وأنتهى ندائه: - أنا حان موعد رحلتي وهؤلاء الفرسان الكفار المودعون - ونظر باتجاه الريف الذي أقسموا فيه على الوفاء للاتفاق، وقال:

- لن ندعهم ينتظروننا.

- مع السلامة يا نائب، رافقك الحظ السعيد! - قال أحد العامة المكلف بأن يقول هذا.

- أتدعو لأجله بعدما شتتنا؟! - رد عليه غيره.

- أيفرقنا من يتابع أمور الأبراخ؟.. - سأل حزيناً بلاخوه مزحج¹.

- أسمع ما يقول هؤلاء؟ - قال تسي حاترباي لبرج حسن غير متحمل ما يسمع.

- "لا إله إلا الله" - ساهم غُمشت مولى بالشعار الديني. ووافق مرزيج بصوته الأجبش. ثم انضم إلى الجوقة غيرهم.

ظل الفرسان الأبراخ المودعون يزدون، وأصواتهم ترتفع إلى أن تجاوزوا مرتفع حاجخ. حتى إذا صاروا على الطريق القصير المؤدي إلى (فَرْزَبْشه) همس مرزخوي بكر في أذن براعنه إسلام:

- كفى ما مشيناه يا براعنه مودعين النائب الذي لا خير في قلبه ونحن نردد الهتاف غير النابع من قلوبنا، مؤذنين حناجرنا.

- صحيح يا أيها الكبير، أوافقك. ولكننا لا نردد الهتاف الديني لأجل النائب،

¹ قد يكون اسم مزحج تحريفاً لمصعب أو مذهب لأنه ليس في الأدبغية عين أو هاء أو ذال.

وسنعود إلى تامبي حبله والله في قلوبنا. من يا ثرى هذا الفارس الذي يجري
نحونا دون وعي؟

- انظر إليّ ثم إليه تعرفه! - غمغم بكر الذي لا يريد أن تقع عينه على الفارس
المرتدي عمامة زرقاء.

- لماذا أنتم واقفون هنا بعدما انسلتم من الفرسان المسلمين الذين يشيعون
موفد الله العزيز؟ - تسمّر الأفندي أخو مرزخوي محمد أمامهم، وسألهم معتبراً
موضوعه هو الأهم.

- حصاني يعاني من ألم في حافره... - قال بكر باسماً لأخيه الأصغر.

- حقاً هذه مشكلة كبيرة في الحصان... وأنت يا براعنه؟

- وأنا انقطع حزام سرج حصاني.

- هذه المرة، أيها المسلمون الذين أدعو الله لهم أن ينفعهم، لا أستطيع أن
أنفعلكم. من الضروري أن ألتحق بثلة الفرسان المشيعين للنائب. الله الرحيم لن
يقطعكم في منتصف الطريق، سينظر إليكم بعين العطف. - ألق محمد أفندي
بحصانه، وقال لمن وراءه: - أتنما لا تُطيعاني ولكن لأجل مثل هذا الموقف
أقول لكما: ليكن الله في قلبكما دائماً، لا تنسيا ذكره...

ركب بكر وإسلام غير عابئين بما خاطبهما به محمد أفندي الجاري وراء الركب
المشيّع، وسلكا طريق قريتهما. ولم يكونا وحدهما: كان في سفح المرتفع فرساناً
أُحاداً أو مثنى يعودون.

كان بقي على محمد أمين قرابة ثلاثة وعشرين يوماً ليقطع طريقه إلى سان -
بطرسبورغ. ولم يكن يعرف إن كان سيلتقي بشامل أم لا، ويأنف من أن يسأل
في هذا الشأن الضابط سمولينسك المكلف بالموضوع، والذي لا يخالطه كثيراً بل
يزداد تيهاً عليه يوماً إثر يوم. وحين يأخذه النعاس كان الأبراج الملتحون

المشحونة قلوبهم موضوع أحلامه دائماً.

الفصل الثامن

لم يكن مضى أسبوع على مفارقة محمد أمين أسيايوف بلاد الأبراخ حين نشب صراع الزعامات فيها. برج حسن وداور بجز يساندهما محتاير قرى شحه غواشه وُقجيس وفريشه من جهة. وتُسي حاترباي وأفمُغت مرتوقوه يساندهما أبراخ توبا وطوابسه من جهة.

والآن غش مرزيج المتبجح الذي نسي القول المأثور "عاجز ويريد أن يقفز"، ويفتخر بأنه يرافق النائب، يشيع عن نفسه أن الجيش الروسي يسانده. ومع أن برج وتسي لا يعبأان بالأخبار التي يُشيعها فإن رؤيته في الليل على طرق حُجُخ ومايقواب تجعلك تتوجس من أمور كثيرة. ومرزيج نفسه ظل يهدي الضباط الروس البنادق الأثرية، والسيوف الأديغية، والمزخرفات الفضية والذهبية، والمطرزات، وغيرها من الأشغال اليدوية حتى توهّموا أنه غني متنفذ في قومه. وعرفوه على امرأة قوزاقية وحيدة يتردد عليها أحياناً.

- يا برج انشغلنا بصراعاتنا الصغيرة - لَمَحَ إليه يوماً أحد زعماء المخاتير - فجعلنا مرزيج ذا الأنف الضخم يطفو على السطح بأساليب معيبة.

"لو وضعوا بلاد الأبراخ تحت تصرفي، وقال لي هؤلاء: لا تُثرِ العداء بين الفلاحين، والصراعات بين الأسر، وقُد البلاد دون أن تنحرف عن الصدق لتخيلوا أنني لا أعرف شيئاً من أسرارهم. - ابتسم برج وهو يمر براحته على لحيته التي لم تطل، وبدأ الشيب يغزوها. - لم يكونوا يُسدون للنائب أمثال هذه النصائح بصراحة. ومهما قال في بلاد الأبراخ ومهما فعل، ولو أنه كان يقتل معارضيه في الأقبية الباردة، ولو كان يحكم عليهم بالإعدام، ولو أنه فرض بالحرب الإسلام على أبناء قومنا الشابسغ والبدوغ، فإنهم لم يكونوا يعارضونه

إلا مغمغمين بينهم وبين أنفسهم، مكتفين بشتمه في غيابه. الحق أني إن قلت: أنا وتسي لم نكن مثلهم فأنا ألدع نفسي. لقد حملنا على أن نقوم بكثير مما لا نريده. ولكن لا أستطيع أن أقول هذا بشأن الزعيم أفعُت وبعض الفلاحين من عامة الناس، بمن فيهم مرزيج الذي يعيرونني به. لا أريد أن أثير في الأبراخ بعدما فارقتنا النائب - ولو أنه يقول إنه لم يفارقنا - عداءً بين الأسر والقرى. ما أقلقني وشغل بالي شيء آخر: أحاطنا الجيش القيصري، بذرائع مختلفة، رغم أنه صالحنا، بقرى قوزاقية: داغيستانسك ونيجيغورودسك وتيلسك ونوفو ميخائيلوفسك وإيميرتينسك وبشيخسك ولايينسك وبسيبايسك وأخيتوكوفسك وكوجورسك وغيرها. ويزيد عدد أفراد الجيوش التي تفتح الطرقات، وتقتلع الغابات وتنصب الجسور. وأينما توجهنا وأينما أنصتنا لم نعد نسمع إلا كلاماً وأغاني قوزاقية...

- حين أعاد النائب مرزيج دون أن يسمح له بمرافقته إلى حيث سافر فقد كلَّ قيمته، ولذا فإن وافقته قال كلاماً كثيراً وفعل. - أفاق برج حسن من أفكاره، وأضاف إلى تسي حاترباي وكأنه يعرض به في آن واحد: - وسأقول رأيي في الموضوع الآخر حيث قلت إننا نشتبك ونتصارع، أيها الكبير الذي أحترمه: إن لم تكن علاقتنا نحن الاثنين، وعلاقتنا بغيرنا هكذا فهو أفضل. مثل هذه العلاقات العدائية لا يقتصر ضررها علينا، بل يشمل الأمة كلها.

- وهذا صحيح، إذا كانوا اختاروك من أترابك وجعلوك زعيماً فلا يجوز أن يقتصر تفكيرك على حماية شخصك، ولا أن تحسب حساب أي إنسان، بل يجب أن ينصبَّ اهتمامك على من وضعوا أملهم فيك، وأن تكون صادقاً معهم وتتألم لآلامهم وتعاملهم بالحسنى، وتظل تشحنهم بالأمل في السلام. ومع أننا نثق بك في هذه الأمور يا برج فلا أعرف ماذا تعني بعبارتك "حيث ركب

النائب "أيمكن أن يعود إلينا؟ لا نكتمن إن كنت مطلعاً على ما لا نعرفه.

قال برج لتسي المتظاهر بالمسكنة الحبيثة وهو يحدّق في العينين الضيقتين اللامعتين المستديرتين اللتين كانتا تحرقانه بنار عدم التصديق:

- أنت تتعلق أيها الكبير بالكلمة التي خرجت من فمي عبثاً، أعني كلمة "ركب". ولكني سأقول لك ما تعرفه أنت وأعرفه: النائب يستحيل أن يعود إلى الأبراخ. بل سأسمعك أيضاً ما يُقلِّقك: ربما كان ما يُقلِّقك هو كلام ممثل الجيش الروسي سيرديوكوف في اجتماع المخاتير "استدعوه لمقابلة القيصر من أجل حلّ مسائل الأبراخ"؟

- صحيح ما تقول. النائب لن يعود، وإن رجع فلن يرحّب به الأبراخ الذين أعرفهم.

- يا تسي لن أعلق على ما قلته لأنه صادقٌ صادقٌ الشمس فوق رؤوسنا. ولكنني قلقٌ أكثر للنهاية المرتقبة لطريقة النائب في مصالحة الجيش القيصري والأبراخ.

- ألسنتُ أنت يا برج من كان المستشار والمعاون الأول للنائب القوموق حين أثار مسألة الصلح في الأبراخ؟ - سأل تسي بصوت هادئ حازم لا يتناسب مع نحافته.

- نعم، أنا كنت المساعد الأول له - قال برج دون أن ييخل بصوته، واختتم بكلام أنعم، - ولكن بعد أن أنجز الاتفاق بين الأبراخ والجيش القيصري فحسبُ أخبرني بسرّه. أما كنت تعرف النائب الذي كنا نقف إلى جانبه؟! ولكن صلحه...

- نعم، كنت أعرف حقيقة النائب. - قاطع تسي كلام برج - ولكني لم أكن مؤدّنه أنفد له ما يريد، ولا خادماً يرسله لقضاء حاجاته.

- يا تسي، يا كبير، أنت تهينني - أزاح برج براحتيه الضخمتين طرفي عباءته اللذين كانا يقيدان ركبتيه. - حاولتُ أن أتحملك فلا أحييك، ولكن أيُّ جدال عدائي تخوضه معي؟! ثم عاد فلامه متكلفاً الصبر: - فكّر أحياناً في حدود ما يصل إليه كلامك!

- لا تعلّمني يا برج! - لمعت عينا تسي الصغيرتان كجمرتين - أنا رجعت منذ زمن بعيد من حيث كنت أنت!

- على رسلكما يا تسي ويا برج! أنا أكبر منكما ولو بيوم واحد. - اعترض داور بجز الذي لم يتدخل إلى الآن في الحوار - وأنت يا أفعُتْ كُفّ عن الابتسام الخبيث! إن سمعنا المجموعة التي تبكي على النائب سخرت منا. أنت يا برج، زعيم مخاتير الأبراخ، أكمل ما كنت بدأتَه. الصلح بين الأبراخ والجيش القيصري... ما المنفعة التي جلبها إلينا هذا الصلح؟

- ربما أنهم أحاطونا بالقرى القوزاقية دون حرب... - قال تسي بصوت أشد انكساراً، ونظر في وجه برج منتظراً جوابه.

- أسمعني يا كبير ما يُسييني الإهانة التي لحقت بي. وأنا يُقلقني تكاثر القرى القوزاقية، وزيادة عديد الجيش القيصري، والطرق التي تعبر الجبال، والغابات التي تُقتلَع. وهذه تنقض الاتفاق بين الجانبين.

- إذا كانوا ينقضون فاطلبُ دون تأخير من فيليبيسون الذي يخدعنا أن يعيد إلينا قومنا الذين هُرعوا إليهم لأنك من يضع الأبراخ أملهم فيه. - لم يستطع تسي إلا أن يُهمهم مرة أخرى. وحدّد ما كان يشغل باله مرّثاً نفسه ببعض كلمات العتاب: - لا تسمعون كلامنا ولكننا نحن مخاتير شرق الأبراخ وشمالها، وجنوبها ناحية توبا وطوابسه، لا يخلو كلامنا من الحقيقة، ولسنا من السداجة فنشرب الماء من أنوفنا. ونحن نعي معنى ما نقول. صرفتم رجال الشابسغ

والويخ الكبار بحجة أن الجيش القيصري النهّاب الذي لنا معه عهدٌ لن يقبل. كان المشروع الذي جاء به الرجلان آخر أملٍ للأديغة. ولكن النائب الذي يقتلعون من تحت رجله أرضاً ليست له لم يسمح لكم أن تسمعوا مشروع الرجلين. هيه أيها الأديغة المنحوسون! كم نحن قصيرو النظر، كثيرو الشقاق! نعيش ونحن نتنافس على الرجولة... إمضِ يا أفمُعْتُ؛ ما الفائدة في أن نجلس نتمارى ثم نتصالح، نمدح أنفسنا ونفتخر؟! سنزور مرة أخرى أبراخ منطقة توبا. حين اختفى الرجلان الأبراخيان اللذان ابتعدا بجفوتهما بين أوراق الأشجار الملونة تألم برج حسن معتبراً أنه هو من تسبب في الإشكال. فنصح داور الأكبر الذي فهم حقيقة وضعه:

- ارتخ، ألا تعرف من هو تسي؟! هذان لن يتجاوزا توبا إلى مكان أبعد.
- لم نوافق تسي على رأيه منذ اليوم الأول ولكن كان فيه نصيب من الصحة... من كان يدري أن النائب سيفارقنا ويمضي إلى أعدائنا الروس وفي ذمته الصلح غير المكتمل؟

- نفذ بريشه كما يقول القبرتاي لأنه عرف أنه لم يعد له مستقبل في الأبراخ، وأننا لن نسكت على خداعه لنا.

- أنا أعرف ما يستحق... - تقبّل برج ذنبه - كان الأفضل أن نعامله بالخبث الذي كان يتعامل به مع الأبراخ الذين يُرعبهم بجهنم الله، لا أن نودعه بألف فارس... ما الفائدة من أن تلاحق برصاصك الهدف الذي فات؟ وبدلاً من أن نتابع المهام الملقاة على عاتقنا صرنا كلما اجتمع اثنان من الأديغة اغتابا الثالث. ومن يغتابانه يعيش في عزه.

- يا برج، أيها الزعيم المبارك، أرجوك، هذا لا يجوز. لم تترك فينا غطاء غير مكشوف!

- وما العمل؛ هذا واقعنا.

من بعيد يظهر جبل أوفتين بقمته البيضاء. والسحب السوداء التي تخرج من خلفه تتجه نحو سماء المراعي فوق جبل لاغوناقة. وعقابان يحومان في منتصف النهار، يتقاربان، ويتباعدان كأخما يبحثان عن شيء فقده، وأحدهما لا يعرف الآخر ويحرص عليه، والغابة الملونة التي ضاع في مجاهلها الفارسان الأبراشيان تخرج منها عربات ثيران ملأى بالخطب اليابس. ووراء الصبي الجالس على الحمل فارسان مدججان بالسلاح - أحدهما غش مرزيج، والثاني غمشت مولى.

- السلام عليكم¹، نهاركما سعيد، أيها الزعيمان المباركان - حياهما مولى الذي استقبلهما بخليط من العربية - الأدبغية، وأضاف دون انتظار الجواب ما يعتقد - إن كنتما تبحثان عن جماعة تسي فقد دخلت إلى ذاك المضيق دون أن يهتموا بنا أو يلتفتوا إلينا.

- مهلاً يا غمشت، لحظة، ما أكثر ثرثرتك... - عرض غش مرزيج مفتخراً بنفسه لمولى الذي نسي أن يراعي وضعه باعتباره الأصغر عمراً، ثم توجه إلى الاثنين الآخرين بلسان حلو لا ينم عما في قلبه: - رافقتكما السلامة يا زعيمينا الخيرين. لو كنتما بحاجة إلى جماعة تسي لرافقتماهم... أتساءل ما المعروف الذي سيسديه طحالب توبا؟! هؤلاء لحناهم من بعيد بعين واحدة، ولم نتخذ منهم محدّثين. وماذا كنا سنقول لمن لا يعبؤون إلا بمصلحتهم الشخصية لو كلمناهم؟ ما كانوا ليفهمونا.

- لا يجوز تقويم جماعة تسي بهذا الشكل - ضحك برج ضحكة خفيفة،

¹ بالعربية في الأصل.

وأعاد مرزيج إلى وعيه - هؤلاء يتابعون قضايا بلاد الأبراخ، منذ وقت قصير
جننا بهم من ظاهر القرية.

- هكذا؟... حسنٌ أن تعود علاقاتكما إلى هذه الحال. أخطأت.

- لا بأس عليك؛ أنا المذنب في هذا.

- المذنب في هذا بيّن... النائب الذي لم يودّعنا، ولم نخطر على باله.

- وأنت يا غش، أيّ عيشة تحيا؟ - توجه برج بالسؤال إلى مرزيج الحارس
السابق للنائب، والذي زرع حُبَّ النائب في قلبه، مما يجعله يبخل نفسه وهو
يسمع ما يقال في النائب، والذي يبرئ نفسه.

- نحن ماذا سنكون أيها الزعيم المبارك، نعيش كيفما اتفق في هذا العالم. كما
ترون جئت مع الفلاح مولى الذي ترجّاني كي لا يفاجئه الشتاء دون مخزون من
الحطب.

- نعم أيها الزعماء المباركون، - غمغم، ثم أسرع بالتصريح راضياً - ترون ما
نفعلني به مرزيج، ليحمه الله العلي وليعطف عليه. ألا نخاف الآن أن نأتي
بالحطب من غابتنا... جنود الكفار، وها أنتم تسمعونهم، يفتحون الطريق وهم
يغنون أغاني الجن، يقتلعون الغابة، ويلوثون الآبار التي نغرف منها ماء وضوئنا.

- ولكن لا نمتنع لأجل هذا أيها البائس من أن نأتي بحمل حطب من الغابة -
قاطع مرزيج الحديث غير متحمل ما يقوله الفلاح مولى.

- صحيح يا مرزيج يا من أدعو له الله أن يجعل يومه مئة، نأتي بالحمل
بفضلك. مرزيج يتفاهم جيداً مع الكفار، يلبّون له طلباته أيها الزعيم المبارك
حسن بي.

- حسنٌ يا مرزيج أن يكون لك مثل هذه الدالة عليهم - مدحه داور بجز، ثم
لامه: - ثم تقول لي إنك نكرةٌ مغمور.

- لا، لا - لم ينكر مولى ما قدموا له من خدمة - لا يجوز نسيان الرجال الحكماء الشجعان من أمثال غش مرزيج. أعجيب إن كان يوماً ما حارساً للنائب الهائم؟... حقاً أنظر إليكم يا زعماءنا المباركين؛ لماذا أنتم في الغابة دون حراس؟

- حياك الله أيها الفلاح مولى على قلقك على زعمائنا، نحن في عالم لا أمان فيه، خير لك أن تحترس. وأنا يرضيني أنك تفهممتي. وإن شاء الله يخصصون لي حراسة - قال مرزيج مرتاحاً لما سمع.

- يسرنا أن تقلق لأجلنا - لم يتأخر برج في شكره - صارت جبال الأبراخ خطيرة خلافاً للماضي، بل يمكنك أن تتوقع الخطر وراء كل شجرة. لم يعد الأبراخ أحراراً في بلادهم كما كان آجدادنا وأباؤنا. ولكننا على أرضنا، وسماؤنا تُظَلُّنا. إن تمتعنا بالوفاق والوحدة فالله سيحمينا، ونحن سنحمي أنفسنا. - ثم أضاف: - تعال في الأيام القليلة القادمة إلى المجلس الأعلى، نحتاج إليك أنا وداور.

- متى ما دعوتاني فأنا حاضر حتى من هذه اللحظة أيها الزعيم المبارك! - قال غش مرزيج لا يسعه السرج من الفرح.

- لسنا جاهزين اليوم لاستقبالك، سنخبرك متى احتجناك.
- متى ما أعلمتموني... - ارتخى الآن صوت غش مرزيج الذي لم يفهم لماذا قيل له: "لسنا جاهزين اليوم لاستقبالك".

الفصل التاسع

أبرقت السماء من جهة الجنوب فجأة، ودوى على إثره الرعد في يوم معتدل متأخر من الخريف. ثم اختفى كل شيء في مضيق قجبس، فأفلتت بعض قطرات المطر من السحابة السوداء الوحيدة التي ارتفعت من الضوء والصوت.

- بسم الله، يا إلهي، أي برق ورعد قصفنا ونحن في فصل الخريف... - جفلت جانشر وصرخت من داخل البيت: - يا نات - نفست أين أنت، ألم تُرعبك الصاعقة؟

- لا يا نان، لا. إن لم يكن صوت مدفع فلماذا أخاف من الرعد؟.. - صاحت من الغرفة المجاورة نفست التي كانت تضفر شعرها متمهلة - تات يقول إن البرق والرعد يحدثان في الشتاء أيضاً. السماء تُمطر من دون سحب. والشمس تشرق... انظري يانان، لا مطر ناحية مواقع تامبي وبراعنه؛ أليس عجباً يا نان؟

- ويحدث مثل هذا يا ابنتي - تتوقف جانشر عن نسج جرابها الصوفي قائلة: "ما أشد ما كبرت بالقياس إلى الصيف الماضي" وتبتسم لابنتها. - يا نفست برقت الصاعقة، ابتعدي عن النافذة! - "يا إلهي لا أعرف ماذا رأيت هذه الصبية في آل براعنه. لا تسمح لك أن تأتي على دكرهم بسوء ولو بكلمة واحدة... أينطبق عليها القول المأثور: "البيلسان يُزهر، وكلُّ يعود إلى أصله؟" - سألت جانشر نفسها، ولامت نفسها لأنها فكرت في هذا الموضوع.

- وهل أنا في خطر - قالت نفست التي لم تفارق النافذة - بل الفارسان اللذان يرسل البرق صواعقه فوقهما... أحدهما عمي محمد، والآخر أين رأيته؟.. آه تذكرته: هو مرزيج الذي كان يحمل المصحف للنائب حين استضافوه في قريتنا هذا العام إلى ختم القرآن.

- ألم نسمع أنه سافر مع النائب؟.. - سألت جانشر، واختتمت بما تعتقده بخاتمة تنم عن إشفاق - ربما لم يرتح قلب المسكين في بلاد الغربة... من حظنا أننا جهّزنا غداء لا نخجل منه، ولم نتكاسل بذريعة أن لن يأتي إلينا أحد. اذهبي

واستقبلي عمك زيكوشو¹، واذهبي رفيقه الضيف إلى الغرفة.

- نان، أحياناً تتفوهين بأشياء عجيبة؛ متى لم تكن مائدتنا جاهزة؟! - عاتبت
نفس أمها وهي تنظر إليها نظرة مُرائية.

- نعم، يا ابنتي نعم. ألسنا أسرة أديغية سواء كنا ننتظر ضيفاً أم لا، لم نفتقر
يوماً إلى طعام. وهكذا ربانا أهلي وحماي. - وعقبت جانشر على كلام
نفس ممتدحة نفسها قليلاً: - ألم نسمع أن سلفي الذي لا أجلس في حضرته
زيكوشو ومرزيج ليسا على علاقة حسنة²؟ - جعلها الشك الذي تسلل إلى
قلبها بارداً تسأل نفسها. - وبكر الذي كنا ننتظر قدومه اليوم لا يزال غائباً في
المرعى أعلى الجبل. - أضافت ما كان يشغل بالها.

بعدها صبت نفس الماء على أيدي الضيفين ليغسلها وخرجت من الغرفة
سأل مرزيج بعد قليل محمداً:

- أهذه يا أيها الأفندي الذي أدعو له بالنماء هي الصبية القوزاقية التي يريها
بكر الذي لا خليفة له؟ لو لم أكن أعرف أخبارها لما خطر لي قط أنها غير
أديغية. ماذا قلت لي اسمها؟

- أنا أناديها بناء على رغبتها: نفس. وبكر وزوجته يناديانها نات - نات.
وأهل القرية يعرفونها بهذا الاسم أيضاً. أ تكون ترغب في ابنتنا عروساً لابنك؟..
- سألته ثم مازحه: - أتعرف كم سيكلفك مهرها؟ لن يكفيها كل ما ادخرت
في حياتك.

¹ اسم سمّت به جانشر سلفها محمد أفندي لأن التقاليد لا تسمح لها بنطق اسمه، ويعني
الاسم: الفارس الجوّال.

² وتقضي التقاليد الأديغية أيضاً ألا تكشف المرأة المتزوجة وجهها أمام الأعراب، وأمام
الأقرباء المسنين، أو تجلس في حضرتهم أو تتكلم.

- لم يخطر لي مثل هذا يا أفندي... ولكن قل لي أي شيء في نفسك ما دمت بدأت بالموضوع، لا تُخَفِ عني. إن لم يكفِ ما عندنا أَمَّا البقية بطريقة ما...
- قال مرزيج الذي تورّد وجهه من الباخسمة¹ وعَرَضَ بأمله كأنه يحدده: - إذا كنتم محظوظين فلن يصل إليكم قرار الجيش الروسي المتعلق بالروس الذين فرّوا إلى نواحيننا... لولا أنّ براغنه ميشكا رحل عن الدنيا لقيده وأعادوه إلى ذويه.
- وهل يمس الأمر شخص إسلام الذي اعتنق الإسلام وصار جزءاً من الأديغة؟.. - سأل محمد أفندي ولو أنه سبق أن سمع بالموضوع.

- ماذا تقصد يا محمد أفندي، يامن أحسن الله إليه، بكلامك على من صار أديغياً حقيقياً واهتدى إلى الإسلام. من السهل أن تفتت الأسرة وأن تبدّل الدين.

- لا يا مرزيج. حدث أن تخاصمنا أنت وأنا، وصالحنا النائب، ولكن لا أسمع لك أن تقول هذا بشأن الدين الذي أنزله الله علينا! - شحب وجه محمد أفندي، وسرعان ما ثار غضبه: - ألم يبق في الأبراخ موضوع نتحدث فيه نحن الرجلين البالغين إلا موضوع الفتاة التي نسيت أصلها؟

- والله هذا صحيح - وافق مرزيج الأفندي بلسانه، غير أنه أجابه بينه وبين نفسه "سنرى مصيركم لأنكم تهيجون بسرعة كلما أتينا على ذكر هذه الفتاة" ثم عاد عن طريق المزاح إلى الموضوع الذي ما كان يفارق ذهنه: - يسرني أن ترافقني كما اتفقنا لأنّي يجب أن أزور الزعيم برج حسن، ولو أنهم يقولون: متى أكل الضيف نظر إلى باب الانصراف.

- ليس لي شاغلٌ في تلك الناحية. إن كان المقصود من ذكرت اسمه لا أريد،

¹ شراب قومي يُتخذ من الدُّخْن أو الذرة البيضاء، ويوحي الاسم باسم إله الخمر اليوناني باخوس.

بعدما أبعد الله عنا نائبه الذي أرسله إلينا، أن ألتقي به، بل أن تقع عيني عليه. ولكن إن كنت وعدتك فسأذهب معك. ما حاجته إليك يا ترى؟ إنه يفتن بين الناس الحكماء الذين كانوا مع النائب، وأنا أوّلهم.

- وهل وصل إليك أيضاً؟.. والله لم أتصور أن يتصرف معك على هذا النحو... كانت تصل إليّ بعض الأخبار المتفرقة ولكن لم أكن أصدّقها... وربّ المحمل إنه يُقرب إليه أحاك الأكبر بكر الذي اغتبناه، ويبيّعدك أنت.

- إذا كنت تريد معرفة الحقيقة يا مرزيج، يا من أدعو الله له بالخير، لم أكن في الماضي أيضاً قريباً جداً منه. ولكن كُرمي للنائب ولأخي الأكبر لم أكن أبين على نفسي شعوري نحوه... والآن لا يكتفي برج بإبعادي عن شخصه بل، بعدما نزلت عليه الزعامة فجأة - وإذا شئت أن تعبر بكلام صريح آخر: بعدما سلّبتهم الزعامة - لم يعد يعرف إن كنت ما زلت حياً. سترى، وستقول لي إني سبق وأخبرتك، إن لم يدخل جيّ أسود بين برج وتسي.

- وأنت هذا رأيك يا أفندي؟.. لأني أنا أيضاً أتوقع هذا... ليس برج مُحققاً في أن يتجاهل مثلك أنت الأفندي المتعلم الذي حجّ ثلاث حجّات، وكان مستشاراً للنائب... - تظاهر مرزيج بأنه يعتبر ما سمعه غير مناسب، فأضاف وهو يقول في نفسه "لو كنت أعرف أن علاقتكما هكذا ما كنت طلبت منك مرافقتي" - متى عرفت ما ينويه لي برج سواء كان خيراً أم شراً فسأطرح موضوعك أمامه. من أين سيأتي بحارسٍ مقدم مثلي وأفنديّ مثقف مثلك؟ هؤلاء يجب أن تكلمهم بصراحة، لا أن تتأمل منهم أن يفهموك. أنا أعرف ما يريد برج: يستدعيني لأنه يحتاج إليّ. لست وحدي، وأنت أيضاً لا يُستبعد أن يحتاجك في أمرٍ ما.

- وأنا كنت أنتظر هذا... ولكي لا أعرف كيف أرافقك ضيفاً طفيفاً غير

مرغوب.

- إن كان هذا رأيك فأنت حرّ... ولكن سواء كنا رقيقين أم لم نكن فقد قلت ما قلته في شأنك. لا تتردد في ما ستفعل. هؤلاء يجب أن نكون دائماً أمام نواظرهم، ولا يليق بنا أن نخفي من أمامهم فنحقق لهم رغبتهم.

- يا نفسي، يا ابنة آل مرزخوي الجميلة - قال محمد الأفندي حين دخلت الفتاة التي ناداها: - بلّغي كتنّا والدتك أنّها متّعتنا بطعامها، اشكرها باسمنا على ضيافتها.

- نعم يا محمد أفندي نعم - أيد مرزبج المضيف - سعدنا بمائدة أخيك الأكبر بكر المباركة حتى لو لم نخط بلقائه. وأنت أيتها الصبية ليكن حظك سعيداً مع آل مرزخوي. وليحقق الله لك كل ما تتمنيه، ما أنسوك إياه وما لم تنسّه. نحن سنركب طريقنا بعد أن نغسل أيدينا.

- وهل ستعود وتساfer وأنت وصلت تواء من السفر يا ممّت¹ - سألت نفسي عمّها، وهي تخفي أن كلمات الضيف المسمومة "وأنت أيتها الصبية ليكن حظك سعيداً مع آل مرزخوي. وليحقق الله لك كل ما تتمنيه، ما أنسوك إياه وما لم تنسّه" أحرقتها، بعدما نادته بالاسم المرخّم الذي كانت تناديه به منذ طفولتها.

- نعم يا نفسي، نعم يا ابنتي. سنذهب لزيارة برج الزعيم الكبير أنا ومرزبج الفلاح الطيب. وهذا ما ستبلغونه للكبير أخي.

- ماذا جرى لك يا ابنتي حتى يحرّم خدك هكذا؟.. - سألت جانشر ابنتها بعدما عادت من تشييع الضيفين.

¹ النطق الأدبي المألوف لاسم محمد.

- لم يجر لي شيء! - حسمت نفسي الموضوع، وتوجهت إلى النافذة.
- أياكون الضيف المرافق لعيتك لم تعجبه طريقتك في حمل المائدة وخدمتها؟! -
- انظري يا نان إلى الضيف الذي يودعونه كيف يتصرف مع عُجْبَس الذي يمسك له لجام حصانه، وهو يقول له أشياء...
- لا أفهم ما تقولين... ما الأمر يا حسرتي؟ ماذا يعرف عنكما قبل أن تولدا! أليس حسناً أن يدعو لك بالسعادة لأنك ابنة آل مرزخوي؟ ما الخطأ في هذا؟
- وما موضوع "ما أنسوك إياه وما لم تنسيه"؟ وما شأنه بي؟... - انفجرت نفسي باكية فارتقت على صدر أمها. لست طفلة صغيرة فلا أفهم ما يلمح لي به. وممت لم يرد عليه بشيء.
- كفى يا نفسي يا ابنتي الجميلة، اتركي هؤلاء لوالدك.
- أنا لا ألوم ممت، لا ذنب له... بل مرزيج، لا أعرف ماذا أخطأت بحقه، لا شفقة في قلبه.
- ليأخذ الله مرزيج القبيح إلى حيث لا رجعة منه! وإن كان سلفي زيكوشو مذنباً فليحرق به! - رفعت جانشر رأسها بعنف، وصرخت في إثر الرجلين اللذين سُمع وقع حوافر خيلهما.
- نان، ألم أقل لك إن ممت لا ذنب له؟! -
- لو لم يكن مذنباً لما سمح لرفيقه أن يلمح لك متظاهراً بالصمم.
- ما الأمر يا نات - ناتالا؟ - سأل براغنه غجبس حين دخل الغرفة مستغرباً ما يرى - وأنتِ هل أساء إليك مرزيج؟
- انصرف عني أنت أيضاً، لماذا تدعوني "نات - ناتالا"!... - ردت نفسي على جارها الشاب.
- يا ولديّ الحلوين، لا تتجافيا لأن أحدكما قال كلاماً غير ذي بال. -

نصحت جانشر الشابين وهي تنظر إليهما بعين الحبة.
كانت نفست تريد من أمها أن تضمها ضمة حارة، ولكنها صبرت في حضور
غجبس.

الفصل العاشر

بيضع غلواتِ حصانٍ يركض خيباً وصل الفارسان إلى قمة المرتفع. ولما ارتقيا
انحلت عقدة لسان مرزيج من جمال المنظر على مدّ البصر:

- انظر يا أفندي ما أجمل عالم الأبراخ!... أرايت في الحج حيث كنت وحيث
تغمر الرمالُ الأرضَ مثل هذا الجمال؟

- اسكُتْ يا مرزيج! لا توصف أرض الحج بمثل هذا. أرجو أن يفهمنا الله
العلي العزيز الذي خلق الكون بكامله، ويرحمنا ويحمينا. ليست جنته وجهنمه
في الدار الفانية التي يمتحننا فيها. حين يتوقّنا إليه فحسب سنعرف أين هما. لو
أن الأبراخ المتمردين أطاعوا النائب لربما لم يحدث لهم ما حدث... ها نحن
الأديغة، يا ربّ أغثنا، على سراط جهنم. لنقلّ آمين يا مرزيج! - رفع الأفندي
راحتيه الرقيقتين الناعميتين إلى خديه، واختتم دعاءً عربيّ الأصل باللغة الأديغة،
- افهمنا وارحمنا واحمنا يا الله!

نَفَسَتْ ابنة آل مرزخوي التي كانوا يشيعون عنها أخباراً مختلفة لم يكن جمالها
يغيب عن ناظري مرزيج. لا يزال تغيّ لون وجهها حين لمّح إليها بيضع
كلمات في معرض امتداحها أمام عينيه. يسأل مرزيج نفسه مستغرباً "كيف
يوفق آل مرزخوي بين ما لا يتفق، كيف يقنعون أنفسهم والقرية بأن ما ليس
لهم هو لهم؟" - ورفيقي الأفندي يخفي هذا. أحقاً أنّ بكر استولدها من أرملة
قوزاقية وجاء بها؟ وهل اضطرت زوجته أن توافق؟.. ليس مستحيلاً؛ ففي العالم
تحدث غرائب كثيرة... مع أن من الواضح أن في عروق الصبي الأشقر الذي

ساعدني في امتطاء حصاني ممسكاً بلجامه وركابه دماً روسياً فقد ولدته امرأة أديعية، ولا يخفى أنه ابن نصف القوزاقي براغنه الذي أسلم وشي إسلام. الحق ما أشدّ سداجتنا نحن الأديعة فلا نحترم أنفسنا ولا نعرف قدرنا إذ أصبح براغنه إسلام مختاراً للقرية الأديعية! غزائنا هم من سيضموننا آخر الأمر تحت جناحهم في الوقت الذي نشغل فيه أنفسنا بمحاربتهم ومصالحتهم... وهل هم وحدهم؟.. المحظية التي أذهب إليها على سبيل الترويح عن النفس تُشعّري دون حياء كلما ارتدتها أنها تطمع في أن أتزوجها... ثم يأتيني هذا الأفندي ذو الرأس المتطاوّل ليحدثني عن الكفار والإسلام والمسيحية وما لا يعلمه إلا الله؛ أُلحِب دين ليميز هذا من ذاك؟.."

- وأخيراً هذا ما جرى لنا أيها المسكين... - خرج مرزيج من بين أفكاره المتلاطمة، وقال مداوراً حول ما يعتزم فعله، مُسمِعاً رفيقه وكأنه يكلم نفسه: - أقول: لا أرى في نَفْسَتِ الفتاةِ الرشيقة التي قدمت لنا الفطور شيئاً من خصائص أسرتكم...

- لا تدعنا نتحدث في ما كنت تريد أن تقوله يا مرزيج - حسم محمد أفندي الموضوع بجملة واحدة.

- هكذا؟ وهذا جوابٌ يمكن أن يُسَكِّتني... - ولكنه أنهى بعد قليل: - هناك أمر بإعادة القوزاق الذين لجؤوا إلينا.

- ليست نفست برزخوي، ولا آل براغنه الذين لا تحبهم مشمولين بهذا الأمر. لا تشغل بالك بما ليس من شأنك! - ردّ محمد أفندي على رفيقه الذي لم يتوقف بصوت هادئ خشن، معتمداً على حصانه على نحوٍ لا تعرف معه أهو نفسه محمد أفندي ذو اللسان اللطيف. ثم أكمل بصوت أعنف: - هذه فتاة مسلمة اعتنقت الإسلام.

- مهلاً يا أفندي، هدّئ نفسك! ما الذي جرى لك لتتفعل بهذه الحدة؟ -
لجم مرزيج الآن حصانه والتفت إليه. - لم أعرف أنك نرّق بما لا يتناسب
وكونك أفندياً. - إن كنت ترى أنني أتابع مهمة ليست من شأنني فأنت مخطئ.
ولكن لم يُعجبك تدخلني في شؤون أسرتك، فأنت على حق في هذا. لن أقول
لك غير هذا.

- يا من أدعو له أن يلين الله قلبه، يا مرزيج، ساجّني إن كان صوتي احتدّ بما
لا يتناسب مع شخصي وصفتي. ولكن هذا لا يعني أننا لا نعرف عنك بعض
الأمر غير الصحيحة.

- ووي، يا حسرتي! - صاح مرزيج واعتداده بنفسه بادٍ من صوته - كيف
عرفتم الفحولة الوحيدة التي يخفيها الرجل؟
- "يرونك في الغابة، ويسمعونك في العتمة" يا مرزيج يا من أسدى الله الخير
إليه!

- والله يا أفندي أنظر إليك فأراك إنساناً عجباً بريئاً كما خلقك الله... قل لي
إذن: هل يميز الحب بين الأعراق والأديان؟
- والله لا أعرف بم أجيب على هذا.

- إن كنت لا تعرف فلن نتكلم على السر الذي بين الرجل والمرأة. - لم يدع
مرزيج رفيقه الأفندي يكمل كلامه، وأسرع بحصانه قائلاً في نفسه "لو كنت
تعرف اللذة التي في هذا السر لما بقيت عازباً إلى الآن. من حسن حظي أنك
لا تعرف صاحبات معارفي من الضباط الروس". ولم يتأخر محمد أفندي عنه.
وحين بدت قرية برج من بين أوراق الأشجار التي عصفت بها آخر نصف شهر
من الحريف قال غش مرزيج: - يسرني أنك سافرت معي يا أفندي، غير أنّ لي
عندك رجاء: لا يبدُ عليك أي انفعال مهما تصرف معي مضيفي بخير أم بشر.

ربما لا تتيسر أموري كما أتوقع، من يعرف؟!

- وإن سألوني أيها الكبير؟

- إن سألك فهل ستخفيني؛ هل كنا سنداً للنائب بلا جدوى؟!

- ربما كان وقوفك إلى جانب النائب هو سبب استضافتك. أنا لا أعرف من نفسي ما يعينني... - قال محمد أفندي ثم ارتعب فبدّل بسرعة تعبيره: "لا أعرف من نفسي" إلى: "لا أعرف من أنفسنا".

لاحظ مرزيج هذا الارتباك، فقال لنفسه: "انظر إلى هذا الذي لا يفارق اسم الله لسانه!" أنت كنت إلى جانب النائب بأوثق مما كنت معه، محلاً أكبر المظالم شرعاً، موافقاً إياه. وحين عرضت عليك دون إلحاح مرافقتي إلى برج رافقتني كأنك غير متحمس ولذا تُعَيَّر من نفسك الآن... سئري كيف ستصرف معي إن أوكلت إليّ مهمة تتناسب مع النظام الجديد! وأي نظام جديد؟ ألم يكن برج مع النائب حين صالحنا فيليبسون؟ ونحن كنا بينهم مؤيدين لهم. ولم نكون وحدنا، بل الأبراخ كلهم تقريباً. وأين تذهب بتسّي وأفمعت وبراغته وأخيك الأكبر بكر، والشباب الذين يؤيدونهم؟ لسنا نحن الأبراخ على ما نمح به أنفسنا كما يخيل لبرج وداور وأنصارهما"

- والله يا أفندي، هذه الدنيا مرّبة على نحوٍ عجيب في الأبراخ سواء وافقنا أصحاب هذا الرأي أم عارضنا. - خرج مرزيج من أفكاره التي كانت تنعّص عليه حاله، - الجو حار في مضيق فُجّبس، وبارد على هذا المرتفع.

- لأن الهواء البارد يمر على قمة جبل أوشتن - قال الأفندي الذي سلبوه أفكاره، وحدد: - والشتاء على أبواب الأبراخ. وحطّابو جيش الكفار على عجلة من أمرهم في الغابة.

- وليعملوا من حصى طرقهم فتيلاً للنار!... - غمغم مرزيج واختتم:

- لا أحد غيرُ الله الأحد يعرفهم كما أعرفهم أنا. أَلستم يا أفندي من يقولون إن الشكَّ في من لست متأكداً من تهمته حرام¹؟ ولن أكشف لك السر ولو سألتني. اسمع؛ علينا أن نصل في الموعد المقرر لأن برج ينتظرنا.

"وماذا سأفعل أنا في المكان الذي نسرع إليه؟.. - سأل محمد أفندي نفسه وهو يسرع بحصانه، وتابع أفكاره: - شكراً لك إن كنتَ ترى أيّ بعيد عن رؤية برج للسلطة، فهذا يوافق مزاجي. ولكن لا تخطئ يا مرزيج. أين كنتم أنتم حين كنا نوطد الإسلام ونوقف البلاد على قدميها في الأبخاخ، في العهد الذهبي للنائب؟ لا أقول إنكم لم تنجزوا شيئاً ولكن إن قسمتم أنفسكم إليّ فأنا بعيد عنكم بُعْدَ قريتي تامبي حبله عن المرتفع الذي نفق عليه الآن. ومن تكلف ببناء المساجد؟ أنا. ومن اهتمّ بافتتاح المدارس ومراكز تعليم القرآن؟ أنا. ومن تابع تنفيذ الأحكام؟ أنا. ومحاكم القرى الأخرى، ومهام المخاتير، وانتقاء أعضاء المجلس الأعلى... مهلاً يا أفندي لا تبأغ. لا تنسبها كلها إلى شخصك!... لماذا إذن يستضيفه وأنفه في السماء برج المختار وهو الذي لم يكن يفعل وقتها إلا خدمة النائب كساعي بريد؟! برج لا يعرف عني شيئاً البتة، ولا يعرف أيّ أخو بكر المقرَّب إليه... وإن أردتَ الحقيقة فأنا لا أعرف في نفسي ما يحاسبني عليه. أكون وصفني لداور بجز مرة بأنه ملحد هو ما لا يغفرونه لي؟ أنا وصممتُ تسي حاترباي كثيراً بهذه الوصمة، غير أنه لا يعاديني..."

كان بناء محكمة برج حسن، حيث يدير أعماله، خالياً خلافاً للأيام الأخرى إذ لم يكن مربوطاً إليه سوى حصانين. ولم يكن يظهر في القريب لابس قبعة أو

¹ يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ بَعْضُ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات 49/ 12)

لابسة غطاء رأس لأن الوقت وقت صلاة الظهر. والقرية الجبلية التي لا يسكنها إلا سبع وثمانون أسرة هادئة فلا يُسمع نباح كلب أو صياح ديك. وليس على باب المحكمة المشرّع أي حارس.

- هذان الحصانان، إن لم أخطئ، هما لبرج وداور. - قال مرزيج وهو يربط الحصان إلى السارية - ترى يا أفندي هؤلاء ينتظروننا.

- كيف خطرت لك مثل هذه الفكرة السيئة وقت أداء صلاة الظهر يا مرزيج؟
- لم يتقبل محمد أفندي ما سمعه - هيا، لتوضّأ نحن أيضاً إذ لم يفتنا الوقت ولنقف ونصلّ أمام الله. انظر ها هم وجهائنا أيضاً يتوضّؤون عند ساقية تيجين العائدة لبرج.

- إن انتهيت من الوضوء فلنبدأ الصلاة يا أفندي! - قال برج حسن المشير عن ذراعيه وساقيه وهو ينشفها فالتفت الأفندي إلى مرزيج كمن يقول له: أترى أن الوجهاء محتاجون إليّ، وبدأ الصلاة مع الرجال الثلاثة الذين خلفه، مكبّراً الله والفرح مما سمعه باد من عظام كتفيه ومن ظهره.

وبعد عدد من الركعات والسجادات، والجلسات والوقوفات، وتلاوة الأدعية، دعا محمد أفندي للرجال الأربعة، بمن فيهم شخصه، وكأنه يصلي بهم في الجامع:

- ليقبل الله صلاتنا أيتها الجماعة، وليحقق لنا كل خير! - ثم سأل الرجلين الآخرين بسرعة: كيف حالكما يا وجهينا العزيزين، يا من بارك الله في حسناتكما. مضى زمن غير قصير لم نجتمع فيه، ولم نتشارك أقوالنا وأفعالنا. ولكن هذا لا يمنعني من أن أتذكركما بالخير... - وحين سئل مرزيج سعة خفيفة ذات مغزى أصلح كلامه: - الحق حين طلب مني مرزيج - ليجعل الله يومه مئة! - السفر معه رافقته فالسفر وحيداً في هذه الظروف خطير... ولو

أني لا أعرف إن كان لي مكان معكم. ولا أعرف إن كنتم ستخوضون في مواضيع لا يجوز لي أن أسمعها. وإذا كان الأمر هكذا فسأمضي إلى الجامع.

- لا أحد نخفي عنه سرّاً يا أفندي - قال له برج حسن حين عادوا إلى المحكمة، ثم نصحه: - ولا تنظر إلى نفسك هذه النظرة! فعل غش مرزيج خيراً إذ صحبتك مع أنه يصّر على السفر وحيداً. وستكون شاهداً على سبب استدعائه وسبب عتابنا له.

- أفضل أن أكون شاهداً صالحاً على أن أكون شاهداً سيئاً - تظاهر محمد أفندي بالمزاح ولو أنه فهم أن لا خير ينتظرهم. وسأل داور متأملاً خيراً فيه: - ليس صحيحاً أيها الكبير؟

- "الصدق يبقى صدقاً دائماً، والكذب كذباً"، وإن شئتم أشهد عليه قولاً ماثوراً أديغياً.

- "الصدق ينتصب أمامك حتى لو ظننت نفسك صرعت، والكذب يسقط أمامك وإن ظننت أنك نصبته". أهذا ما تريد أن تقوله ياداور؟ - سأل مرزيج وغمغم كاظماً غيظه بصعوبة: - لا أفهم سبب استدعائي... ولماذا تعرضتم إلى سفري وحيداً على الحصان.

- الآن، حالاً ستفهم يا مرزيج - قال برج بدلاً من داور. - نريد أن نعرف ما وراء سفرك الليلي إلى مايقواب، وإقامتك في حاجخ.

- اسمع ما يصدع رؤوس هؤلاء!... والله أمركما عجيب أنتما... - ابتسم مرزيج وسأل يغلبه عتابه: - ألسن حرّاً في أن أتجول في بلاد الأبراخ التي أقمنا فيها السلام؟!

- نعم أنت حر، غير أنك لست حرّاً في أن تنقل أسرار أرض الأبراخ إلى الجيش الروسي! - أجابه برج حسن جواباً هادئاً، ثم أتبع بالسخرية: - إن

كنت تتكلم على مساهمتك أنت في هذا السلام فهذه مدعاة للضحك.

- يا برج حسن، أيها الوجيه، أنت تهينني! - ارتفع صوت غش مرزيج فجأة من حدة طبعه.

- ولماذا تهينك؟ نقول الحقيقة.

- أسمع يا أفندي ما يقولانه لي؟! - وجه السؤال إلى محمد أفندي من أجل أن يستدرجه إلى صفه، فلما صمت الآخر قال بصوت أهدأ، شاملاً الثلاثة بكلامه: - والله أنظر إليكم فأراكم ثلاثتكم عجيبي التفكير... إن كنت تقصد المسلك الواصل إلى الطريق الجبلي المؤدي إلى أرض الشابسغ يا حسن بي، وعن تخريبه من قبل الجيش الروسي، فاسأل من كان شريكك في العمل، النائب. ولا تتهموني بما ليس ذني. وإذا كنت على صلة معرفة ببعض الضباط الروس فأني ذنب في هذا؟.. أو لن تقبلوا أيضاً تؤدّد بعض نساء القوزاق الرخيصات إليّ في سوق قوزاق حجنج أيضاً؟!

- ماقلته الآن يا مرزيج غير مقبول البتة! - جفل محمد الأفندي مما سمع - لا تسمح للرخيصات الكافرات أن يغرينك؛ سيسحرنك، هذا حرام!

- اسمع ماذا يقول هذا! - سأل مرزيج وأسنانة البيضاء القوية تلمع وعيناه السوداوان تدوران في محجريهما: - ماذا تعرف أنت يا أفندي عن النساء القوزاقيات في الوقت الذي أصبحت فيه عجوزاً ولم تتزوج؟ إذا كنت تستقبح النساء القوزاقيات فلماذا تخفون امرأة أفأفة منهن في أسرة مرزخوي؟!

- يا مرزيج! - قال مرزخوي محمد مقاوماً انفعاله - لا تتدخل في ما لا يخصك!... من حسن حظك أننا جالسون في حضرة وجهاء الأبراخ. ويحجمني عن الرد كوني موفداً من الله سبحانه الذي أحمل إليه أقوالي وأفعالي.

- وماذا بيدك لتضربي؟ - نأت كتفا غش مرزيج كما يحدث حين يغضب.

- اهْدأ يا مرزيج، لستَ في الغابة. - نهر برُج مرزيج. - ولا تنس المجلس الذي أنت فيه.

- نعم يا برج، وأنت يا داور، وأنت أيضاً يا أفندي، فهمتُ أي رجل غابات، وفهمتُ سبب استضافتي، وحقيقة هذا الذي صفّ إلى جانبكما الأفندي، وفهمتُ عدم حاجتكم إليّ. إن كان هذا سبب استدعائي - نهض غش مرزيج مبتسماً ابتسامة ساخرة - فاسعدوا بجلستكم، سأغادركم. - وحين وصل إلى الباب خاطب من تركهم: - كما قلت لكم قبل أيام، أيها الزعماء المباركون، لا تقيموا ولا تسافروا دون حراسة. أقول هذا قلقاً عليكم، لا إرهاباً. ولماذا أنت جالس يا أفندي، سافرْ معي، كما يقول الجمكوي¹: سافرْ مع من جئت معهم دون أن تجعل من نفسك نصف نبيل.

- إن تبادلنا، بعلم الله، بعض الكلمات الجافية، فلن أجعل من نفسي نصف النبيل الذي ليس عند الأبراخ منه يا مرزيج. سأغادر معك لأننا جئنا معاً إذا لم يُعدّ وجهاًؤنا بحاجة إليّ.

- أيمكن ألا نحتاج إليك وقد فرحنا برؤيتك - قال برج وقد رأى في عيني مرزخوي ما لا يستطيع قوله - لا سرّ عندنا نخفيه عن محمد أفندي، والموضوع الذي نحتاج فيه إليه، وأنت يا مرزيج اصبرْ، سنُشرك فيهِ.

- حياكم الله على الإنسانية التي عاملتموني بها. ولكني لا أكرر ما قلته؛ أنا مغادر. وإن أردتَ يا أفندي أن تنفذ ما قلت من أجل ألا أبقى وحيداً في دار الوجهاء، فسانتظرك في ظاهر القرية القريب.

¹ قبيلة أديغية من المكونات الأديغية الاثني عشر.

الفصل الحادي عشر

كان قلبا مرزخوي محمد الأفندي والفلاح غش مرزيج متباعدين ولو أنهما متقاربان ظاهراً. ولولا أسياولوف النائب لعاشا كسائر الأبراخ الذين تحولوا إلى فلاحين لا يتلاقون ولا يعرف أحدهم الآخر في عالم الأديغة المضطربة.

في البداية يمارس مرزخوي محمد الأفندي الذي بنى الجامع في تامبي حبله بفضل تعاون الناس وتشاورهم ، مُفيداً الناس، دون أن يضّرّ كونه عازباً، طقوس الدين الإسلامي مستفيداً منها. ويخالط المخوش والبسلي في هذه الطقوس كالمآتم وعقود الزواج المهمة. ويعرفونه في تلك الأنحاء أكثر مما يخالط الأبراخ في مركزها وغربها. وفي الستين الماضيتين حين احتُفظ بالضابط الروسي تورناو أسيراً في تامبي حبله، عمل محمد أفندي مع الجاسوس التركي القادم من تركيا عبد الله أفندي دون أن يعرف حقيقته. وبعدها حين استقدم الأبراخ النائب أسياولوف من الداغستان وحتى توجهه إلى روسيا، كان مرتبطاً بأعلى محكمة دينية أبراخية، ومولى وأفندياً لأبراخ منطقة لوبا وفرزه.

وغش مرزيج الفلاح الثاني ولد في قرية نَقارا الواقعة في أعماق جبال ناحية طوابسه. وحين اكتسب قوام الرجال ركب الحصان الوحيد في الدار دون اعتبار لحال والديه الهرمين وغاب عدة سنوات في نواحي الويخ دون أن يعرف أحد مكانه. وتزوج من يتيمة من الساز - الأباطة. وحين عاد إلى القرية برفقة ابنتهما الوحيدة الخرساء كان قد تأخر عن جنازة أبيه وأمه اللذين دُفنا في يوم واحد. ولم يكن أحدٌ يعرف متى يخرج من القرية ومتى يعود إليها لأنه كان يمارس قطع الطريق منفرداً. وأمّا امرأته فلم تعد تبعاً بسيرة الزوج المتنقل بعدما أهلك الجدري ابنتها، فعاشت وحيدة أرملة وغير أرملة. ولكن، لم تكن الدنيا تسعها من الفرح في بضعة الأيام التي يظهر فيها من جديد مرزيج الكبير كما كانت

تناديه هي .

كان السبب في التقريب بين الأبراشيين المختلفين في كل شيء هو النائب محمد أمين: اختار النائب مرزخوي محمد الأفندي من بين بضعة المرشحين الذين فكر فيهم لأنه محتاج إليه بوصفه لا مشاكل في التعامل معه، ولأنه مطيع يأتمر بما يريده، متقن لعمله على طريقة النائب في وصف كل الشيوخ الأبراش. وأما في شأن غش مرزيج الرجل الجسيم فلم يكن للنائب خيار، إذ لم يتردد منذ أول نظرة إليه في اختياره، مدركاً أنه سيكون نغم الحارس المخلص له، المطيع لما يأمره به.

متى قدم النائب مرزخوي محمد الأفندي وغش مرزيج أحدهما للآخر، ومتى كانا معاونين له؟ خلال خمس عشرة سنة أو عشرين، ولو لم تكن هذه من العمر إلا رقة عين، جرت على أرض الأبراش الأديغة مأس كثيرة لا يمكن أن تخطر على بال، في حين ما تزال القمم البيضاء على حالها. وعلى هذه الأرض دوى الرعد، ونزلت الصواعق، وقصفت مدافع جيوش الأعداء، وتناوشت البنادق، واشتبكت الرماح، وتثلّمت الخناجر والسيوف، وتكسرت النصال على النصال. وأقيمت المناحات على المئات، وبقي الكثيرون لا يجدون فرصة ليخلعوا عنهم ملابس الحداد. ومن كان يعرف أن النائب الذي ظن أنه جلب السلام إلى أرض الأبراش سيلحق مسرعاً بشامل إلى روسيا؟ وإذا كان الوضع في الأبراش يبدو كأنه سلام ففي كل مكان تُسمع أغاني القوزاق بدلاً من أغاني الأديغة. وإذا كُفّت المدافع عن القصف، والسيوف عن الصليل، والرماح عن التكسر، فالطرق تُفتّح في الجبال بحجة متقنة، وتُنصب الجسور، وتتوغل القوات الروسية شيئاً فشيئاً إلى بلاد الأبراش.

"وما حاجتي إلى الأفندي الذي أنتظره؟ - سأل غش مرزيج نفسه - حين

ابتسموا في وجهه طمع في بقايا الجبن بين أسنانهم... وحين أخبرتهم أنني مسافر وقد أكلوا إليه ظاهراً المهام الدينية التي لم يستطع النائب خلال سنوات حُلَّها، لم يودّعني وداع صداقة أو إنسانية... - كان غش مرزيج همز وهو تحت الشجرة حصانه ضاعطاً على سرجه فارتعب الحصان، ولكن، كما يقال إن لم يركض قلب الفارس لم يركض حصانه. التفت مرة أخرى إلى من كان ينتظره. ولم يكتف بهذا بل ترجل وأرخى حزام سرجه، ثم شدّه. - أنت مجنون يا غش - ضرب مرزيج بالسوط أسفل رجله. - أكانت غلبتني عزبي فسكتُ حين طلبوا مني المساهمة في الحديث لو لم أكن مجنوناً؟! حتى برج وداور ترجياني في النهاية وواسياني وعاتباني بلطف على كل حال... وانظر أيّ موقف اتخذته مني أخيراً هذا الأفندي!... أيّ أفنديّ هذا الذي كان النائب يصفّه وأمثاله: "قبل أن يصبح مولى صار غازيٍّ موائد"! وديكا الحبش المنفوخان الآخرا؟ كما كان لمّح لي النائب الذي شيعناه، وكما أمّلي أصدقائي الضباط الروس الذين أودّعهم أسراري، سأريكما متى وطّد الجيش الروسي نفسه في أرض الأبراخ نوع الزعامة التي سلبتموها من الفلاحين الأبراخ السُدج. ولكني قبل كل شيء سأعرّف الفلاح الذي أفرطت في إطلاعه على أسراري ثم أهانني، قيمته، ولا يجوز أن تُبقي الصاحب الذي خانك في أسرارك في مرتبة من هم أصدقاؤك وليسوا أصدقاؤك، وكثير من أمثال هؤلاء اقتلعتهم من طريقي... إن لم يكن وشى بي إلى من تركته معهم!... ولماذا أهتّم بمن لن يجدوا شاهداً؟ من بقي لي في الأبراخ هما تسي وأفمعت..."

كان ما يفكر فيه محمد أفندي الذي أوكلت إليه أمور الدين في بلاد الأبراخ، وهو يجري باتجاه السهل الذي ينتظره فيه مرزيج شيئاً آخر: ألجود أني قلت له "... سلوكك غير صحيح لا تدع النساء الرخيصات يتخذنك خديناً. ولا

تتدخل في أمور لا تفيدك" قال لي "ماذا تفهم أنت في العاهرات، أنت عجوز ولست عجوزاً، تعيش عازباً؟ وإذا لم يعجبك فلماذا تحفون ابنتهن المتحررة في بيتكم؟" فأهاني أمام الوجيهرين. الأول مرة أسمع تعريضه بعزوبيتي التي يعلم الله بها؟ ليست هذه أول مرة أسمع فيها هذا التلميح، لا يضرنني في شيء. ولكن وصفه لابنتنا الوحيدة بأنها "متحللة" لن يرضى عنه بكر، ولن أحملة أنا. ولا يكفيه هذا بل يناور بالكلام مذكراً إيانا بضرورة إعادتها إلى الروس الذين تنتمي إليهم. هذا الرجل لن يتوقف عند هذا الحد بل سيتهمني بالقباحات التي مارسها في الأبراخ فيفقد من صاروا أصحابي ثقتهم فيّ. أنا لم أقل شيئاً في شأنه. ولا سألني عنه جماعة برج. بل لا أعرف كيف سينقرانه مني!... ما فعله ما كان يجوز أن يفعله لو أراد أن يعيش محترماً بين الناس. وأنا، ألسْتُ موفد الله، لا أستحق هذه المعاملة منه. الواقع أنه لا مجال لأن أعاتبه أو أنصح. إذ لا يبدو له أثر. أكون مضى في سبيله دون أن ينتظرنني؟ لا مشكلة إن لم ينتظرنني، لم ينتظرنني وانتهى الأمر، والله بيني وبينه. لو عرفت أنه سيفعل بي هذا لبُتُّ ليلتي في مضافة الذين غضب عليهم والذين ترجّوني أن أبقى معهم؛ إذن كانت معرفتي بهم تعمّقت إذ لا بدّ حادثوني في الليل..."

- طال تأخرُك يا مرزخوي! - خرج من الغابة مرزيج.

- أهذا أنت يا مرزيج؟ - نظر محمد أفندي من طرف عينه سعيداً بالصوت الذي عرفه، ثم لامه بلطف: - ظننتك رجعت دون انتظاري!

- أتظنني مثلك؟

- لا يخلق الله شخصين متشابهين يا مرزيج. يختلفان في طباعهما حتى لو تشابها في المظهر.

- أتقصد الرجلين اللذين تركتك معهما يا مرزخوي؟

- الحق أني لا أعرف ما وراء كلامك، ولكني لا أشبههما، ولا أنت تشبههما، ولا هما يشبهاننا.

- لماذا إذن كنت تتأمل فَمَوِيهما؟

- احترس في ما تقوله يا مرزيج، يا من أدعو الله له بالخير، أنت تتجاوز الحدود... - نصح محمد أفندي غريمه، ثم أضاف: - سأقول لك ما طلبه هذان الرجلان اللذان غضبتَ عليهما: ترجياني أن أعيدك إلى مائدتهم، مما رزقهما الله، حين تنطفئ سَوْرَةُ غضبك.

- هل أغتاكما يا مرزخوي - ضحك غش مرزيج من خارج قلبه - لأنني أعرف من سيئاتهما الكثير؟ وهل أنا مشتاق إليهما جداً!

- لم يخلق الله يا مرزيج إنساناً لا محل له على هذه الدنيا الفانية... - ثم سأله عما صبر عليه إلى الآن:- لماذا يا مرزيج تُقحم اسم أسرتي التي لا تُطيقُها كلما نطقت كلمتين ولا تناديني باسمي؟

- وما العيب في هذا؟ - سرت ابتسامة ساخرة على وجه مرزيج - لا يجوز أن نتجافى نحن الاثنين في هذا الوقت العصيب لأن بعض الأحداث جرت بيننا. إن كان يُرضيك ناديتك بالاسم الذي كان يناديك به النائب: الفلاح - مزح مع الأفندي.

- لا، لا، إنسَ هذا، ما تناديني به يرضيني أكثر.

- حسناً يا محمد أفندي - وافق مرزيج بسرعة - سأناديك بما تريد تماماً، ولكن لا تدعنا ننسى صلاة العصر التي أمرنا بها الله. وما شأننا بالرجلين اللذين جعلنا منك موفداً إلينا، لن نزعجهما. لنمضِ إلى نهر شحه غواشه لنصلي على ضفته، ثم نبتهل إلى الله من أجلنا كلينا.

- حسناً. ولكننا سنبتهل إليه، إلى من يحتاج إليه الجميع ولا يحتاج إلى أحد،

ليس من أجل شخصينا فحسب، بل سنشمل بدعائنا الأبرار البؤساء أبناء قبيلتنا، وكل الأديغة أبناء عرقنا.

- حقاً يا أفندي، حقاً، لسنا وحدنا، بل لينل كل المسلمين نصيبهم من خير الله، وليحقق لهم كل خير. يا ربي ما أخبار الشابسغ الذين لا حدود لمعاناتهم؟ حين جاءنا هؤلاء برجائهم وأملهم أرسل الجنرال فيليبسون الذي يزعم جماعة برج أي صديقه موفديه الضباط محتجين، فلم نستطع أن نتكلم بحرية... - ثم قال لنفسه: "هذا ما سيحدث لك إن لم يكن عندك زعيم حكيم".

- ليحمننا وإياهم الله العلي الذي سنقف أمامه مصليين يا مرزيج يا طويل العمر إن شاء الله. - وأضاف محمد أفندي في قلبه إلى مرزيج الذي كان يقوده إلى مكان تأدية الصلاة: "غير أنني لا أعرف إن كان سيغفر لك آثامك أنت" حين توضّأ على الضفة النهر الجبلي التي لا يسمعان فيها ما يقولانه وعادا إلى الضفة العليا بناء على رغبة مرزيج ليكونا أقرب إلى الله، وبسطا سجادتي الصلاة من جلد الماعز، دفع مرزخوي محمد أفندي صاحبه غش مرزيج من الضفة العمودية. ولما لم يكن مستعداً لسماع استغاثة الساقط مسح يديه حين رأى الجثة تتقاذفها أمواج النهر، ووقف وصلى العصر وكأنه لم يفعل شيئاً.

الجوار حيث لا يُسمع إلا خرير النهر، والبعيد، هادئان. ولما لم يكن أحد رآه إلا إن شهد عليه العقاب الوحيد المدوم في السماء فقد أنهى محمد أفندي الصلاة داعياً إلى الله "اغفر لي إزهاق روح عبد من عبادك إذ لا شك أنك على علم بما فعلته كائناً من كان الضحية، وكيفما كان". وطوى سجادة غش مرزيج الذي فارق الحياة مكرهاً، وعلّقها إلى جانب السرج حيث كانت. وهمس في أذن حصان الضحية الذي لم يفهم شيئاً مما حدث، ماسحاً على رقبتة، متجنباً النظر في عينيه. لو لم أبادر أنا لفعل بي ما فعلت به... تعال لن أترك

وحدك.

لم ينتبه محمد أفندي الذي كان يسير بين الحصانين، ممسكاً بلجاميهما إلى أنه لم يركب إلا عندما سهل حصان مرزيج. وما لم يكن يفارق ناظريه هو الجنة التي كان يتقاذفها الماء الجاري. أوهمته حممة الحصان أن مرزيج أفلت من الماء وصعد إلى الضفة العالية فتلقت حوله، وامتنطى حصانه. ثم توغل في الغابة بعدما حث الحصانين قائلاً لنفسه: لماذا أسمح لعينٍ عارضة أن تراني بالمصادفة؟ ولم يسر طويلاً: ابتهل إلى الله جالساً على صهوة حصانه أن يغفر له ذنبه. وتلا دعاء لنفسه.

"ولما كان الله قدّر للمسكين مرزيج الطريقة التي انتهت بها حياته لم أتجاوز أمره تعالى. سيرحمي، وسيحميني. — برأ محمد أفندي نفسه بلسان معسول، وقلق على الحصان المربوط إلى جانبه. — ولكن لا أعرف ماذا سأفعل به. إن أخذته إلى منزلنا، إن رأوني أدور به، شكّ الناس في... وجماعة برج يعرفون أن مرزيج كان ينتظري في ظاهر القرية وأني لحقت به. وإن ادّعيْتُ أنني لم ألتق به فأين أذهب بهذا الحصان ذي العينين الواسعتين الذي بقي معي؟ وإن قيدته في الغابة صارت الدابة البريئة ضحية المفترسات... أفضل حلّ هو أن أدّعي لبرج وجماعته أنني لم ألتق بمرزيج بل رأيت حصانه وحيداً فبحثت عن صاحبه حين لم أجده في ظاهر القرية، فلم أستطع أن أتجاوز هذا المكان. وهم سيتصرفون، غير أنني لا أظنهم سيهتمون بالأمر كثيراً..."

لم تجر الأمور كما خطط لها محمد أفندي: ركب الذين سمعوا الخبر، وعلى رأسهم برج وداور، وتوزعوا على مجموعات، وبحثوا في ظاهر القرية، والأماكن البعيدة في عمق الغابة، وضاف الأتجار العابرة، والسهول، حتى القرى القريبة ومواقع الجيش الروسي. ولكن المساء حلّ دون أن يعثروا على مرزيج، فعادوا إلى

قرية برج.

- لا يمكن لرجال من نوع غش مرزيج أن يختفوا في بلاد الأبراخ، سيظهر أينما كان - قال الفلاح عُمشته مولى، فوافقه، وانصرف كلٌّ إلى عمله.
ما إن صلى محمد أفندي بالمصلين صلاة الصبح في قرية برج التي قضى فيها ليلته حتى جاء فارسان قوزاقيان إلى برج حسن بخبر عثورهم على جثة غش مرزيج.

- أياكون من تأتون على ذكره غير غش مرزيج؟ - سأل برج حسن ثانية الفارسين، واختتم: - ما العمل إن كان هذا، سنقوم بمراسم دفن جثمان المسلم، وننقله إلى قرية نقار.

- نعم أيها الزعيم المبارك، نعم يا حسن بي - وافق محمد أفندي الزعيم الأبراهيمي كأن لا علاقة له بالأمر - لن نبخس جثمان من مات قبل أوانه حقه، سندفنه حسب ما يستحق... كان المغفور له مرزيج صديقي الأكبر سنًا، يعرف أحدنا الآخر جيداً؛ ألسْتُ أفندياً! وسأذهب بشخصي مع من ينقلون الجثمان. أدعوا له بالغفران والرحمة أيتها الجماعة. لنُدعُ الله أن يفتح للرجل الصالح غش مرزيج أبواب جنته!

الفصل الثاني عشر

- تسي وأفمُعُت قادمان، يا زعيم الخير - نقل غمشت مولى الذي يعرف كل من وطئت رجلاه ظاهر قرية برج حبله.
- ليُحقق الله لك كل خير، تفضّل! - قال برج حسن الذي كان يلعب طاولة الزهر مع ابنه أُنزشت ذي العشرين عاماً في اليوم الحزين المتأخر المعتدل، للضيف القادم.

- حياك الله يا زعيم الخير، نحن حاضرون لإجراءات استقبال الضيوف.

- يستحق الضيفان القادمان من توبا البعيدة تسي وأفمُعت استقبالهما بحفاوة. ولكن هذين يجبان لحم الجدايا السمينة فبلّغا الخدم أن يحضّرا لهما منه. مهلاً، من يعرف إن كانا ملاً من لحم الماعز؛ اذبحوا لهما من الخرفان السود.

- إن لم يكونا بخير فقد لا يُطيلان الزيارة تات - قال أُرشت الذي كان يعرف طبيعة تسي.

- الأديغة يضيفون أي شخص كان إن لم يأت بالسلاح يا ولدي - نفّض برج حسن الذي يلبس طوال النهار عدة الحرب لباسه الحربي، وقال لابنه: - تعال يا ولدي نستقبل ضيوفنا عند باب الدار بروحنا الأديغية. لا تُخطئ، قف إلى يساري كما تعرف!

في المساء كان بضعة أشخاص مختارين يسهرون في مضافة برج حسن. وكان بينهم داور بجز الذي أرسلوا وراءه فارساً إلى قريته القريبة.

تتوالى إلى المضافة موائد عليها لحم الماعز ولحم الخروف، والأجبان والألبان، و"باستة"¹ الذرة الساخنة. والنقانق المسلوقة والمشوية، وبركُ الجبن، و"السلامة"². وبين الشباب الذين يؤدون هذه المهمة غمشت الذي يلتقط كل كلمة يسمعه. وأحياناً يخاطب الشباب الذين يتناقلون الموائد بصوت يسمعه الكبار في المضافة:

¹ الطعام الأديغي المعروف إلى الآن، وكلمة "باستا" هي الكلمة الفرنسية pâte التي تعني العجين عموماً، وكثيراً ما يكون الحرف â مسبقاً بـ s ، مما يعني أن الأصل البعيد للكلمة هو paste. وكذا في اللغة الأديغية تعني طحين الذرة المسلوق، أو الذرة أو الرزّ... حتى تصير كالعجين، وتقدم مع اللحم أو الزبدة وغيرها حسب ما يتوفر.

² عجين رقيق مدعوم بمواد أخرى يقلّى بالزيت، ويُقدّم غالباً في المناسبات المفاجئة كالضيوف الطارئین.

- والله لن تصدّق حكمة كبارنا ورشافتهم مهما رَوّوا لك ما لم تسمعها وتعاينها. ليبارك الله في أنسألهم. لا يسمحون للبأخسمة أن تسلبهم عقولهم، ولا ينقض أحدهم كلام غيره. ولا يتمارون. ولا يخالفون تقاليد الأكبر والأصغر سناً. هذا ما يسمى آداب الأدبغة.

- ولماذا لا تقول: أدب الأبرأ، وتقاليد الأبرأ في المناسبات، ورشافتهم ونظافتهم أيها البأس. يقول أحد العاملين في نقل الموائد له.

- اسمع ماذا يقول هذا! - لا يقبل عُمشت مولى ما يسمع. - أليس الأبرأ أدبغة؟ نُفني أنفسنا، نحن الأدبغة، ونحن نتمارى بمثل هذه الأقوال. - وحين يدخل مولى إلى المضافة لتغير المائدة يقول للمسنين كسباً لقلوبهم: - يا مسنينا الأعزاء، يا من أدعو الله من أجلهم بالخير، إن كنتم راعين في شيء من المرح أو الترويح عن أنفسكم فسنستدعي عازف الربابة¹ ليغني لكم من أغاني أجدادنا.

- ما ذكرته حسنٌ أيها الفلاح، - قال تسي - ولكن الأفضل ألا نُفحم مثل هذا في المناسبة التي جاءت بنا إلى اجتماع وجهاء الأبرأ. حين تُرفع الموائد، ونبقى وحدنا سنتحدث في الأمر يا حسن بي، ويا بجز.

- صلاة العشاء يا كبيرنا؟ - سأل حذراً غمشت مولى إلى من خلفه وهو يرفع المائدة، وأصلح التعبير بسرعة: - سيتفهم الله موقفكم إن تأخرتم في أداء الصلاة لأنكم ما شربتم البأخسمة إلا بعلمه.

- أغلقوا الباب، لن يدعنا هؤلاء نتكلم براحتنا. - لم يملك أقمعت مرتوقه إلا أن يصرح بما لم يُطقه.

¹ في الأصل آلة بدائية خاصة بالأدبغة، ترافق غالباً عازف الأكورديون عندهم.

- لا تدعنا نفعل هذا يا مرتوقه - لم يقبل برج حسن ما سمع - لن نعلز
أنفسنا عن عامّة الأبراخ مادام موضوع حديثنا هو الأبراخ، قضيتنا قضيتهم.
- صحيح، أيّد تسيّ برج - إن أبعدنا الفلاحين فعلى من نعتمد؟ لسنا نحن
مثل النائب الغريب... هذه أرضنا نحن الأبراخ. ربينا فيها، ونشأنا، وستنفس
فيها آخر شهقة. ما يقلقك أيها الزعيم الأبراهيمي يُقلّقنا. لن أطيل المقدمات ما
دمتُ بدأت بالموضوع: ما أريد الحديث فيه هو أنه حين وفد إلينا الشابسغ
والويخ قاومتنا الجنرال فيليبسون بكل قوته في شأن الموضوعات الأدغية التي
جاؤونا من أجلها. أوضاع هؤلاء حسب معلوماتنا، أفضت وأنا، سيئة. يحرقون
بلاد الشابسغ قادمين من جهة مدينة إيكاترينا¹. وأرض الويخ محاصرة بالسفن
الحرية. يقول الروس لهم إن محمد أمين صالحنا مع الأبراخ، وأنتم افعلوا مثلهم.
منذ اليوم الأول، أنتم تعرفون هذا، لم أكن موافقاً على صلح الأبراخ - الروس.
والآن ترون جميعكم رأي العين ما جرى لنا. هؤلاء يتسللون إلى أرضنا بـ "ذرائع"
مختلفة.

- ونحن - أهل توبا - سيصلون إلينا. وافق أفضت رقيقه الأسن.
- نعم، نعم - قال تسي، ثم أضاف: - ولكن ليس من أجل أهل توبا
فحسب يجب أن نقلق، بل من أجل بلاد الأبراخ كلها. وسأنظر إلى أبعد من
هذا: بمن فيهم الشابسغ والويخ والساز - الأباطة. أما حان الوقت لنساعدهم
ونرفع من معنوياتهم!
- أتريد أن تقول: يجب أن ندعم هؤلاء بالمقاتلين ناقضين اتفاق السلام؟..
استعجل داور بجز على عادته.

¹ مدينة قوزاقية على الضفة المقابلة للشابسوغ من نهر بشرة، كان فيها قلعة شهيرة. يتردد
اسمها في رواية خان جري لمؤلف هذه الرواية إسحاق ماشباش.

- كل شيء في وقته بحسب أوضاع الأديغة الحالية! - حسم تسي الموقف،
وسأل برج:

- ما رأيك أنت أيها الزعيم المبارك في أن نرد الزيارة لمن زارونا، لأهلنا؟

- لا أدري إن كنا سنزورهم لدعمهم عسكرياً، ولكن كان من اللائق أن نرد
عليهم بزيارة. إن كنتم جاهزين فخيولنا أيضاً جاهزة.

ركب الزعيم الأبراهيمي برج حسن برفقة تسي وأفمغت الطريق إلى بلاد الشابسغ
والويخ فجراً. واستحسنوا بعد تفكير أن يرافق أفندي هذا الجمع، فاصطحبوا
محمد أفندي الذي استدعوه في الليلة نفسها.

لاحظ برج حسن عند الظهر فحسب أن الخمسة عشر فارساً الذين شهد لهم
الصقيع الصباحي بأن نهارهم سيكون صحواً زادوا على الخمسين. ومع أنه لم
يشغل باله بهذا الموضوع فقد قال تسي الذي حدس قلقه:

- لا تهتم يا برج بكثرة عدد فرساننا. ألا تعرف أننا لن نقول للأديغة ماذا
تريدون حتى رافقتمونا في حين لم ندعكم؟ كلما زاد عددنا كان أفضل لوحدة
الأبراخ ووعي الأديغة. ما إن نصل إلى آخر حدود الأبراخ حتى نصرفهم مع
الشكر. وإن لم أخطئ ففرسان توبا الذين أرسلنا إليهم أمس ينتظروننا على ذاك
المرتفع. - ثم أضاف بعد وقفة قصيرة: - هؤلاء يقولون إنهم سيقون مع
الشابسغ العالقين في نار الحرب.

- ولكن يا كبير - تكلم برج من خلال شاربيه ولحيته دون أن يعرف ما وراء
الكلام الذي سمعه الآن - هذا الحشد الظاهر للعبان يزيد على مئة فارس...
ألم تتفق على أن اتفاق السلام يشترط أن لا نذهب إلى إخواننا الشابسغ
والويخ بصفة وحدات عسكرية. بالإضافة إلى أن الجيش الروسي المتمركز أمامنا
لا يقبل أن يجتمع منا أكثر من خمسين فارساً في أرضنا.

- ما العمل إذن إن وجب أن نجمع المجلس الأعلى للأبزاخ ومجلس المختارين؟..
- شدّ تسي لجام حصانه فارتفع في الهواء قليلاً. وتوقف حشد الفرسان من
خلفهم على مسافة غير قريبة ولا بعيدة. - أعلينا أن نستشيرهم ونستأذهم في
هذا أيضاً؟

- علينا أن نخبرهم قبل ثلاثة أيام - ابتسم برج وإن كان ما قاله آله.
- الحق أن هذا لا يجوز!.. أستمعون أيها الفلاحون ما يفعلون بنا؟! على ما
يبدو يا أقمعت افترقنا ونحن لا نعرف شيئاً وتجمّعنا الآن في عمق جبال توبا...
هذا ما فعله بنا النائب الذي تحول قلبه إلى قلب كافر.

- هذا بديهي أيها الزعيم المبارك الذي ندعو له إلى الله، القوموق¹ تخلى عنا في
ساعة البؤس وانصرف إلى جوار الكفار. - وافق محمد أفندي صاحبه تسي.
- يا مرزخوي! - قاطع أقمعت كلام الأفندي - لا يحق لك أن تتكلم هكذا
على النائب الذي وقفت معه سنين وأطعته.

- ما تقوله صحيح يا مرتوقه، يا من أدعو له أن يحسن الله إليه. - وافق محمد
أفندي بصوت خافت أقمعت - ساندت النائب بعلم من الله العلي الذي
يبتهل إليه الناس ولا يحتاج هو إلى أحد. ولكني فارقه كما ترون عندما
انكشف لله وللناس عن جني كذاب. إذا كنا أخطأنا في عهد النائب، كلنا نحن
المجموعة هذه، فلندع جميعاً إلى الله أن يغفر لنا ويرحمنا لأنه يحب التائبين. قولوا:
آمين!

- إذا كان الله يحب التائبين يا أفندي يسرنا أنك انضمت إلينا، ونحن بقي
دُكرُ النائب على ألسنتنا بالخير وبالشر سنوات عديدة. - حين فرغوا من

¹ يقصد النائب محمد أمين المنتمي إلى قبيلة القوموق كما سبق في حاشية أخرى.

الدعاء اختتمت تسي حاترباي جدال رفيقيه.

- لم ينضم إلينا محمد أفندي فحسب - قال برج مسرعاً - بل أقنعناه أن يكون أفندياً لكل بلاد الأبراخ المسلمين.

- ونحن عندنا بعض العلم بالأمر يا زعيمنا المبارك، خيراً فعلت يا زعيمنا المبارك. - قال تسي - غير أن ما يقلقني في هذه اللحظة ولا أفهمه هو أمر واحد: ليس مذكوراً في وثيقة الصلح مع الجيش الروسي أن علينا أن نستأذن الجيش الروسي في موضوع الخمسين فارساً إذا جمعنا المجلس الأعلى أو مجلس المختائر، أو إذا قررنا السفر إلى مكان ما؛ أليس كذلك؟

- صحيح ليس مذكوراً، غير أن الجنرال فيليبسون ذكره لي مع وفد جاء لهذه الغاية.

- أكان ما أرسله مكتوباً؟ - لم يقتنع تسي.

- لا، بل بلغه لي شفهيّاً القوزاقي سيرديوك.

- أسمعت يا أفمعت، نحن لا نعرف شيئاً.

- كنت قررت أن أطلعكم عليه البارحة ولكن هذا السفر المفاجئ أنساني إياه. - برأ برج نفسه.

- هل أعضاء المجلس الأعلى ومجلس المختائر على علم به ولو لم تُطلعنا نحن الاثنين أيها الزعيم المبارك؟ أمثال هذه من قضايا البلاد... - قطع تسي كلامه، واختتم بالمزاح: - حسن إن كان مجرد كلام فما يخرج من الفم تدرره الريح؛ نحن لم نسمع بشيء ولا نعرف شيئاً. ما رأيك يا أفندي أنت بالموضوع؟ - أيها الزعيم المبارك، ما نمضي إليه الآن، وما نتكلم فيه، وزعيمنا برج حسن الحكيم، كلّه بعلم الله العلي العزيز الذي نحن من أمته، ولذلك سنتصرف بما قرره. ولكن علينا في كل مسائلنا، وفي كل كلامنا، أن نعود إليه طاهرين في أي

وقت.

نظر تسي إلى أفمُغت بطرف عينه يريد أن يقول له: أسمعت تلميحهم إليّ ، متظاهراً بأنه لم يهتمّ بهذا التلميح، وإن كان لونه شحْب، غير أن أفمُغت سأل غير مبالٍ لاعتياده على عدم التوقف عند هذه الأمور:

- ألا ترتاد المرحاض يا مرزخوي؟

- لم يخلق الله إنساناً لا يرتاده يا أفمُغت. أحمل معي إبريق الماء إليه. - أجاب محمد أفندي صاحب اللسان اللطيف جواباً سريعاً غير محضّر.

- أذهب على رجليك؟ - مرة أخرى سخر أفمُغت من الأفندي.

- لا يحملوني! - حسم الحديث باختصار.

- وليس مستبعداً أن يحملوك.

- يا أفمُغت! - لم يُطق داور يجز صبراً - أليس لسخريتك التي ورثتها من أهل توبا حدٌ يوماً ما، كرهناها!

- لتتوقف عن نزقنا نحن الأبخاخ!- في هذه اللحظة صرخ برج، وأضاف بين عتابهم وملاطفتهم: - انظروا بأعينكم وقلوبكم؛ ألا ترون فرسان القوزاق الذين اعترضونا؟

- ماذا ينوي لنا أصحاب القبعات المتوجة بالأحمر¹؟- همس غمشت المولى إلى جاره كوبا هارون وقد أخرجته ليصعبه.

- لا أظن هؤلاء دون نوايا مبيّنة. - غمغم كوبا هارون مستاءً مما يرى. - لأجل هذا أقول لك لا تدعنا نشارك في توديع الزعماء.

- هل خبّأتم رؤوسكم حين وقعت أعينكم على القوزاق؟ - عرض بهم فلاح

¹ أدخل القوزاق تعديلاً على القبة الأدبغية لبتميزوا، وهو أن غطّوا أعلاها بقماش أحمر.

آخر.

- وسيوفنا وخناجرنا ليست مثلومة أكثر مما يحملون. - بادر غمشت بالرد.

- هذا صحيح - ثبت هارون قبعته على رأسه.

- أمام الكفار - يشجع محمد أفندي الأبراخ - الله كبير وقوي. قولوا نحن من أمته، وسيغمرنا بعطفه، وسيحميننا.

- اصبروا أيها الأبراخ، إياكم والحمية، إمض يا تسي - لطف برج بطن حصانه قائلاً لنفسه "من أوصل خبر انطلاقنا إلى بلاد الشابسغ ليلة أمس ولو أننا لم نكتمه؟" - سنلاقي نحن أيضاً سيرديوك الذي ركب ملاقاتنا - أخبر برج حسن الكابتن سيرديوك بنفوره منه من أول كلمة: - لا نخيك بل نسمعك لأنك نقضت تقاليد التقاء مجموعتين من الفرسان على أرض الأبراخ.

- لسنا وحدنا بل أنتم أيضاً تنقضون. - أجاب الكابتن القوزاقي بصوت هادئ معتداً بكتافياته الذهبية وبالفرسان المئة من ورائه، ثم حدد: - أتكلم على الأمر الذي أبلغكم إياه قبل أيام الجنرال فيليبسون وهو ألا يجتمع خمسون فارساً على أرض الأبراخ. وليس هذا وحده، بل اعتراضكم بفرساننا المسلحين لأنكم ماضون إلى أعدائنا الشابسغ الذين يحاربوننا.

- لا يحق لنا، حسب كلامك، أن نزور أبناء قومنا.

- وهؤلاء لو صاحونا مثلكم لسمحنا لكم بالسفر. غير أن هناك أمراً بأن لا تشاركوا أعداءنا في أفعالهم، ولا تساهموا معهم في مشاريعهم.

- وإن جاهدناكم يا سيرديوك القوزاقي بالسلاح! - ارتفع صوت تسي بسبب ما سمعه.

- السلاح يُجابّه بالسلاح - أجاب سيرديوكوف بلا مبالاة ظاهرة، ثم أصلح اسم الاحتقار الذي خاطبه به تسي: - أنا لست سيرديوكوف القوزاقي، أنا

كابتن في جيش قيصر روسيا المنير. وسيرديوكوف هو نسبي. وإذا قلت هذا فلا يعني كلامي أنني أحتقر القوزاق، هؤلاء حماة بلاد روسيا الحاملون راية الفخار. وإن تجاهننا بالسلاح الذي ذكرته يا تسي - الآن ركّز الكابتن على نَسَب تسي، - نقضنا اتفاق السلام بيننا نحن والأبزاخ. وإن كنت تتعهد بنتائج هذا الأمر، واخترته فكما تريد. ولن نقول المزيد في هذا الموضوع لأن ما اعترضناكم لأجله بيّن.

- ماذا نفعل يا برج؟

- في كلام هذا الرجل جانبٌ من الصحة. لسنا وحدنا، نحن الاثنين، من اتخذ قرار الصلح الأبزاخي - الروسي.

- هذا صحيح... ولكن إذا كان هؤلاء سيهينونا في بلادنا هكذا فاعتبره مُلغى منذ هذه اللحظة. امض، سنعود وأذناب خيولنا قطعها القوزاق في عقر دارنا... - ولكن سنجد أيها القوزاقي سيرديوك طرفاً سرية في جبالنا تؤدي إلى الشابسغ!

الفصل الثالث عشر

كما هي العادة في كل زمان في الجبال، لم يسمح الثلج المفاجئ لخبر الإهانة التي أُلحقت أُمس بالفرسان الأبزاخ على طريق طوابسه، أن يسري من بيت إلى بيت، ومن قرية إلى أخرى.

كان للفرسان الذين رجعوا إلى بيوتهم الدافئة وجهاتُ نظر مختلفةٌ إلى الموضوع: بعضهم مثل كوبا هارون تحرقه نار الإهانة، والآخر غمشت مولى فرحٌ لأنه نجا من العاصفة الثلجية. وآخرون لم يكونوا معهم يشمتون بهم إذ يفعلون ما ليس من شأنهم، وغيره يرى الإهانة لحقت به شخصياً. ومن يعلن استعداداه للحرب حاضر. وغيره ممتعض مما حدث لأنه لن يذهب ثانية إلى أسواق القوزاق.

والمخاتير فرحون إذ "الن يشغلهم بعد اليوم بالاجتماعات" ورجلٌ لم يجد الفرصة لجمع حطب التدفئة تأكله زوجته بلسانها. ومن ولدت بقرته حديثاً لا تسعه الدنيا من الفرح. والأسرة التي عندها مريض بالبع المرض تنصّت على همس الريح التي تحمل الثلوج المتناثرة، وتقلق. أمّا الشباب فلا تسأل عنهم إذ لا حدود لسعادتهم: هي فرصة لمغازلة البنات، وزيارتهم في بيوتهم، والأعراس وحفلات الزفاف...

ولأن الحياة حياةٌ فهي تجري في الأبراخ كما تريد دون أن تميز بين الناس ودون أن تستشير أحداً. ولكن الناس يعيشون، كما العادة، كلٌّ حسب نشاطه أو كسله، وخبثه ونجاحه في أموره، هذا على رجليه، والآخر على حصانه. وهذا بيته دافئ، وآخر بيته بارد، وهذا سترته متهرئة، والآخر تلمع مخازن الطلقات الفضية على سترته. وهذا خاوي البطن، والآخر متخم بالطعام والشراب. في قرية تامبي حبله شتاء عنيف: منذ أكثر من ثلاثة أيام تُصَفّر فيها الريح الشرقية. وتمارس فيها العاصفة الثلجية شرورها. ولم تمرّ مضائق فُجّيس وبشّخه بمثل هذه الحالة منذ زمن بعيد. ومثلّ هذا اليوم هو ما يقال فيه إن الكلب لا يُطرّد من الغرفة.

يجلس مرزخوي بكر وجاره دداي إلى نار الموقد بعد الظهر. يشربان الشاي الذي أتت به نُفَسَت. ويأكلان معه من البرك الساخن. ويتسامران.

- كيف تدبرون أموركم يا دداي في شأن حطب التدفئة؟
- لا ننقطع عنه بفضل الله. قبل العاصفة الثلجية جئنا أنا والولد بكمية كافية من الغابة وقطّعناها. - ابتسم دداي وهو يمسد لحيته غير الكثة وشاربيه. -
أتسمح لي ربة بيتي أن أقعد دون حطب! والولد الذي جلبه معي والذي الآن في سن الزواج مثلاً أمه لا يهدأ باله.

نعم، سميّ أخي الأصغر محمد ولدٌ طيب. ولكن لا أعرف لماذا لا يتزوج... -
قال بكر الشارد عما حوله بسبب الشرارات المتطايرة من الحطب المشتعل مع
تقليب الجمر بالملقط. - تقول الجمرات المتطايرة: إن ضيفاً سيأتيكم مع
أخبار.

- أيّ ضيف تتكلم عليه يا بكر في هذا الشتاء القارس؟!
- الضيف يا جاري لا يميز شتاء من صيف. موعده هو مناسبة مجيئه. أقول
فقط ما يفهمه الناس من كلمة "تيشس"¹. إن شاء الله لا تأتينا أخبار أخرى
تدعو للقلق غير هذا. سنجد ما نقدمه لأي ضيف. وإن لم نجد فهل يشبه
الناس الجارَ بالبطل² عبثاً!

- نعم، نعم يا بكر. نعيش مع الجيران وعندنا ضروريات حياتنا. غير أني لا
أعرف حقيقة نوايا الجيش المحتشد حولنا، ونوايا القرى القوزاقية المحيطة بنا.
- أي هذا اليوم احتشدوا حولنا! ألا تتذكر الجاسوس فيدور - فيدور الذي
أحتفظ به في بيت آل تامبي؟

- وكيف لا أتذكر هذا المسكين؟... كنا نسميه بالإضافة إلى فيدور - فيدور
باسم تورناو. جالسناه طويلاً حتى نؤانسّه. عزاني حين فارقت أمي الحياة وبكى
عليها.

- إن كنت تتذكر أن نسبه كان تورناو فَبَعْدَ أسره فحسبُ بدأ الجيش الروسي
يقتحم أرضنا ويقيم القرى القوزاقية حولنا.
- ألا يزال تورناو حياً يا ترى؟ - سأل ددائي الذي رجع خمساً وعشرين سنة
إلى الوراء مستعيداً ذكريات أيام الشباب.

¹ الكلمة من مقطعين: تپ: الجمر، وشس: الراكب.

² يقصد أنّ أياً من جانبي البطل لا يستغني عن الآخر، فكذلك الجيران.

- وماذا تفعل به؟ ليأخذه الله في رحلة لا نهاية لها. ألا يكفي ما جلبه لنا هؤلاء من بؤس!

- صحيح يا بكر. لا يجوز أن نشفق على أمثاله... ولكن لم نكن نستطيع إلا أن نتألم لحاله لأنه صار قريباً منا. - قال دداي، ثم أضاف لنفسه: "وهذه التي تأتينا بالطعام والتي تتخذها ابنةً هي من بناهم"

- نعم، لا يزال حياً. حين أتيت على ذكره مرةً للكايتن سيرديوك تبين أنه كان من معارفه، ويعرف أخباره جيداً. قال لي إنهم كرموه بأعلى الهدايا القيصرية، وسرحوه من الجيش.

- ماذا قلت؟! ما أسمعته عجيب... - أضاف دداي رأيته هو أيضاً بين المصدق وغيره مستغرباً: - ليقدم القيصر إذن للنائب القوموق أيضاً أغلى هداياه! خدعنا نحن الأبراخ على أكمل وجه.

- سأقول لك يا دداي رأيي في محمد أمين النائب.

- قل يا بكر، قل! - فرح دداي كطفل يقدمون له الحلوى. - أودّ معرفة أخبار النائب سواءً مدحته أم لم تمدحه. وأخوك الأصغر محمد أفندي صاحب اللسان العذب عايشه بضع سنين؛ أليس كذلك؟

- ولا أستطيع أن أزعم أنني أنا وأنت وغيرنا لم نكن ننفذ أوامره أو نعترض عليها.

- وهل كان يقيقك على قيد الحياة إن لم تنفذ أوامره!... قال دداي كمن يبرئ نفسه.

- هذا صحيح يا أخي الأصغر، أوافقك. كانت الهيبة سائدة في الأبراخ أيام النائب، وكانت فيها سلطة. والآن يزعم من خرجوا من مخابئهم أنه كان عهد خوف البعض من الآخرين، وعهد إبادة بعضنا بعضاً. وفي هذا صحة أيضاً.

ولكن من الصعب الفصل بين الهيبة والطاعة. أتكون النشارة قليلة حيث يُنشر الخشب؟ ربما اهتمتني بأني أطلق النار على الماضي، وأن ما جرى لم يكن من عادات الأبراخ وتقاليدهم، ولكن لم أكن أوافق النائب على قزته الدين بالدنيا وإن لم أستطع التعبير صراحة عن موقفي. وليس صحيحاً أن تعيش وقلبك موجّه دائماً إلى القبلة حيث الكعبة؛ فللعالم ثلاثة اتجاهات أخرى: الشرق والغرب والشمال.

- تُذكّرني بوالدك الرجل الحكيم يا بكر، ليوجهه الله إلى الخير حيث رحل. كان يروي لنا في طفولتنا أموراً كثيرة مثل رحلاته إلى شت قاله وأستراخان ومواقع كثيرة أخرى. وكان الرجال الصالحون يتخذونه أحياناً مستشاراً ولو أنه كان من عامّة الفلاحين. كان يزور هذا الأسير الهارب تورناو فيدوروف، ربما بدافع الإشفاق. يا ربي، إذا عبرت البحر الأسود باتجاه الجنوب، أهذه هي تركيا، يا بكر؟

- إذا عبرت البحر فيإستانبول من جهة الجنوب الغربي، على ساحل البحر الآخر. يقال إن تركيا خسرت أكثر المواقع التي كسبتها بالحرب.

- إذن ربما كان سبب انتصار الروس علينا هو تخلي تركيا عنا...

- يا دداي لا أعرف ما تقوله، وهل كنا مُلكاً لتركيا حتى تساندنا؟! ألا يكفي كم خدعنا! أنسييت كيف أن أمثال الجاسوس عبد الله كان يذرع أرض بلادنا بصفة أفندي؟ نعم، وكذلك أمثال الجاسوس الروسي تورناو. والنائب أسيايوف ليس أحسن منهما. ولكن ما يختلف به عنهما هو أننا ترجيناه، وهو الذي ينوي التجسس علينا، فأدخلناه بلادنا. جعلنا نعادي نحن أيضاً الروس الذين يحاربهم شامل تحت عباءة الدين، بحجة أنه تفضّل علينا بالإسلام، وأنه ينظم لنا بلاد الأبراخ. وحين لم ينجح مخطط الإمام شامل صالحتنا نحن مع الجيش

الروسي ولحق بشيخه.

- هل روسيا من صالحنا أم الجيش الروسي؟ - استمر دداي الذي ارتاح لسماع بعض الأخبار التي عنده فكرة عنها، في طرح الأسئلة.

- ومن يعرف هذا؟ بعضهم: مع الجيش الروسي، وآخرون مثل أخي الأصغر محمد أفندي مع دولة روسيا. غير أنني لا أثق في أحد. وسأطلعك على رأي العجوز التي في بيتي، والتي لا تسمح برفع مائدتها، تقول: ستظهر حقيقة الصلح بين الأبراخ والروس في الربيع فحسب.

- وهذا أيها الكبير عجيب. غير أن بالي مشغول بمحمد أفندي الذي أرسل وراءه برج على عجل، ولم يعد.

- ونحن، الأسرة كلها، مشغولون بغيباه. أما سمعت كيف فُقد غش مرزيج. نحن نعيش في دنيا تقلق فيها على من يخرج من بيتك إلى أن يعود... مهلاً - انتصبت أذنا بكر من وقع الأقدام الصادر من جهة المسطبة. - لا بد أن أخاه الأصغر عاد حسب القول المأثور: من تأتى على ذكره جالس على عتبة الباب. - وبعدما جلسا مدة دون أن يظهر أحد أنصت بكر ثانية، ثم سأل زوجته التي دخلت وهي تُصلح وضع غطاء رأسها، لا يستطيع صبراً: أليس في البيت أحد! هل عاد سلفك الأفندي؟ لماذا يُخفي نفسه؟

- لم يعد زيكوشو - ابتسمت جانشر على استحياء - جاء من يغازل ابنتنا. - هذا حسن، هذا خير، أيتها الأسرة المباركة - نهض دداي معتبراً أن بقاءه في بيت فيه شباب يغازلون الفتاة، وربما كان بينهم ابنه، لا يليق. - وأنا عائد إلى بيتنا، يكفي ما جلسْتُ عندك. أيُّ شتاء لئيم هذا الذي يعصف بالأبراخ! حين شيع بكر ضيفه إلى الباب المجاور وعاد، همس في أذن جانشر وعيناه نحو الغرفة التي فيها الضيوف الشباب:

- من هؤلاء؟

- عبثاً خرج دداي مستعجلاً - قالت جانشر ضاحكة - ليس من يغازل ابنتنا هذه المرة ابنه. بل عُجْبَس ابن براعنه عُفْس. لا أعرف لماذا لا يهدوون في هذا الجو القارس.

- لا تقولي هذا! نسيت أن ما يجري وراء هؤلاء لا يميز صيفاً من شتاء. - قال بكر بجُبْث، وعاد فسألها: - من إذن تختار ابنتنا بين ابن عُفْس وابن دداي؟

- وهل تخبرك! لن تعرف إلا حين يأتي موعد تنفيذ اختيارها.

- ومتى سيحدث هذا؟

- لماذا يا حسرتي مستعجل على زواج الصبية؟ - جفلت جانشر - أتريد أن تبقى في البيت الخالي وعيوننا تحدّق لامعة في الفراغ؟!

- أنا من يستعجل عليها؟! وهل أنا من يريد أن يبقى في البيت الخالي؟ ندم بكر على ما صدر عنه عفواً، وبرأ نفسه: - والله أنت عجيبة يا عجوز ، تتهميني بما لم يخطر لي. إن كان هذا ظنك طردتهم! لا، لن أفعل هذا فاطمني. وإن أردت الحق قلت لك شيئاً آخر: غجبس بن عُفْس شاب رزين كوالده، جدير أن يؤسس أسرة. ومحمد بن دداي شاب نشيط ومجدّد... ولكن ريثما يؤسس ابن دداي أسرة...

- نعم يا بكر، نعم. - لم تسمح الزوجة له أن يكمل رأيه في ابن دداي، وقالت ما تريد هي: - وسيظهر خطّاب آخرون لابنتنا نات - نات.

- ألم نتفق على ألا ننادي الصبية باسم نات - نات؟ ردّ بكر على زوجته.

- كنا نريد أن يكون اسمها نفست، وأن نناديها نحن به، ولكن هل يمكن أن نُنسي القرية كلها اسم نات - نات؟

- وهذا صحيح، ليكن نات - نات، المهم ألا يكون ناتاشا... لا أعرف إن كان خطّاب آخرون قادمين الآن أيضاً. أليكون القادمُ زيكوشو؟ ألا تسمعين أصوات شباب قادمين. أحدهم، إن لم أخطئ، هو جارنا محمد، - وأضاف بكر باسمًا: - لا بد أن ددای القلق ظن أنّهم يسلبون ابنه خطيبته فأرسلهم. ألا تعرفين أنه لا يتورع عن أيّ شيء يخطر بباله... - غيّر بكر الموضوع مع أنه تذكر أن ددای لم يكن قبل زواجه بالشاب الجذاب - أظن أن ددای نسي أنه يمكن أن يكون للفتاة مئة خاطب.

- يا لمصيّبتنا! ليت هؤلاء الخطّاب الشباب ذوي الدماء الحارة لم يتشاجروا في غرفة الفتاة...

- إن فعلوا هذا، فسأطردهم كما قلت لك... أسمعنين. انصرفت مجموعة براغته، أحسنتم صنعاً، هذا من تقاليد الأديعة. لا تدعينا أيتها العجوز نجلس دون عمل مادام الأصغر منا سنّاً تصرفوا هكذا. أمسكي هذه القطعة الجلدية جيداً لأقصها إلى شرائط رفيعة أحتاج إليها من أجل سرج حصاني.

مع أن الوقت هو وقت العشاء بعد ما غابت الشمس منذ زمن طويل حين تخلد الطبيعة إلى الهدوء فالريح الشرقية لم تهدأ: تصفر فوق الثلوج التي راكمها في أجناب الإسطبلات، وأسافل الجدران، وأجناب الأزقة، وتبعد ما استطاعت منها. وتجمّد ما لا تقدر عليه.

ورغم مُضيِّ بعض الوقت على انصراف آخر الخطّاب من غرفة الفتاة لا تظهر نفست، وبكرّ القلق لهذا السبب ينظر في وجه زوجته، والأخرى تغبّر موضوع الموقف كي لا يبين عليها أثر للقلق أمام زوجها:

- كأن الريح تهدأ.

- حان وقت هدوئها. - ينتصت بكر، ويقترّب من النافذة. - السماء مقمرة

ممتلئة بالنجوم... لماذا لا تخرج نفست من الغرفة؟

- ربما تكون نسيت... الأول مرة تفعل هذا حين ينصرف الخطاب من عندها؟

- والله أنتن النساء طبعكنّ عجيب... أعليّ أن أختبئ من وجه ابنتي ومن وجوه الخطاب؟! إذن سأتفقد المواشي... - يغطي بكر ظهره بالفروة ويخرج من الغرفة. وحين يعود بعد قليل يستغرب ما يرى: - عجيب، لا تزالين وحدك! - ربما أتعجبها جلساؤها، - همست جانشر لزوجها - رأيته مستلقية في الفراش بملابسها فتركتها نائمة.

- هكذا؟ لا بأس إذن... - أجاب بكر باختصار كأنه غير مبالي، ثم غير موضوع الحديث: - نار الوجاق تنطفئ، وكذلك موقد غرفة أخي الأصغر. أحببت أن يجد غرفته دافئة إن عاد الليلة بالمصادفة. لم يخطئ الأخ الأصغر الذي كان بكر مشغول البال لأجله كأنه يعرف: ما إن أذكى نار الموقد الذابلة حتى شُع صوت حصان محمد أفندي من جهة الفناء. وحين خرج من الغرفة قال لمن تغطي وجهه قطارت ندى الخريف:

- أما كان يمكنك أيها البائس أن تصبر قليلاً فلا تغامر في مثل هذا اليوم؟ ادخل الغرفة، وأنا سأتكفل بخدمة الحصان.

- من كان يعرف أن الثلج غزير في نواحيننا؟

- وهل الجو صاحٍ حيث كنت؟

- حين صحا الجوُّ بعد يومين مثلجين فكّرت أن أفرحكم بمنصبي الجديد، فعرّجت عليكم يا بكر لأني مسافر غداً.

- فيما بعد، لاحقاً - مع أن بكر كان متعجباً من منصب أخيه الجديد الفرح به فقد قال له ثانية - ادخل الغرفة حتى لا يؤذيك البرد.

حين دخل بكر الذي انتهى من خدمة الحصان وجد نفست قد وضعت إبريق الماء والطشت أمام من سيتوضأ لصلاة العشاء، وزوجته جانشر تُعدّ العشاء لسلفها.

- أعطني الحلوان يا تات، عندنا خبر جيد - استقبلت نفست والدها فرحة.
- لبيارك لك الله في كل خير يا ابنتي. إن كنت ستبشريني بما أتوقعه أعطيتك ثمن قماش ثوب.

- أرفق خبر ممت¹ المفرح بهذا، - أبدت نفست حذاءين إلى الكعبين جميلين - على قياس رجليّ تماماً. إن اشتريت لي قماش ثوب جميل فسيليق بهما جداً.
- لا يُلقون في العادة حُطبة مباركة من أجل ما يلبس في الرجلين، ولكن أقول لعمك الذي قلبه عليك: حياك الله. والآن لا تتأخري في ما سأعطيك عليه الحلوان.

- كُلف ممت بمنصب أفندي الأبراخ كلها بدلاً من النائب محمد أمين.
- هذا خبرٌ سارٌّ، أفرحتني، و أفرح لكم جميعاً، أنتِ ووالدتك وعمك. هذا حظ سعيد لآل مرزخوي وإن كانوا أسرة صغيرة. وهو مفخرة للقرية كلها. ولكني لا أحب أن يضيف أخي إلى اسمه هذا التعبير الظالم "بدلاً من النائب".
وأنت يا أفندي كل الأبراخ ما رأيك؟

- نفست قالت هكذا، ولكن الحق أنه لم يخطر ببالي.
- ولا تفكّر فيه! - حسم بكر الموضوع لأخيه، ثم لاطفه: - وأنا لن أفوّت صلاة العصر، سأصليها معك.

حين أدى الأخوان الصلاة، وبقياً وحيدين في الغرفة أكملوا الحديث:

¹ هو ترخيم اسم محمد عند الأديغة.

- المهمة الكبيرة التي كلفوني بها يا بكر ليست من طلي - قال محمد أفندي
- بل قررنا برج وجماعته في المجلس الأعلى للأبزاخ.

- أتبرئ نفسك أمامي؟

- لا، بل لأنك قلت عن النائب كلاماً سلبياً.

- قلتُ لأنه كان يطلب في أثناء تشييعنا أمواتنا أن لا نتكلم بلغتنا بل بلغة القرآن.

- في كلامك شيء من الصحة يا بكر، ولكن خصومه، وأنت تعرف، كانوا يشيعون عنه أموراً من هذا القبيل. لا أقبل كل ما يوجّه إلى النائب من اتهامات لأن الله لا يحب اتهام الإنسان بغير حق. صحيح كان يعرف لغتنا جيداً يا بكر، ولكن الله كان قال له "تعلّم لغتي أيضاً".

- هكذا! - سأل بكر بعدما انتفض برأسه. ثم برأ نفسه ودانها معاً: - تعرفون هذا خيراً منا أنتم قراء القرآن، ومن أدّوا فريضة الحج. أتذكر أن النائب تكلم على رأس الجثمان بلغة أديغية سليمة... حقاً الله عادل، ونحن أمته. وهو حامينا. ولا نخيد عما يبلّغنا إياه موفدوه، وأنت منهم، بقدر الإمكان.

- يسرني يا بكر أن تعدّني بين موفدي الله الأحد الذي يبتهل إليه الناس ولا يبتهل هو إلى أحد. سأقول لك أمراً لم أقله لأحد إلى الآن وإن لم أبلغ بعد هذه المرتبة العالية، مرتبة الموفد: أحياناً أسمع صوت الله... ويحدث هذا بعدما غادر النائب أرض الأبزاخ. ربما لانت قلوب أعضاء المجلس الأعلى للأبزاخ نحوي بعلم الله وأمره.

- لا تشكّ في هذا يا أخي الصغير. كيف تصرف معك تسي حاترباي؟

- تسي الذي من أمة الله واحد من أوائل من رشّحوني.

- هذا أمر جيد. انتبه لأن برج وتسي يتهاوران أحياناً في شأن الأبزاخ. لا تغترّ

بكل ما يقولانه! لا تدع نفسك تخطئ أمام الله الذي أنت موفّده. ليست فطنة كل مخلوقاته متشابهة. أتذكر من جعل والديك - ليرحمهما الله حيث هما - يوافقان حين قررت أن تحج وأنت اهتديت إلى دينه تعالى؟ لو شهدا ما تحقق لك لما وسعتهما الدنيا من الفرح. نعم يا أخي الأصغر، يسرني أن تذكرهما بالخير وتدعو الله من أجلهما، وترعاها في عالم الآخرة. والآن سأسألك في أمر يشغل بالي: ماذا يجري بشأن القرار الذي اتفق عليه الطرفان في موضوع تسليم اللاجئين أو الأسرى إليهم؟ السلام يسود نواحينا بفضل الله...

- ينفذون للجيش الروسي، جيش الكفار بعض ما سألت عنه مما جاء في قرار التسليم، ولو لم يجر الأمر في الأبراخ كما نريد لأن تحقيق ما ليس مفيداً صعباً. - قال محمد أفندي ثم سأله بسرعة: - لماذا السؤال؛ أفي قريتنا أمثال هؤلاء؟ إن كان الأمر يتعلق ببراغنه ميشكا فقد انتقل إلى رحمته تعالى منذ زمن بعيد بعدما اهتدى إلى الإسلام وتحول أدغيغاً حقيقياً. وابنه إسلام مختار قريتنا. وأسير أسرة حمزقوه، إن كنت تسأل عن تورناو فيودور إن كنت تتذكر يا بكر، أرسلناه إلى جماعته. ووسيطنا جان سعيد الأفندي الذي قُتل على يد الجيش الروسي بعدما قدم له هذه الخدمة. كنا أرسلناه بمبادرة من عندنا إليهم. وماذا بعد؟

- ما لمّح إليك به من كان على مائدتنا غش مرزيج... كيف مات هذا الأبله الكبير، ليغفر الله لي؟ وصلتنا أخبار متضاربة.

- وكيف يموت هذا المسكين؟! ربما مات من عناده. حرام أن تشمت بمن مات. وربما كان صحيحاً تجاور الخير والشر في الدنيا. ولو لم يحدث ما حدث له لربما أوقعنا، كل الأسرة، في مشكلة بشأن صبيتنا نفست إذ لا يتورع عن شيء... كان الله قدّر ما سيحدث له مهما تصرف معنا لأن كل إنسان ينتظره

المصير الذي خطّه الله على جبينه. يكفي ما تكلمنا على المرحوم مرزيج. أنت طوال النهار على رجلك، وأنا جاء بي الله من طريق شاقّ، ولذا سنرتاح ليلتنا ودعاؤنا إلى الله على شفاهنا.

- مهلاً، مهلاً يا أخي الأصغر - استعجل بكر وكأن صباح الغد لا ينتظره - كيف نسيت هذا الموضوع؛ أصبح أنهم لم يسمحوا لكم بالسفر إلى بلاد الشابسغ؟

- صحيح، غير أن جماعة تسي سافروا إليهم عبر طريق جبلي لا يعرفه جيش العدو. ولم يأتوا بأخبار سارة. لم يترك الروس بيد الشابسغ شيئاً: بوغوند وأبنة وإيل. ويغزون قبيلة حاكوف. ومن المقرر بعدهم أن يتوجهوا إلى الوبيخ. لا أخبار جيدة، ليحمنّا الله!

- كنت أتوجس من هذا... - تنهد بكر عميقاً - ويقولون إن الربيع سيكون وبالاً على الأبراخ. وسأقول تعليق ددائي على صلحنا: قرّة جلدٍ منفوخة...

- ددائي يقول الكثير... - مع أن محمد أفندي تظاهر بعدم الاكتراث بما سمع فقد أضاف: - ربما لم يكن هذا رأي ددائي وحده... يا إلهي ارحمنا، واحمنا، لا أمل لنا سواك.

الفصل الرابع عشر

يُخَيَّلُ إليك حين يتفجّر الربيع في الغابات الجبلية الواقعة بين مشرق شمس نهر لابا، ومغرب شمس نهر طوابسه، والتي هي بلاد الأبراخ المتجهة نحو الجنوب، أن الشتاء لم يمرّ عليها، ولا عصفت الرياح العنيفة بالثلوج.

شمس ربيع السنة الجديدة القلقة الدافئة هي نفسها التي أشرقت عليها خلال آلاف السنين التي مرّت: السماء المنخفضة - العالية في نظر سكان الجبال زرقاء، ولا شيء فيها إلا الشمس التي تنثر أشعة فرحها، اللهم إلا بعض الجوارح

الحائمة فيها. والأشجار التي تقف على رؤوس أصابعها لتبلغ الشمس الدافئة تبتهج بأوراقها الوليدة. وأشجار الفواكه تتفجر غير قادرة على الصبر فتبرعم بالزهور الملونة، فيشر هواء الجبل الصافي روائحها العطرة. وأطراف الأعشاب المنثورة تحت الثلوج، والتي انكششت على أنفسها فوق الأرض الباردة، ترتفع من جديد وقد عاد إليها وعيها. وقطعان المواشي والخيول من أبقار وخراف وماعز وخيل تبدو في كل اتجاه. وتسمع أصوات شبّابات الرعاة، واصطفاف أسواطهم. وتتجاوب في القرى أصوات بعض الديكة التي نظّف الربيع حناجرها فاحتدت أصواتها. والأطفال الذين استدرجهم النهار الصاحي من بيوتهم يلعبون في مضاحي الشمس. والمسنون يجتمعون على أطراف الأسيجة.

- أترون، وتسمعون ما يفعل الجيش الذي صالحونا معه في جبلنا؟ - سأل أحد المسنين لا يُطيق سماع أصوات اقتلاع الأشجار، وتكسير الأحجار، وغناء الأغراب.

- أتسمعها لأول مرة يا أسلانج؟! - ضحك غمشت مولى الذي لا يراعي تقاليد الكبير والصغير، والذي يتدخل في كل حديث. - ألم يقولوا إن جيش الكفار يشق لنا طريقاً، مكفراً عن منعنا في الشتاء الماضي من السفر إلى الشابسغ بعدما ندم على سلوكه، وأنشأ يعتذر منا بطريقته...

- أيها الشاب، اهدأ قليلاً لتسمعوا ما سأقول لكم - قال عجوز آخر شابته لحيته - حسنٌ أن تفتح طريقاً لا تعثّر فيه، غير أنني أظن أن ما ينشئونه لنا لن يفيدنا. منذ زمان أجدادنا، وخلال السنوات المئة، عمري أنا، كفانا، يا جماعة الخير، الطريق الوحيد الآتي إلى قريتنا برج حبله، لم نستطع أن نهرّته.

- سامحي يا كبير - قال كوبا هارون الواقف في زاوية البناء في حضرة المسنين يستحي من الجلوس خلافاً لغمشت مولى - لا أعرف لماذا يقف هؤلاء في

وجه الربيع. يقصون الأشجار التي شرعت أوراقها تتفتح... يبدو أن شيئاً لا نعرفه يدخل في أمر السلام. ثم إن قريتنا، وما حولها من القرى، ليست الوحيدة التي يفتتحون لها طريقاً... بل في نواحي مايقواب وحجج وخدج...
- ألا يعرف جماعة برج وتسي بكل ما قلته؟ - سأل أسلانج ثانية.
- وهل يمكن ألا يعرفوا يا وجيهنا المبارك؟ - أسرع مولى بالرد بدلاً من هارون الذي وُجّه إليه السؤال - لم يبق لزعماننا شاغل آخر. يذهبون إلى الجنرال فيليبسون ولا يستطيعون مقابله.

- لأنه لا يقيم وزناً لوجهاء الأبراخ؟

- يتذرعون بأنه سافر إلى ستاوربل¹ - شت قاله، فإلى أن يعود.

- سيورطونا في مشكلة وهم يتحججون بهذه الحجة... - قال يدج أسلانج لنفسه، ثم توجه إلى الأحدث سنأ، المتجمعين في مكائهم من المسنين: - أيها الشباب، إياكم أن تسيئوا إلى عمال الطرق كما فعلتم في العام الماضي دون استشارة الأكابر سنأ!

أُخرجت من بيت الفلاح كوبا هارون مائدتان، على أولاهما جرّتان من ماء العسل، وصينية عليها كؤوس، وعلى الأخرى كومة من البرك الساخن، وإلى جانبيهما إبريق ماء يغسلون به أيديهم، ووضعوها كلها أمام المسنين.

- ألق كلمة على شرف الطعام الذي خصّونا به يا أسلانج، ودعنا نتناول منه - قال بلاخوه إبراهيم بعد أن انتهى الشباب من سكب الماء على أيدي المسنين قبل تناول الطعام.

- لا يجوز لي أن أخطب على المائدة بحضورك يا إبراهيم، نسمعك يا من ندعو

¹ التطق الأديغي لستافروبول.

الله أن يُثبِّتَكَ على رؤوسنا المزيّد من السنين. - ردّ عليه أسلانيج.

- إذن سأقول بضع كلمات إن كنتم تحفظون حق المسنّ حسب تقاليدنا. ندعو إلى الله لمن جهّز لنا هذه المائدة كوبا هارون، ولأسرته، أن يتمتعوا بصحة جيّدة، وللنساء اللواتي قُمن بهذه المبادرة أن يفوق الخيرُ في حياتهن الشرّ، والهمومُ من ورائهن، وأن يتمتعن بشيخوخة هادئة مريحة مع أولادهن، وأن يسود السلام في الأبراخ، وأن تُكرِّم الخير لمن يحملونه لنا في قلوبهم، وأن يغلب حظُّنا من لا يودوننا. تفضلوا يا جماعة إلى الطعام!

ابتعد الشباب تاركين اثنين منهم يخدمان المائدة.

لم تدعهم أصواتُ تكسير الأحجار وقلع الأشجار وغناء القوزاق القادمة من المرتفع يمين برج حبله، يحسّون بدفء الفطائر، ولا بحلاوة ماء العسل. وأما الأصاغر سنّاً فهم يتحدّثون بالعيون حتى لو كانوا عاجزين عن التعبير عما يعتل في قلوبهم. ويقول أحدهم لا يطيق صبراً:

- أقول الحق: لا يجوز أن نتحمل ما يفعله بنا هؤلاء.

- ألم تسمع يا هارون ما أوصانا به الوجه المبارك؟

- نترك الكفار يفعلون ما يريدون بهذه الحجة... - غمغم مزحّب الشاب الجسيم ذو الكتفين العريضتين، والذي أُستعيد من القوزاق في العام الماضي. - لا تغتروا بابتساماتهم في وجوهنا، وبمناداتهم لنا بالأصدقاء... يكفي ما ألحقوا بي أنا من العذاب... ربما ما كنتم رأيتموني ثانية لولا المرحوم غش مرزيج.

- وهذا البائس مات على أيدي هؤلاء، كما يقول المثل: من لا يهدأ يسقط أخيراً... - قال كوبا هارون، ثم تظاهر سريعاً بأنه يعدّل كلامه - على كل حال لا أعرف إن قضى على أيدي هؤلاء... انظروا إلى فرسان القوزاق... واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة...

- كفى، - قال مزحِب لرفيقه - لا تصدع رأسك بهم، عددهم سبعة وستون... وعلى رأسهم القوزاقي اللعين الذي مرَّغ فمك بلحم الخنزير بارابليزا ميقول.

- أراه، سأريك أكلَ لحم الخنزير هذا يقبَل حافر حصاني! - خفض مزحِب طرفي كتفيه المديبتين، وأضاف بصوت ألطف: - لولا أن جدي إبراهيم يمنعي...

ومع أذان الظهر، بدأ المسنون الذين سيتوضؤون يقومون من مجلسهم، والأحدث سنأ يتفرقون. وظهر في الشارع بعض المصلين يتوجهون إلى الجامع. - لماذا تتخلف أيها الشاب عن أترابك المصلين؟ - سأل إبراهيم حفيده مزحِب.

- وهل أترك يا جدي وحدك في الشارع؛ سنعود معاً إلى البيت. - ولماذا أنا وحيد؛ أليس الله معي! وعصاي عمادي. امض لا تتأخر عن أقرانك. وأنا لا أزال أسيطر على رأسي ورجلي. وينتظري في البيت ماء وضوئي وسجادة صلاتي. - ثم توقف إبراهيم فجأة وسأل: - أيُّ مرزيج، وأيِّ لحم خنزير، وحافر حصان، كنتم تتحدثون به أنت وهارون إلى أصحابكم؟ لا ترفَّ لي بجفونك مبرئاً نفسك! لا تظن أن الله سدّ أذني إذا كان الهرم قد أوهنني بعض الوهن. تعال، لا تدعني أخطئ في الكلام أمام الله الذي سنقف أمامه للصلاة. هل فهمت يا شاب؟ إن فهمت فهذا هو الأمر. قلت لك ألا تتأخر عن رفاقك. اسمع يا شاب - نادى إبراهيم حفيده - القوزاقي اللعين الذي كان ينوي إهانتك عن طريق لحم الخنزير يُرضيني أن تجربه على تقبيل حافر حصانك ثلاث مرات دون أن تضربه ضرباً مبرحاً. آه يا أيام الشباب المنحوسة من أين أسترجعك؟! شكاً إبراهيم لنفسه وهو يلج باب داره.

- هل أزعجك أحد أيها العجوز؟ - سألته العجوز الرقيقة التي استقبلته.
- من غيرك يزعجني يا ابنة قبيلة بسلني؟ - قال لها، ثم مازحها. - لأني تذكرت ليلتنا الأولى!
- ابتعد عني، لا تُحرّجني! قد يسمعون أحد... ماء وضوءك وسجادة الصلاة جاهزان، ولذا طهر نفسك مما قلته، وقف أمام الله.
- تغدى إبراهيم بعد الصلاة غداءً خفيفاً. وبعدها صحا من غفوته على مقعده الوثير نادى إلى خارج الغرفة:
- إيه، هل تسمعوني؟
- هل تريد شيئاً يا أبنا؟ - دخل إلى الغرفة ابنه باتر الذي تجاوز الستين بقامته الفارعة وزيّه الكامل.
- هذا أنت يا ولد! - سأل ابنه كمن يراه لأول مرة، ثم عاتبه - هل ستركب دون أن تُطلعني على وجهتك؟ أراك تأتقت...
- أليس اليوم يوم الجمعة تات، كنت في الجامع.
- هكذا لا بأس. وماذا يقول من خالطتهم؟
- لم ألتق بإنسان غير مهموم بما يحدث في الأبراخ.
- حقاً، وأنا مهموم كذلك... امض يا ولد وجهّز لي حصاني. ولينفضوا الغبار عن كسائي وقبعتي وحذائي الجلدي وخنجري وحزامي، وبندقيتي ومسدسي أيضاً. ماذا حدث لك أنت وابنك اليوم حتى تتغامزا بعيونكما؟ سأزور برج.
- وكنت سأذهب إلى الجنرال فيليبسون لولا أنك أخبرتني بغيايه - أكّد إبراهيم لابنه باتر الممسك بزمام حصانه: إن كنت لا تريد أن يصقّر سوطي على ظهرك فلا تتعلق بذيل حصاني من حرصك عليّ! دعوني أمض إلى حيث توجهت مرتاح البال. لا بد أن أجد في دار برج حسن من يمسك لي زمام

حصاني وركابه فيساعدني في الترجل. - حث إبراهيم الحصان شاكاً في أن عجزوه وكتته التي لا تظهر في حضرته تراقبانه من النافذة.

لم يكن مقرّر زعماء الأبراخ الذي سافر إليه بلاخوه إبراهيم بعيداً جداً. كان قريباً من الجامع حين تعبر المرعى الفسيح الذي يقيم على كل جانب منه زهاء خمسين أسرة، وتتجاوز بضعة بيوت. وقد راح إبراهيم وغدا في سنواته المئة على هذا الطريق أكثر من ألف مرة. ولكن في هذا اليوم فحسب خطر له أن يقطعه على الحصان فيستثير عجب الناس. وكما يقول هو: من أين يُستعاد الشباب؟ لن تلحق به ولو طارده راكباً.

يتوقف بعض المصلين الذين تأخروا في الجامع قليلاً ويحيّون بلاخوه إبراهيم. ثم يتابعونه بعيونهم مستغربين طريقة امتطائه، وقوامه المتماسك، وأناقته الزائدة، عاجزين عن تفسيرها. وحين بدأ يقترب من الصبيان الذين يلعبون في المرعى لعبة "العُر"¹ توقفوا عن صخبهم. وتوقفت امرأتان لم تعبرا الطريق ريثما عبر.

حين وصل إبراهيم إلى مقر المجلس مستغرباً خلّوً مرابط الخيل من أي نزيل استقبله الرجل الذي في الفناء وساعده في الترجل ممسكاً بزمام الحصان. ورّتب إبراهيم متمهلاً الكساء والسيف والخنجر والحزام والمسدس، وسأل مستقبّله:

- يا ولد هل برج في مقرّ عمله؟ أبلغه إن كان فيه!

- تفضّل يا إبراهيم، تفضل يا زعيم الخير. رأيتك فسررت برؤيتك. - استقبله برج حسن قبل أن يجد الرسول الوقت لإبلاغه.

- حياك الله يا برج، يسرني استقبالك لي على هذا النحو - قال إبراهيم بعدما أدخل إلى الغرفة وجلس - لست وحدي من قدرّته بهذا بل قدرّت نفسك

¹ لعبة لم يدركها جيلي في الجولان، وهي قرص خشبي يدفع بالعصا. القاموس الشرقي.

أيضاً. هذه هي العادة في عالمنا الأديغي. وهذا ما يمنحنا القوة لنعيش. ولكن ماذا يقال يا برج: إن عشت طويلاً رأيت قطعاً حاجاً. أظن أن هذا حدث لي في شيخوختي... لا أتحسّر على ما مضى. لا أريد أن آتي على ذكر النائب عديم الإيمان. أشبّعنا حروباً وفتناً، وفرق بيننا وهو يردد اسم الإمام شامل ويمتدح شجاعة الأديغة. أين هم الآن هؤلاء القوموق؟ أنا أعرف أين هم! ولكن لم آت إليك لتحليل أمور هؤلاء ومتابعتها، بل للسؤال عن أموركم كيف تجري، ربما أعرف شيئاً عنها غير أنني أريد سماعها من فمك أنت.

- أمورنا واضحة للجميع كما تعرف يا إبراهيم، ظاهرة للعيان. نتابع أمور ما لا نفهمه وهو على مرأى منا ومنكم. غير أنه لم يبق الآن مجال للشك في أن الروس الذين صالحناهم خدعونا.

- إن كنت ترى هذا يا زعيم الأبراخ - ما سمعه إبراهيم جعله يتكلم دون تروّ - فالآن أثق بك. اتّضح الآن أنهم خدعونا في العام الماضي حين حثّنا النائب على إقامة الصلح والتعهد أمام الجيش الروسي. وأنت إن فهمت هذا أخيراً فأنا راضٍ عنك. لا تتراجع!

- لو كان الأمر يتعلق برجولتي وحدها أيها الزعيم المبارك لما تراجعتم ولو ضحيث بنفسي. ولكن الحلّ أخيراً لا يتعلق بما نقول نحن ونفعل، بل بما سيكون عليه موقف الأبراخ كلهم.

- ما الأمر؟ هل الأبراخ عُميّ، بُكّم، لاحول لهم؟ لو لم يبق غيري لما سمحت لهم أن يتراخوا عن حماية بلادهم. وفي هذا الشأن كان جدك صديقي العزيز يقول: "إذا كان الصوت الخافت أو الصوت العالي صوت القوم فالجميع سيسمعونه وسيفهمونه"

- حياك الله يا كبيرنا الخير على تذكيرك إياي جدي بالخير. ألتسم أتم من

كانوا يقولون: فكِّروا قبل أن تشرعوا في أي عمل، ولا تستعجلوا، ولا تفسحوا مجالاً للخطأ. الموضوع القومي الذي نتكلم فيه الآن يا إبراهيم له مقاربات مختلفة، ولذا نريد تجنب الخطأ. وهذا سيظهر حين يعود الجنرال فيليبسون الذي استدعاه الجنرال إيدوكيموف إلى ستافروبول - شت قاله.

- وهذا يا برج يصلح جواباً لي. متى طلبتم مني القدوم فأنا جاهز في أي وقت. ولكن يسرنا أن تنفذوا المهمة التي أوكلها إليكم الأبراخ بمزيد من التعقل. وداعاً يا برج، ليحقق الله أمانيتكم. - حين اعتمد إبراهيم مدعياً البطولة على راحتيه الرقيقتين سأل كأنه غير مهتم كثيراً بالموضوع: - الحق يا برج، هذا الجنرال إوداكيم¹ صاحب العيون الثلاثة² من أين جاء من جديد بعدما كادوا يقتلعون إحدى عينيه؟..

الفصل الخامس عشر

رغم مُضَيِّ أكثر من ثمانين عاماً على إنشاء قلعة ستافروبول التي صُفِّرت فيها ولعبت الريح الشرقية بضعة أشهر فقد اكتسبت مظهر المدينة بعد ما عينوا حاكماً في تفليس يمثل القيصر، وأرسل هذا الجنرالات الذين سينتزعون من الأديفة أراضيهم بالدم. وليس الجنرالات الروس والقوزاق الذين عاصرتهم القلعة قليلين: سوفوروف، وبارياتنسك، ويرمولوف، وزاس، وفيلميانوف، وفيليبسون، وإيدوكيموف، ومن أيضاً؟... يمكنك أن تذكر أنساب كثير من الجنرالات. ومن الكتاب الروس الكبار من بوشكين وفيستوجيف - مارلينسكي وليرمنتوف، انتهاء بالفرنسي ألكسندر دوما الكبير³، لم يقض ليلة فيها.

¹ النطق الأدبي لاسم إيدوكيموف.

² سيأتي قريباً تفسير هذا اللقب من الكاتب.

³ الكبير أو الأب، وابنه يحمل الاسم نفسه مع لقب الابن، وكلاهما كاتب.

وُلد إيدوكيموف في القرية القوزاقية الكبيرة الواقعة في الشيشان ناروسك عام 1804. وكان والدُ الصبي الذي سماه نيكولاي أحدَ من حاربوا في الشيشان. وعاش في تلك القرية بعدما سُرَّح من الجيش، ومات فيها. وإكراماً لمآثر والده الحربية رعت الدولة نيكولاي إيدوكيموف، وعلمته، وضمَّته إلى الجيش حين بلغ الثامنة عشرة. وبدأ جندياً عادياً، وحارب في القفقاس حتى مُنح رتبة الجنرال، ولقبَ الكونت.

وبعدما أُسرَ الإمامَ شامل في بلاد الداغستان في العام الماضي، أرسله إلى ستافروبول لتقصير أمد الحرب التي تشنها روسيا على الأديغة ممثلُ القيصر في القفقاس الفيلد ماريشال بارياتينسك. والآن هو في انتظار الجنرال فيليبسون الذي لا يوده.

مضى على خدمة إيدوكيموف ثلاثون عاماً، وباستثناء المرات القليلة التي استُدعي فيها إلى بطرسبورغ وتغليس لمداولات حرية فإنه لا يتذكر أنه نام أعزل من السلاح، قائلاً لنفسه "أستريح فحسبُ حين أسمع دوي المدافع وصليل السيوف ووقع حوافر خيل القوزاق، وأتخطى جثث المحاربين الجبلين المتمردين، وأمضي إلى انتصارنا". ويعيش معتداً بالجروح الكثيرة على جسده، حتى تحت المطر كأن لم تنزل عليها نقطة ماء، وكأنه ليس وأمثاله المقصودَ بقول الأديغة "من لا يهدأ يسقطُ أخيراً". ويلقبه الأديغة بسبب الندبة التي تركتها رصاصة تحت عينه اليسرى بصاحب العيون الثلاثة.

أزاح الجنرال إيدوكيموف الورقة التي كان يقرأها قائلاً في نفسه: "سأري الشراكسة الذين ثبتوا عليّ لقب "ذي العيون الثلاثة" كيف هما عيناى" ونهض لا يستطيع الاستمرار في الجلوس. وذرع أرض الغرفة بضع مرات، وعاد فجلس على الكرسي الوثير. والآن امتثلت أمام عينيه كيفية أسره للإمام شامل، وهي

الحادثة التي كانت تروّح عنه بعض أحزانه... ومع أن الجو كان حاراً في بلاد القوموق في الشهر الأخير من الصيف فالجو في جبل أفار باردٌ في أي وقت من العام. الشمس تشرق ولكنك لا تحس بدفئتها. وقرية غونيب التي تشبه عش العقاب عالية حتى إن قبعتك تسقط عن رأسك إذا نظرت إليها. ولا يصل إليها غيرُ طريق واحد. والقرية التي أسره فيها الجيش الروسي محاصرة من كل الجهات، سواءً كان لها مدخل أم لم يكن. ومريدو الإمام يحاربونهم بالرماح حرباً جنونية بلا وعي. ويمر يوم واثنان وثلاثة والطرفان المتواجهان لا يعرفان التراجع. ولم يبق من حلٍّ إلا مئة مختارون من جنود العقيد إفدوكيموف بقيادته شخصياً. وإن استطاعوا فسيشنون هجوماً مفاجئاً على المريدين من وراء الجبل المنتصب القبيح الذي يثقون به. إن شجاعة إفدوكيموف وذكائه هما من أوقع الإمام شامل في الأسر.

"مع أن مشكلة الإمام شامل حلّت بهذه الطريقة فلسْتُ من ينسبون الحلَّ إليه، بل الفيلد مارشال بارتيناسك... — رغم أن ما اعتبره إفدوكيموف إهانةً ظهر عليه من طريقتة في الابتسام فقد أضاف لنفسه خائفاً من أن يطلّع أحدٌ يوماً ما على شعوره نحو الماريشال. — صحيح، صحيح، لا أعتب على أحد. وإن كان الأمر يتعلق بممثل القيصر الفيلد مارشال فالشكر له إذ لم ينسني: عمل على أن يشرفني برتبة الجنرال قيصري المنير الذي أخدمه، وبالوسام الغالي. وهاهو الآن كلّفني أن أخضع شراكسة غرب القفقاس، بل إن لم يستجيبوا لي، أن أطردهم عبر البحر، وليرحلوا حيث يشاؤون... والجنرال فيليبسون الذي استدعيته لا يستوعب هذا الموضوع. يقول "أصالحكم، صالحوني" فيخدعنا ويخدع نفسه أيضاً بالحل الوحيد غير المفيد لنا... القفقاس كلها ستكون لنا نحن، الروس! الأفضل من كل شيء أن نكون نحن مالكيه. متى ما حققنا

مصالح الروس فليقنع الجلبون بالبقية الباقية!" - قطعت الأصوات البشرية التي صدرت من جهة باب الدار أفكار إيدوكيموف، فرتب بسرعة ما على طاولته من أوراق، ونهض: أخبره المقدم فلانسكر الذي دخل توأ:

- الجنرال فيليبسون أتى إليكم يا سيادتكم.

- ليدخل! قال إيدوكيموف الواقف إلى النافذة ويداه خلف ظهره إلى المقدم، وحين سمع صوت الباب استدار، واستقبله ماداً يده كأنه مشتاق إلى ضيفه الجنرال فيليبسون: - يسرني جداً يا غريغوري إيفانوفيتش أن نلتقي ثانية في بلاد الشركس ونحن أحياء وبصحة جيدة. كيف قطعت الطريق؟ كيف تصرف معك أعداؤنا الأبراخ - الشركس؟ كيف تجري أمورنا في تلك الناحية؟

- الأبراخ الذين صالحونا في سلام لولا الشابسغ والويخ الساحليون. ولكن قبل أن أطلعك على وضعنا في جهة الغرب من القفقاس يا نيكولاي إيفانوفيتش فأنا أهنئك على أسرك الإمام شامل بصفتك جنراً، وبالمكافآت التي حصلت عليها. وأدعو لك أن تتمتع بصحة جيدة، وأن تكون دائماً موضع ثقة بلادنا العظيمة التي تُسدي إليها الخدمات، وأن تعيش طويلاً لأجلها.

- شكراً لك يا جنرال. غير أنني أظنهم يشيعون عني تقريظات لا أستحقها. أنا كنت مع ممثل القيصر في القفقاس الفيلد مارشال ألكسندر إيفانوفيتش بارياتينسك الذي أسر الإمام شامل. ولم أفعل إلا أن قاسمته شيئاً من الشجاعة. ومن أجل ألا نتكلم في هذا الموضوع أكثر من هذا فلنقل ما يلي: كل ما يُكالم من مديح للجيش الروسي هو من حق قائده الأعلى القيصر ألكسندر الثاني؛ ليبق على رأسنا يُظننا أطول مدة، ولْيُقَدَّنَا إلى انتصارات جديدة! - توقف قليلاً ثم أضاف - والآن سنتكلم في الموضوع الذي

استضفتك من أجله أيها الجنرال، وسأدخل في الموضوع مباشرة: لا تُرضينا سيرورة أمور روسيا العظمى في القسم الغربي من أرض الشراكسة. من نُجبرهم على الاستسلام يجب أن تعود أراضيهم إلى الروس أيها الجنرال. وإن أشبعنا هؤلاء وبقي شيء للشراكسة فليفرحوا! لا أريد أن أسمع منذ اليوم شيئاً عن الصلح مع الأبخاخ. هذا أحد العوامل التي ستلجم انتصارنا. لم يكن هناك ما يسمى صلحاً وليس الآن!

- لم تكن تفليس جاهلة بمساعدة النائب أسيالوف لنا في موضوع الصلح يا سيادتكم.

- كان هذا أمس، وأول من أمس يا جنرال! - ارتفع صوت إفدوكيموف رغم حرصه على ضبط نفسه. ثم أضاف كاظماً انفعاله: - وما سنتكلم عليه الآن موضوع لا يحتمل المماثلة لأنه موضوع اليوم والغد... ألم تطلع على خبر مشروع تأليف فيديريالية من الشابسغ والوييخ والأبخاخ؟ لا فائدة في مجرد الاطلاع على الموضوع، بل اعتبر نفسك لا تعرف عنه شيئاً. لا يجوز أن نسمح بتأليف الفيدرالية الشركسية التي تستطيع تأليب أوروبا وكل أعدائنا في العالم على أرضنا التي روينها بدمنا الروسي! انتهينا من هذا الموضوع. وكى لا يقول الأبخاخ إن الجنرال الروسي خدعنا، فبناء على أوامر تفليس ستغادر اعتباراً من اليوم جبهة الشراكسة، وتضع نفسك تحت تصرف قائد الجيش الروسي في شمال القفقاس الذي هو أنا.

- أنا محارب في جيش القيصر الذي أودعته شرفي! - نهض الجنرال الذي فهم أن الأمر محسوم، وأضاف مُلصقاً يديه إلى جنبه.

كسر إفدوكيموف الصمت الذي خيم على الغرفة:

- سامحني على أمري غير المرغوب يا جنرال. ما العمل؟ نحن جنود ليس لنا ألا

ننفذ ما نؤمر به. تعال لتتغدى معاً. وإن وافقتني نروّح عن أنفسنا بكأس. ونتكلم المزيد في قضية الشراكسة. حقاً أريد أن أسألك يا غريغوري إيفانوفيتش ما تقييمك لمن صار زعيماً على الأبراخ برج، بعد رحيل النائب أسيالوف؟ لا أذكر من قضى تحت سيفي أهو أخوه أم أبوه... ملأ الشراكسة جسدي بالجروح، ولكنهم ألقوا أنفسهم بأنفسهم إلى التهلكة... - نهض إيدوكيموف مغمغماً وصاحَبَ فيليبسون إلى الغداء.

الفصل السادس عشر

ما يعرفه اثنان لا يعود سراً. سبق خبرُ الجنرال فيليبسون صاحبه، وترك وراءه ستافروبول وبروجني و أوكوب وشتوين، ووصل في اليوم التالي إلى مايقواب. ثم انطلق منها ووصل إلى إيكاترينودار والشابسغ والويخ.

كان لكل إنسان رؤيته الخاصة للخبر الذي شاع في الإقليم الأديغي من شمال القفقاس. ولم يكن تبديل الجنرال الروسي خبراً مستغرباً عند الشابسغ الذين يسكنون جهة أبنة وإيل المحصورتين على شاطئ البحر حيث يُحرق كل يوم عدد من قرى الأديغة إذ كانوا ينظرون إلى كل قائد عسكري على أنه عدو. وكان كل الجنرالات متشابهين في نظر الويخ والساز الذين تصيبهم المأساة نفسها من جهة البحر. والأبراخ الذين عقدوا صلحاً مع الجنرال فيليبسون في العام الماضي وحدهم بلا أجوبة ولا معرفة صحيحة.

ومن عادة الأبراخ لدى حلول مصائب مفاجئة أن يجتمع رجال كل قرية عند الجامع أو مقر المختار. ولكنهم هذه المرة التقوا في برية برج حبله المراقبة للجامع حيث قيادتهم. ومن وقت لآخر كان يزيد عدد المجتمعين بانضمام الوافدين من القرى القريبة. والنساء القريبات من مكان الاجتماع يقفن على نوافذهن، ويراقبن قلقاتٍ على مصير أسرهنّ، أو يرصدن من أبواب دورهن. وبعض

النساء المسنات الملهوفات مجتمعات هنا وهناك.

داور بجز وأفمغت مرتوقه هما من يهدّثان الآن الجمع الذي بلغ قرابة ثلاثمئة بين فارس وراجل. ويقف إلى جانبهما بلاخوه إبراهيم فمن يدري ما قد بيدر من أحد هؤلاء الأبناخ الحادّي الطباع، فيردعه بحمية سنّه. ويتميز خُراش أسلانج بقبعته الكبيرة من بين أقرانه، وهو الذي يمكن أن يكون له تأثير في الجمع. والجميع ينتظرون عودة الوفد المؤلف من برج حسن وتسي حاترباي يرافقهما مرزخوي محمد الأفندي الذي سافر إلى مايقواب صباحاً. ويرفضون أن يتفرقوا.

- ما مصير اتفاقنا بعدما أبعدوا الجنرال فيليبسون؟ - صاح كوبا هارون من بين حشد الفرسان الأحدث سنّاً، المجتمعين في مكان آخر.

- الوثيقة التي عادت إلى يد الجنرال فيليبسون القوزاقي، يا مبارك، هل مرّوها أمأماناً؟.. - ردّ غمشت مولى على كوبا هارون.

- يا غمشت ما أصدقَ شهادتك على صحة معنى نسبك¹ فلا تتحمل أي سؤال، أغلق فمك قليلاً! اعترضه بلاخوه مزحج - لست من سأله هارون.

- لا تُهني في نسب أجدادي يا بلاخوه²!.. ونسبك أنت... لم يُكمل غمشت ما كان يريد، وأكمل بصوت أنعم: - هذا رأيي فحسب... - انسَلّ مولى من بين الفلاحين الذين كان معهم، وعاد إلى الأكابر سنّاً.

- أيها الشباب - نادى داور بجز العاقّة - لا تتهاوتوا أمام الكبار. وثيقة صلحنا معنا نحن. وأما خبر الآخر فنحن بانتظار أن يحمله إلينا زعيمانا

¹ يشير المتحدث إلى نسب محاوره "غمشت" الذي يعني من لا يؤدّه القلب. ويمكن أن يُفهم الاسم إذا أُحسنت النية، وبقراءة مختلفة قليلاً، بمعنى من يوده القلب، تبعاً لفهم حرف الميم فيه؛ أهو حرف نفي أم حرف تعريف.

² يعني بلاخوه: راعي الأفاعي.

الكبيران برج وتسي. تحلّوا بالحلم!

- نسمح للكفار الذين تسللوا إلينا أن يفعلوا ما يريدون بذريعة الصبر والحلم -
أدلى فلاح من الأكابر سنّاً برأيه.

- صحيح. لسنا أحراراً في أن نسير على طرقنا، ونرعى مواشينا في مراعيها،
ونستجر الحطب من غاباتنا. - وافقه شخص آخر.

- وحين نرتاد أسواقهم يفتشنا فرسان القوزاق...

- ولسنا أحراراً في أن نخالط أبناء قومنا الشابسغ والويخ وأن نزور أقرباءنا.

- سمحنا لهم أن يحاصروا أرض الأبخاخ كلها ونحن نبشّ في وجوههم ويشتّون.

- وبعد قليل سيحتل هؤلاء صدور موائدنا، ويعبثون بها.

- أيها الشباب! - رفع بلاخوه إبراهيم عصاه إلى ما فوق رأسه وهزّها -

اهدؤوا قليلاً. دعونا نسمع من قدامناهم، الزعماء! أستمعون يا جماعة الأبخاخ

الذي جمعهم الله في موقف القلق؟ إن سمعتم فهذا حسن، اصبروا! هؤلاء هم

جماعة برج قادمون إن لم تخطئ عيناى. ليذهب عدد من فرساننا يستقبلوهم

ويصحبوهم إلينا!

- يجري اجتماع للأبخاخ في القرية لا نعرف عنه شيئاً - قال برج لتسي مستغرباً

ما يرى في البرية. وسأل أكبر الفرسان المستقبلين خراش أسلاننج: - ما هذا

الحشد الكبير الذي خرجتم منه يا أسلاننج؟ ماذا ينوي هؤلاء المجتمعون؟

- هؤلاء أيها الزعماء المباركون - أجاب أسلاننج شاملاً برج وتسي ومحمد

أفندي - فرسان وراجلة من القرى القريبة، ومن مناطق أخرى جاء بهم الخبر

الذي سمعوه، ينتظرونكم - وحدد بسرعة رأيه الشخصي في المسألة: - ليس

لأنهم حزانى على ما فعلوا بالجنرال فيليبسون في شت قاله وستافروبول، بل

لأنهم لا يعرفون ما وراء الجنرال اللعين إفدوكيموف ذي العيون الثلاث.

- ليأت إلينا ذو العيون الثلاث هذا الذي ذكرت اسمه يا أسلانج إن كان كره حياته! - حثّ تسي حصانه كأنه لم يعباً كثيراً بما سمعه.

أفسح المجتمعون الطريق حين اقترب الفرسان الزعماء القادمون من مايقواب من مكان اجتماع المسنين. وقال محمد أفندي الذي أذن له برج وحاترباي بنظراتهما بعدما رفع جسده قليلاً عن السرج:

- أيتها الجماعة التي أدعو من أجلها الله الذي يتהל إليه الجميع ولا يحتاج هو إلى أحد، أن يغمرها بالعطف والرحمة، دعونا نستمع إلى زعمي المجلس الأعلى برج حسن وتسي حاترباي. هيّا يا حسن بي!

- نحن، تسي وأنا، كنا في مايقواب اليوم. ووصلنا إلى قلعة شتخاله. لم نأت بخبر سار. ولم نقابل الجنرال فيليبسون الذي أبرمنا معه العهد، أخبرونا أنه طُلب إلى إيكاترينودار. وسيزهد منه إلى سان - بطرسبورغ لمقابلة القيصر. غير أنّ عدم عودته إلى نواحيننا مؤكّد. أقول هذا ولكن من يعرف؟

- كنتُ أتوجس من هذا وأنتم تبصمون على العهد... - غمغم العجوز بلاخوه وسأل: - يا برج قل بصراحة. ما فعلوه بالجنرال فيليبسون في ستافروبول لا يهمنا ولم يحزننا، الرجل بشاريه المتهدلّين أهاننا مرات، وخرب بيوتنا. ولكننا مهمومون بمصير وثيقة صلحنا.

- كنا تكلمنا يا إبراهيم يا زعيم الخير أمس في ما ينص عليه إعلان الصلح. ونتيجة للقرار الذي اتخذناه كنا، تسي حاترباي وأنا، ومعنا محمد أفندي، في مايقواب والقلعة التي أنشأها الجيش الروسي على مسافة أبعد في شتخاله. وكنا ننوي الوصول إلى إيكاترينودار ولكن...

- وهذه المرة أيضاً أعادكم القوزاق؛ أليس كذلك؟ - سأل كوبا باسمًا، ثم أضاف ساخرًا وكأنما من نفسه: - ونحن نركب مرات كثيرة، لا يتعلق الأمر

بالركوب فحسب. بل أن يكون سفرك ذا جدوى.

- من يا تُرى يعاند زعيمنا الأكبر سنًا؟! - استنفر محمد أمين في مواجهة الفلاح الذي يقاطع كلام برج، وكأنه لا يعرف اسمه، وأكمل بصوت هادئ: - اصبروا أيُّها الجماعة! نسمعك يا حسن بي، يا زعيم الخير. يتصايح الفلاحون الذين يحتشدون في المواقع البعيدة، مقابل موقف زعماء المجلس الأعلى وبعضُ الأكابر سنًا: - لا نسمع ما تقولون! - أين المبلَّغون؟

- لماذا ليس هنا مثيلُ المنبر العالي الذي كان يتكلم من فوقه النائب؟

- اركبْ حصانك - همس تسي لبرج - يرونك ويسمعونك.

- أيُّها المبلَّغون، بلَّغوا كلامي بخذافيره إلى العامَّة! - ألحَّ برج على المنادين حين استوى على السرج، ثم أضاف بصوت أقرب إلى تبرئة النفس: - أعدكم أن تروا هنا المنبر العالي الذي تطالبون به. أطلب من المخاتير اليوم أن يصنعوا منابر للكلام، ليس في برج حبله وتسي حبله وحدهما بل في كل قرية من قرى الأبخاخ التي كان النائب يخشى أن يعلو عليه أحدٌ فلم يؤسس فيها المنبر. الأبخاخ ولدوا في الجبال ويعيشون أحرار القلب والعقل. ليقولوا ما في قلوبهم دون مناكدة أو مشاحنة! ولكن لن أغفر لمن ينقض عاداتنا الأزلية بحجة أننا أحرار في كل شيء. والآن سأقول لكم رأيي في وثيقة صلحنا: لا يعني إبعاد الجنرال فيليبسون أن الوثيقة التي تحمل خاتمتنا وخاتمهم قد نُقضت. ستظهر حقيقة الوضع حين يأتي أفدوكيم إلى نواحيها كما قيل لنا. أنتم ونحن نعرف أننا لم نركن إلى السلام الذي أقمناه في فترة السنة والنصف الماضية. إن أردتم معرفة الحقيقة فأنا يسوؤني أنهم لم يتيحوا لنا الفرصة لنجيب على مسألة وحدة الأعراق الأديغية الثلاثة، الأبخاخ والشابسغ والويخ، التي طُرحت علينا. ولكن هذه ليست مسألة

محسومة في رأينا، كنا بلّغناهم موافقتنا. وسنعيد خلال هذه الأيام المحاولة.

- صحيح، في الوحدة قوة! - أيدت بعض الأصوات برج.

- وأين كنتم إلى الآن؟ تجرون وراء ذنب الحصان بعدما فوّتَ رأسه. - قال محتداً
بلاخوه مزحج ناسياً أن جده إبراهيم هو كبير الحلقة، ثم اختبأ وراء أترابه.
ولكنّ من كان يخاف منه اكتفى بسعلة مصطنعة متظاهراً أنه لم يسمع شيئاً.

هدأ الاجتماع الذي كان إلى اللحظة كسرب نحل خارج خليته. شمس الظهيرة
تشرق، وفي سمائها القرية العالية بعض الجوارح تحوم. وتتهامس أوراق الأشجار
على جانب البرية، والأبعد منها. وقبعات الثلج التي تلبسها قمم الجبال التي
تتباع من جهة البحر بيضاء ناصعة كعمامة محمد أفندي. وتُسمع بوضوح
أصوات حركات الجنود الروس العاملين في شق الطريق، وحطّابهم، وأغاني
القوزاق.

أطلق الشباب بعض طلقات المسدسات باتجاه المرتفع الذي كانت تصدر منه
أصوات فرح قوزاقية، وردّت عليها مسدسات قوزاقية. ولوّح كل طرف للآخر
بالأسلحة المشهورة. وتبادلا الكلمات الساخرة والصفير.

- هذا لا يجوز! - لم يقبل برج حسن ما يسمع وما يرى. - أوقفوا هؤلاء
المشاغبين! لا تدعونا ننقض العهد الذي بيننا. الأهم اليوم ممن يهاجمونا هو
اجتماعنا، وطريقة تعاملنا مع الوضع الحالي. نحن لن نفارق بلادنا وجبالنا إلى
أي مكان، وليس لنا مكان نذهب إليه. تحلّوا أيها الأبراخ، يا من أدعو الله
لكم أن يرحمكم ويحميكم، بالصبر والحلم. ولنستمع الآن إلى ما سيقوله الزعيم
معاوني تسي، في هذا الشأن وفي غيره.

- سيكون كلامي مختصراً أيتها الجماعة - قال تسي رافعاً جسده عن السرج
- مع أنني كنت خلال سنوات من رافضي السلام الذي أقامه لمصلحته النائب

الغريب الذي لم أكن أضمر له الود فكلُّ الحاضرين في اجتماعنا يرون فائدة هذا السلام في أن سمح لنا أن نلتقط أنفاسنا. وليس النائب الذي نجا بجلده جنباً من يستحق الشكر بل الجنرال فيليبسون الذي أبعد عنا. وأعرف أن بينكم من سيرفع في وجهي احتجاجه: "أليس هذا السلام الخادع الذي أقامه معنا هذا هو من فتح الطريق للأقذار الذين يدبّسون في بلادنا الجنة جبالنا ومراعينا وأهّارنا"، ولكن الأفضل أن نتذرع بالصبر كما ترجاكم برج. وإن وخذنا الأعراق الأديغية الثلاثة فنحن الأبراخ من ستعود إلينا هذه الغابات والجبال والأنهار. ليكن بيننا الوحدة والتفاهم! نحن ستحمينا الرجولة التي وهبنا إياها الله!

- الوحدة! شجاعة الأبراخ! - ردد المجتمعون ملوّحين بخناجرهم فوق رؤوسهم.
- وأنا اسمحو لي أن أمتطي حصاني وألقي كلمة ما - كان الصدى ما يزال يتجاوب في الجبال حين طلب بلاخوه إبراهيم الكلام - أيها الأبراخ، يا من أدعو لكم أن تعمّروا ضعفي ما عُمِّرتُ... - ما إن نطق إبراهيم هذه الكلمات حتى هوى رأسه ميتاً.

لم يفهم المجتمعون ما حدث حين سادت الفوضى صدر الحلقة. ولما سمعوا "كساء اللباد"، "التابوت" فهموا أن إبراهيم الذي أنزلوه من السرج فارق الحياة. وحين رفع الشباب جثمان معمر القرية المحترم، ملفوفاً بكسائه البادي الأسود، واتجهوا به إلى بيته، تبعه كل المجتمعين ممسكين بأزقة خيولهم.

عندما مدّدا جثمان الراحل إبراهيم على أرض الغرفة ووجهه إلى القبلة، ووضعوا خنجره فوق الكساء، قال محمد أفندي الذي كان يُصلح وضع عمامته الزرقاء:

- قضى الله الرحيم سبحانه أن ينتقل إلى رحمته بهذه الطريقة. كلنا بأمر الله.

وكلنا أمته. ما كتبه الله على جباهنا سيكون آخرتنا. ووالدنا المرحوم مرزخوي - ليفتح له الله باب جنته - سمعته كثيراً يُثني على رجولة إبراهيم وطيبته. وحين صارت برج حبله مقر إقامتي تحدثنا مرات كثيرة. كان عجوزاً قوياً تجده عنده الحكمة والراحة.

- نعم، نعم. - قال تسي مؤيداً كلام الأفندي وفي نيته لجُم خطابه الطويل. - كان إبراهيم من رجالات الأبراخ، وكانت رجولته وطيبته متلازمتين. قضى حياته على سرج حصانه، ورحل عن الدنيا من على السرج. ليفتح الله له باب الجنة.

- سيكون الغد اليوم الأول لكبيرنا إبراهيم في الجنة. - تكلم برج على ما لم يخطر ببال الحاضرين.

- حقاً، لماذا لم أتذكر هذا يا حسن بي؟! - انتفض محمد أفندي لما سمعه - اليوم عشية يوم الجمعة. سندفن كبيرنا الذي أنعم عليه الله بأن تُصلى صلاة الجنازة عليه يوم الجمعة غداً. قولوا آمين، ولندعُ له!

الجو اليوم صحو، كما كان أمس، ربما إكراماً للصالح إبراهيم. وبلاد الأبراخ الجبلية معتدلة الحرارة. والسماء التي تزحف فيها بعض مِرَق السحاب الرقيقة البيضاء تبدو عالية. وإذا نظرت من خلال الهواء الصافي الذي اعتادت عليه الأبراخ رأيت الغابات الواسعة، والقمم البيضاء، والدروب المتباعدة، والقرى المتناثرة المتقابلة تبدو في السهول وفي رؤوس التلال.

لاتتسع برية برج حبله للمشاركين في الجنازة كأن الأبراخ وفدوا عن بكرة أبيهم. وهم متوزعون حسب أعمارهم في مجموعات. يتحدثون، كلهم مهمومون بالمصيبة القادمة التي يعرفون عنها شيئاً ولا يعرفون. وكلُّ يروي خبر الجنرال فيليبسون من وجهة نظره، ويمتدحه أو يغتابه. أما الجنرال الذي سيعود إليهم

إفدوكيموف فقد مزقوه إرباً إرباً معتبرين إياه أسوأ من الجنرال زاس. وهناك من لا يقبل هذا الرأي ولكنهم قلة.

لا يزال على موعد إخراج الجثمان من البيت ساعة.

كان الأبخاخ يلقبون الجنرال إفدوكيموف بذي العيون الثلاث ولكن غُمشت مولى ذا العيون الأربع صرخ متعجباً مما يرى:

- انظروا إلى الفرسان القوزاق قادمين!

بعدما وصل الفرسان القوزاق الخمسة تركوا فارسين منهم يمسكان أعنة خيلهم ، ودخل الثلاثة الآخرون من البوابة الكبيرة المفتوحة وألقوا التحية، عزّى العقيدُ الذي أنعموا عليه حديثاً بالرتبة الأسرة والحاضرين:

باسم الجيش الروسي المتمركز في حَجَجْخ، وباسم القوزاق في التجمعات القرية، وباسمنا، نعزّي الأسرة والقرية بوفاة الرجل الطيب والحكيم المعروف أينما كان، بلاخوه إبراهيم. نُحزننا غياباه عنا، وندعو لكم بطول العمر مثله، وبالسلام، وله براحة النفس حيث رحل.

برج حسن الذي ترك تسي ومحمد أفندي بمعرفتهما، وخرج لاستقبال المعزّين القوزاق، أجاب باسم الأسرة المصدومة وباسم الأسرة الكبيرة، وباسم القرية:

- حياكم الله على مقاسمتنا حزننا، متكبدين عناء السفر. جمعنا الله وإياكم على خير، لا على مثل هذه المصيبة، وطوّر علاقات السلام بيننا!

بعدما انتهى الضيوف القوزاق الذين يُلمّون بالعادات والتقاليد الأديعية من تأدية واجبهم وركبوا قال هارون لعدد من يقفون إلى جانبه:

- كان سيرديوك ذو الكنافيات الذهبية اللماعة حلّو اللسان معنا اليوم وإن كنت لا أعرف ما يخفيه لنا...

- وماذا بيده غيرُ هذا! - لم يستطع الفلاح ذو الأذن الحادة أن يتجاوز

الموضوع فأدلى من حيث يقف ببضع كلمات - يستحقون الشكر لمجرد زيارتهم لنا... - وبرج زعيمنا قابلهم بلسان حلو أيضاً... وإن كنت لا أدري ما يعنون بحالة السلم التي بيننا... نتحارب، ثم يدعو بعضنا لبعض!

تجمع الرجال والنساء في مجموعتين على الجانبين لحظة أُخرج الجثمان من الغرفة. وتوسط محمد أفندي الذي سيقوم بإجراءات التأبين الساحة. وبعدها فرغ من الأدعية تجاوز برج، حسب الاتفاق، وأعطى الكلمة لتسي.

الفصل السابع عشر

أواسط ربيع عام 1861.

برزج جراندوقه بعمامته البيضاء ولحيته الشائبة، والذي لا تقدّر عمره بأكثر من ستين سنة، رجل معتدل القامة، متين الجسم. ذرع أرض الغرفة بضع مرات وكأن ما يطؤه ينخسف تحت قدميه، وتوجه إلى النافذة التي تصطخب من ورائها أمواج البحر. وقال لنفسه وهو يتأمل عالم الأديغة - الوبيخ، مهموماً بتأخر ابنه إسلامبج إلى نواحي الأبراخ.: صحيحٌ ما يُقال "أرسل الولد في مهمة، واتبّعه"

قال الحاج برزج في نفسه: "الأبراخ الذين خدعهم محمد أمين النائب وفيلبيسون خبّؤوا رؤوسهم وصمتوا في جباههم لا يعرفون ما العمل." ثم غضب وسأل نفسه عما يربأ بالأبراخ أن يفعلوه: - "أين اختفت رجولة الأبراخ؟ أبهذه البساطة رضخوا كالبيجدوخ للتحالف مع الروس؟.... والقبرتاي الذين أخذهم يرمولوف ليسوا أحسن منهم. و البسلني والأباطة لم نعد نسمع أصواتهم. وتركيا التي لم تساعدنا إلا بالكلام خدعتنا سنوات طويلة، وباعتنا إلى روسيا. والإنجليز والفرنسيون الذين كانوا يقولون: أنتم أحرار، نحن معكم بالقتال، خدعوننا... أبهذه السهولة إذن شتّونا، نحن الاثني عشر فرعاً للأديغة؟ - أنحن - الوبيخ

والشابسغ من بقي في الميدان؟ لا يجوز إلا أن نعيد الفرع الكبير الأبراخ
المخدوعين من الروس إلى وعيهم مهما تصرفوا معنا. وإن قلت ما أقول أيمكن
للأديغة الذين احتل الروس أرضهم بالقوة أن يرضخوا للإهانة بهذه السرعة؟
كنت على حق ولو لم نطعك في مسألة توحيد الأديغة يا زان سفري. ليرحمك
الله حيث رحلت. ربما لم يحدث لنا اليوم ما حدث لو سمعنا كلامك. ومع ذلك
يساندي أيها الكبير في جمع المجلس الأعلى للأديغة الأحرار ولذك قارباتر.
وسنسمع بالكلام العالم كله، ولو تأخرنا قليلاً، وسنفهمهم أننا نحمي حريتنا...
لم يبق لنا مخرج آخر..."

- أناديك يا جراندوقه فلا تسمعي... - لاطفت خاجت التي فتحت الباب
بهدوء زوجها.

- أهذه أنت؟ - سأل الحاج من خلفه، وقال لزوجته: - تعالي وانظري إلى
الشمس التي يمزقها البحر.

- يا لحوفي، ما أشدّ حرمتها!

- وكذلك شمس الصباح وهي تشرق حمراء قانيةً ومع ذلك لا ترعبك!... يا
رب كيف ستكون شمسنا غداً؟ لا داعي لليأس. سيتلو ليلنا نهاراً... وماذا بعد؟
أظن بالك مشغولاً بتأخر الولد؟

- أيهجر الأبناء طرق آبائهم؟

- أظنني سأسافر إن لم يعد اليوم أو غداً لأن طريق الأبراخ خطير، رغم سعادتي
لاكتسابه طباعي.

- لا تدع الوسواس تغزو قلبك، الله معه، ثم إنك أرسلت معه جمعاً غير قليل.
— أليس لأني أرسلت معه جمعاً كبيراً تُفنييني الوسواس! قولي له على لساني متى
عاد أن يختتم سنوات عزوبيته الثلاثين.

- أأنا من لا تطلب منه، ولكنه لا يسمع كلامي؟

- لا يسمعك لأنك تبسمين في وجهه وتدللينه! قولي له على لساني وانظري إن لم يسمعك... مهلاً؛ أليس ما نسمعه وقع حوافر حصان؟ إنه عائد على قول المثل "من تأت على ذكره تجده على عتبة الباب". - أمر الحاج برزج امرأته بصوت حازم: - اصبري يا امرأة، سيجرل من حصانه ويدخل إلى غرفتك ريثما تعودين إليها.

بدأ جراندوقه يتوضأ متظاهراً بعدم الاهتمام بصوت الحصان القادم من الفناء. ووقف على السجادة، ومع أول ركعة دخل إسلامبج الغرفة، وأغلق الباب بسرعة كي لا يقاطع صلاة والده.

وحين أنهى الحاج برزج صلاته استراح في مكانه المفضل كأنه غير متلهف على رؤية ولده، وبدأ يقلب حبات السُّبحة. ولما دخل ولده إلى الغرفة قال له بين العتاب وعدمه:

- خيرَ مقدمٍ يا ولد، أطلت غيابك. ما أخبار الأبراخ حيث كنت؟

- لم نر فيها يا تات أي شيء سارّ. الجنرال أفدوكيم يمد الطرق الحربية إلى عقر دار الأبراخ. وييني حولهم قرى قوزاقية.

- هكذا إذن!... انتظرتُ أن تأتيني بخبر سارّ يا ولد. ما ردُّ فعل الأبراخ المخدوعين إذن؟

- الأبراخ نادمون. يقولون إن الجنرال فيليبسون والنائب محمد أمين خدعانا. وبرج حسن وتسي حاترباي سألا عن صحتك، وأعلماني أنهما يوافقانك في شأن المجلس.

- هذا خبر حسن! - لمعت عينا الحاج الصافيتان الثاقبتان. - هذا يا ولد ما كان يجب أن تخبرني به أولاً. برج حسن وتسي حاترباي رجالان حكيمان.

والنائب الخبيث محمد أمين لم يكن يودّهما. ولو عرفت أن المجلس سيكون سبباً في ضمّ الأبراخ إلى المجلس لأرسلتك إليهما رسولاً يدعوهما إلى نواحيهما.

- لا حاجة لأن ترسلني إليهما. أخبراني يا والدنا أنهما سيأتيان إلينا في الجمعة القادمة.

- أخشى أن تكون أخبرتهم باجتماعنا أنا وقاربتر سفري يوم الجمعة القادم!

- لا، أسمع منك هذا الخبر لأول مرة.

- هذا ليس سراً. ولكن مع هذا أقول: من يعرف... إذا كان برج أخبرك هذا فسنستقبله باحترام. يقولون إن من يتراجع عن خطئه يجعله الله في صحبته. أيّ أصوات خيل تصدر من الفناء؟ ليس هذا سهيل حصانك... - أنهى الحاج سؤاله دون أن يقطع تسيبته، ودون أن ينظر إلى ابنه الواقف إلى جانب الباب.

- هناك ثلاثة أحصنة هي حصتي من عشرة غنمناها من راعٍ قوزاقي في طريقنا من الأبراخ... - قال أسلانج كأنه لا يعير أهمية للموضوع، وأضاف بمزيد من اللامبالاة: - بالإضافة إلى رجل قوزاقي.

- الأحصنة مصدر دخل لنا - قال الحاج دون أن يرفع رأسه الثقيل الذي تليق به العمامة على وجه عريض وأضاف: - وماذا نفعل بالأسير القوزاقي، نطعمه ونؤويه؟!

- وهذا لن نبقه بلا عمل يا تات... سنبادلّه مع أحد التجار الأتراك العابرين بقطعة قماش بنطال متى صار عبئاً علينا.

- وكم عمره تقريباً؟ أنخيف هو أم بدين؟

- في حدود الخامسة والعشرين طويل القامة، قوي البنية.

- وأين هو؟ - سأل الحاج الذي كفّ عن التسيب.

- أمرت بحبسه في غرفة خارج أرض الدار. أستدعيه لك إن أردت.

- ولماذا أدّس البيت بأكل لحم الخنزير. تعال معي ألق نظرة عليه!

خرجوا من الغرفة، وحيّا الرجال الذين يشتغلون في الدار المحترمين بإيماءات رؤوسهم. ومشيا إلى حيث يُحتَفَظ بالأسير، وأسلا نبح يتأخر بضع خطوات عن والده.

الهدوء المخيم على قرية برزج "مُتَخُوا" المتناثرة على ضفة النهر الجبلي "بساخه" ينقضه اصطفاق أمواج البحر القريب. وتتزاحم النجوم التي أيقظها صخب الأمواج وقت حلول الظلام. ويُحَيَّل إليك أن أضواء المصاييح المنزلية من هنا وهناك تتغامز. هبّت الكلاب وتناجحت على صوت إطلاق نار من بنادق، ثم هدأ كل شيء فجأة. والبومة التي خرست على أصوات الكلاب وإطلاق النار عادت إلى النعيق.

- يا ولد - نادى الحاج برزج إلى وراء دون توقف - اعرّفوا من تسبب بإطلاق النار فأفزع القرية! وهذه البومة التي حطّت يقال إنها رمز للشؤم فتدبّروا أمرها!

- حسناً تات، سنتعرف من أطلق النار، ونقرر مصير البومة. - لم يستطع أسلانبح إلا أن يعبر عن قلقه لوالده رغم إعجابه بقامته ومشيته: - لا أعرف ما يتأمل هذا القوزاقي ذو العُرة الذي تذهب إليه؛ إنه لا يكف عن الكلام.

- أتقصد أنه ثرثار؟ سدّدنا أفواه كثير من أمثاله... سأل برزج بلغة روسية سليمة الأسير الذي نخض بقامة رشيقة، مازحاً معه:

- أأنتَ ضيفنا القوزاقي؟

- لا أعرف إن كنت ضيفاً أم أسيراً أيها الحاج برزج، جاء إليك بي ولذك مقيداً على حارك الحصان.

- لا أظنني أوفدْتُ ولدي إلى الأبخاخ وراء أسير. ولكن إن استطاع أن يحملك إليّ فهذا دليل رجولة. تنطق اسمي جيداً يا قوزاقي.
- لأن اسمك على السنة القوزاق كلهم.
- أبخير أم بشرّ؟ - ابتسم جراندوقه.
- أقول لك الحق: يتكلمون عليك بصفة قاطع طريق تخّاب ظالم.
- هذا إذن ما يصفوننا به! - عبّر الحاج عن رأيه الشخصي معتبراً الوصف لا يتعلق به فقط: - مع أيّ أقدر صراحتك يا قوزاقي فإن ما يصفني به قومك مُضحك... على ما يبدو استوليتم على الأرض التي ليست لكم ثم تنظرون إلينا على أننا نهابون... هذا يا ولد ما يحدث لنا نحن الأدبغة الوبيخ... - تخلى جراندوقه فجأة عن روسيته وعاد إلى لغته الوبيخ: - لو أطعنا زان سفري وعقدنا مجلس الأدبغة - الوبيخ لربما ما جرى لنا ما جرى اليوم. - لا بد من أن نعقد المجلس ولو تأخرنا قليلاً. - حين سمع الأسير القوزاقي كلمة "مجلس"¹ رأى الحاج انتفاضة رأسه فتابع بالروسية: - لا تستغرب يا قوزاقي، سنعقد بسرعة الاجتماع الذي سيكون أساس وحدة الأدبغة - الوبيخ. ليس هذا مشكلة بالنسبة إليكم. هيا قل لي اسمك ونسبك. هل قدموا لك العشاء؟
- أطعموني جيداً ولو أيّ لا أعرف مصيري. أنا راضٍ. لم يُهينوني في بيت الإمارة سوى أنهم جاؤوا بي مقيداً على الحصان.
- لست من عامة القوزاق حسب ما أسمع منك.
- لا تحاول أن تدفعهم إلى افتدائي بهذه الحجة - حسم القوزاقي ذو الغرّة الكبيرة الأمر.

¹ وهي في الأصل بالعربية.

- وأنا لم أفكر في مثل هذا... - نظر الحاج برزج الذي سرى على فمه مشروع ابتسامة خفيفة نحو ابنه.

- إن كان هذا ما تقول فسأطلعك على اسمي ونسبي. نسبي هو فويتينكو، واسمي إيفان سافيلفيتش. وأنا من بلدة لاينسكا القوزاقية. وأنا فارس قوزاقي في فوج نيجيغورودسكا.

- هذا الأسير الذي جئتنا به يا ولد من نوع المجانين العقلاء. لا يفهم الوضع الذي هو فيه الآن... - قال جراندوقه لابنه.

- نعم يا محترم، - أسرع فويتينكو الذي امتدحوا اسمه، مصرحاً للزعيم الوبيخ باسمه الأميري - أنا حارس الدولة الروسية!

"اسمع ماذا يقول!... تذكر برزج اسم الأسرة الذي كان سمعه على ضفة نهر لا با قبل قرابة عشرين عاماً. - أكان نسب الحاكم القوزاقي المحلي الذي جابهني بالسيف فويتينك؟ كان يحاربني محدقاً فيّ، مردداً، بالصوت نفسه، وبالكلمات نفسها، ما يقوله لي هذا الذي أمامي. إن لم تحيِّ الذاكرة كان هاجمني بصدر الحصان مسمياً نفسه سافيلي أندريانك... ومن حسن حظي أيّ أزهرت روحه وهو على ظهر حصانه لحظة أهوى بسيفه على ظهري... يا رب ما أغرب ما تتصرف دنيانا دون رحمة!..."

- على ما يبدو - خرج الحاج برزج من أفكاره - كان اسم والدك سافيلي أندريانك.

- نعم يا محترم! - فرح فويتينكو إيفان لما سمع - وأين تعرفه؟

- سمعتهم يذكرون اسمه، لم يكن عديم الرجولة.

- حياك الله يا محترم على ذكرك والدي سافيلي أندريانوفيتش فويتينك بالخير.

ثم اختتم بصوت منكسر: - كان عمري خمس سنوات حين قتل الشراكسة

والدي. ولم أثار له حتى اليوم. ولا أكتمك أن من تشفيت بقتله من الشراكسة باسم والدي ليسوا قليلين. ولكن لو التقيت بالقاتل الفعلي لوالدي لأزهقت روحه وإن كانت فيه نهايتي.

- ليس صعباً أن تجد قاتل والدك. - قال برزج بعدم اكتراث واضح - إنه أمامك!

- أنت من قتل والدي؟

- أنا، صحيح تماماً. أُلستم أنتم والروس من يقولون "من يقابلُك بالسيف يمتُ بجريرة سيفه"؟ - حين نهض الحاج برزج ووصل إلى الباب، قال لمن وراءه: - احلقوا للقوزاقي غرته؛ لا أريد رؤيتها ثانية. وأحرقوا زيه القوزاقي... - وحين وصل إلى غرفة إمارته قال لابنه: - هيا، ادخل إلى غرفة والدتك، ونفذ بسرعة ما ستطلبه منك باسمي.

الفصل الثامن عشر

منذ الزمن البعيد الماضي، والأديغة بعروقتهم الاثني عشر: الأبراخ والبسلني والقيرتاي والجمكوي والبجدوغ والشابسغ والنأخووي والمخوش والحاتقوي والأذمي واليجرقووي والويخ، يعيشون في إقليم شمال القفقاس، بما فيه شرق البحر الأسود وبحر آزوف. والأديغة من أقدم الأجناس البشرية على الأرض. وأراضي هؤلاء الزراعية غنية. ومراعيهم كثيفة العشب. وقممهم مكللة بالثلوج، وغاباتهم ملونة فسيحة. وتبدو سواقيهم المتنوعة كأنها تلتقي وتفترق. الصيف في إقليمهم طويل، والشتاء قصير. وخريفه بين الأحمر والأصفر، وربيعة زهور كثيرة الألوان، نهاراته مشمسة، ولياليه مقمرة غزيرة النجوم. ويُحِيل لمن لم يروا الجنة ويتمنوها أنها هي أرض الأديغة.

يجلس جراندوقه برزج وبرج حسن تحت شجرة الإجاص العملاقة التي تحميها

من شمس الربيع الحارة. يرتدي كلٌّ منهما رغم الجو الربيعي الباعث على الضيق، كساءً صيفياً أسود تزين صدره ظروفُ الرصاص، وقبعة من جلد الخروف الفاحم متناسقة مع الكساء، كأنهما سيسافران في رحلة مقررة. وعلى جانبي كل منهما سيفه وخنجره ومسدسه. وأكسية الساق الرقيقة الناعمة ملفوفة حول كواحلهما.

على المائدة التي رفعوا عنها الفطور جرّة ماء بارد وكأسان. نسيم البحر الرقيق يهز أوراق الأشجار مجتمعةً. وتبدو بعض السفن الروسية البعيدة عن الشاطئ بضع فيرستات. والجبال البيضاء القمم التي تبدأ من طوابسه والغابات الملونة الفسيحة تتبعد إلى جهة أبخازيا القريبة. ولا تُرى في السماء العالية مِرْقَةٌ سحابة. وقرية متخا التي يقطنها أكثر من مئة أسرة تبدو مرتاحة: الأولاد والصبايا الذين لا يعرفون ما ينتظرهم في السنوات الثلاث أو الأربع القادمة يلعبون فيها، وتتقافز فيها الفراشات الملونة، وتتجاوب زقزقات العصفير. وتصدر أصوات طَرَق الحداد من المَحَدَدَة، وتسمع همسات أمواج البحر القريب. ولا تجد في عالم الأديغة راحة للنفس رغم أنه يشبه الجنة.

- عاش زان سفري حتى عاين بنفسه السبب الذي كان من أجله يقول: إن كان الأديغة الذين وهبهم الله مثل هذه الأرض الجميلة السعيدة عاجزين عن توحيد صفوفهم وإنشاء دولة خاصة بهم فستكون نهايتهم على يد الجيش القيصري الذي يدهمهم. وأنت وأنا يا حسن، يا من جعل الله يومه مئة، لم نشهد هذا اليوم فحسب بل نفنى مكتوفي الأيدي. دعونا نفعل ما يترتب علينا: لنعقد المجلس الأديغي الحر، ولننتوجه إلى العالم الحر العادل شفاهاً بما يفعلون بنا اليوم. وسنتجه بمطلبنا أولاً إلى روسيا، وإلى تركيا التي تساندنا ولا تستطيع، وإلى إنجلترا التي نخدعنا، وإلى فرنسا.

- وبولونيا؟ سأل برج حسن المضيف، وفسر بسرعة سبب لهفته عليه: - لأن أهلها تصرفوا معنا على نحو جيد في عصر زان سفربي.
- وهؤلاء، صحيح، يجب ألا نتناساهم.
- لم تذكر يا محترم، حين عددت أسماء أعضاء المجلس الأديغي، البجدوغ والقبرتاي.
- البجدوغ والقبرتاي ليسوا موضع ثقة. هؤلاء صقّوا إلى جانب روسيا.
- ونحن، في عهد النائب، كنا متحالفين مع روسيا.
- لا تخطئ يا حسن، الأبراخ صالحوا روسيا ولم يتحالفوا معها.
- نعم، نعم. كان النائب خدعنا في هذه المسألة. واستفاد الروس من هذا الصلح فأدخلوا قواتهم إلى أرضنا. وحين نقول إننا ندمنا على خطئنا يصمّون آذانهم ويحتلون مراعيينا وأراضينا الزراعية. والجنرال فيليبسون الذي كان يحرص علينا نوعاً ما عمل إفدوكيموف على إبعاده... - لاحظ برج حسن أن فويتينك الذي كان يقطع الحطب نصب أذنيه حين سمع أنساب الجنرالات الروس فسأل:- من هذا الحليق الرأس الذي يتنصت علينا؟
- هل تتذكر يا حسنُ القوزاقيّ فويتينك الذي وقعت ضربة سيفه على كتفي قبل أعوام في نواحيكم؟ هذا ابنه. حملوه إليّ قبل أيام من الأبراخ. أظنه أوقف فأسه حين سمع أنساب الجنرالات الروس وإن لم يفهم ما نقول.
- وهل تتركه حراً في أرض الدار كما أراه! - وحالاً أصلح برج حسن نادماً على ما قاله عن الأسير القوزاقي: - حقاً يعيش بيننا نحن أيضاً أمثالهم وقد تحولوا إلى أديغة.
- أظنك تتكلم على أولاد براغنه ميشكا.
- نعم، على عُقس وإسلام ولدي براغنه ميشكا. وهما الآن من رجالات

- الأبزاخ. وحين سمعا بخبر المجلس الأديغي أيدانا قبل الجميع.
- حقاً هذه هي الحياة، وهذا ما يحدث لنا... وكثير من جماعتنا يساندونهم. غير أنني أشفق على هذا الياثس لأن والده قضى على يدي.
- وهم لا يشفقون علينا.
- نعم، هم ظالمون... ولكن ألا يجب على طرف ثالث أن يوقف الطرفين المتقابلين بالسلاح.
- أظن أيها المحترم أن المجلس يمكنه أن يحل هذه القضية؟
- الإنسان يعيش على الأمل. وهذا الأسير لا أظنه دون أمل... إن كنت تريد أن تفعل خيراً فاصحبه إلى الأبزاخ، وأعدّه إلى جماعته. وما ستكسبونه منه لا أطمع فيه.
- تظاهر برج حسن بأنه لم يسمع ما لم يعجبه رغم انفعاله لما أسندوه إليه، وقال وهو يفتح ساعة جيبه الفضية:
- زان قاربتر تأخر.
- لن نتحرك من مكاننا؛ حان موعد وصوله. سأرسل عدداً كبيراً من الفرسان لاستقبال زان لأن الشابسغ في مشكلة من تواجد الجيش الروسي.
- هل ناديت أيها المحترم؟... - نادى فويتينكا من وراء الإسطبل.
- ما الذي جعل هذا للجوجاً؟ - غضب برج غير متحمل تحرير الأسير.
- لا تنهر هذا المسكين... يعتمل في قلبه الكثير... كما ترى، هذا ما جرى لنا... لا تلم الشاب الأسير الذي همّه هو جماعتك الأبزاخ. روحه كلّها مغروسة في قومه. - في اللحظة التي كان يريد فيها أن يقول لبرج حسن "هذا البائس الذي قُتل والده بسيفي أريد أن أعيده إلى أهله" قطع أفكاره من ناداه:
- أيها المحترم. ليس ما يشتهيهِ هو رائحتي الأبزاخية، الدّم الأديغي الذي لم

يستطع استنفاده، وأرضنا التي لم يستطع احتلالها، هما ما صارا همّة. أسمعك يا حاج فأراك تغيرت عما كنت عليه سابقاً. أظن أن فعل الخير والإشفاق غلبا عليك.

- أهذا رأيك أيها الضيف؟ - توقف الحاج برزج وأردف: - كانت لحانا أيامَ زمان سوداء، ورؤوس أكتافنا متينة، وكلامنا صلباً. في شبابنا لم نكن نكتفي بسيف واحد نكسره في المعركة متشبهين بالطيور الحرة، متكلفين الجنون. ولم يكن جرح واحد فحسبُ يصيب أجسادنا، ولم يكن من ندفنه من الأصدقاء قليلين. منذ عدة سنين نحارب من لا نستطيع أن نُهزمه متنافسين فيما بيننا، محرومين من الأرض، ساعين وراء المديح. ألا مخرج لنا إلا السيف المشهر والخنجر؟ فكرنا أنا وزان قاربتر أن نُسمع صوت مجلس الحرية الأديغي إلى العالم، ونحن نعرف أن هناك من سيقولون: فوّتوا رأس الحصان ويلحقون بذيله. ونتأمل منكم الأبراخ أن تقفوا إلى جانبنا.

- والأبراخ لم يبق لهم أملٌ غيره. ولكن لا أعرف إن كان العالم سيسمعنا.
- يقولون: من لا تناديه لا يجيبك، سنرى ما يحدث. وها هم الشابسغ قادمون.
خرج زان قاربتر الرجل الأشقر القوي بقامته الصلبة، من بين الرجال الكثيرين الذين ترجلوا عند مربط خيل برزج جراندوقه، وخاطب المستقبلين الذين نهضوا لاستقباله واستقبال إسلامبج المعصوبة يده اليسرى، ماشياً على يسار الأخير، وحيّاهم بالأديغية، وليس بـ "السلام عليكم" بالعربية:

- نهاركم سعيد، أيها الكبار!

- ونهارك أسعد - أجاب الحاج برزج على التحية. - تفضلوا، اجلسوا يا قاربتر. كيف حالكم، وما أخباركم. وصلتم في وقتكم فأرحتمونا من الانتظار، مع أنكم اجتزتم طريقاً شاقاً عبر الجيوش الروسية.

- حياكم الله أيها الكبير. نحن جئنا سالمين دون خسائر عبر طريق جبلي سري، غير أن إسلامج مجروح.

- وأنت أيها الشاب ماذا حدث لك؟ - سأل الحاج برزج ابنه كأنه لا يعير أهمية للليد المجروحة.

- رماني قنّاص من الجبل فأصاب عضلة ساعدي.

- لأنكم لم تكونوا حذرين.

- سيشفى إن لم يصل الجرح إلى العظم. على والدك جراح كثيرة أخطر من هذا. - اختتم برج حسن الموضوع.

التقى سكان قرية ماتخوا الكبيرة برمتهم تقريباً في الجامع دون انتظار الأذان. ومع أن المؤذن رأى الحشد فقد توجّساً وصعد إلى المنبر، وأعلم السامعين متجهاً إلى الجهات الأربع بقدوم صلاة الظهر. وفهم المتجمعون من النزول السريع للمؤذن قدوم ضيوف الحاج برزج. وأفسح الشباب الطريق للضيوف.

توقف الحاج برزج عند درج الجامع، وقال للمصلين:

- أيتها الجماعة، سأعرفكم بضيوفنا الأعزاء القادمين من الأبراخ والشابسغ بعد أن نقضي صلاة الجمعة. وستشاور في موضوع لقاء الوبيخ - الأديغة الذي لم نكن نستطيع إجراءه حتى الآن، والذي كانوا يمنعونا منه.

وبعد انتهاء صلاة الجمعة احتشد زهاء ألف رجل، من المصلين، من الخارجين من الجامع، ومن الذين لم يتسع لهم فصلوا في الشارع وفي المحيط حاملين معهم سجادات الصلاة، ومن الجيران القريين من الجامع، بانتظار ما سيقول الحاج برزج وضيوفه. واجتمع كذلك عدد من النساء.

- أيتها الجماعة! خاطب الحاج برزج أبناء قريته - لن أطيل كلامي إليكم في الوقت الذي وقع فيه الأديغة - الوبيخ في مأزق - مهلكة ميؤوس منه، لم يعد

فيه للسيف فائدة. ولا تظنوا إن استخدمت عبارة "مهلكة" أن الحاج جراندوقه برزج أصابه الوهن. الرجولة وحدها لا تكفي. افهموا أننا لن نستطيع الصمود بالسلح وبالقوة البشرية في وجه الدولة العظمى، ودعونا نفكر في المخرج. لا بد لنا من أن نفكر في الدولة التي ستساندنا، وفي النداء الذي نتوجه به إلى العالم نُفهمه أننا وصلنا إلى نقطة النهاية ونحن نحمي أرضنا وحريتنا، وأن نؤسس المجلس الذي سيقوم بهذه المهمة حالاً. وهناك من سيقول لنا "وأين كنتم إلى الآن، الآن صرتم عقلاء!"، ولكن ما العمل؛ ما لم نفعله في وقته ألجأنا إليه الضرورة. ماذا علينا أن نفعل أيتها الجماعة؛ الماء يغلي على النار حقاً ولكنه يطفئ النار أخيراً. نستشيركم. "نؤيدك يا حاج! البلاد، المجلس، الحكومة!" - بعد الهتافات المؤيدة أنهى الحاج برزج كلامه باختصار: - بارك الله فيكم يا أبناء قومي أنا راضٍ عنكم. والآن نعطي الكلمة للضيف القادم إلينا من الأبراخ برج حسن.

- يا كبارنا، ويا شبابنا، وأيتها النساء اللواتي يستمعن إلينا، أيها المسلمون الذين أدعو لكم أن يتقبل الله منكم صلاة الجمعة. سأختصر كلمتي أيضاً. قبل أن آتي إلى بلاد الوبيخ جُبت الأبراخ طويلاً وعرضاً. وتجأوب معنا الناس الذين استشرناهم في المسألة التي طرحناها عليكم. أملنا بعد الله الذي يبتهل إليه الجميع ولا يحتاج هو إلى أحد هو البلاد والمجلس.

- مهلاً، قبل أن تعطي الكلمة إلى شابسوغ زان قاربتر، أرجو منك أيها الزعيم الكبير الحاج برزج، يا من أدعو له أن يجعل يومه مئة، أن تسمح لي بوضع كلمات - خرج من بين الحشد مستنداً على عصاه، ضاغطاً على رأسها، عجوزٌ نحيف يرتدي فراءً من جلد الذئب رغم حرارة الجو، وعلى رأسه قبة قديمة من جلد الخروف المدبوغ. - حياك الله يا حاج على أنك سمعتني.

أكذب عليكم إن قلت إني كنت أعرف والد هذا الرجل زان سفربي جيداً جداً. ولكنني قابلته بضع مرات. واكتسبت منه حكمة. كان لنا رجالاً حكيماء، ليس للشابسوغ جيراننا وحدهم، بل لكل إقليم الوبيخ والأبزاخ. واحتجرتنه تركيا عديمة الإيمان لثُحبط قضيتنا. وحين عاد إلينا فارَّق الدنيا على صهوة حصانه قبل أن يتسنى له تحقيق هذه القضية التي اجتمعنا مضطرين لأجلها اليوم. فلندعُ له أيتها الجماعة لأن أمثاله من الناس الصالحين مثواهم الجنة.

- حياك الله أيها الكبير - نظر زان قاربتر في وجه العجوز سعيداً بما سمع عن والده، بحيث تفهم من نظرتة رغبته في معرفة اسمه.

- أنا يا ولدي يناديني الوبيخ والساز الجليون بـ "وبيخ"، وإن ناديتني باختصار "بيخ" فهو أفضل.

- لتستمع بشيخوختك، ولتتحقق فيها أمنياتك يا وبيخ. أسمعني كلاماً لم يسمعه والذي طوال حياته وطوال عمله بقضايا الأديغة. ولكن، ولو لم أستطع أن أجعل الناس يقولون "الولد مرآة أبيه"، ما جاء بي إليكم هو قلقه - طريقه الأديغي يا وبيخ. لأنهم يقولون: ما لم تفعله في حينه تُضطر لفعله فجأة، ومع أن الإهانة التي يُلحقونها بها تحرقنا جميعاً فإن لم نستفد من الفرجة التي لا تزال مفتوحة أمامنا قبل انقراض الأديغة فسنزول من على سطح الأرض دون جذور. ولأن الشابسوغ الذين أمثلهم يعتقدون أن المخرج الباقي لنا اليوم هو هذه الكلمات الثلاث: البلاد! المجلس! النداء! فأنا أوافقكم باسمهم. وأعاهدكم باسم الله ألا أتردد في تنفيذ ما تكلفوني به.

اختتم برزج جراندوقه الاجتماع بترديد الدعاء لأنه أدرك أنه لا يجوز الكلام أكثر من هذا على الموضوع الذي ما يزال في بدايته.

- الموضوع الذي تكلمنا فيه اليوم في اجتماعنا الوبيخي - قال برزج جراندوقه

حين عاد إلى الغرفة - ما يزال مجرد بداية. ولا تزال أمامنا مهام كبيرة. علينا أن نباشر العمل حالاً في اجتماع موفدي الشابسغ والوييخ من أجل ألا نترك المجال لغيرنا ليقولوا إن الثلاثة الذين اجتمعوا وحدهم في شأن مجلس الحرية تركوا الأعمال دون التأسيس لها؛ ألا يكفي عشرة مختارون من كل عرق؟

- قليل - لم يقبل برج - الأفضل ألا ينقص العدد عن الخمسين.

- سيكون لاجتماع عدد كبير من المندوبين قيمة أكبر - وافقه زان قارباتر.

- دعونا إذن نرسل بعض الموفدين إلى الدول الثلاث دون اعتبار لعدد سكان كل دولة، ولنتفق على ستين ممثلاً. - اختتم برزج بخاتمة قصيرة - سنعقد هنا الاجتماع الأول في الجمعة الأولى من الشهر القادم.

الفصل التاسع عشر

انعقد اجتماع مندوبي الأبراخ والشابسغ والوييخ والساز في 13 حزيران عام 1861 في أرض الوييخ. اجتمع مجلس الأديغة الذي سموه باجتماع الحرية الكبير (البرلمان)¹، وانضم إليه خمسة عشر شخصاً. وقسموا أراضي الأعراق الثلاثة الممثلة في المجلس إلى اثنتي عشرة منطقة. وعُيِّن لكل منطقة مُفَتٍ وقاضٍ ومختارٌ محدودون. وقرروا اختيار المختارين المرتبطين بأماكن عمل محاكم المناطق بمعدل مختار لكل مئة أسرة. وأصدروا الأمر القاضي بتأسيس جيش من خمسة عشر ألف محارب. وتناقشوا في سُبل إيصال أخبار المجلس الذي يقتصر هدفه على توطيد السلم إلى روسيا وتركيا وإنكلترا وفرنسا. واختاروا الأشخاص المكلفين بتحضير النداءات.

ولم يكن الأديغة السُدَّج الذين أسسوا المجلس يعرفون بعدُ أنه اتُّخِذَ في شهر

¹ القوسان من المؤلف. والبرلمان الكلمة الفرنسية كما هي في الأصل.

أكتوبر من العام الماضي 1860 قرار طرد الأديغة من أرضهم في اجتماع القيادة العليا المنعقد في فلاديقيفاس بمعرفة القيصر ألكسندر الثاني، وأن الجنرال بوريس ميليكوف أرسل إلى إستانبول، وأن الأتراك وافقوا¹.

الفصل العشرون

حين رأى دداي على باب برج فُرسان العرس ساعة ابتداء الظلام فهم أن ابنة آل مرزخوي في طريقها إلى بيت عريسها، فنادى ابنه غير مرتاح لطريقة ركوب الأخير:

— ماذا تنوي يا ولد؟ أ تكونون تنوون أن تفعلوا شيئاً من جنون الشباب! لن أسمح لك بخطوة خارج أرض الدار! — أغلق دداي الباب وسدّه بجسده. غير أن محمد قفز بالحصان من السور وأسرع باتجاه الغابة القريبة. لحق الأب بابنه على الحصان، قائلاً في نفسه "لا يجوز أن أتركه يفعل ما يريد، هذا ابنا الوحيد

¹ اتُخذ قرار طرد الأديغة في اجتماع قيادات الجيش العليا في شهر أكتوبر عام 1860 في فلاديقيفاس — ويكتب ف. ن ريباسيف في كتابه "مسألة شركيسيا" — وساهم في الاجتماع الذي ترأسه قائد جيش القفقاس أ.ي.بارياتينسك، وقرر فيه مصير الأديغة الجنرالات د.أ.ميليوتين، وج.ي.فيليبسون، وي.إفدوكيموف ود.ي.ميرسك، وآخرون من ذوي المناصب الكبيرة... وقد تعارضت آراء الجنرالين فيليبسون وإفدوكيموف جداً في مسألة سير حروب شمال غرب القفقاس، ومصير الجبلين. وعلى سبيل المثال ألح فيليبسون على التحلي بالرحمة نحو الجبلين، وعدم شرّ حرب قاسية عليهم، وشغل شركيسيا بالاتفاقيات التجارية بين روسيا وتركيا، وعدم نقضها. ولكن إفدوكيموف نقض كل ما قاله فيليبسون معتبراً آراء الأخير غير صحيحة. ورأى أن يُطرد الأديغة من أراضيهم، ويوطّن مكائهم القوزاق المسلّحون. ووافق برياتينسك، وميليوتين الذي كان وقتها رئيساً للأركان إفدوكيموف فتقرر رأي الأخير. ووقف القيصر إلى جانب إفدوكيموف فهاجم الجيش الأديغة بقيادته على نحو أعنف. وهكذا استأنف الطرفان الحرب المدمرة لهما... "المؤلف.

الذي رزقنا به الله"

حين دخل دداي في الغابة أوقفه الظلام الخفي الذي لا يصدر منه وقع حوافر الحصان. وأنصت: لا يسمع إلا أصوات طيور قلقة في مكان غير بعيد ولا قريب. وارتفع من جهة القرية أصواتُ المحتفلين الطربُ بالعرس. ترجل دداي من الحصان غيرَ عارف السبب. أنصت مرة أخرى متجاهلاً صوت أغنية العرس التي كانت تبتعد. جلس متمسكاً باللجام ومسح الطريق بعينه وأذنيه. وأنصت لعل شخصاً آخر على الطريق. وحين صوّت الحصان هائلاً أذنيه فجأوبه حصان ابنه من الناحية الأخرى توجه إلى مصدر الصوت، ولام ابنه المستند إلى جذع شجرة دون أن يعنّفه:

- هل يجوز هذا يا قليل الحظ؟ لم تترك لي شيئاً لم تفعله بي - ثم قال له وقد همّ أن ينهض لوالده: - كفى، ابق جالساً. لا أحد يرانا. وأنا سأجلس إلى جذع هذه الشجرة. - جلس دداي قليلاً وتابع كلامه: - هذه هي دنيانا... من أين لي أن أدري أننا سنجتمع هكذا في الغابة... لا تحكم على الدنيا بالظلم لأن فتاة ما رفضتك، ولا تعتبر ما جرى إهانة. تفرح إن تُمت في الغابة واكتشفت فجأة طريقاً ما ولكنك لا تعرف إن كانت نهايته سرية أم علنية. ربما كان ما جرى لصالحك. ألا تعرف من أي عرق هذا الذي أهانك؟

- يا والدنا، لو كان الأمر بيدي لما جعلتك تقول مثل هذا... - قال محمد دون أن يرفع رأسه.

- وأنا، يا ولد، لو لم تورطني في المشكلة لما قلت لك ما قلت. لست من عليه أن يقول هذه النصائح. لن أخجل منك لأنه ليس عندي من هو أكبر أو أصغر مني يقوله لك. إن أردت يا ولد فسأقول لك ما دام الموضوع انفتح: ما كنت لأقبل أن تتزوج من ابنة القوزاقي الذي قتل والدي. وجدّتك التي قُتلت

على أيديهم ما كانت لتقبل، ووالدتك...

- نظرة والدتي مختلفة يا والدنا.

- اسكت، هذه أمّ! - ارتفع صوت ددائي، ثم أنهى بصوت اللطف: - محبة الأب والأم لولدهما تختلفان ولو قليلاً. لا تدعنا نقول ما لا يجوز في هذا الموضوع. هيا، لنعد إلى البيت. سنهتئ أنا ووالدتك جيراننا آل مرزخوي وآل براغنه. وأنت متّع نفسك في العرس، لا تُظهر على نفسك...

ترك ددائي ابنه محمد في الفناء لخدمة الحصانين. واستقبلت المرأة متلهفة زوجها لتعرف ما جرى للرجلين اللذين خرجا مسرعين، يلحق أحدهما بالآخر ولو أنها كانت تعرف أن الأسرتين الجارتين تصاهرتا.

- ماذا جرى لكما، الأب وابنه، هذا المساء؟ - إن عرف الناس أصبحتما مهزأة لهم... ألم تبق في القرية فتاة إلا ابنة مرزخوي!

- قولي هذا لابنك الحساس نحو العار، وليس لي. - قال ددائي للمرأة دون أن يرفع صوته، وأضاف بلهجة أنعم: - وأنا لم أتركه دون شيء من العتاب والنصح.

- وأنا سأنصحه. لن نسمح لليأس أن يملكه... - قطع صوت الباب الصادر من جهة الممر كلام "خان" الزوجة، فنادت ابنها معتقدة أنه لن يدخل الغرفة التي فيها والده، بل غرفته هو: - يا محمد، يا ولدي، نحن هنا، تعال، لم تذق لقمة طوال النهار.

تجاوز محمد عتبة الغرفة كأن شيئاً لم يحدث له، ثم الباب، وقال لهما وهو يقف عند طرف الصوفا دون أن يجلس حيث والدّه:

- لماذا تجلسان في الظلام!

- لا أعرف يا حسرتي لماذا لم نشعل المصباح... - نهضت خان كمن تبرئ

نفسها - والعشاء يبرد.

- أطعمي إذن الولد، وأنا سأذهب إلى جيراني. - وحين وصل دداي إلى الباب قال للمرأة من خلفه: - وأنتِ لا تتأخري كثيراً عني.

- يكفي أن أهنئهم غداً... هل أترك الولد وحده في البيت!

- ولماذا أكون وحدي؟.. - لم يقبل محمد كلام أمه.

- صحيح يا ولد. وكما قلت لك شارك في عرس آل براغنه، وامرح مع أقرانك!

- نعم يا محمد، اسمع كلام والدك يَجَنَّبُكَ الخطأ - غيّرت خان الموضوع بسرعة: لن أزور آل مرزخوي خالية الوفاض لأن عندي عجيناً جاهزاً. سأخبر لهم من الشلامه لأجل من سيزورهم في مناسبتهم. وقالت للرجل الذي لم ينزل بعد من المسطبة: وأنت ما كان عليك من بأس لو انتظرتني،- كنا زرناهم معاً.

- حسن أن خطر لك الشلامه يا أم محمد، ولكن لا ضرورة أن تتبعيني فيقول من يرانا: انظروا كيف يمشي المرأة متعلقة به.

- ما تقوله صحيح يا والدنا؛ أوافقك. - قال محمد لأبيه دون أن ينظر إليه بل إلى أمه مبتسماً لها.

- حسن، أنتم الرجال ستظلون تحسبون حساب ما قيل أو سيقال. - ما إن خرج الزوج من الغرفة حتى نظرت خان إلى ابنها راضية وتظاهرت بلومه: - يا محمدي، ألا توافقني مرةً في مسألة ما؟!... نعم يا طفلي الذهبي، أمزح معك فحسب، والدك وأنا راضيان عنك. شارك آل براغنه عرسهم دون أن تُبدي على نفسك شيئاً. كان ميشكا براغنه رجلاً صالحاً. وصلنا معروفه، أنا ووالدك، مرات عديدة، وساعدنا في تأسيس أسرة. وولدها عُفَس وإسلام، وأنت تعرفهما، رجلان يرفعان رأس أبيهما. هما من أهل الأبراخ.

يمضي الوقتُ بطيئاً حين تكون بلا عمل. وإذا كان عقلك ويداك في العمل مضى نهارك لا تشعر به فاستقبلتَ النهار التالي بعد نوم ليلي قصير. انقضت أيام عرس آل براغنه، وتبعها يوم مراسم تقديم العروس لحماها وجاراتها المسنات.

في أيام العرس الثلاثة رقص محمد واستمتع كأن العرس ليس عرس نات — نفس التي لم تتزوج، مخفياً سماعه ما يقوله من وراء ظهره بعض النمامين الباحثين عن الفتنة بين الأسرتين. واليوم هو من يُدير أمور الحفلة. ويحلّ أحياناً محلّ العازف على آلة الإيقاع لأنه ماهر في العزف عليها فيريحه. وحين يبدأ رقص ثنائيات الغزل يُسرّع إلى أجمل الفتيات فيدعوها إلى الرقص متودداً إليها. ويحسّ أقرانه داعياً إياهم إلى مزيد من التصفيق، ويُلهب العرس متجاوزاً دور منظّم أدوار الراقصين والراقصات.

وفي الناحية الأخرى، وراء سقف الإسطبل المنخفض، تُطبخ ألوان الطعام الخاصة بهذه المناسبة: اللحم يُسلق في القدرين الكبيرتين المنصوبتين على النار. وفي أوانٍ أخرى تُهرس الباستا، وغيرهن من النساء يقلبن "البرك"¹ وبعض الفتيان الأقوياء يُقَطّعون الخبز على الطاولة الطويلة المسنودة إلى جدار البيت. ويخلطون في البراميل الخشبية الباخسمه وعصير العسل. ويصفّون على الموائد المتلاصقة التي يجلس عليها كل دفعة أكثر من مئة مدعوّ صحوّ البرك والباستا.

كلما اقترب موعد عصرية جلوة العروس على حماها تعالت أصوات عرس آل براغنه الصاخبة: يُبدي عازفو الأكورديون والربابة وآلة الإيقاع نشاطاً متزايداً.

¹ البرك تجاوزاً، وفي الأديغة: خلوف. قشرة رقيقة من العجين محشوة بالجبنة الشرسية حصراً، أرفع شأناً من الشلامة، وأصعب إعداداً، تقلّى بالزيت، وتقدم في المناسبات الرسمية، وفي الضيافات الطارئة.

وعريف الحفلة من جهته يرقص مع الراقصين غيرَ عابئٍ بجهد يديه ورجليه. ويثني على من يقدمون الهدايا، ويدعو لهم أن يعوض الله ما جادت به أنفسهم مئة ضعف. ويشجع غيرهم على أن يمدوا أيديهم إلى محافظ نقودهم. حين رأى عريف الحفلة الفرسان السبعة الذين ربطوا أحصنتهم ودلفوا إلى الدار، وقف في ساحة المحتفلين وقال:

أيها الجمع، جاءكم ضيوف يقاسمون آل براغنه فرحهم. تفضل يا زعيم الأبراخ المبارك حسن بي. وأنتم يا رفاقه الطيبين. يرجوكم الحاضرون عُرسَ آل براغنه أن تشارك في الرقص فثريهم أخص قدميك، مستعيداً أيام الشباب.

- لن أدعكم تترجوني ولو أن الرِّكَّاب خدَّر أخص قدمي - دخل برج حسن إلى الساحة، وكما العادة في أعراس الأديغة، حين دخل راقصاً وتوجه إلى جمع الفتيات، خرجت الفتاة التي حان دورها في الرقص لترقص معه. وهمس داور بجز في أذن العريف الذي ترجم إلى الجمهور:

- أيها المحتفلون! الجماعة التي يرأسها الزعيم الكبير برج حسن لم تزرنا خالية الوفاض. يقدمون لآل براغنه الذين أسسوا أسرة حصاناً بسرجه، وإلى العروس زناً فضياً وسواراً وفلادة وفُرطين. شكراً لهؤلاء الكبار. والدعاء للشابين اللذين أسسا أسرة أن يعيشا في الأبراخ وقد نمت أسرتهما، دون أحزان وهموم.

كان شخصان فقط ورثا اسم أسرة براغنه ميشكا ذات الأصل الروسي: عُقس ابن زوجته والذي رباه هو، وإسلام الذي ولدته له "عُته" التي تزوجها. هنأ زعيم الأبراخ عُقس ملميحاً إلى أنه كبير آل براغنه، وأنه الأخ الأكبر لإسلام، وأن إسلام مختار القرية.

وبعد الغداء توجه برج حسن لكبير الأسرة مكرراً التهنية:

- أطال الله عمركما أنت يا عُقس ويا إسلام، وأنعم عليكما بشيخوخة

سعيدة. ولتُظَلَّ الأسرة طويلاً! ونحن ما تزال أمامنا مهمة: سنزور أقرباءكم آل مرزخوي للتهنئة. ومحمد أفندي الذي لم يقبل أن ينقض العادات¹ ينتظرنا عند أخيه الأكبر. أدام الله عليكم الخير والسعادة! ليحقق الله للأسرة وللقرية أمانها، وليحِمَّ الله البلاد الجديدة التي تألفت من اتحاد الأبراخ والشابسغ والويخ. وينظر إليها بعين العطف. وليُسمع العالم النداءات التي أرسلناها إلى بعض بلدان العالم!

بعدما هنا الضيوفُ بكراً ومحمد أفندي بأن ابنة مرزخوي تركت ذكرى طيبة في بيتها، وحملت معها آملاً وخيراً إلى أَسْرَتِها الجديدة، انتقل الحديث شيئاً فشيئاً إلى القلق الذي يسود الأبراخ، فاختمتم برج حسن النقاش حتى لا يحتدم:

- ماذا بيدنا! هلاكنا على يد روسيا التي تغزونا بعدما سمحنا لتركيا أن تخدعنا مستسلمين للراحة والحرية، لا نهتم لشيء مما يجري حولنا، مصدقين المدائح الزائفة بحقنا، مَثَمِّنين عالَمنا الأبراخ الذي خلقنا الله فيه. ولكن لا داعي لليأس حتى الآن بإذن الله أيها الأبراخ. سنُفهم بنداواتنا تركيا وروسيا، بل إنكَلترا وفرنسا، أن شعب الأدبغة شعب عادل لم يَغْزُ أحداً طوال تاريخه.

- أتأمل أن يسمعونا أيها الزعيم المبارك؟ - سأل دداي.

- سيكون على الأرض حكومات عادلة، وأناس عاقلون يفهمونا إن لم يفهمنا من ذكرئهم. - أجاب برج حسن متفائلاً.

- وهذا صحيح - أيدَ مرزخوي محمد أفندي الزعيم.

¹ يقصد بعدم نقض العادات أن حضور الرجال من أهل العروس في العرس مستهجن.

الفصل الحادي والعشرون

المكان هو القصر الصيفي سارسكوي سيلو للقيصر ألكسندر الثاني في سانت بطرسبورغ. ساعة انطفاء جذوة شمس النهار الحادة. الهواء البارد القادم من فوق نهر نيفا وخليج فين، والرطوبة الصادرة من بعض النوافير، يوقضان شيئاً فشيئاً دار القيصر المرهقة من الحر، ويهزان من الأشجار أوراقها المتعبة. ويحضان الأزهار التي كانت مطرقة أن ترفع رؤوسها.

توقفت العربتان السريعتان أمام باب القصر: خرج من الأولى وزير القوات الحربية الروسية المسلحة سوخوزانتير، ومن الثانية ممثل القيصر في القفقاس سعادة المحترم أوربيلباني والجنرال إفدوكيموف. ودخل الثلاثة واحداً واحداً باب القصر الذي انفتح لهم.

استقبل القيصر بوجهه بشّ ضيوفه دون أن يُبدي قلقه من الخبر الذي نقلوه إليه من القفقاس، ثم سأل أوربيلباني متظاهراً بأنه مهموم بالحر الشديد في سانت بطرسبورغ:

- ما أخبار الجو في نواحيننا، القفقاس، إذن يا سعادة المحترم؟
- والجو حارّ أيضاً كما هنا يا جلالة القيصر؛ غير أن أحداثاً تجري في غرب القفقاس تُنسيك هذا الحر.

- نعرف هذه الأمور - قال القيصر وصوته ولونه يتغيران، ثم أنهى بلمهجة اللطف: - أسمعك أيها المحترم لأني دعوتكم إليّ لنقل آرائكم في ما يجري هناك.
- تبعاً للمعلومات التي نقلها إلينا جواسيسنا فقد أُلّف ممثلو الأعراق الثلاثة: الأبخاز والشابسغ والوييخ مجلس تحرير كآخر أمل لهم.

- هل اقتصر المجلس على هذه الأعراق الثلاثة التي ذكرتها؟ - اكتست عينا

القيصر زرقة على زرقة لعدم ذِكر الساز بين من ذُكروا مع أنه سأل كمن لا يعير أهمية لما سمع. ورغم كونه مطّلعاً على ما ذكره أوريلياني فقد تعمق القيصر في السؤال:- وهل الساز الذين أيدوهم هم من عرق الشراكسة؟

- هؤلاء يا جلالتيكم، وسأجوبي على تدخلتي في الحديث، من الأباطرة - قال الجنرال إيدوكيموف الذي أنعم عليه في العام الماضي بلقب الكونت متفهماً السؤال الساخر الخبيث للقيصر، - هؤلاء أقرب إلى أبجاز سوخومي منهم إلى الشراكسة.

- عندك معرفة جيدة بالأقليات القاطنة في القفقاس على ما يبدو يا من نُكِرَ له الاحترام نيكولاي إيفانوفيتش إيدوكيموف. لم تُخطئ في تشريفنا إياك بلقب الكونت. - مازح القيصر جنراله المدلل، وأضاف: - أنا راضٍ عنك يا جنرال، أمثالك من يوسعون حدود روسيا، ويحمونها.

- شكراً يا جلالة القيصر على تقديرِك المسبق لي، أنا أخدم روسيا! - قال إيدوكيموف بعدما تخض بقامته المشوقفة، ثم جلس.

- لا داعي لما سميت به بالتقدير المسبق أيها الجنرال؛ لو لم تنجزوا إلا أسرَ شامل الذي نشر الفتنة في القفقاس، وإتباعه بالنائب زعيم الأبراخ لكان خدمة عظيمة للبلاد. وسيدخل هذا الإنجاز في تاريخ روسيا، وسيزيد صيتكم في البلاد. - قطع القيصر كلماته الواثقة، وأنهى بمزحة: - مع أنك ولدت أيها الجنرال في "ناورسك" القرية القوزاقية الواقعة في شرق القفقاس عند الشيشان، فأنت تخطئ في شأن الساز، الأقلية الجبلية الصغيرة القاطنة غرب القفقاس على ساحل البحر الأسود. ليس الساز - الأباطرة قرييين فحسب من الأبراخ، بل هما من عرق واحد. هذه هي الحال... كنت أتعجب حين يقول والدنا القيصر العظيم بطرس الأول إن أعراق القفقاس على عدد حجارة أسيرة أنهارها؛ غير أن

هذا الواقع أفضل لنا بعدما عاينته بنفسي إذ تُخضعهم فرادى متنافرين. ولكننا لا نستطيع أن نَصِفَ الأبراخ الذين عاد إليهم وعيهم، والشابغ والويخ، والساز - الأباطة الذين وقفوا إلى جانبهم بهذا الوصف. هؤلاء مهما قالوا ومهما فعلوا فتحن لم نسمع شيئاً ولا نعرف. يرضخون لنا دون حاجة إلى كلام. وإن لم يفهمونا أفهمناهم بالسلاح. من هم، ومن أي نوع من البشر هم، كما أبلغنا الجنرال ديمتري ألكسندروفيتش كوخارينيك، هؤلاء القادمون من تركيا، والذين يدور بهم زان قارباتر¹؟ - سأل القيصر وزير القوات الحربية.

- هؤلاء كانوا ثلاثة يا جلالتك. - قال الوزير باختصار، وأضاف بسرعة: - تركيان وإنكليزي، ولا نعرف أسماءهم، ولا أسماء أسرهم حالياً.

- وهل أنت أيها المحترم مطلع على هذا الموضوع؟ - سأل القيصر الجنرال المعاون أوريلياني رغم معرفته بجهله له، وأضاف إلى ما يقوله دون انتظار الجواب، وبصوت واثق: - ليس للشراكسة الذين أعطينا إياهم معاهدة أدريانوبول، ولا لأي شعب غيرهم، الحق في تأسيس دولة في شمال القفقاس. احذروا من الأبخاز ولو أننا واثقون منهم! يُعتبرون والشراكسة قديماً من عرق واحد... سيُطْلِعكم وزيركم في اجتماع مستقل على ما يجب أن تفعلوه بصد

¹ "... جاء مؤخراً من القسطنطينية إلى الأديغة وفدٌ من ثلاثة أعضاء - يقول الجنرال كوخارينيك في رسالته إلى القيصر - هؤلاء هم الكابتن في الجيش التركي الويخ سميل (إسماعيل)، وأفندي الشابغ حسن، وشخص إنكليزي. والتقوا باسم فرنسا وتركيا بالويخ والشابغ والناخوي والأبراخ. وأبلغوهم أن رئيسي هاتين الدولتين سيساعدان بالسلاح الشراكسة الذين وضعتهم روسيا في مأزق. ويمكن أن يتحقق هذا حين يتحد الشراكسة ويحاربونها بقوة كبيرة. وقد عُقد مؤتمر في شاجه على ساحل البحر لسماع كلمات المندوبين ولم يشارك البجدوغ المتحالفون مع روسيا في هذا المؤتمر... " المؤلف.

ما عددت من مهمات وعلى غيرها. ونهني اجتماعنا اليوم عند هذا الحد.

الفصل الثاني والعشرون

لم يكن رؤساء مجموعات العمل المنبثقة عن مجلس عروق الأديغة الثلاثة والتي أثارت غضب القيصر الروسي، راضين عن الأعمال التي أنجزوها، ولا مرتاحين لها. وكتب زان قارباتر المكلف بصياغة النداءات باسم مجلس التحرير والبلاد، طوال شهر كامل الرسائل الموجهة إلى روسيا وتركيا وإنكلترا. واليوم هو رئيس وفد الأديغة المؤلف من ثلاثة أشخاص، والذي سيقابل الجنرال إفدوكيموف.

حين وصل أعضاء الوفد المؤلف من زان وتسي وبرج الابن إلى المكان الذي اتفق الطرفان عليه من الأرض الخالية من الشجر، توقفوا على حافة الغابة دون أن يترجلوا. ووراءهم عدد من حراسهم الفرسان. وكما هي عادة تسي حاترباي، قال وقد فتح ساعة جيبه، مُخفياً القلق على وجهه:

- لا يزال أمامنا بضغ دقائق على الموعد.

- بگَرنا في الحضور... - غمغم برج إسلامج بينه وبين نفسه.

- السبب في اجتماعنا بإفدوكيم جاء من ناحيتنا. - قال تسي، وسأل زان: -

هل أنت واثق من هذا الذي وعدنا بالاجتماع بنا؟

- نعم واثق منه أيها الزعيم المبارك، ومع ذلك من يعرف كيف سيتصرف هؤلاء!... انظر، ها هو راصدنا يجري نحونا.

- إفدوكيم ذو العيون الثلاث قادم! - جاء الفارس بالخبر.

- وهل مرافقوه كثيرون؟ - سأل زان المستطلع كأنه غير عابئ، وحين أجابه:

"عددت عشرة فرسان" قال لتسي، وقد التفت إليه، بنظرة تعني "لم يكذب

علينا، وصل في الموعد"، وشدّد على حرصه من الفرسان: - لا تجعلوا الجنرال

يُحسّ بشيء من السخرية معتبرين إياه "ثلاث عيون".

لما وصل الفرسان الذين يترأسهم الجنرال إيدوكيموف وتوقفوا وسط المساحة الخالية من الغابة وقف الفرسان الأديغة على بعد عشر خطوات منهم تقريباً.

- ترونني يا موفدي الشراكسة جئتمكم بنفسي ولو أنكم لم تتوقعوا أن ألتقي بكم. إن وافقتم فستحدث نصف ساعة بسلام كما اتفقنا دون أن نزل من سروج خيلنا. ولما كنتم من طلب الاجتماع فأنا أسمعكم.

- نحن نسألك اليوم أيها الجنرال باسم مجلس الحرية الأديغي المنبثق من الحكومة التي ألفها الأبراخ والشابسغ والويخ...

- سامحوني - قال إيدوكيموف موجهاً الحديث إلى المجموع، لا إلى زان قاربتر - عليّ أن أقاطع كلامكم. أسمع لأول مرة باسم الحكومة والمجلس اللذين ألفتهموها.

- ليس من اليوم فحسب أيها الجنرال تقيم في أرض الأديغة، وتحارب فيها - قال زان بصوت واثق متجاهلاً الإهانة التي ألحقت به. - أخبرك، على نحو خاص، بأمر الحكومة والمجلس.

- سأكرر ثانية يا موفدي الشراكسة: أنا جنرال، إن كنتم تقولون إنكم شكلتم حكومة، فلسْتُ مخلّلاً أن أتكلم في موضوع يتعلق بدولتين. وإن كان عندكم مطلب آخر أو قضية أخرى فأنا جاهز لأفيدكم على قدر استطاعتي.

- هذا الواقف أماننا أيتها الجماعة - يُسمع زان الجنرال بلغة روسية غير مهتم بفهم جماعته لها - جنرال ظالم ينفذ أوامر قيصره. سنُخبرك بمطلبنا إن كنت تريد أن تسمع أيها الجنرال ونحن نعلم سلفاً أنك لن تجيب عليه. لما كان اتضح لنا "المعروف" الذي فعلتموه للشابسوغ نطلب منكم ألا تقتحموا أرض الأبراخ، ولا تصعدوا إلى جبالها، ولا تؤسسوا المستوطنات القوزاقية. ولسنا بحاجة إلى طرقكم الحجرية، ولا إلى جسوركم وأسواقكم. وأنا أعرف من الآن ما ستقوله.

صدعتم رؤوسنا بوثيقة لا أساس لها في الوقت الذي تعرفون فيه أن أحداً منا لم يوقع على اتفاق أندربول بين روسيا وتركيا.

- أكرر ثانية أنه لا علاقة لي بمطالب ليست مكتوبة. - قال إفدوكيموف وعلى وجهه آثار كظمه لنفسه بصعوبة، ثم توجه إلى زان بصوت ألطف، مخاطباً إياه باسمه واسم والده: - ما علّقتَ به على صفتي جنرالاً، فأنت يا قاربتر سفرييفيتش على حق، ولا أعتب عليك. أنفذ ما أؤكله إليّ قيصري وبلادتي. وأنا أؤيدكم في نيتكم أن توصلوا إلى ممثل القيصر في تفليس الورقة التي لم تقدموها إليّ، بعدما سمعت أخباراً من هذا القبيل. وسأصرف معكم تبعاً لتعليماته. وإن لم يكن لكم مطلب آخر مني فلتتفرق إذ انتهى وقت لقائنا. تمتم تسي وهو يراقب ظهر إفدوكيم الذي كان يقود مجموعة الفرسان إلى خارج الفسحة:

- نخدع أنفسنا بالذئب الذي يلبس جلد خروف... أخبرنا أنه إنسان مسالم ونحن نرى السلاح إلى جانبه.

- وهل توقعتَ منه غيرَ هذا أيها الزعيم المبارك؟! سأل زان قاربتر الذي غلبه استيأؤه من أجوبة إفدوكيم غير الشافية.

- أي سؤال جافٍ يا زان وجهته لي؟ أنا من عمر والدك! - أسرع تسي، ثم أجاب زعيمَ الشابسغ جواباً ساخراً: - كنت أريد من الأبراخ أن يتخذوه زعيماً مكان النائب. وأنتم أيها الشابسغ لو كان عندكم شبيهه، - أضاف: لكان له مكانه!

- يا تسي! - ارتقى زان قاربتر بحصانه، غير أنه سرعان ما رجع إلى وضعه:

- سامحني يا كبير، ماكان في قلبي لك مثل هذه النية.

- كفى يا قاربتر، أسامحك. - قال تسي، ثم أنهى متوجهاً إلى نفسه: -

يستطيع القلب الهائج أن يدفعك إلى الخطأ - يا رفاقنا الفرسان - ناداهم من خلفه - وأنتم سائحونا؛ رأيتم كيف عاملنا هؤلاء. ماذا سننقل إلى مجلسنا؟! - لم يعد الجنرال إيدوكيم مسؤولاً عن قضايانا. سمعتم أن هناك في تفليس وبطرسبورغ من يستشيرهم. سنقوم بزيارة لهم أيضاً. وسنجتمع بزعماء أعلى منه مرتبة.

- وسنسافر أيضاً إلى تركيا وإلى إنجلترا كما قال والدنا الحاج برزج، وسنوصل إليهم نداءنا - ساهم في الحديث برزج إسلامبج الذي لم يقل شيئاً إلى الآن. - وليستا وحدهما - قال زان قاربتر مؤيداً برزج - سنوصل نداءنا إلى زعماء دول الشرق والغرب. وسنسمع من يعرفنا ومن لا يعرفنا أننا نتوجه إلى قيصر روسيا، وأنا نعيش في هذا العالم ونحن نحمي حريتنا. وسنبليغ تفليس والترك والإنجليز والفرنسيين. وقد انتهى المجلس من تبني النداء.

الفصل الثالث والعشرون

وصل إلى تفليس في بدايات شهر حزيران عام 1861 وقد عشنش الحر في المدينة، المندوبون الأدبغة الثلاثة: الحاج برزج جراندوقه، وبرج حسن، وتحه غوشه إسماعيل. - وصلوا، ودون أن يفكروا في الاستراحة في فندقٍ ما، عرجوا على دار ممثل القيصر في القفقاس كما لو كان ينتظرهم. كان السور الحجري عالياً فلا تستطيع أن ترى ما وراءه، سواءً وقفت على أصابع رجليك أم كنت على حصان أو جمل. وعلى جانبي مصراعي البوابة الكبيرة حارسان مدججان بالسلاح. وعلى مدخل المشاة يقف كذلك حارسان متقابلان. والدار لا يدخل إليها أحد ولا يخرج منها.

- أأنظركم أم أترككم؟ سألهم السائس الجورجي الذي جاء بهم. - أأكون من نقف على بابهم تخلّوا عن كل إنسانية لهم؟ ألن يتحرك أحد

منهم؟ - قال أصغر الموفدين الأديغة الثلاثة تحه غوشه إسماعيل، واستشار الحاج برزج: - أترى يا حاج أن أذهب وأطلب من هؤلاء الأغبياء أن يفتحوا بابهم؟

ابتسم الحاج برزج :

- هذا ممكن، ولكنهم لن يسمعوا، ولن يدعوك تلحق بهم. اتبعني لنخبرهم بالجرس المعلق على الباب. اقرع يا إسماعيل، ليس بكل رجولة الشابغ عندك! خرج ضابط طويل القامة من الباب ووراءه حارس مسلح، وسألهم: - من أنتم؟ أستمع إليكم.

- نحن قادمون من شركيسيا. يُفترض أن الجنرال إيدوكيموف أخبركم بقدمونا. أنا برزج جراندوقه، وهذان اللذان في العربة زميلاي برج حسن وتحه غوشه إسماعيل.

- انتظروني، - رجع الضابط تاركاً الحارس معهم. وقال من عاد دون تأخر لبرزج: - إتبعني أنت، ولينتظرك زميلاك!

لم يزر الحاج برزج الكعبة وإستانبول وسوخومي مرة أو اثنتين فحسب، غير أنها المرة الأولى التي يأتي فيها إلى تفليس ويخالط الكُرج. ولم تطأها قدماه إلا في الغارات التي كانوا يشنونها على الروس والقوزاق عبر نهر بشزه.

"بالقياس إلى إستانبول - يتفحص الحاج برزج الفناء - ليست تفليس التي كانوا يمتدحونها شيئاً يُذكر. وأما مكتب ممثل القيصر الذي جاؤوا لمقابلته فلا يتناسب مظهره مع شاغله. ربما كان بارياتينسك من هواة الورود فهي كثيرة في كل مكان. ويُخيل إليك أن عامة الجنود والضباط يروحون ويغدون كأنهم يؤدون مهام كبيرة. ولا ترى إلا ملامح روسية، ولا تسمع إلا أصواتهم. الكرج احتموا هؤلاء من الفرس ولو أننا نعتب عليهم إذ استقدموا هؤلاء إلى القفقاس... أما

نحن فلا أحد يسمعنا مهما استغثنا. ولا أحد يرانا مهما لَوَحنا بأيدينا. نأتي إلى من ينهنا طالبين منه أن يتفهمنّا لأننا بلا معين..."

نفض الضابط الذي كان بانتظار برزج جراندوقه حين أدخلوه إلى الغرفة، ودعاه إلى الجلوس على المقعد المقابل له. وتودد إليه وهو يرجوه الجلوس:

- أنا ضابط عند الفيلد ماريشال بارياتينسك ممثل القيصر. اسم أسرتي سمولينسكي. كُلفْتُ باستقبالكم ولذا أسمعك أيها المحترم برزج.

- لاحظت من كتاباتك يا سمولينسك أنك ضابط. - قال الحاج برزج بروسية متقنة - أعتقد من طريقة نطقك لاسمي أن ممثل القيصر بارياتينسك أطلعك على سبب مجيئنا وهو قضية بلادنا. وإن لم تكن مطلعاً فاعتبرني أطلعُك من خلال أسماء مرافقيّ برج حسن وتحه غوشه إسماعيل. وإن اتَّخِمتُ لنا فرصة اللقاء بمن يجب أن نقابلهم دون تضييع للوقت فهذا يسرنا.

- نحن مكلفون أن ندعكم تراحوا في فندقنا قبل أن تقابلوا ممثل القيصر الفيلد مارشال لأنكم قادمون من مكان بعيد.

- لا بدّ أن الجنرال إفدوكيموف أخبركم بمجيئنا إلى تفليس. شكراً له على تنفيذ ما وعدنا به. - قال الحاج برزج ما كان يَحْمَنه - إن كان الأمر يهمكم أنجزتم أعمالكم بسرعة ودقة.

- لا علم لي بما تتكلم عليه أيها المحترم، أنفذ ما أكلف به بصفتي ضابطاً فحسب.

- نعم، نعم فهمت. بلغ من أوفدك ارتياحنا للاحترام الذي أبديتموه بصفتكم الضائفين. ولكن لا تنس أني أبلغتك بضرورة عدم المماطلة في تنفيذ ما جئنا لأجله. - قال الحاج برزج وهو ينظر في ساعة الجيب التي جاء بها من مكة في آخر حجة له: - إن كنا سنتوقف في مضافتكم فالوقت وقت صلاة الظهر، لن

ندعها تفوتنا.

أدى موفدو مجلس الأديغة الصلاة ولو تأخروا قليلاً. وذاقوا من المائدة التي قدموها إليهم دون إظهار شره. وشربوا الشاي مع قطعة الجبن اليابسة التي جلبوها معهم. وتكلموا على ما شاهدوه في طريقهم الطويل، وما استغربوه وما لم يعجبهم. وعلى الدار التي توقفوا عندها، حتى على العربة المستعارة التي يركبوها. ولكن مهما تحدثوا، ومع أنهم كانوا يدينون دولة الكرج التي يقيم فيها ممثل الدولة التي تنتزع منهم أرضهم بالقوة، وتفليس عاصمتها، فقد كانوا يعودون دائماً إلى أخبار بلاد الأديغة.

- لا تقلق يا حسن، إذا كان إيدوكيموف نفذ وعده بإبلاغ ممثل القيصر رغبتنا في لقاءنا ممثل القيصر هنا بإيقاف مؤقت للعمليات الحربية فلن يستأنفها ما لم تنقض جماعتنا الهدنة. وقد أوصينا المكلفين بتسيير أمور المجلس في غيابنا زان وتسي وبرزج الأصغر أن يحافظوا على السلم. وألحنا على شبابنا المتحمسين ألا يُبدوا حمية ضد القرى والمستوطنات القوزاقية. ولكن ما أستغربه هو عدم تكليف مُضيفنا أحداً بتفقد أحوالنا. وسأقول لكم ما هو أعجبُ منه: يُحِيل إليّ أيّ رأيّ الضابط سيرديوكوف الذي كان يرافق إيدوكيموف حين التقينا به، أقصد مَنْ كان يرافق فيليبسون دائماً بكتافياته اللامعة.

نظر برج حسن نحو الباب وقد شكّ في أنه يسمع صوت خطو:

- كأن أحداً يتجسس علينا!

- ليس غريباً... - نخض تحه غوشه الذي لم يكن يسمح لنفسه أن ينسى كونه الأصغر في الوفد. - هذه عادة تركية.

ولما سمعوا طرقاتاً على الباب صاح برزج لأن الطَّرَق ليس من عادات الأديغة:

- من هذا الذي لا يستطيع فُتَح الباب؟ تفضّل! - حين ظهر على الباب

الرائد سيرديوكوف مبتهجاً رغم محاولته إخفاء فرحته أشار إليه إشارة احترام وقال له: - لم أخطئ في ظني أني رأيتك هنا أيها الرائد. كنا في سيرتك قبل لحظات؛ تفضّل!

- شكراً أيها المحترم. أنا مكلف بمهمتين: أخبركم أن اجتماعكم تأجل إلى الساعة الحادية عشرة من صباح الغد، ولما كانت موجة الحر تفارق تفليس فيمكنكم الاستراحة بعد العشاء ساعة من الزمن عند نوافير أرض الدار. بنظرة متسائلة سريعة من الحاج برزج لرفيقه اتفق معهما، ثم قال لسيرديوكوف واضعاً النبرة على اسمه واسم والده:

- شكراً يا نيكولاي بيتروفيتش. نحن قطعنا طريقاً طويلاً. إذا نمنا باكراً أمكننا أن نفيق غداً مرتاحين ومستعدين لاجتماع الغد. إن كان في قلبك خير نحونا يا صاحبنا القوزاقي فسيتفضل الله علينا وعليكم بصباح سلم سعيد. لم يكن اليوم التالي يوم سعدٍ على الموفدين الأديغة. حكى برزج جراندوقه باختصار للجنرال المعاون أوربيلياني الذي أرسله ممثل القيصر بارياتينسك نائباً عنه أهداف موفدي مجلس الأديغة، ووضع أمامه النداء مخفياً شعوره بالإهانة من معاملتهم لهم:

- ما بلغناه لك أيها الجنرال المعاون مثبت في هذه الورقة. هذا ليس مجرد نداء، أكرر: هذا قرار مجلس حرية الأديغة، تغلب عليه مطالبنا أكثر من المحاجة. تصفح الجنرال المعاون أوربيلياني الورقة سريعاً على نحو ينم عن احتقار، وحسم الموضوع:

- لا معنى لهذا النداء الذي نتحدثون عنه.
- ليس هذا نداءنا أيها المحترم - أجابه برزج، - هذا نداء الحكومة التي ألفتها الأعراق الأديغية الثلاثة.

- ليس عندنا في شمال القفقاس مثل هذه الحكومة. - جزم أوريليان مرة أخرى.

- على ما يبدو أيها الجنرال - أجبر كلام الجنرال حسن على القول - ما قاله لنا إدفوكيموف حين اجتمعنا به وما تقوله أنت اليوم جواب واحد.

- الجنرال الشهير إدفوكيموف وأنا في خدمة دولة روسيا. ولذا حللوا مجلسكم، وضعوا سلاحكم، وعيشوا بسلام. هذا آخر كلام كُليفتُ بإبلاغه إياكم¹.

- إذا كان هذا آخر كلام لكم فسننتوجه إلى قيصركم في سانت بطرسبورغ، ونوصل إليه مطالبنا العادلة. ولن نتوقف عند هذا الحد بل سنزور تركيا وإنكلترا وفرنسا. وإن سمحتم أعيدوا لنا الأسلحة التي جردتمونا منها عند الباب لنركب طريقنا. ونترك لكم نسخة من نداء مجلس الحرية² ولو كنا عاتيين عليكم لأننا لم

¹ استقبل الجنرال ي.ك. أوريليان ببرود موفدي المجلس الذي تألف في "شاجه"، "الاجتماع الكبير للحرية" الذين قدموا إلى تفليس. - في كتاب ف. ن. ريباسيف "المسألة الشركسية. أولمبياد 2014 والسياسة الجورجية في القفقاس". يكتب: - حين اجتمع هؤلاء بالجنرال إدفوكيموف ولم يلب لهم مطلبهم جاؤوا إلى القائد الأعلى لجيوش القفقاس بارياتينسك عسى أن يستشيروه في قضايا السلام ووقف سفك الدماء. ولكن لما كان الجنرال غائباً توجب على معاونه ي.ك. أوريليان أن يتحدث إليهم. ضرب أوريليان موفدي المجلس غرض الحائط. و"طمأنهم" أن القيصر ألكسندر الثاني الذي سيزور شمال غرب القفقاس قريباً سيدرس مطالبهم. المؤلف.

² نقول باسم مجلس الحرية الخاص بالأبزاخ والشابسغ والويخ: لم نكن نسعى جاهدين لنحكم أنفسنا بأنفسنا. كنا نعيش وهدفنا السلام والتفاهم، ولأجلهما ألفتنا حكومة. وقد كتبنا للجنرال إدفوكيموف أن يعقد معنا اجتماعاً نتكلم فيه على الأرض والدين وقضايانا الأخرى. غير أنه اقتحم أرضنا بعد هذا الكتاب بقوة عسكرية هائلة. وقد رجونا أن يضبط نفسه، ولا ينهب قرانا، ولا يستأصل غاباتنا، ولا يشق طرقاً عسكرية، ولا يؤسس

نجد عندكم الصدق.

الفصل الرابع والعشرون

- ما أخبارك يا أخي الصغير؟ - سأل بكر محمد أفندي قبل أن يجد الأخير الوقت للترجل من حصانه، ثم لأمه: - لا تترك الحصان في الطريق؛ أدخله إلى الدار!

- أنا مستعجل، لا أزال على الطريق يا بكر. كنت متوجهاً مع برج وتسي إلى نواحي البحر فلم أستطع تجاوز القرية دون أن أعرج عليكم. ما أخباركم أنت وناث- ناث، والعروس¹؟ نعم، صحح كلامه بسرعة - ونفست أيضاً لم أرها خلال الأشهر التي أسست فيها أسرة. وفي هذا الربيع حين جاؤوا بها إلينا، نحن أهلها، كنت، كما تعرفون، في إستانبول لقضايا دينية. ولما كان براغته إسلام يلتقي بنا في قضايا المختار فأنا أسأله عن كُتبه، وأفرح حين يصرح لي بأن أسرة حميها راضية عنها.

- وكيف تراها والنارُ مشتعلةٌ في ذنبِ حصانك دائماً فلا تهدأ في مكان...

التحصينات، ولا يوطن القوزاق في أراضيها. وقد وعدنا إن سمحت له (للجنرال إفدوكيموف) أن يحقق لنا هذه المطالب.

وكان للجنرال فيليبسون اتفاق سلام مع الأبخاز. وحين تشاورنا اعتماداً على هذا الاتفاق فهمنا أن أعداءنا نقضوا الاتفاق. ولأننا لا نعرف النفاق، ورنباً بزعماء بلادنا أن يتخلقوا بالكذب نرجوكم ألا يكون بيننا وبين الروس مستقبلاً أي خيانة ولا اتحام، وألا يُدخلوا قواتهم أرضنا، ولا يؤسسوا المئع عليها، ولا يسمحوا للقوزاق أن يستوطنوها. فإن أنشؤوا قرى قوزاقية على أرضنا فسينتقض ما بيننا، ونرسل إليكم مندوبينا وكلنا أملٌ أن تُبقي على أراضيها. ونحن واثقون من رعايتكم لمطالينا. ونرجوكم، بالإضافة إلى ما سيطرحه موفدونا شفهيّاً أن توصل النداء إلى القيصر. وننتظر معروف الله ومعروفكم. المؤلف.

¹ يقصد بالعروس زوجة أخيه لأنه لا يستحسن أن يناديها بصفته سلفها باسمها الحقيقي.

نحن راضون عن الصبية لولا أننا أنا وكنتك بقينا وحدنا في البيت، ولكني أنا أيضاً لم أرها منذ شهرين. كل من تسأل عنهم بخير يا أخي الصغير. غير أن كنتك، ابنة آل تازة، تعرف الأخبار أفضل مني فاسألها.

صاحت جانشر التي فتحت البوابة الكبيرة للدار:

- أيها المسافر ادخل الدار ولا تبق في الزقاق. وادع رفاقك للترجل عندنا. عندنا ما نقدمه لهم بفضل الله. وستساعدني ربات البيوت الجارات، سنقدم لهم الضيافة.

- حياك الله يا كَنْتَنّا. رفاقي، وهم أكثر من خمسين فارساً، يتناولون فطورهم في فسحة الغابة. ما يشغل بالي الآن هو ما لا يستطيع أخي بكر أن يقوله بصدد ابنتنا.

- لا داعي للقلق من جهة نفسي. - قالت جانشر التي كانت تجهز مائدة الفطور، ثم سردت التفاصيل: - هو فرح، لا حزن. ابنتنا حامل ولذا، وأنت تعرف العادة، تخجل أن يراها والدها في هذه الحالة.

- لينطق فمك بالخبر دائماً يا كنة! هذا خبر سار - أخرج محمد أفندي من حافظة نقوده المطلية بالذهب قطعة نقدية فضية ووضعها على المائدة. - هذا حلوانك. أستغرب كيف لم يأت إسلام على مثل هذا الخبر المفرح... - مرّ من أمام عيني محمد أفندي فجأة خيال مرزيج دون أن يعرف من أين أتى، فأضاف متناسياً ذلك الخيال:

- قرينا إسلام، كما أنت يا بكر، تحكمه العادات الأديعية وشرفها، وهي قدوة حياته. ترك لنا أجدادنا ذوو الأفواه المباركة من العادات الأديعية الحكيمة ما ينير طريقك في كل مناسبة؛ غير أننا لا نستطيع استغلالها كما نشاء... - والآن مرة أخرى امتثلت صورة مرزيج لعيني محمد أفندي، ثم غابت. - هذا هو

الموضوع يا بكر، يا أخي الأكبر، تتحلى بطبع أديغي عظيم، ومع ذلك لم نستطع أن نصبح مثل الأتراك الذين كنت عندهم.

- يا أخي الأصغر، يا محمد يا أفندي الأبراخ! - غضب بكر لما سمعه، وحين رأى الباب المفتوح نادى من خلاله: - أغلقي الباب يا ابنة آل تازة - وحين بقي الأخوان وحدهما في الغرفة أضاف بكر إلى كلامه بنبرة الاستياء نفسها: - كم مرة قلت لك يا أخي الأصغر أن تنزع تركيا من قلبك. سأقول لك الحقيقة، لا أعتب على كل الأتراك، هؤلاء أناسٌ مثلنا، يريدون أن يعيشوا بسلام، ويؤسسوا أسراً ويُنشئوا أطفالاً، مَنْ أعتب عليه هو قريبنا البعيد، ابن ابنتنا، سلطان الترك الذي لا شأن له بنا، والذي عقد صلحاً مع روسيا في موضوع الأديفة. هل سمعتمهم يقولون "لم يتعلم وإن درس". أنا لم أتعلم، غير أن ما شهدته في حياتي وتعلمته يكفي.

- لستُ المقصود بقولهم ذاك يا بكر، أنت مخطئ - قال محمد أفندي حذراً.
- لستُ وحدك المقصود به، كلنا مقصودون به - ألا يكفيكم ضلّنا الزعماء الغرباء في وطننا! هات إرو لنا ما جاءنا به موفدونا من تفليس!
- ألم يخبركم قريبنا براغنه المختار في اجتماع القرية؟
- أريدك أن تُطلّعي أنت شخصياً.

الكلمات القاسية القليلة التي وصلت إلى جانشر من حديث الأخوين وإن لم يرتفع صوتهما نتيجة الخلاف، جعلتها تدخل الغرفة. وقالت لهما وهي تبحث عن ذريعة لدخولها:

- سأبدّل الشاي إن كان برد.
- لا بأس أن تبدليه... - ثم وجد لأخيه الأصغر مسوغاً، متفهماً ما أقلقها - ولكن مجموعة الرجال تنتظره.

- لن يتعدوا كثيراً، سألق بهم.
- أن تنتظرهم أفضل من أن ينتظروك. وهذا جزء من الطبع الأدبي، وهذا ما أنشأنا عليه جدنا ومسنونا - اسمعي يا ابنة آل تازة: لنعلق لحم الخروف الذي شويته أمس على سرج ابن حميك. لا يجوز أن نعيده إلى أصحابه الكثيرين خالي الوفاض.
- انتهيت من تحضيره، وأرفقته بالجينة المجففة والخبز.
- حياك الله يا كنة! كان السبب الأهم لقدمي إليكم هو رؤية نفسي، ولكن إن كانت تختبئ من أبيها فستستحيي مني أيضاً. سأتيها بغطاء رأس جميل وقطعة قماش تخطها ثوباً لأننا ذاهبون إلى اجتماع المجلس على الشاطئ.
- ولا تنس الغليون الذي رجوتك من أجله - أضاف بكر أيضاً إلى كلام أخيه الأصغر.
- سأتيك به إن لم يكن عندك اعتراض على كونه تركياً.
- لا تصدع رأسي؛ لم أطلب منك الطربوش الذي كان يرتدي منه النائب ومرزيج! والأخير اختطف أحدهم روحه فاسترحنا.
- وهذا صحيح - تغير لون محمد أفندي - من حظي وحظك أننا استرحنا من رؤية ذلك الظالم عديم الشرف.
- ولماذا نحن الاثنين محظوظان بمقتله أكثر من غيرنا؟
- كذا، لا أعرف. مجرد كلام خطر لي... - كاد يعترف بالسر الذي يخفيه من العام الماضي ولذا شوش محمد أفندي الموضوع، غير أن بكر الذي لاحظ أن أخاه مهموم بأمر ما لم يشأ أن يسأله صراحة.
- داهم قلق مفاجئ بكراً حين ركب أخوه:
- انتظر لحظة. سأرافقك إلى تخوم الغابة - نادى بكر أخاه من ورائه، وقد

سبق حصائهُ الكمائل للحمرة: - سنسلك الطريق العابر للجانب الكثيف من الغابة حتى لا يتابعنا الناس بنظراتهم. وبعدما سار الفارسان مسافة رأيا دداي الذي كان يجمع الحطب اليابس في المنطقة الكثيفة من الغابة - تعال، تعال، لا نريد أن نتجنب الجار فيشكّ في أمرنا.

استقبلهما دداي معلّماً يد فأسه بزناره، كاتماً شعوره بالإهانة من أن نفس ابنة آل مرزحواي تجاوزت ابنه وتزوجت من أسرة براغنه:

- ما أسعدني أن رأيتهما أيها الأخوان، يا من جعل الله يومهما مئة، وإن كنت لا أراكما في القرية. ألتقي ببيكر أحياناً، ولكن مرحباً بك من جديد يا محمد أفندي. نسمع أخبارك الطيبة؛ ألسن ابن قرية تامبي حبله، نفرح لأخبارك. ما أخبار زعماء الأبراخ وإن لم يكن يتحقق لهم شيء مهم؟ يسرني يا محمد أفندي تأليفكم المجلس ولو أن مندوبيه رجعوا قبل زمن قريب بخفي حين مما تسمونه تفليس. يا ربي أعتقد أن هذا سيفيدنا نحن الفلاحين عامة الشعب؟

- وهل يُعقل ألا يفيدكم يا دداي يا من أدعو الله له أن يشملهُ برحمته! قال محمد أمين مسروراً لذكر إسهامه في تأليف المجلس. - من أجلكم أنتم ألفناه، لا راحة لنا.

- وأنا لي علاقة ما بهذا الموضوع يا محمد أفندي.

- وكيف؟

- بين الأشخاص الخمسة الذين على قريتنا تقديمهم للجيش الذي ألفتموه من خمسة عشر ألف فارس كان من نصيب سَمِيك محمد بن دداي أن يكون في عدادهم. - قال بكر المستعجل على مغادرة أخيه وصحبه قبل أن يحتدّ مزاج دداي الذي هم في معرض امتداحه.

- أهنتك يا دداي، ليس كلُّ من يرُدُّ اسمه يُقبَل.

- هنيئ صهر أخيك الأكبر على عدم قبوله في صفوفهم - أسرع دداي بالرد وعيناه تقدحان شرراً.

- لا تقلق يا دداي، سينضم صهرنا سريعاً إليهم. وسأخبرك شيئاً آخر: حين يقتضي الأمر سننضم كلانا، أنت وأنا، إليهم.

- هكذا يا بكر؟ - سأل، ثم أضاف وكأنه لم يغضب قط: - إذن اعتبرني لم أقل لك شيئاً أيها الكبير - وبعد قليل صاح في إثر محمد أفندي: - أبق سميك يا محمد أفندي تحت رعايتك!

قال بكر بعدما سار الأخوان اللذان لم يهتئ عليهما ما جرى لهما في الغابة:

- أثمنا بحق المسكين دداي ونحن نتكتم على الموضوع.

- ألم يظهر في القرية فارسٌ غير ابنه الوحيد؟ - تنهد محمد أمين، ثم قوم موقفه سريعاً: - نعم يا بكر، هكذا كتب الله الذي يبتهل إليه الناس ولا يبتهل إلى أحد، ولذا لن نبحت عن البريء والمذنب. وهكذا نُبتلى في دنيانا العارية. إذا كان الله يعرف سرّك، فأنت ترغب في أن ترويه لأقرب الناس إليك لأن السر يصبح يوماً ما علناً... أنت يا بكر الوحيد الذي لي في دنيانا العارية... لا أعرف إن كان ما سأقول لك ثواباً أم إثماً.

- أسمعك يا أخي - لجم بكر حصانه - سنتحمل معاً ما كتبه الله علينا.

- أنا يا بكر من أزهق روح مرزيج... ولو لم أفعل هذا لما جعلنا نفرح بعرس نات - نات... كان وعد ضابطاً كافراً أن يسرقها ويحملها إليه...

قفز الأخوان من حصانيهما، وتعانقا عناقاً لم يفعلوا مثله في حياتهما.

الفصل الخامس والعشرون

السماء التي ليس فيها إلا شمس ظهيرة الصيف الحارقة نظيفة. والقمم البيضاء من وراء الغابات المتعددة الألوان التي ترتقي التلال وتنزل، تظهر من بعيد ملتفة حول شاطئ البحر. والأحصنة التي أرهاقها الحر تنخر على طريق طوابسه. وبعض الفرسان ينعمسون أحياناً. وتحوم في السماء بعض الجوارح الكبيرة التي لا تكلم ولا تمل.

- لا يعجبني يومنا القائظ الباعث على الضيق يا برج، يُلهينا عن مهمتنا - قال تسي، ونظر إلى أفمعت وراءه - غنّ لنا يا مرتوقه شيئاً من أغاني أجدادنا. أجبر البرق والرعد المفاجئان الفرسان على حني رؤوسهم. وكان الصدى ما يزال يتكسر على الجبل حين بدأ البرد يتناثر مع حبات المطر.

- تجمّعوا ممسكين بأعنة خيولكم! - غطى تسي الذي قفز إلى الأرض رأس حصانه بفروته، ودلف إلى تحته. وبالطريقة نفسها تجمّع الفرسان الآخرون.

- لنذع الله أن يرأف بنا لأننا في هذه اللحظة موضع ابتلاء منه! - يصرخ محمد أفندي من تحت فروته - أدعوا إلى الله أن يتفهم صدقكم في متابعة مهمات الأديغة لأن الله يختبر إخلاصنا لها. ومتى سمعنا قطع عنا مطره وبرّده.

هو أملنا الوحيد ومقصودنا، قولوا: الله أكبر!

- الله أكبر! - وافق الفرسان المترجلون أفنديهم وقد بدأ البرد على فرواتهم وعلى ظهور خيلهم يخفّ.

قال برج الذي كان يتقبل أقوال محمد أفندي لنفسه: "لم نخطئ في المهمة التي أسندناها إلى محمد أفندي ولو أننا سمعنا انتقادات كثيرة بحقه. يفيدنا حين نقع في أصعب المواقف قبل أن نطلب منه. ولكن لا أعرف إن كان يبالي في المسائل الدينية... يجب أن نتكلم معه في وقت آخر بهذا الشأن..."

استغل محمد أفندي التوقف المفاجئ للمطر والبرد المرافقين للبرق والرعد:

- الله سمعنا فاستجاب لنا ورحمنا. أتاح لنا، نحن الأبراخ، رؤية سمائه وأرضه ثانية. والآن سنتابع طريقنا بعلمه. ونستأنف أعمالنا في خدمة الأديغة التي يجتبرنا فيها.

- نعم يا أفندي، نعم. - وافقه برج - الله سمعنا، وحمانا.

انتهى القُرسان من الصلاة ومن الغداء المرتجل من نوع وحيد من الإدام. واتخذوا طريقهم غير القصير معلّقين فراءهم نصف الجافة بأسرجة خيولهم. وبعدما مشوا قرابة نصف ساعة فهموا أن المطر - البرد المفاجئ كان متنقلاً، وأنه فارقهم: غبار الطريق يتناثر من تحت حوافر الخيل، والبخار يتصاعد من فرائهم، والأوراق الصفراء التي نامت تحت الهواء الحار كأنها بلا روح. وما يُشعرك بأنه ما زال في الدنيا بقيةً برّدٍ منعش هو قمم الجبال البيضاء التي تلوح من بعيد.

حين يثق الناس بك ويقدمونك عليهم تعترضك مهمات مجهولة غير متوقّعة. وليس الموضوع أن برج حسن جاهل بقضايا الأبراخ ولا رأي له فيها؛ إذ أنه مهموم منذ زمن بعيد بالقضايا القومية، ولكنه عاش في عهد محمد أمين النائب أكثر من عشر سنين وعقله ورجولته متلازمان، والناس يذكرونه بالاسم وقت الحاجة وإن كان لا يُبرز نفسه من بين زملائه. وفي السنوات الخمس الأخيرة لم يبق لبرج إلا الاسم من جمعية مختاير الأبراخ التي استولى عليها النائب. ومع أنه كان يحدث كثيراً أن يختلف هو وتسي الذي لم يكن يقبل بهذا الوضع فإن الأخير كان أول من صوّت له في آخر اجتماع لاختيار القيادات. ولما كان أفعُت مرتوقوه هو الوحيد بين المختاير الذي يمكن أن ينافسه فقد حمّله تسي على انتخاب برج حسن ناظراً في عينيه مهدّئاً إياه. ولكن لما كان الاثنان ممن ينسيان المعروف سريعاً ظلت الخلافات تنشب بينهما باستمرار. من السهل

معاشرة الإنسان حين تفهم طبيعته. وإذا كان تسي نزق الطبع فإن رجولته واستقامته وسلامة طويته تعوض نقائصه.

وماذا عن محمد أفندي الذي عيّنه برج حسن قائماً بالشؤون الدينية للأبزاخ؟ حين سأل برج حسن الزعيم الأبزاخي نفسه في شأن محمد أفندي قال: "مهما كان أصغر منا سنّاً أنا وتسي فهو مختلف عنا. إنه ذكي بل ذكي أكثر مما يجب ولو أنه لم يعانٍ ما عانيناه نحن. ما أعجب أن هذا الذي لم يتجاوز في دراسته مدرسة القرية، والذي يتصور أن أحداً غيره لم يحجّ، يفرض علينا ممارسة الدين ونحن نعرف أنه يخدعنا! من هو؟ أيمن أن يفرض علينا نفسه نائباً من أجل أن يُقنعنا بأنه موفد من الله؟!... تذكر برج أن محمد أفندي كان مع الأفندي عبد الله الذي جاءهم من تركيا، والذي اكتشف الأبزاخ أنه ضابط جاسوس فقتلوه، مقتنعاً بأنه موفد الله منفذاً كل أوامره - كم كان عمره في ذلك العهد؟.. كان شاباً جداً، ربما لم يتجاوز العشرين. وما العمل إذن؟ عليك حين تكون خادماً من العامة أن تنفذ أوامر مسؤوليك... وحتى إن كنت تقول هذا يا برج أفلا تتذكر ما قاله دداي لعبد الله الأفندي المزيف في اجتماع قرية تامبي حبله؟ ومحمد ودداي من عمر واحد، ومن قرية واحدة،..."

- كيف حالك أيها الزعيم المبارك مع هذا النهار المثير للضيق؟ - سأل محمد أفندي وكأنه يُحس أن أفكار برج تدور حوله.

- لا يؤذيني، ولكن كنت أفضل لو كان الجو ألطف قليلاً.

- الله الذي تأتمر دنيانا العارية بأوامره هو من يستطيع أن يرسل إلينا هذا الجو اللطيف الذي تشتهي أيها الزعيم المبارك. سنتحلى بالصبر، وسنبتهل إليه. ولن نتخطى أوامره، وسنعادي من يعاديه. ولن نسمح للكفار أن يعيشوا في دنيانا.

- وأنت، كيف حالك مع هذا الجو؟ - سأل برج الأفندي قائلاً في نفسه:

"اسمع ما يقول هذا الرجل مكرراً كلمات النائب!"

- وأنا إلى أين أذهب هاجراً الأبراخ؟! حَمْلُهُم حملي، وقلْتُهم قلقي، وفرحُهم فرحي. - أوصل محمد أفندي جواب السؤال إلى ما يريدُه هو مماطلاً في الإجابة. - غير أن ما أتميز به من أبناء قومي أمرٌ واحدٌ: - يُبلِّغكم الله العلي الذي يتوسل إليه الجميع ولا يحتاج هو إلى أحد أنه واثق مني فيحميكم من الخطأ.

- نحن دُفِعنا إلى الخطأ مرات كثيرة، والآن أظننا ندفع أنفسنا إلى الخطأ لأننا لا نراجع أنفسنا... - خفف برج حسن من سرعة حصانه كمن يحدِّث نفسه. - استغفر الله... - قال محمد أفندي بصوت ناعم، وأضاف بصوت أعلى بعد ما انتظر الفرسان الذين وراءه حتى تتجاوزوه كما فعل برج - أدعو الله ألا يسمع كلماتك المبطَّنة أيها الزعيم المبارك، واعتبرني أنا أيضاً لم أسمعها. - إن كنت تظن أنك سمعت مني ما لا يجوز بحق الله فأنت مخطئ أيها الأفندي - أجب برج مستاءً من طريقة ردِّ الأفندي عليه، حاسماً الموضوع - أنا لا أتكلم في ما أجهله. وسأقول لك أمراً آخر: منذ زمن بعيد ثقت هذه الكلمات أذني... وهل كان عبدالله الأفندي، الضابط الجاسوس التركي، والإمام شامل الذي حنث بوعوده، وموفده النائب محمد أمين قوموق، والإنجليز الذين كانوا يكذبون علينا قبل هؤلاء، والبولونيون، موفدي الله؟!

- لي رأي آخر أيها الزعيم المبارك في ما سألت عنه - كان محمد أفندي جاهزاً منذ وقت طويل للإجابة على ما يمكن أن يُطرح عليه من أسئلة فأجاب بسرعة - لن نتدخل في ما قاله وفعله سابقِي، ولن أكون شاهداً على أحد أو وكيلاً له لأن الله وحده هو من يعرف صدقهم وكذبهم. الله يرى الجميع ويعرفهم، ويرعى الجميع. ولكن سأكشف لك ما أفهمني إياه ولفت نظري إليه لأنه لا

يمكن إخفاء شيء عنه. يجب أن يكون من يقوم على أمر المسلمين الذين يمارسون دينهم من جنسهم، ولعنه لعنهم. نعم يا كبيرنا، يا زعيمنا المبارك لا تستغرب كلامي، ليست هذه من أفكاري. الله أنزل عليّ دينه قائلاً: أفهمه لأبناء أمتك - أمتي. هذا سبب إخفاق الثلاثة الذين جاؤونا من الداغستان، ومن جاءنا من تركيا، مع الأديغة، دُعك من الإنجليز والبولونيين الذي ليسوا من ديننا... ولأني أعرف يا كبير ما ستسأل عنه فلن أتركك دون جواب. - لم يترك فرصة لبرج حسن ليتكلم - كل لغات العالم، بما فيها لغات الكفار، هي لغة الله. إنه خالق الكون، هو إله الأحياء والجمادات. نعم يا كبير، أيها الزعيم المبارك، ما سأفوله لك لم أكاشف به أحداً. أتكلم معك من أعماق قلبي لأني أعرف أن الله الذي يمنحني المعرفة واثق منك. الله يقودني في دنياي العارية منذ صغري، ودون أن يعرف أخي الأكبر بكر بالموضوع، مانحاً إياي عطفه. وإن أردت معرفة الحقيقة فالله العلي العظيم هو من حماني من الأفندي الجاسوس التركي الخبيث عبد الله، ومن النائب الداغستاني، ومن غيرهم ممن لا يضمرون لي الخير، وهو من جاء بي إلى حضرتك. أتتذكر كيف نصّبتني مفتياً على مشايخ الأبراخ حين جئنا إليك، أنا والمرحوم الضالّ في دنياه مرزيج، فاستقبلتني بعين الرضا، غير واثق من كان رفيقي؟

- وكيف لا أتذكر - قال برج المنفعل بتأثير كلمات الأفندي - أليس منذ الحزيف الماضي أسندت إليك مهمة المفتي، وتوجّب علينا أن نأثم بحق مرزيج؟
- أتحمل نفسك أيها الزعيم المبارك وزر المرحوم مرزيج؟
- من يعرف إن كنت أنا أم غيري؟ كل الأبراخ يعرفون أنه انتشل من نهر شحه غواشه.

- والكفار يعرفون أيضاً أنه انتشل من شحه غواشه... لم يتجاوز مرزيج

الساذج سريع الانقياد ما كتبه الله عليه... ولكن من يعرف؛ ربما لاحقه النائب؟ كيف لنا أن نعرف مِيتة مرزيج الكبير؛ يا ربي وهذا واحد من عبادك الضالين الأديغة.

- لم يكن مرزيج المسكين محروماً من الرجولة... رفاقنا سبقونا يا محمد أفندي فلنلحق بهم! - أسرع برج بحصانه قليلاً ثم سأل من على يساره، قائلاً لنفسه "هذا الذي معي يمكنه أن يجعلك مطواعاً له، وأن يدفعك إلى الخطأ، يجب التعامل معه بحذر ومراقبته":

- أتصدّق يا محمد أفندي أنك موفد من الله؟ - ودون انتظار الجواب قال له وهو يسرع بحصانه: - هيا أيها المفتي، لا تزال أماننا أيام أخرى. وعندك وقتٌ لتفكر في الجواب.

الفصل السادس والعشرون

- هل أنت نائم يا أفندي؟ - سأل مرزخوي مفتي الشابسغ، وهما مرتاحان في فراشيهما، الحاجّ خوست مفتي الشابسغ، وأضاف: - أظن الطريق أرهقكم يا كبير.

- لا يا أفندي. طريقنا لا شيء بالقياس إلى الطريق الطويل المرهق الثقيل الذي قطعتموه. الكفار يدفعوننا كل يوم إلى البحر بحجة ترميم طرقنا. لا أقول إننا لا نقاومهم، وإننا فقدنا رجولتنا، ولكن من الصعب هزيمتهم لأن الجيش الذي يحشده الكفار حولنا لا يحيط به الحصر. يحاصرون قرانا بالمدافع، يحرقون كل شيء. والويل لمن بقي معهم والسعد لمن نجا منهم. والله وحده هو أملنا. ونتنظر أن يقول لنا في وقت ما: يكفي ما اختبرتم به في دنياه الفانية.

- لا، لا يا أفندي. لا تدعنا نقول إن الله الذي يتوسل إليه الناس ولا يتوسل هو إلى أحد نسينا ولو أنه ما يزال يختبرنا في دنياه الفانية. إنه رحيم بالضالين

وغير الضالين. لا يأس مادام قيوماً علينا، ولا نخرج عن تعاليمه. لم ينسنا ولذلك سيسمح للمجلس الذي سنشارك في أعماله أن ينعقد غداً. - أضاف مرزخوي ما يهيمه وهو راض عن أقواله: - على ما أراك يا كبير لست مفتي الشابسغ منذ زمن بعيد.

- عرفت، عرفت - أجاب الحاج خوشت بسرعة كأنه فرح بالسؤال. - في العام الماضي حين قتل الكفار "جده أيوب" على ضفة نهر أبنه بالرماح رشحي زان قاربتر مكانه. ومن يدري ماذا بانتظارنا نحن أيضاً؟

- سبحان الله، سبحان الله، لا إله إلا الله¹، الله وحده هو من يعرف ما ينتظرنا. - قال محمد أفندي بنيرة من يدين نفسه ومن يرثها، ثم أضاف: - وكيف لا أعرف جده أيوب؟ التقيت به في حجتي الثالثة في الكعبة.

- هل حججت ثلاث مرات كاملة! - سأل الحاج حُشت مستغرباً ما سمع، وأضاف: - أنا لم أحج إلا مرة واحدة.

- ولماذا تستغرب هذا؟ - سأل مرزخوي أفندي الحاج خوشت، ثم شرح الموضوع: - على كل مسلم أن يحج ولو مرة واحدة. وإن استطعت حُجَّ كل عام. وسيكون الله تعالى راضياً عنك في هذا. لا أنسى إلى الآن ما حدث لجده أيوب... الأفندية موفدو الله يحميهم. أ يكون الجحّ دفعوا هذا البائس إلى ارتكاب الإثم؟! ليس مستغرباً. لا يُستبعد أن يكونوا حرفوه عن طريقه في شيخوخته... لا، لا يا أفندي. ليس من شأننا نحن أن نفسر ما يقول الله وما يفعل. يحزّ في نفسي يا كبير أنك لم تحجّ إلا مرة واحدة. غير أن من الممكن تدارك هذا الأمر؛ فالحاج برزج وعدني أن يُوصي بي المجلس لمنصب المعاون

¹ كل العبارات بالعربية.

للشؤون الدينية وبرج حسن وتسي من الأبراخ، وزان من الشابسغ موافقون على هذا، فمتى أسندوا إليّ المنصب أدرجت اسمك في أول قائمة حجاج من عندنا. وإن استشاروك يا أفندي بشأني فأنت تعرف بمّ ستجيب: - من المؤكد أنك لن تنساني في ما لله العليّ العظيم علّم به ورأيّ فيه.

- لا، يا محمد أفندي. لا يخطر لك مثل هذا. أنا سمعت بسيرتك الطيبة ولو أننا نلتقي لأول مرة. وكان سلفي المرحوم ذكر لي أخبارك بالخير أكثر من مرة، ثم إنك مقررٌ ممتاز. سأوافق الحاج برزج الرجل الكبير متى رشّحك لتكون معاونه للشؤون الدينية. ما كتبه الله لك موضوع منتهٍ بالنسبة لك ولي.

ابتدأ أعضاء المجلس الخمسة عشر اجتماعهم بتأدية صلاة الصبح. ولما وقف الحاج برزج أمامهم ناداه فأوقفه وراءه، ثم أوقف أفندي الشابسغ والويخ والساز الأباطة إلى يساره، ففهم محمد أفندي مرزخوي أن الحاج برزج لن يفِي بوعده. ولكن هذا الموضوع لم يكن الأول على جدول أعمال المجلس بل الأخير.

القاعة المستقلة شبه المظلمة التي سيعقد فيها المندوبون الضيوف من الأبراخ والشابسغ والويخ والساز الأباطة اجتماعهم ليست كبيرة ولا صغيرة. - تتسع لنحو مئة شخص. والفناء المرصوف بالبلاط المزخرف فسيح. وعلى امتداد الجدارين اللذين في كلّ منهما نافذتان ضيقتان مقاعدٌ ناعمةٌ منخفضة. وعلى الجدار الرابع مقعد الرئيس المنتخب لخمس سنوات ومعاونيه الاثنين. وعلى يسار هؤلاء ويمينهم طاولتان على كلّ منهما مصحف.

- أعضاء المجلس، الضيوف الكرام يا من أدعو لهم أن يغمرهم الله بعطفه، ويظللهم بمعرفه، - افتتح برزج جراندوقه الجلسة بكلمة افتتاحية. - نجتمع اليوم منذ أسسنا مجلسنا للمرة الثالثة. أطلعناكم على الموضوع الذي دعوناكم من أجله، فإن كنتم موافقين تابعنا جلستنا. سنستمع إلى الخبر الذي نقله إلينا

برج حسن معاونُ رئيس المجلس، ورئيسُ الوفد الذي زار تفليس لمقابلة الجنرال إدفوكيموف.

- حياك الله يا جراندوقه، الزعيم المبارك للمجلس. إن كان هذا رأيك سردنا عليكم نتائج المهمة التي كُلفنا بها دون إطالة. - وكما في كل مناسبة قال برج يغلبه حذره ولطافته. وإن أنسَ شيئاً استدركه تسي وتحه غوشه اللذان كانا معي.

- لن نضيف شيئاً إلى ما تقول - قال تسي ناظراً إلى رفيقه تحه غوشه مع ابتسامة. يكفي أن تقول إن من زرناهم أهانونا.

- حتى لو كان الكلام المختصر كالعصا يا تسي - قال برزج - فله طرفان. أي الطرفين أحسن؟ هذا ما يجب أن نفكر فيه الآن.

- وصلنا إلى حافة النهاية ونحن نردد هذا الكلام... - تتم تسي مُسمِعاً الجميع ولو أنه تظاهر بأن ماقاله موجّه إلى شخصه نفسه.

- من أجل هذا جمعوا المجلس! - عارض أحد أعضاء المجلس من الساز الأباطرة كلام تسي.

- كان علينا منذ زمن بعيد أن نعرف هذا - قال عضو آخر من الشابسغ.

- حسنٌ أننا صحونا أخيراً... - رد تسي على من يجلسون وراءه بلامبالاة كاملة. وافقه بعضهم، وعارضه آخرون.

- كلُّ المديح للحاج جراندوقه! - هتف شابٌّ من الوبيخ.

- أيتها الجماعة التي أدعو الله لأجلها - قال برزج بصوت جازم - تحلّوا بالصبر! صحيح أنهم يقولون: رأسان خيرٌ من رأس واحد، ولكن لا تجعلونا نحول مجلسنا المجتمع تَوّاً إلى ساحة جدال. نسمعك يا حسن. لا تبق واقفاً، يمكنك الكلام جالساً.

- لن أستطيع أن أفعل هذا أمام الحشد يا زعيم الخير - قال حسن، ثم أكمل وهو ينظر نحو تسي: - في كلام الزعيم تسي، ليجعل الله يومه مئة، نصيب من الصحة. إن سألتمونا هل أهانكم من زرتهم فالجواب نعم. هؤلاء وإن كانوا خبثاء فقد استقبلونا بالترحيب اللائق بالضيوف: فتحوا لنا باب مضافتهم، وكان طعامهم وفيراً. ولم يضللونا عن مواعيد صلواتنا. غير أن جوابهم على ما سافرنا لأجله كان جاهزاً: أبلغونا ضرورة أن نعيش بسلام معهم، ننفذ أوامرهم بصفتنا رعاياهم، ولم يهتموا بما يشغل بال المجلس.

بدأ أعضاء المجلس وغير أعضاءه يصيحون من هنا وهناك:

- أيُّ عيب هذا!

- لا شأن لهم بنا فیرتبوا أمورنا.

- حين أهانوكم أيها الكبير ألم تكونوا مسلحين؟ - شارك أحد الشباب المتجمهرين قرب الباب.

- لا يستوي طرح السؤال والإجابة عنه أيتها الجماعة التي أدعو لها بالخير. ساحني يا جراندوقه، يا زعيم مجلسنا على أني أساهم بكلامي في غير دوري. - عرّف محمد أفندي إلى الحضور نفسه بصوت لطيف، وقد ازداد وسامةً بعمامته البيضاء على طربوشه الأحمر الذي بدا تحته وجهه المتطاوّل. - دُعونا نستمع بقلوب ملأى بالود واللفظ، أمام الله العلي العظيم الذي له شأن في كل أحوالنا إلى برج حسن الذي عاني مشقات عظيمة؛ أليس كلامي صحيحاً يا أفندي؟ - تظاهر بأنه يستشير خوست أفندي الشابسغ الجالس إلى جواره، ونظر بطرف عينه إلى أفندي الأباطة.

- نعم يا محمد أفندي، نعم، الصبر هو الكلمة الأولى لله - وافقه أيضاً الأفندي خوست، وهزّ أفندي الأباطة رأسه بما يعني موافقته.

- السلاح سهلٌ إشهاره غير أن إعادته إلى غمده صعب يا ولدي. - أضاف
برج حسن وهو ينظر من فوق عمامة أفندي الأبراخ الضخمة، بعدما كانوا
قاطعوا كلامه - كل الموفدين يُطلب منهم، حسب القوانين السائدة، قبل
دخولهم غرفة الاجتماعات أن يضعوا عنهم أسلحتهم. ولا يعني عدم مجيئنا
بأخبار طيبة من حيث كنا أننا لم نأت بما يبعث على الأمل. أخبرونا أنهم
سيعملون على عقد لقاء لنا مع قيصر روسيا الذي من المقرر أن يزور شمال
القوقاز في الخريف القادم، وأن نحمل إليه نداءنا. هذا ما نعرفه اليوم، أنا وتسي
وتحه غوشه، لنخبركم به. لا تؤاخذونا بما لم نستطع تحقيقه، لم نأل جهداً.

خرق الحاجُ برزج الضيق الشديد الذي هيمن على القاعة المظلمة:

- حياكم الله يا برج وتسي وتحه غوشه، لم تدخروا جهداً لإنجاح مهمتكم.
قطعتكم كل هذه الأرض ذهاباً وإياباً، ولكنكم لم تعودوا خالين من الأمل. إن لم
يتحقق هدفكم في تفليس فبارياتينسك النّجاج كان غائباً، واستهان بكم
ميليوتين المنظوي على أفكاره، وليس أوربلياني الهاوي للمهمات بالجنرال الذي
تثق بكلامه، وأما إفدوكيموف ذو العيون الثلاث فقد خدعنا مرة أخرى. وما
جئتم به من خبر زيارة القيصر خبرٌ فيه شيء من الأمل، اهدؤوا قليلاً - نظر
برزج بعينيه الثقيلتين في أوساط الشباب وأجاب على ما سمع باختصار: -
القيصر الروسي الذي تتحدثون عنه، لن نصفه بالعدو ولا بالصديق وإن لم
يكن يريدنا - ثم استدار نحو زان وقال: - لا يزال أمامنا ما يكفي من الوقت
يا قاربتر. راجعوا ثانية البيان الذي صُغناه قبل أيام للقيصر؛ سنعرضه على
جلسة المجلس في الشهر القادم. وإن رأوه مناسباً تبنيناه. وأنتما يا برج وتسي
أطلعنا وجهاء الأبراخ عليه كما اطلعنا نحن الوبيخ والساس الأباطة. ولا تنسيا
الحاج محمد أفندي، سيفيدكما إذ أرى عنده بصيرة نافذة. والآن، وقد انتهينا

من اجتماع الظهيرة، سندوق مما أنعم الله به علينا. ثم ننهي أعمالنا اليوم مع صلاة العصر.

الموضوع الذي بحثه اجتماع المجلس عصرًا هو تحصيل الضريبة التي ستموّل الخمسة عشر ألف مقاتل المقرر تجنيدهم. ولو سار النقاش كما اقترح برج، ولم يعترض تسي، لأنّهم الموضوع مع صلاة العصر.

- لا بأس بسير الأمور في شأن تحصيل الضريبة التي ستموّل بها الجيش - وافق تسي المساهمين في النقاش - مخاتير القرى يعملون جيداً، والأسر التي ساهمت مشكورة لم تقصر، غير أننا لن نحمي البلاد بخمسة عشر ألف مقاتل. أرى أننا نحتاج إلى عدة أضعاف لهذا العدد. وسأجيب من يتساءلون عن إمكانية تمويلهم: نعم نحن قادرون! أليس كلّ من الأبرار والشبابسغ والويش قادرين على أن يتحد كل قبيلة خمسة عشر ألفاً؟

- ولا تنس الأباطة يا زعيم الخير! قال أفندي الأباطة تحه سف.
- وأنتم يا أفندي تستطيعون، حسب تعدادكم، تجنيد عشرة آلاف. - أجاب تسي، وتابع كلامه: - وإلاّ يا جراندوقه فلن نستطيع حماية شرف أجدادنا وآبائنا وأطفالنا ونسائنا.

- حياك الله، ورضي عنك! - قال الحاج برزج لتسي - أعتقد أنك عبّرت عما في قلبي وما في قلوب أعضاء المجلس والضيوف، ولذا سنعرف حقيقة الاقتراح الذي قدمته، وسنطرحه في الاجتماع القادم للمجلس. نعم، نعم، أفهم ضرورة عدم المماطلة في هذا الموضوع. ولكن لما كان المجلس هو من يتخذ القرار في أي موضوع، لن نستطيع تجاوزه. والآن، إذ نختتم اجتماعنا، سأرجوكم، إن وافقتموني: أقترح اسم مرزخوي محمد الأفندي لأننا محتاجون إلى من يصلي بنا ويتلو علينا من القرآن. فإن رأيتموه مناسباً فالشكر لكم، وأدعو الله أن نجتمع

على الخير، وأن نفترق عليه. رافقتكم السلامة أيها الزعماء المباركون. وأنتم يا شبابنا، معقد آمالنا.

الفصل السابع والعشرون

الخريف، وإن يكن في بلاد الأبراخ صاحباً دائماً جميلاً، فالناس لا يتذكرون منذ زمن بعيد خريفاً ملوناً كالأيام الأولى من أيلول عام 1861. فأينما سرحت بنظرك رأيت الغابات الجبلية اكتست بأوراق الأشجار المتعددة الألوان. من جهة يمتد المنظر متغلغلاً في السماء إلى قمم الجبال البيضاء، ومن الجهات الأخرى يمتد نحو الشرق والغرب، والغابة الفسيحة التي يجول فيها نهر فُجيس وشحه غواشه تجري باتجاه نهر لوبا ونهر بشرة دون أن تلتفت إلى الورا. وغابات قمم الجبال تنظر إليك بعيون مختلفة. وبعض كتل الغيوم البيضاء، وبعض نُتفها، تعبر بلاد الأبراخ غير عابئة بشيء.

برج حسن جالسٌ تحت شجرة البلوط الكبيرة المطلة على الساقية التي تنثر مياهها الفضية وراء البيت. ولا يمر يوم على برج لا يطل فيه على ساقيته الفضية ويحييها، سواء كان قلبه يطاوعه بالخير أم لا يفعل، وسواء يجد وقتاً أم لا يجد، إلا أن يكون غائباً في مهمة. وأعجب ما في الأمر أن تلك الساقية الفضية لا يتجمد ماؤها في الشتاء، ولا يخفُص صوتها. وفي خلال حياته التي تجاوزت الستين لا يذكر أنها تجمدت وكفّت عن الجريان، ولم يسمع من والده ومن جدّه، ومن أجدادهما مثل هذا.

"كم سنة يمكن أن يكون عمر الأمواج الفضية المتقاطعة ولو أنها تعيش بانتظار أن تلتقي بنهر فُجيس؟ - سأل برج حسن السؤال الذي قفز إلى خاطره، ثم أسرع إلى وعيه بوجه مذعور: - لن يعرف أحدٌ جواب هذا السؤال إلا الله خالق الكون! اغفر لي يا إلهي. كنت أود أن أعرف ما لا أعرفه. وأنا أفكر في

نفسى لأن هذا لا يجري دون علمك. يخيل إليّ أن هذه الساقية كانت لنا في عهد تعدد آلهتنا حتى لو لم توجد شجرة البلوط قبل أن تُبْلِغنا الإسلام... التوبة، التوبة يا إلهي لا أحد غيرك يسمعي. أنت سندنا، وأنت أملنا. ولكن تخطر لي أسئلة سيئة بحقك، ليس لأني ضالّ عنك بل لأني مهموم بما سيحدث لنا بصفتي من عبادك بؤأني زعامة أمتك الأبراخ. كيف سنحمي تلك الساقية التي تركها لنا أجدادنا، وشجرة البلوط، وجنتك ريف الأبراخ، وحصتنا من السماء، حتى الجوارح التي تحوم فيها؟ ليس السبب أن الرجولة هجرتنا، وأن قلوبنا صارت هشّة، وهانت علينا حريتنا يا إلهي، بل لأننا حاولنا تجنب الحرب الدامية. كيف سنُفهم هذا للقيصر الذي سيُقدّم إلى نواحيننا؟ إن لم نتوصل، نحن الطرفين، إلى اتفاق، فنحن إما أن نموت وإما أن نموت، مدركين أن نهايتنا على يد هذه الدولة العظمى التي تهاجمنا. فلا أمل لنا غيرك يا الله. - قرفص برج حسن إلى ضفة الساقية وسأل نفسه ثانية وهو يرشق وجهه بالماء: -

يمكن أن يكون لنا حلّ آخر؟.."

تراكضت أفكار برج حسن القرية والبعيدة ريثما نشف وجهه، وفيما هو يتأمل الساقية التي تقفز فوق حصاها، منذ طفولته التي يعيها، إلى آخر مجلس شهبه. وخلال هذا الزمن كله لا يتذكر، باستثناء طور الطفولة القصير، عهداً غلبت فيه السعادة على حياته. يتذكر جيداً أن القوزاق قتلوا أباه في سهل نهر لوبا، وجيء به على صهوة الحصان. وبعد أقل من سنة قضى عمه الأصغر وأخوه هو الأكبر، وعدد من أبناء القرية، على أيدي هؤلاء. سأل برج نفسه من جديد: "أيّ مصيبة لا نهاية لها نعيشها خلال سنواتي الستين؟" وأجاب نفسه بنفسه: - نحن مهمومون بمصيرنا، وما ينتظر أولادنا، ومستقبل الأبراخ - الأديغة. ستعيش هذه الجبال، والغابات، والأنهار، والجوارح المدوّمة في السماء،

وهذه الساقية، حتى بعد ممانتنا. ولكن هل تستطيع أن تعيش دون أن تسمع لغتنا الأديغية وأغانينا وأصوات ضحكتنا، وأحزاننا؟ لا أعرف، لا أعرف... ولما كانت الحكومة التي ألغناها باسم الأعراق الثلاثة هي آخر ما نستطيع فعله فنحن نقابل باسم المجلس من يقصدنا، ونخدع أنفسنا بحجة أننا يجب أن نتصالح ونتعايش في الوقت الذي يوطنون فيه القوزاق في أراضينا. سمحنا، نحن الأبخاز، للأعداء أن ينهبوا أرض الشابسغ مخدوعين بإعلانهم لنا أنهم صالحون، وسمحنا لهم أن يحصروهم على ساحل البحر. والآن، وقد دخل قيصر الدولة التي تحاربنا أرضنا من غير أن ندعوه إلينا. ننتظر قدمه؛ ماذا سنقول له، وماذا سيقول لنا؟ نعرف ما سنقله له وإن لم نكن نعرف ما سيقوله لنا. أحتاجه أم نتوصل إليه؟ وإن حدثت حرب بعد الجدل؟ ولكن ألا نتحارب في كل الأحوال! يقال إن الكلام الحلو يُخرج الحية من وكرها. أسمعك من يستضعفك حتى لو كان الكلام الحلو على لسانك؟ ولكن مع ذلك أليست الكفّ الممدودة خيراً من القبضة المهدّدة؟ وهل يقبل جماعة تسي هذا الرأي؟..."

التفت برج على أثر الصوت الذي سمعه، وقال له مولى الذي اقترب منه:

- على مربوط خيل دارك عدد من الفرسان.
- إن كانت نواياهم خيراً فهذا حسنٌ - قال حسن دون أن يسأل عن هويّتهم، وارتدى قبعته على عجل. - تعال يا جار ندعوهم إلى البيت.
- أظن أن جماعة براغنه ومرزخوي لا ينوون الدخول. غير أنهم لم يستطيعوا تجاوز القرية دون أن يروك ويسلموا عليك.
- من حظ الإنسان أن لا يتجنبه الناس يا مولى - قابل برج حسن الفرسان المتجمهرين أمام باب داره منادياً بأسماء المسنين منهم: - تفضلوا يا بكر، وأنت

يا إسلام، لا، لا، هذا ليس تصرّف الأدبغة. ادخلوا إلى الفناء وإن كنتم لن تدخلوا الغرفة. انزلوا عند فيء الشجرة، نرى بعضنا على الأقل. اسمع - ينادي نحو المطبخ - نكتفي بالماء البارد لضيوفنا.

- لأجل هذا يا بكر كنت قلت لك: لا نريد إزعاج حسن - برأ براغته إسلام نفسه، ثم عاد وصحح موقفه: - لا نستطيع حسب عاداتنا الأدبغة، تجاهل رغبة كبيرنا.

- حسناً فعلت يا بكر، حياك الله - ولكن يا إسلام ليس السبب وحده كون بكر هو الأسن؟ - مازح برج براغته.

- هذا صحيح. - قال براغته وقد فهم ما لم يُفصح عنه المضيف - "القريب لا يُنتزع من أعلى العود" الله جعل من أسرّتنا أقرباء خير. ابنة آل مرزخوي كنّتنا رزقنا صبيّاً وبنْتاً فنمّت أسرّتنا.

- هذا خبر سارّ! - انتفض برج برأسه - ليكونا خيراً على الأسرتين وعلى الأبخاخ! ومتى حدث هذا؟

- مضى على هذا نصف عام، عجيب أن محمداً لم يُخبرك... والله أخي الأصغر هذا رجل صالح... - قال بكر لنفسه، ثم اختتم مُسمِعاً الجميع: - يتدخل في ما ليس من شأنه، وينسى أمور أسرّته.

- لا تلم يا بكر أخاك الأصغر محمد أفندي، إنه يحمل عبء كثير من قضايا البلاد الدينية.

- ساجحوني يا كبار على تدخّلي في الحديث - قال غُمشت مولى مستعداً لخدمة الرجال الثلاثة - لو لم يكن إلا المهمة الكبيرة التي أسندها المجلس لأخيك محمد أفندي...

- نعم يا جاري، نعم... - عثر بكر على مهمة للجار دون أن يكمل كلامه:

- يا مولى، لا تؤاخذني يا أخى الأصغر، بلغ من فاحت من جهتهن رائحة الزيت أن يستعجلن - وحين ابتعد مولى أكمل حسن كلامه - قلت لك يا بكر: لا تلم أخاك محمد أفندي، ولكن في كلامك نصيباً من الصحة. أظنه يبالغ في قضاياه الدينية، لا أعرف ماذا قيل له في الشام وإستانبول ومكة. يحدث أن لا يستشيرنا في ما سيفعل. مهمة معاون رئيس المجلس - المُقرئ التي أوكلها إليه الحاج برزج لا نعرفها، لا أنا ولا تسي. وأما هو، فمع أنه وصلنا توُسُّله إلى الحاج برزج، وطريقة فرض نفسه عليه، وتوُسُّله إلى أفندي الشابسغ، يروي لنا أنه لم يكن له علمٌ بالموضوع كله وأن منصبه أتاه من الله. وأعجب ما في الأمر أنه صدق هو نفسه مزاعمه ويؤمن المصلين الذين في قلوبهم الله.

- كنت توجَّستُ من أن يتصرف معكم هكذا... - سوَّغ بكر قطعة "السلامه" التي لم تكن تنزل إلى معدته بجرعة ماء، واختتم:- هذا يجب أن يُعاد يوماً ما إلى وعيه، تثقتكم... - حين رأى بكرُ غُمشت مولى الذي أوصل مائدة السلامه إلى الفرسان الشباب الواقفين خارج أرض الدار، توقف عن الكلام - رأيناكم بخير يا حسن، وذقنا من طعامك، والآن نستأنف طريقنا.

- ضيوفك الصباحيون أيها الزعيم المبارك - لم يستطع غُمشت أن يصبر على الخبر الذي اطلع عليه - يتوجهون إلى سهل "مامرقوه" هناك يجمع تسي وأفمغتُ موفدي جنود الأبراخ. وأنا أفكر أن أذهب معهم إذ أني لن أجد بعدهم مجموعة كبيرة كهذه.

مع أن برج حسن لم يكن على علمٍ بالخبر الذي سمعه، فقد شهد عليه كاتماً انزعاجه:

- نعم، نعم، تسي وأنا تكلمنا قبل أيام في هذا الموضوع. سمعنا أن قيصر روسيا سيتوقف في سهل مامرقوه، ولذا سيُفهمكم بشكل أكثر تفصيلاً كيف

تستقبلونه هناك، وأين ستقفون. لا يا بكر، لا. لا يخطر لك سوء من جهته. لن ننسى كيف يستقبل الأديغة ضيوفهم وإن لم نستقبله استقبال الملوك. وستصرف كما يمليه علينا.

حين اتخذت جماعة مرزخوي طريقها ظل برج حسن يذرع أرض الدار لا يجد راحة من تصرف تسي المهين له. دخل الغرفة وخرج منها. "مهما قلنا لتسي ومهما عاتبناه فهو لا يتقبل. ربما رفع الكلفة بينه وبينني كلياً لأنني بقيت أحترمه بصفته الأكبر سناً. لا يسأل ولا يستشير أحداً. يفعل ما يريد، ويعيش كما يريد. ليس من اليوم فحسب بل كان يسلك هذا المسلك من عهد النائب. عليك حين تكون معاوناً لزعيم الأبراخ أن تستشير أحياناً على مبدأ: رأس خبز من رأس واحد. متى أبعدت الجميع عنك ولم تجد من تستشير فضع قبعتك أمامك واسأله، بل اسأل حصانك والسوط الذي تستعمله معه. هذا ما تجلبه لنا فرقة الأديغة... إذا جمعنا مندوبي المجلس بعد غد هنا فستكلم مرة أخرى على قضايا الأديغة - الروس لأن أماننا أربعة أيام على وصول القيصر."

الفصل الثامن والعشرون

اليوم مضت ستة أعوام على تبؤ القيصر ألكسندر الثاني الحكم: كانت حرب القرم في أوجها حين استلم الحكم. وهو مسرور بأنه استطاع حتى لو لم ينتصر على الدول التي شنت عليه الحرب: تركيا وإنكلترا وفرنسا المتحالفة، عبر المحادثات مع تلك الدول التي جابهته ولاسيما تركيا، مساوماً إياهم على موضوعات أخرى، عاضداً موقفه بما تحوّل إياه معاهدة أندروبول، فانتزع رغم كل الصعوبات شمال غرب القفقاس مع سواحل البحر الأسود. واليوم، وهو يرى النتائج رأي العين، يعدّ ما أنجزه ذكاء كبيراً منه.

"قولوا ما تريدون وافعلوا - يقول القيصر لنفسه معتبراً ما جرى فرحة ومصدر

ثقة. — جنّة الأرض هذه لنا. كيفما تصرف الشراكسة الذين سألتقي بهم اليوم قابلناهم وفي قلوبنا غير ما على ألسنتنا لأننا نعرف ما سيعرضونه علينا. إن تحدثوا معنا بلغة من عرف أن الحرب وصلت إلى خواتيمها فهم محظوظون. وإن قالوا لا ولم يفهمونا فسيرضخون بقوة السلاح، وستكون تركيا التي منحتكم لنا جنّة دنياكم. — وهل ستنقلون معكم الجبال والأنهار والغابات؛ سنقول لهم: سنعيدكم إلى تركيا التي منحتكم لنا. ليس في الورقة التي أوصلها إليّ قائد جيوش القفقاس بارياتينسك ما لا يمكن قبوله¹ - والآن مرة أخرى ألقى القيصر ذو العينين الزرقاوين والجبين العريض واللحية والشوارب الرقيقة المتباعدة

¹ تبعاً للخبر الذي أبلغنا إياه الجنرال أوريلياني يا سعادة الإمبراطور — يكتب رئيس أركان القوات الروسية في القفقاس مليونتين — نُعلمكم بمجيء ممثلي الشابسغ والأبزاخ والوبيخ الذين لم يصلحونا والذين تحالفوا ضدنا إلى تفليس لمفاوضتنا، وبرغبتهم في مقابلتكم. ونحن نعرف منذ زمن بعيد عدم جدوى أمثال هذه اللقاءات وخداع الجليبين لنا.

اختبرنا أكثر من مرة ضرورة عدم عقد أي اتفاق مع شراكسة غرب القفقاس، وعدم الثقة بهم. ولن تستطيع الأعراق الثلاثة التي عاشت حرة منفصلة عن بعضها، المعتادة على التصرفات الفردية الحرة، وغير الخبرة بتنظيم شؤون الدولة، أن تتعايش أو أن تعيش معنا في سلام. وبناء على هذه المعطيات، فرأيتي الخاص أن من الصعب الحصول على تعهدات من موفدي الأعراق الثلاثة. وربما ينوون العودة إلى وعيهم واستعادة قواهم والتحالف مع أعدائنا الخارجيين والداخليين بانتظار أن تشن أوروبا حرباً لأنهم فهموا أن لا مخرج لهم بسبب المستوطنات القوزاقية التي أحطناهم بها، والتي هي وسيلة ضغط عليهم. وانطلاقاً من هذه المعايير يمكن الحكم بأن موفدي الأديغة لا يفكرون في السلام حقاً، وأن علينا متابعة قضايانا في غرب القفقاس. ونحن إن طردنا الشراكسة من الجبال ووطّنا القوزاق مكانهم بكل جهدنا حققنا السلام في ذلك الإقليم. وإن فعلنا هذا انتهى أي احتمال بخروج القفقاس من يدنا في حال انتقاض السلام بيننا وبين الدول الساحلية" المؤلف.

نظرة على الورقة، وأعادها. - يجب أن يكون الجنرال إفدوكيموف مطلعاً على هذه، أو اشتركوا في كتابتها. كان أبلغني هذه المعلومات في مايقواب. نعم يا جنرال، سترى ما يحدث، وستصرف كما نريد وإن لم يكن هناك تراجع!"

في السابع عشر من أيلول عام 1861، أفاق سهل مامقوه على صباح خريفي ناعم حلو. ولولا الحرب الدامية في أرض الأبخاخ لكان كل ما تقع عليه العين في هدوء. وكلما هبّ المقاتلون الروس على صيحة النصر "هورا" تساقطت من الأشجار أوراق صفراء - حمراء، وسكنت الأصداء الممزقة في غابات الجبال.

- أتساءل ما الذي جرى لهؤلاء؟! - يقول أحد الفلاحين غير متحمل ما يرى وما يسمع.

- وأين مندوبونا إذن؟

- ينتظرون أن يشير إليهم قيصر الكفار فيركضوا.

- لا أرى بينهم زعيم الشابسغ - الناختوي قاربتر!

- لم يقبل أن يأتي معهم، يسبح وحده في تيار معاكس.

تشرق شمس الخريف التي يستوي عندها الجميع من حافة الجبل. ولا يطبق تسي حاترباي صبراً:

- أتساءل: هل سنجلس مكتوفي الأيدي نستمع إلى طبول هؤلاء؟! هيا نسمعهم مبارزات السيوف على ظهور الخيل، ونُرهم ألعابنا على صهواتها! سندكر ثانية من رأوها سابقاً. ونمتّع من لم يروها.

تجابه على أرض المرعى من جهة الأديغة خمسون فارساً من كل جانب كما درّبهم تسي. وبأمر واحد استلوا سيوفهم، وتعاركوا في هرج ومرج. الخيل تصهل وتنفاز، وتنبطح، والسيوف الفولاذية تصلّ، وعيون حُمة القيصر الروسي مشدوّهة بالمنظر. وتفترق السيوف قبل أن تجد الفرصة لتراها. وبعد هؤلاء تبدأ

ألعاب الفروسية الفردية.

ولحظة ابتداء مبارزات المشاة بالسيوف القصيرة تظهر مجموعة من الفرسان والقيصر ألكسندر الثاني بينهم. والموفدون الأديغة العشرة يتجاوزون صفوف الحرس الروسي الثلاثة.

على يمين الحصان الإنكليزي الضخم للقيصر ألكسندر الثاني وعلى يساره الجنرالات لوريس - ميليكوف، إفدوكيموف، وعلى يساره المقدم قبلان عادل جري المترجم. ووراءهم، غير بعيد، الضباط والجنرالات المشاة. اقترب القيصر قرابة عشر خطوات من الأديغة وترجل. وفعل مثله الفرسان الأديغة الثلاثة: برزج جراندوقه، وبرج حسن، وتسي حاترباي. فتألفت حلقة مستديرة كبيرة. تقدم القيصر بضع خطوات إلى وسط الحلقة، وقال:

- تحياتي أيها الأبراخ!

- بارك الله فيكم. - أجاب موفدو الأديغة.

- أنا لم آت إليكم بصفة عدوّ - قال القيصر - بل بصفة صديق نواياه حسنة. أريد من الشراكسة المتعددي الأعرق أن يعيشوا معنا بسلام وصداقة (انتبه القيصر في هذه اللحظة إلى هياج إفدوكيموف من الدم الذي هجم على وجهه)¹. روسيا دولة عظمى وأمامها مهمة تاريخية كبيرة عليها إنجازها. وعلينا تحصين حدود بلادنا وامتلاك بحار نعبّر منها إلى غير بلادنا. ولن نستطيع الحياة من دون البحر الأسود. وعلّي شق طريق يؤدي إلى طوابسه وبزامز وأناابه. وسنعوّض القرى التي ستزال من أجل افتتاح هذا الطريق. وأنتم أريدكم أن تصبحوا من رعايا الدولة الروسية. ولا أعني بهذا فقدان هويتكم القومية:

¹ الأقواس من المؤلف.

ستعيشون وفق عاداتكم وتقاليديكم، ولن نقف في وجه مهماتكم القومية. وأنتم من تنتخبون زعاماتكم. تحاربون منذ عشرات السنين برجولة فائقة. ويهلك في هذه الحرب أبناء قومكم، وأنتم عاجزون عن الانتصار على جيشي بعده وعُدته. فإن ألقىتم السلاح كان خيراً لكم من أن تفنوا. جعل كلام القيصر الذي يترجمه لهم قبلان عادل جري الموفدين الأديغة يتبادلون النظرات.

- هل يترجم هذا الضابط النغوي¹ على نحو أمين ما يقوله القيصر؟ سأل تسي حاترباي براغنه إسلام الواقف وراءه.
- إلى الآن يترجم بأمانة.
- انتبه، أخبرنا حالّ خيانتته للنص.

- تبين أن الحرب وصلت إلى نهايتها - كلما مرّ الوقت ظهر التصميم على كلام القيصر - لا شك أن القفقاس ستصير أرضاً روسية. ستبقى أقوامكم قائمة. وستحميكم دولة روسيا. وستندمل جراحكم. وستوقف العداء. وستنسبون الإهانة والعار. وستعيشون حياة مواطنين في دولة. وافهموا قولي في الساعة التي ستصبح فيها القفقاس أرضاً روسية. وإن لم تفهموا هذا الأمر أو لم تتقبلوه فساؤكده على جنرالاتي أن يستمروا في الحرب إلى نهايتها مهما كلفت من ضحايا. وسينفذون أوامري. ولكن هذا سيجلب نهاية مأساوية لقومكم. فكروا!.. كلام القيصر كلاماً حازم، أقول لكم إنه كلام صادق ولا تراجع عنه.

¹ النغوي فرع من التتار كانوا يعيشون في شبه جزيرة القرم. وكان يعيش في القرم أيضاً مجموعة من الأديغة عاد قسم منها، وفيهم أسرة خان جري الذي كتب المؤلف نفسه رواية باسمه، إلى موطن الأديغة على نهر بشرة. ولكن الأديغة الذين عادت أسرة خان جري إليهم لم يتقبلوهم وظلوا يلقبونها بهذا اللقب النبز نغوي.

— حين أنهى القيصر كلامه خيم صمتٌ ثَقِيلٌ على رؤوس الأديغة. وكان الطرف الآخر يُحس بهذا الثقل. ونقض الأمير حَجْمَقُوهُ النظرات الصامتة المتبادلة:

— اسمحوا لي بوضع كلمات. جبي لوطني الأديغة كبير. ومهما كان ثمن هذا الحب فأنا أريد أن أحياه لأولادنا. أجدادنا حافظوا لنا عليه وهم يحاربون لأجله عشرات السنين. غير أننا نرى الآن رأي العين أننا لم نعد قادرين على حمايته بالسلاح. الروس تعدادهم كبير، ونحن قليلون. ليس بيننا تكافؤ في القوة. إن أطعموني فلنقبل عرضَ قيصر روسيا. ولن يعاقبنا الله على هذا القرار. لا تدعونا نخطئ؛ ولنفكر!

ومرة أخرى امتنع وجه القيصر من الأصوات التي صدرت من جانب الأديغة. وقال لقبلان بعدما ترجمه له:

— ما قاله حَجْمَقُوهُ صحيح غير أن كلامه لم يُعجب أصحابه...

خرج تسي حاترباي من بين جماعته، وقال لبراعته إسلام متوجهاً إلى القيصر:

— اسمع يا براعه: ترجم كل ما أقول حرفياً ليعرف القيصر الذي يتوسل إليه حجمقوه أن في طرفنا أيضاً شخصاً روسياً غيره. سمعتم شروط القيصر الروسي ومطالبه منا، وأوصله إلينا. كل إنسان يولد مرة واحدة. ويشيخ حاملاً اسم قومه، ويفارق الحياة وعلى لسانه اللغة التي وضعها أمه وأبوه. ولا يعيش كأيّ إنسان أكثر من مئة سنة، أما الأمة فتعيش آلاف السنين. وليس تحت السماء حياة أبدية. القيصر الروسي أعجب بأرض القفقاس، وحارب عشرات السنين للاستيلاء عليها. ونحن نحب أرضنا، ونحميها قدرَ استطاعتنا. ونسفك دمناء، ونضحى بأرواحنا. ولكننا نفضل الموت على أن يستعبدنا الغريب. القيصر يعدُّنا بلسان معسول أن يُبقي على عاداتنا وتقاليدنا ولغتنا وديننا، ولكن هذا

مستحيل! - تفحص تسي الأديغة، وتأمل في عيون القريبين منه والبعيدين. ثم توجه إلى القيصر وقد اكتسب قوة من أيده. - لا شك أننا سندوب بين هؤلاء، أعني الروس، كما تذوب حفنة ملح في خزان الماء! حين نُنهى حربنا لأجل حريتنا نكون أنحننا شرعنا الأديغة¹. وإذا سقطنا في سبيل إيماننا بمجلس حكومتنا الجديدة، وفي سبيل الحفاظ على شرفنا، فلن يعيب علينا أحد. يتظاهر القيصر الروسي بأنه يُضمر لنا الخير؛ ما أصعب أن نصدق كلامه في حين من يقوله يسفك دمنا، ويدمر حياتنا! ستعيش أرضنا الأديغة، لن نتنازل عنها لأحد. ستكون مهدنا الأبدي، أو تتحول إلى قبرنا. لن نُهين بطولات أجدادنا، إما أن نموت وإما أن نموت! مهما كان نُطقُ الصدق المرّ صعباً فليسمع القيصر ما في قلبنا لأنه لا يُضمر هو أيضاً لنا خيراً.

- صدقت يا حاتراي، صدقت! وافق بعضهم تسي.

- إذا كان القيصر الروسي يقول إنه أنى لزيارتنا - أكمل تسي كلامه - فلن نتخلى عن أديغيتنا - همس تسي في أذن الحاج برزج وهو ينظر حيث يقف حجمقوه، وأنهى كلامه - إن كان القيصر لن يضيف شيئاً إلى أقواله فنحن أيضاً نهى كلامنا هنا.

- القيصر لا يكرر كلامه - حسم القيصر الموضوع، ثم التفت وهو يركب إلى الحاج برزج، وقال: - لم تقل شيئاً يا برزج؟!

- ما سأقوله قاله تسي. وكل ما قلناه باسم مجلس حرية الأديغة نصدق عليه بهذه الورقة التي فيها: "هذه الأرض لنا. ونحن نحاربكم منذ عشرات السنين لأن حماية أرضنا هي مهمتنا. ونتيجة لهذه المهمة اتبّعنا سبيل تأسيس دولة -

¹ ترجمنا بكلمة شرعة "أديغة خابزة" باعتبارها دستوراً للحياة والعلاقات الاجتماعية.

ونحن ندير شؤون دولتنا دون أن نُؤذي أحداً، وبإنسانية وعدالة. ومن عادة الدول العظمى أن تحترم أمثال هذه الدول ذات النوايا الحسنة. وأنتم تزعمون أنكم تؤيدون من يناضلون في سبيل حريتهم. فلماذا تتصرفون معنا بهذا الأسلوب؟

نفعل كل ما بوسعنا من أجل تنفيذ المهمات التي التزمنا بها لتنفيذ مقررات حكومتنا بكل عدالة. ونحن جاهدون لحماية ممتلكات أبناء قومنا، وممتلكات من جاؤوا من بلاد غريبة. وأي نوايا تضمهرها لنا دولة عظمى كدولتكم؟ أهى مساعدتنا على إبادة قوميتنا الصغيرة أم مساعدتنا على إجراء التغييرات التي نُجريها؟ قررنا أن نطرح قضايانا بكل استقامة وصدق، ليس أمامكم فحسب بل أمام القوى العظمى.

كونوا عادلين بحقنا ولا تنهبوا أملاكنا ، ولا تدمروا مساجدنا ، ولا تسفكوا دما ! من العار على دولة عظمى أن تسرق من الناس الأبرياء مقومات حياتهم. إن أسَرَ الأطفال والنساء في حرب غير عادلة لا يتناسب ومفهوم الرجولة. أشعتم في العالم كله أننا متمردون. وبهذه الذريعة تشنون الحرب علينا. غير أننا نحن أيضاً أناس مثلكم، سنحمي أرضنا مادام في عروقنا دم، ومادام في أجسادنا روح".

الفصل التاسع والعشرون

- من حظ والدي ووالدك يا بكر أنهما لم يشهدا الأحداث الكثيرة التي جرت خلال هذه السنوات في أرض الأبراخ. - قال براغنه إسلام وهم خارجون من سهل مامرقوه، يلتفون حول قمة الجبل. - لو لم يكن إلا ما حدث لنا وما

شهدناه اليوم... قيصر الموجيك¹ كما قال تسي، كلّمنا بلسان معسول، ثم هددنا.

- أهم الجشّعون من عندنا ومن عندهم المشغولون بالبيع والشراء؟ قال دداي مؤيداً جاره، ثم استدار وقال لفرسان قريته الأحدث سنأ من ورائهم: - هيا يا شباب اسبقونا، لستم أحسن منا بكثير.

- تتشقى يا دداي بلا جدوى من الشباب الذين لا ذنب لهم. - لام بكر دداي وهو ينظر إلى الشباب الذين سبقوهم بحركة نشيطة. وأضاف إلى ما قاله إسلام: - نعم يا براغنه فهمت اليوم أننا بلا أمل. غير أنني أرى كلام حجمقوه أصحّ. ها هم البجدوغ والقيرتاي والبسلني صالحوا الروس.

- القوزاق الذين سقط على أيديهم والدي وكثيرون غيره - أسرع دداي قائلاً في نفسه: أعرف لماذا تقول هذا - لا يجوز أن ترفع الكلفة معهم.

- والقوزاق جزء من رعايا روسيا - قال براغنه إسلام باسماء، وأضاف: - هؤلاء، كما كان المرحوم والدي يقول، يعتبرون أنفسهم، دون أن يكلفهم أحد، مرتدين زيّ الأديغة واللباس العسكري، حماة روسيا.

- هذا صحيح، - فرح دداي لما سمعه وقوى موقفه، - ثم إن هؤلاء كما قال حجمقوه يريد بكر أن يصلحهم... أفهم، أفهم...

تبادل القريبان النظرات وقد فهما ما لم يستطع دداي الإفصاح عنه. ولكن بعدما مشيا قليلاً، ودون أن يُبدي أيّ منهما انفعالاً، سأل مرزخوي بكر:

- ما الذي فهمته يا دداي؟

- لا أعرف يا بكر... - قال دداي كمن يبرئ نفسه، ثم أردف حذراً: - ربما

¹ أي الفلاحين الفقراء، والمقصود به هنا وفي ما سيلي الروس عموماً.

لأنك صرت على علاقة ولو محدودة بهم... سامحني أيها الكبير - أصلح ددائي موقفه بسرعة، - يروون أن والدي كان يقول: ربما جعلتني الإهانة ألجأ إلى أي شيء - وأنت أيضاً يا إسلام سامحني!

- إن كنت يا ددائي فهمت أن من لا يقبل الإهانة يفنى بسرعة فنحن نسامحك. - أجاب مرزخوي بكر جواباً حاسماً مدرجاً فيه إسلام. - ولكن أن نختتم بما يمكن أن يحدث غداً خيرٌ من أن نختتم بمن "له طرف قرابة أو ليس له". أنا، إن أردت الحقيقة، لست من قرية حجمقوه، ولست فلاحاً عنده، ولكنني توقعت أن يؤيده الأبراخ الذين سيوفهم مسلولة دائماً لأنه تكلم من زاوية نظر بعيدة ومن حكمة عميقة... وعلى ما يبدو أن تسي عبر عما في أعماقهم. وشهد الحاج برزج على صحة أقواله بالورقة التي قدمها إلى القيصر. - نعم، نعم. - وافق ددائي أقوال بكر - كلام الأمير حجمقوه في مكانه. ولكن لا أعرف إذا كانوا ترجموه ترجمة صحيحة للقيصر.

- أنا استمعت إلى لغة قبلان الروسية جيداً. - شهد براءته على صحة ترجمة المقدم قبلان. ولم ينس أن يمدح نفسه أيضاً - ترجم للقيصر دون أن ينسى كلمة واحدة. وأنا اعتنيت بكلام تسي.

- هل يعني أنك كنت تضيف إلى كلامه ما لم يقله - انتفض بكر برأسه الضخم.

- وهل يمكن أن أفعل مثل هذا يا بكر؟! - احتاج إسلام مما سمع.

- أكيد لن تفعل! - وجزم بكر.

- لن يفعله أبداً! - وافق ددائي مرة أخرى بكر، وأنهى بما كان يُهمُّه - ما لم أفهمه هو سلوك برج... وقف في حضرة القيصر أصم... حقاً يا بكر وأنت قلت هذا مرة، ليس برج حسن إنساناً سيئاً ولكني أظن أنه يسمح لتسي

حاتر ياي أن يطغى عليه.

- اليوم يمكن أن تحكم بالحكم نفسه على برزج جراندوقه. اكتفى بأن أعطى للقيصر كتاب مجلس الحرية، ولم يقل له شيئاً ذا بال. على ما أفهم فقد نفذ الثلاثة برزج وتسي وبرج مهمتهم. وقد سمعنا ما في قلب الأمير حجمقوه ولو أن الأبراخ لم يتقبلوه.

- إن كان كلام حجمقوه أعجبك يا بكر، وترى أننا سنؤول إليه يوماً، وقد أكون مخطئاً، فأنا لا أوافق - الآن أدلى براغنه إسلام برأيه في الأمير حجمقوه. - إذا لوح لنا من سفك دم الأديغة سنوات طويلة بيده بدلاً من السلاح؛ فهل يعني أن نخلع له قبعاتنا؟.. لا أعرف كيف تفعل هذا في حضرة الشهداء والأموات والأحياء... أيعني هذا كما كان يقول تغوظقوه قازيج أننا تخلينا عن رجولتنا الأديغية وعن طلب الثأر؟! سيسخر منا كل من يسمع، سواء كان صديقاً أم عدواً.

- انظروا إلى قمة الجبل ذاك! - قال مرزخوي الذي لم يكن راضياً عن كلمات براغنه العنيفة. - أيّ مجاهدة فرسان كثيرين تبدو؟ كأن القوزاق والأبراخ مشتبكون... تعالوا حالاً، أسرعوا!

لم يكن مرزخوي ورفاقه وحدهم من يسرعون إلى ذلك المكان: بعض الفرسان أحاد، وبعضهم مثنى، وجماعات كاملة. وغيرهم يبرزون من هنا ومن هناك. ولم يكونوا قلائل من يتفرون غير عابئين بما يحدث في الجبل، ومن يرقبون ما سيحري.

الشمس تفارق كبد السماء كأنها تقول اشكروني إذ جلبت لكم الدفء والحياة. وبعض الجوارح الماهرة في الصيد بعيونها الحادة تدوم تحتها غير عابئة. والسواقي القلقة تتعثر في الجبل. وأصوات حوافر جماعة بكر تتناثر من فوق

الطريق الجبلي .

وصل مرزخوي بكر وصحبه إلى الفرسان المتجابهين: من جهة بلاخوه مزحب وبرسر زيوال وكوبا هارون. ومن ورائهم غُمشت مولى الذي يستطيع بصعوبة أن ينظر من خللهم. وفلاحون أبراخ آخرون. ومن جهة حجمقوه وعدد من حرس الأمير، ينقضُّ أحدهم ما يقول الآخر.

- أيها الحرس - نادى الأمير حجمقوه حراسه - ابتعدوا عني ودعوني أتكلم إلى الفلاحين الأبراخ الذين يزعمون أنني أهنّتهم.

- يا حجمقوه، ألا يكفي أنك تكلمت من قلب القيصر؛ ماذا تريد أن تقول بعد؟

- يا برسر - لم يقبل أحد أتباع الأمير - اسحب كلامك المُغرَضُ حالاً أمام الأمير.

- اصبر! - أكد حجمقوه بصوت هادئ على تابعه، وسأل بصوت اللطف:
- ما المشكلة في أن لا يعجب كلامي إلى القيصر برسر فيعبر هو عن رأيه؟ ما سمعتموه لا يخص شخصي فقط. لا أندم على ما قلْتُ، وإن شئتم كررته عليكم.

- أنت تُهيننا يا حجمقوه! - حين استلّ بلاخوه مزحب سيفه القصير، فعل الطرفان مثله.

- كُفّوا أيها الأبراخ! - أسرع مرزخوي بكر إلى الساحة على حصانه. أيّ عيب تفعلونه لأن رأي حجمقوه لم يعجبكم؟! الأمير حجمقوه على أرض للأبراخ. لا تنسوا أنه ضيف على الأبراخ، هذا التصرف ليس من الطبع الأديغي.

- لسنّا مُضيفيه، بل القيصر الروسي والقوزاق! - قال كوبا هارون، ولفت

أنظار الواقفين: - انظروا، ها هم جماعة برج...

- ماذا جرى لكم أيها الأبراخ شاهرين سيوفكم؟ - سأل تسي الذي وصل قبل برج، وكأنه لا يرى جماعة حجمقوه، ثم ألح عليهم: - أعيديدا أسلحتكم إلى أغمادها!

- ما تقوله يا حاترباي صحيح، صحيح، أيها الزعيم المبارك - أسمع غمشت مولى الذي كان يؤيد كل من يتكلم وما يسمع، الزعيم تسي، واختتم بكلمة خير أخرى: - دعونا نسمع ما سيقول لنا زعيمنا برج حسن بي المبارك، وموفد الله الأحمد محمد أفندي- وأجاب أحد الفلاحين الذي نهره من خلفه: - إن كنت ستعلمني الواجب أيها الأخ الصغير فأنا أسمعك، ولن أقول أكثر من هذا.

- حتى لو لم تتفق وجهات نظر الأمير حجمقوه والزعيم النافذ تسي، - قال برج حسن دون أن يدع المتجابهين ينتظرونه - فإن ما تتضمنه وثيقة مجلس حرية الأديغة قريب من كلام حاترباي. ونحن أوصلنا الورقة إلى القيصر الروسي. وأنتم رأيتم كيف تصرف معنا. وسمعت كلماته الختامية. ولكن لا تسمحوا للكفار أن يقولوا إن الأديغة لم يحققوا اليوم ما يريدون فاقتتلوا. نقول لك: مع السلامة أيها الأمير حجمقوه. لترجع بالخير إلى من فارقتهم.

- اسمعوا يا جماعة، لحظة - قال محمد أفندي واقفاً في ركاب حصانه حتى لا يدعهم ينسوا أن اسمه ذُكر على لسان أحدهم - لتقبلوا ما أنطق به الله الذي يبتهل إليه الجميع ولا يبتهل هو لأحد زعماءنا إذ لا يحدث شيء في الدنيا العارية من دون علمه. ولتعودوا إلى أسركم وأنتم مرتاحون قلباً وروحاً. آمين يا إلهي! وأنت أيها المحترم لئليّ الله قلبك. وليوفّق الله بين كل من يعودون إلى رشدهم!

- ماذا يقول هؤلاء الأبراخ الأجلاف؟.. - تساءل الأمير حجمقوه وقلبه يتألم
- ألم يفهموا أننا على جسر الفناء الأبدي؟ ليس بالبطولة وحدها يحيا الناس.
- الدنيا مركّبة من الحكمة والدهاء أيضاً، ومن الدين والظلم، ومن الصدق والكذب، ومما نعرف ومما لا نعرف... لا يُخاطب السلطان مغلوبيه بالصراحة المطلقة... وإذا كان الأديغة تفارقوا يهدد بعضهم بعضاً بدلاً من أن يتعلموا من الحكمة التي تركها لنا أجدادنا "الكلام الحلو يُخرج الحية من وكرها" فأنا من كانوا يودعونهم بالسهم. ما العمل؟ هذه طبيعتنا نحن الأديغة... - تألم قلب حجمقوه مرة أخرى وهو ينظر إلى الجهة التي يعود إليها الأبراخ.
- حين ارتقى الفرسان الأبراخ الكثيرون المرتفع سأل تسي وإن كان يعرف جواب سؤاله باحثاً عن ذريعة للخروج من أفكاره المتلاطمة:
- أياكون جرانودوقه ينتظرنا في القرية يا حسن؟ ورطنا حجمقوه متظاهراً بالفطنة، متلاعباً بلسانه فلم يترك لنا فرصة للتحدث إلى زعيم المجلس برزج.
- ليست هذه مشكلة. سنجد الوقت للتحدث معه يا حاترباي... غير أن سلوك القيصر الروسي معنا وأقواله لا تفارق ذهني.
- وأنا سأقول ما يشغلني: حجمقوه الذي بقي حياً بفضل تقاليدنا الأديغة.
- وربما في ما قاله حجمقوه فيه ما يدعو إلى التفكير...
- يا برج! - انتفض تسي لما سمع.
- ما الأمر يا تسي؟! - استدار برج واعترض برأس حصانه صاحب النداء.
- مهلاً، مهلاً يا برج - غير تسي موقفه على غير عادته البتة حين رأى رأسي كئيفي معترضه - ألاّني رفعتُ صوتي قليلاً تقابلني بهذه النظرة القاسية؟! هذا لا يجوز يا صاحبي... هل تسمع الاحتفال في الجانب الروسي؟ إنه يوم عيد كبير! غمغم براغنه إسلام بعدما مشوا مسافة متظاهرين أن أصوات صيحات النصر

"هورا" يطلقها الجنود، وموسيقى المحتفلين لا تصل إلى مسامع جماعة بكر:

- الجيش الروسي الذي لا يعرف أن اللعب آخره القتال يحتفي بقيصره.

- لا أعرف يا إسلام ما سيكون رأيك غير أنني أعتقد أن الصلح كان خيراً للطرفين... يا صاحبي نحن، في جميع الأحوال، عُمرنا عمراً كافياً، ورأينا من حياتنا شيئاً. ولكن ماذا ينتظر أطفالنا غداً، وماذا سيكون مصيرهم؟ - أسرع مرزخوي بكر بحصانه حين امتثل حفيده لا بنته أمام عينيه ناسياً قريبه براغنه.

الفصل الثلاثون

كان بكر قلباً وروحاً في تامي حبله وإن لم يكن ما رآه في سهل مامرقوه يفارق مخيلته، وما سمعه من خطابات متناقضة لا يزال في أذنيه، والقيصر الذي يغلب عليه الفرح والاعتداد بالنفس مائل أمام عينيه.

ليست هذه أول مرة يخرج فيها بكر من القرية ويعود إليها، ولا أول مرة يركب فيها طريقاً خطيراً ويعود منه. ولكنه لا يتذكر قلقاً كالذي عاينه اليوم. وحين دخل داره مرهق الجسم والقلب سأل المرأة التي كانت ترفع الغسيل عن الحبل:

- عجباً، أراك وحيدة يا ابنة آل تازة!

- وكيف أكون وحيدة والله الكبير وأنت في قلبي! - استقبلت جانشر زوجها.

- حسنٌ أن يكون الله في قلبك، ليغمرك بإحسانه! ولكن سلفك محمد أمين لن يقبل منك أن تُرفقيني بالله - مزح بكر مع زوجته. ثم سألتها: - أين صغيرانا؟

- وأين سيكونان؟ هما عند آل براغنه أهلهما. ليس هذا مهماً؛ ماذا جرى حيث كنتم؟

- ماذا تقولين! - ارتفع صوت بكر - ما المهمُّ إن لم يكن موضوعهما مهماً؟ أتكونين مللتِ منهما؟!

- أملّ منهما!...

- من يعرف؟ أنا راغب في رؤية ابنتنا بغضّ النظر عنهما. - قال بكر الآن بصوت ألطف، وأجاب على ما سُئل عنه، شاعراً بثقل السؤال والجواب: - لا خيرَ حيث كنا يا ابنة آل تازة. ولكن كان الأفضل أن نتصالح. ولا أظن نداء المجلس الذي سلّم إلى القيصر سيؤدي إلى نتيجة.

- والحية الصفراء يجدون وسيلة يدجنونها بها... لو أنّ في رجال الأبراخ شيئاً من الحكمة...

- يا ابنة آل تازة - نهر بكر زوجته جانشر ولم يدعها تكمل كلامها. - ليست تربية رجال الأبراخ من مهاتك! دُعِك من هذا وهاتي لي شيئاً آكله! بعدما تناول بكر بضع لقمٍ لفت انتباهه أصواتُ أطفال قادمة من جهة المدخل المسقوف للبيت.

- ها هما من كنت تنتظرهما قد وصلا - قالت جانشر.

دخلت نفست إلى الغرفة ومعها التوأمان اللذان في عمر سنة ونصف: الصبي يتقدمها والصبية على صدرها. وحين ركض "كولس" نحو جده انتزعت "لاشين" نفسها من صدر أمها ولحقت بأخيها.

- هل رجعتم إليّ يا صغيريّ! - وأنا اشتقت إليكما. - ضم بكر الطفلين إلى صدره كلاً بيد، وقبّل رأسيهما - والآن اجلسا على ركبتيّ - المهرين، سنطوف أرجاء بلاد الأبراخ.

- عدتْ للتو يا والدنا من السفر، لا تُتعب نفسك من أجلهما - قالت نفست لطفليها قلقة على والدها: - هيا يا لاشين وأنت يا كولس، عانقنا جدتكما أيضاً. ستقدم لكما من الحلوى.

- ألا تحباني أكثر مما تحبان جدتكما يا صغيريّ؟ - سأل بكر حفيديه وأصلح

كلامه بسرعة: - لا، لا، وتحبان جدتكما. - ولم يطق بكر إلا أن يتكلم على الموضوع الذي كان يتفادى الحديث فيه: - أظنك تعرفين يا ابنتي أننا لم نحمل أخباراً سارة... ولكن، أسمعنا، كلتاكما، لا داعي لليأس! مصير الأبراخ مصيرنا.

- نعم، هذا هو يا بكر، مصيرنا هو مصير غيرنا - وافقت جانشر زوجها وأخفت قلقها على ابنتها وحفيديها. - ألن يعود الطرفان يوماً إلى وعيهما؟! - يجب أن يعود من هاجمونا وأقلقونا إلى الوعي أولاً! - أسرع نفسي التي كانت ترفع مائدة والدها.

- كفى، ليست أمور البلاد من مهماتنا! - لامت جانشر ابنتها وهي تنظر بطرف عينها إلى الرجل، ثم مزحت معها: - إن كنت لا تريد أن يطلّك من أنت كنتهم، آل براغنه، فعودي إليهم، الليل يحلّ.

- لن أدع آل براغنه يصلون إلى هذا الحد يا نان، ولن أدعهم يعتبون عليكم - مزحت نفسي مع أمها، ثم أبدت رأيها في "شؤون البلاد" آملة أن يؤيدها والدها: - ورأيي في الموضوع الآخر هو: لا يجوز أن نسمح للموجيك أن يفعلوا في بلاد الأبراخ ما يريدون ونحن مكتوفو الأيدي.

- حسب كلامك يا ابنتي - قال بكر مخفياً ارتعابه الشديد - أنت مع الرجال.

- لست وحدي من معهم، حماقي، وجارتاي العجوزان وكناهما. ونان معنا بقلبها ولو أنها لا تستطيع البوح. نعم يا نان، نعم، لا تتراجعيني عن موقفك حياء وخوفاً من والدنا. كنت توافقيننا قبل أيام.

- لا، لا. لا تخافي علي من هذه الناحية يا ابنتي. لا أندم على ما قلت. ولا أزال معكن إن صدقن في موقفكن. وستفهمن نساءً آخر موقفنا.

- اسمع يا كولس، اسمع ما تقول هاتان، هاتان اللتان تلبسان غطاء الرأس! - قال وهو ينظر نحو الحصان الخشي وراء الجدار، وكان يُجْلِس عليه حفيده حين يأتونه به- تعال يا ولدي، سأُرْكِبُكَ الحصان... - وحين تعلقت لاشين بيد جدها وكأنها تقول "وأنا أيضاً" لطفها: - وأنت يا حلوتي إن كنت ستصبحين رفيقة جيدة، ولكن هاتين، والدتك وجدتك ستعتبان عليك... تعالي، تعالي، يقال "قائمة البقرة لا تقتل عاجلاً"، افرحي إن قبلوك في جمعية الأمهات التي أسستها والدتك...

- جمعية الأمهات يا والدنا، ما أحسن ما ذكّرنا بها. وأنت يا نان، ستضمين منذ اليوم إليها دون انتظار أن تكبر لاشين، - قالت نفست لوالدها ونادت ولديها مؤكدة لأمها: - وأنتما يا آل براغنه لنعد إلى البيت، كما يقول جدكما "كل بيتة قائمة بقرة، ونحن بيتنا من ذهب"¹

- مهلاً، مهلاً - نهضت جانشر بنشاط - هل نُعيدك إلى أهل زوجك فارغة اليدين؟ حضّرت لك من الجبن والقشطة والخبز الطازج.

- يا نان، أليس عند آل براغنه مما عددت؟

- عندهم يا ابنتي؛ أيمكن لأسرة كادحين ألا يكون عندهم؟ ولكن كما كانت حماتي، ليرزقها الله الجنة، تقول: يجب أن يكون بين الناس "هات وخذ".

- نعم يا ابنتي، جدتك التي لم تُدركيها كانت امرأة حكيمة. افعلي ما تقول لك أمك، واحفظيه في قلبك، لأنه لا يتعلق كل شيء بالملك. - وافق بكر امرأته وكأنه يعيد ترتيب الأقوال المتعلقة بالملك. واختتم بما يُرضي - عندنا، بفضل الله، ما نأخذ منه وما نضيف إليه.

¹ عبارة تُقال عند افتراق زملاء اللعب.

حين انصرفت نات - نفست إلى أهل زوجها آل براغنه جلس بكر لأياً يتفحص البيت الذي خلا من أصوات الأطفال، ثم توجه إلى النافذة مهموماً بتأخر المرأة التي شيعت ابنتها وحفيديها: الشمس التي لونت سماء الخريف بالأحمر القاني تغرب محرقةً أعالي أشجار الغابة. وجانشر ونفست تتحداثان عند الباب ويبد كلٍ منهما طفلاً. وصوت الأذان، وكان يدوي وسط القرية، يتبدد في نار السماء التي تنطفئ شيئاً فشيئاً.

"قلت يا ابنتي إن على من هاجمونا وأقلقوا حياتنا أن يعودوا إلى وعيهم - عصر الألم قلب بكر - ولكن من قبلناهم اليوم ليس عندهم مثل هذه النية. هؤلاء لهم ما ليس لهم. سيجعلونك ترضخ مقدماً لهم ما انتزعوه منك. بل سيفهمونك أنهم صاروا مُضيفيك، وأنت ضيف عليهم. القيصر الذي قال دون أن تطرف عينه "ستكون القفقاس أرضاً روسية" هل يمكن أن يتنازل عما قال؟ إذن كيف نجسّد كلام تسي الذي قال "لن نتنازل عن قفقاسنا لأحد، ستكون مهدنا الأبدى أو قبراً لنا، إما أن نموت وإما أن نموت"؟ الجيش الذي أسسه المجلس من خمسة عشر ألفاً، ولُنْصِف إليهم مثلهم أو مثليهم، كيف سيتصدى لجيش من مئة ألف بالإضافة إلى السفن المرابطة على سواحلنا؟ على ما يبدو نحن نهددهم... لا، لا أرى نفسي معدوم الرجولة، وعند الحاجة أضحي بروحي من أجل هؤلاء الذين على الباب. لا أظن أبواب الحل مقفلة تماماً أمام قضيتنا... وإن حدث أن صالحناهم دون أن نرفع راية الاستسلام؟ لا أعرف ماذا تقول يا مرزخوي. - ضحك بكر من نفسه نتيجة السؤال المفاجئ. - كيف نصالحهم دون رفع الأيدي؟.. إذن كان عليّ أن أقف إلى جانب حجمقوه حين تكلم، لا مع تسي. حين تصدى شباب الأبراخ على المرتفع لحجمقوه حَمِيناه، تسي وبرج وأنا، باسم شرعة الأديغة والشرف، وإلا فقد عبّر عما في قلبي بما لم يغفروه

له، وما لم أستطع أن أقوله... أقوال تسي الصريحة صحيحة، سندوب فيهم كما تدوب حفنة ملح في خزان ماء خشبي... أليس براغنه قريبنا من جهة ابتنا مثلاً لنا؟ - ارتعب بكر في هذه اللحظة، فجعله مشهد نات - نفست وحفيديه الذي انتصب أمام عينيه يتسمر في مكانه. ثم عاد وجلس على المقعد الذي رفعه عنه قلقه بعدما سمع وقع خطوات زوجته.

- طال تشييعك يا ابنة آل تازة - لام جانشر التي دخلت الغرفة.
- حفيدانا، وأنت تعرف، تخلصت منهما بصعوبة. وأما ابتنا فلن تشعب منا أبداً... - قالت جانشر لزوجها وجلسته لا تعجبها: - لماذا جلوسك، رجال القرية في طريقهم إلى الصلاة في الجامع، وها هو ماء وضوئك كانت نفست حضرتك لك. تصلي هناك وتروح عن نفسك.

- إن كان هذا رأيك يا ابنة آل تازة فسأنفذ كلامك - نهض بكر مخفياً عن زوجته شعوره بالثقل من قامته الثخينة المستوية، وتوضاً، ثم استجوب جانشر: - ماذا لاحظت علي حتى تطلي مني الترويح عن النفس؟ أرايت في شيئاً جديداً عن ذي قبل؟

- لا، لا. لا سمح الله يا بكر. كل شيء بخير باستثناء عودتكم من حيث كنتم يائسين. أسرنا في سلام، وأطفالنا ينشؤون. وكما يقول سلفي أخوك الأصغر الأفندي: الله سيفهمنا وسينظر إلينا بعين العطف.

- إن كان كل شيء بخير يا ابنة آل تازة، ولا شيء يدعو للقلق فسأذهب إلى صلاتي مطمئناً - قال بكر وهو يخرج ثم غمغم لنفسه: "أخي الأفندي يقول الكثير، ويدفعنا أيضاً إلى القول. ولكن لا أحد يسمعون أو يفهمنا... حان الوقت لتتكشف أنا وهو في مكونات قلبينا... يا ربي أيمكن لمن سيسافرون إلى إنكلترا أن يأتونا بأخبار طيبة؟"

عصر الألم قلب جانشر وهي تتابع بعينها الرجل الذي كان يخترق بداية الظلام
بكتفيه العريضتين وقامته المحنية قليلاً.

فرح بكر لما رأى حصان أخيه بين أحصنة الفرسان المجتمعين أمام الجامع مع أنه
لم يمضِ إلا بضْعُ ساعات على لقاء الأخوين مرزخوي في سهل مامرقوه، غير
أنه استاء من عدم نزوله في الدار التي وُلد فيها بل أمام الجامع، وفي هذا الوقت
قابل محمد بن دداي فقال له:

- يا محمد، لن تفوتك الصلاة، خذ حصان سَمِيكَ الأُندي إلى بيتنا.
احتشد في الجامع كثير من المصلين، ربما لأن محمد أُندي زار القرية. ويبحث
بكر عن أخيه ولكن لا يراه. وفيما هو يقول لنفسه "سأحاسبه دون اعتبار
عمامته" التفت إلى من ناداه وقد تعرّف صوته:

- رأيْتُكَ ورأيْتُني يا بكر في سهل مامرقوه اليوم، غير أننا لم نستطع أن نلتقي.
حين نعود إلى البيت بعد أداء الصلاة إلى الله الأحد مقصودنا سنجتمع وعندنا
مزيد من الوقت، وتحدث. هيا يا إخوتي الذين وصلَّتهم دروسُ معروف الله
لنتفضل إلى بيت الله - حين دخل محمد أُندي إلى الجامع والمصلون وراءه
وقف أمامهم، ثم أضاف: ارتاحوا على سجادات الصلاة لأني سأبلغكم أوامر
زعماء الأبراخ القصيرة، واسمعوا. يا جماعة، قيصر الكفار الذي انتظرنا عاماً
كاملاً، لم نستطع التفاهم معه هذا اليوم. ولما لم يقبل ما اقترحنه عليه لم
نتراجع. وشهد موفدا قريتنا براغنه إسلام ومرزخوي بكر رأي العين ما حدث.
وتوزع على القرى من طرف الأبراخ برج وتسي، ومن طرف الويخ برزج، ومن
طرف الشابسغ زان، وغيرهم من الرجال الحكماء مثلي ليلبغهم ما جرى. وأنا
أبدأ درس المواعظ الأول في قرية تامي حبله: قيصر البلاد الكافرة التي نخبنا
قراة مئة سنة طلب منا بعين لا تعرف الخجل إلقاء سلاحنا، والخروج من

الجبال إلى أماكن تحددها روسيا لنا، فإن لم تقبلوا بهذه الشروط فأمامكم طريق تركيا بلا رجعة.

- أيُّ تركيا التي لا يمل القوزاق من تكرارها! - لم يُطق دداي صبراً.

- وجواب هذا سيكون قصيراً. يا من أدعو الله أن يُحسن إليه، يا دداي، يعنون أن نستقر بين أتباع ديننا الترك لأنهم، أقصد الروس، كفار.

- نحن لسنا أتراكاً! - ارتفع صوت آخر.

- نعم لسنا أتراكاً. - قال محمد أفندي، وأضاف بعد قليل: - ولكن الحق أننا وإياهم على دين واحد. لا تنسوا أن كل من قبلوا الإسلام ديناً إخوة. في هذا اليوم الذي علينا أن نتحلى بالوحدة والرجولة إما أن نموت وإما أن نموت، كما كان يقول أجدادنا الشجعان.

- ألم يبق يا أفندي أي أمل؟ - سأل فلاح أيضاً.

- من يحرمهم الله من الأمل هم الكفار يا أخي. نحن أملنا في رجولة الأديعة التي يمجدها في الدنيا. وأملنا في الدول التي سيرسل إليها مجلسنا نداءه. ونأمل أن تفهمنا إنجلترا التي يسافر إليها موفدونا غداً. لسنا وحدنا نحن الأبراخ، الله العلي معنا. نحن تحت راية الإسلام. والآن قفوا ورائي يا جماعة وادعوا معي أن يصل إليه دعاؤنا، وينظر إلينا بعين العطف، ويساندنا. الله أكبر!

بعدما رجع الأخوان مرزخوي معاً من الجامع، وتناولوا العشاء دون أن يتبادلا حديثاً ذا بال، انتظر بكر ريثما رفعت جانشر المائدة، ثم سأل أخاه الأصغر باسمًا:

- أنت مقتنع بما قلته في الجامع يا أخي؟

- يا بكر، أعيش راضياً بالله وبكل ما نفعله بأمره. ما الأمر يا أخي الأكبر؟ أوجدت ما لا يجوز في الموعظة التي أنزلها الله علينا ونقلتها إليكم؟

- أبعد عني يا مرزخوي رياءك الديني! - تفجّر غضبٌ بكر من كلام أخيه وأسئلته له - لو كان الناس يعرفونك كما أعرفك ... ألا تفهم أنك أنت وأمثالك من الأفندية ممن لم يصبحوا أفندية بعدُ إلا بشراحتهم على الموائد، أوصلتمونا إلى معبر الأموات وأنتم ترددون هذه الكلمات! إذا سمعت أنك قلت مثل هذه الأقوال بحضوري أم بغيره فسأفضحك أمام الناس. وسأكشف أسرارك.

- ما الذي أثارك إلى هذا الحد يا بكر! ألا تخاف من الله العلي العظيم الذي نحن أمته؟ أنتَ تسيء إليّ.

- كفك كلاماً! - نهر بكر ثانية أخاه الأصغر، ثم خاطبه بلهجة ألطف: - لتتوضأ ولنمض إلى صلاة العشاء في الجامع.

- والله لا أعرف بعد كل ما قلته بحقي كيف تدخل بي إلى جموع المصلين وأنت لا تتق بي؟

- ستقف إلى جانبي كسائر المصلين، وتترك إمام القرية يصلي بنا.

نظرت جانشر التي انتظرت فراغ زوجها من الوضوء ساهمة في وجه زوجها:

- يا مصيبيتي يا بكر، ماذا حدث بينكما أنت وأخوك؟ حضر أخوك أشياءه وركب.

- سلفك الأفندي يا ابنة آل تازة - قال بكر كمن لم يحدث شيء البتة - يبدو أنه لم يفهم ما قلناه له. إن كان ركب فليركب! هل أفندية هذه الأيام أحسن من النائب الذي خدعنا؟ هذا هو مثالهم... خفّف عني أخي صلاة العشاء. لن أذهب إلى الجامع، سأصلي هنا في البيت.

الفصل الحادي والثلاثون

كان الطريق على الموفدين إلى إنكلترا صعباً عليهم من البحر الأسود وحتى إستانبول. لم يكن السبب الوحيد هياج البحر المعتاد في الخريف، استغلوا سواد الليل وسرعة المركب التركي فتجنبوا بصعوبة مراكب الرصد الروسية.

ما إن خرج زياش إسماعيل وخوشت حسن الحاج من المركب حتى استقبلهم "التاجر" الإنكليزي الذي عاش مع الأديغة قبل عشرين عاماً جيمس بيل¹. ولما كان الثلاثة جمعتهم منذ زمن بعيد قضوا الأديغة فقد تبادلوا العناق الحار.

- الآن إن شاء الله - قال جيمس بيل بكلمات أديغة منمقة - لا خوف عليكم. متى ما خرجنا من تركيا، ووصلنا إلى فرنسا، وركبنا المركب على بحر المانش، فاعتبرا نفسيكما وصلتما إلى إنكلترا. وأنا سأعتبر نفسي دخلت بيتي الذي تركته منذ زمن طويل.

- هذا بيتك أنت... - ابتسم خوشت الحاج - ونحن؟

- كأنك ارتعت يا حاج! - سأل زياش بطريقة لا تعرف أهو جاداً أم مزح.

- لا شيء من هذا القبيل بفضل الله يا إسماعيل. هؤلاء الأتراك أصحاب الطرايش الحمراء الذين نخالطهم الآن، والإنكليز الذين سنبحر إليهم، أين يذهبون متجاوزين مضيفنا جيمس؟ هؤلاء أناسٌ مثلنا حتى لو لم يتكلموا لغتنا. أليس كذلك يا زعيم الخير؟

أفكار زياش إسماعيل في هذه اللحظة في إنكلترا، عند صديق سابق لزان

¹ الأهلّة حول صفة جيمس بيل من الكاتب، والسبب هو أن جيمس بيل الإنكليزي دخل القفقاس عبر البحر الأسود بصفة تاجر عام 1837 وأقام فيها أكثر من سنتين، وكتب يوميات مفصّلة جداً في جزأين. وترجمت إلى الفرنسية، ونُشرت مسبقة بمدخل مهم للمترجم فيفيان يلخص فيه كافة الزيارات الاستكشافية إلى القفقاس.

سفري ومعرفةٍ عنده هو وركفارت ديفيد. ويطير بقلبه نحو الأماكن التي نسيها، والتي هي أمامه، ولا تفارق مخيلته كأنه يعرف إنكلترا منذ زمن بعيد. إن سمحوا له أن يلقي كلمة في مجلسهم النيابي، فبدايتها وخاتمتها جاهزتان تماماً. ولا مشكلة في ما بينهما. ما سيأتي على ذكره هو مأساة الأديغة التي ترتبط بها حياته. وسيعبر عما في قلبه حقيقة تبعاً لحسن استماعهم إليه. وسيُطلعهم على ما فعلوا بالأديغة، ويُسمع مأساتهم للعالم. "لن أتسول ولن أدعهم يرون دموعي. ولن أسمعهم صوتي المتهلج. ولن أحمّد عن هويتي الأديغية..."

- هل قلت شيئاً يا حاج؟ - صحا زياش إسماعيل فخرج من أفكاره.
- والله يا إسماعيل لم أقل شيئاً ذا بال... أستغرب هذا العالم الذي جئنا إليه وإن رأيت الكثير في حياتي. ما أكثر المساجد التي بنوها في إستانبول، والتي تُطاول مآذنها السماء خلال السنوات القليلة التي غيبتها عنها... أرجوكم باسم الله - أنت يا جيمس لا شأن لك بالرجاء باعتبارك غير مسلم وإن كنت تعرف الأديغة جيداً - أن نصلي في أحدها.

- لا تتلف يا حاج. - قال زياش دون مبالاة - سنلحق بها.
- ستتوقفون عند الفندق القريب من بيت السفير الإنجليزي - طمأن بيل الحاج خوشت - وهذا قريب من أكبر مسجد في إستانبول يؤمّه آلاف المصلين، سنصلي فيه.

- سبحان الله ما أكبره! - أضاف خوشت حسن وهو يكرر التعجب - لا أساوي شيئاً بالحجر الأسود في مكة، ولكن لا أظن في القاهرة ولا في الشام مثله...

- في القاهرة ودمشق مساجد كبيرة بناها المماليك - أجاب جيمس بيل على

الحاج - المسجد الذي في دمشق يتسع لحوالي اثني عشر ألف مصل¹.

- سبحان الله، سبحان الله! - لا يزال خويشت يستغرب - وهل هذا مما بناه المماليك الشراكسة؟

- لا، هذا بُني قبل المماليك الشراكسة. كان معبداً في عهد بيزنطة الشرقية فغيّره العرب المسلمون إلى جامع.

- سبحان الله، تحدث في العالم أمور كثيرة لا تعرفها.

- كفى يا حسن، - قاطع زياش إسماعيل الحاج الذي هو أصغر منه. - تُعَلِّق بالكثير على ما رأيت وما لم تر مثل محمد أفندي الأبراخ. لم نأت إلى تركيا للصلاة، بل نحن على طريق إنكلترا. علينا التفكير في ما ينتظرنا. - تمام يا إسماعيل، تمام²...

أفكار إسماعيل تجري هاربة منه دون أن تمتثل لعينيه شوارع إستانبول وحال الدنيا بعد الظهر: "ليست هينة المهمة التي التزمنا بها والتي رأونا أهلاً لها. يا ربي هل سيستقبلنا القادة الإنكليز الذين وضعنا أملنا فيهم كغيرهم ممن يشيرون إلينا متى أدرنا ظهورنا إشارات ماجنة بأصابعهم؟ هل سنعود بخفي خنين ومن يسمعوننا يسخرونا؟ ارحمنا يا إلهي وانظر إلينا بعين العطف. وافهمنا، واحمنا! الإنجليز مناظرة أملنا اليوم أكثر من تركيا. اجعلهم يسمعون كلامنا، ويساندوننا". - لا اعتراض لي يا حاج على الصلاة التي تتكلم عليها - أفاق زياش من أفكاره، وصرح بما يُهمّه - ولكن ما إن يشيع خبر سفرنا إلى إنكلترا في مهمة تتعلق بالأديغة حتى تمنعنا تركيا وروسيا من الوصول إليها.

- نعم، نعم - وافقه جيمس - من يتجسس هنا أكثر ممن يستمع. أنا لن

¹ يقصد الجامع الأموي.

² تمام بالعربية في الأصل.

أوصلكم إلى الفندق، وانتبهوا إلى ما ستقولون وما ستفعلون. غداً سنركب مع موعد شرب الشاي الباخرة المتجهة إلى مرسيليا في فرنسا. وأنا مسافر معكم ولكن بصفة تاجر وبيننا معرفة قديمة.

- ونحن نذهب إلى الكعبة، على طريق الحج. - أضاف زياش.

حين ركب الموفدون الأديغة في اليوم التالي، وفي الموعد المحدد، السفينة، سأل زياش بيلَ بشبه لا مبالاة:

- ما أخبار المكان الذي نقصده، وماذا ينتظرنا، ومن سنقابل؟

- نحن أحرار في مقابلة الجميع باستثناء الملك.

- هذا صحيح وحسنٌ إن لم يفعلوا بنا ما فعلوه بـ "أجبه جَمْبَرَس" ... - قال زياش ونظر نحو الحاج خوست.

كان أجبه جمبرس قد سافر باسم الوبيخ والساز -الأباطة إلى إنجلترا. ورجع إلى من أوفدوه دون أن يقابل الكثير. ومنذ ذلك الوقت فقد الوبيخ ثقتهم، ولكنهم بسبب الضرورة لم يستطيعوا إلا السفر إلى هذا المكان البعيد بناء على قرار المجلس.

- صحيح - أجاب زياش نفسه على سؤاله - ليس العهد الذي زار فيه جمبرس إنكلترا مثل هذا العهد. بل إن زماننا هو الزمان الذي يختلف فيه كل يوم عن سابقه. لا داعي لليأس. ما حَمَلْنَا اللهَ حَمْلُنَا. ماذا يساوي هذا بالقياس إلى البؤس الذي يعاني منه الأديغي المسكين!

- هذا كلام عادل. - يوافقه الحاج خوست، ويضيف إليه وجهة نظره - سافرنا وفي قلوبنا الخير، سنفعل ما بوسعنا، ولن يلومنا أحدٌ على ما لا نقدر عليه.

- صحيح يا حاج. ولكن الأفضل ألا نعود دون تحقيق شيء. الحق لو باعونا

في السفينة بعض البارود والذخيرة مع بضعة مدافع لرضينا.

- إذن اعتبر يا إسماعيل أن هدفك من الزيارة تحقق - ضحك جيمس -
يمكنني حتى بدون دولتنا أن أحقق لكم هذا. وقد فكرنا نحن - داعمي
الشراكسة - بمثل هذه المساعدات. حاربوا الروس ولا تسمحوا لهم بالاقتراب
من الساحل نأتكم بأكثر مما نأتي به الآن. وتركيا التي لا تضمرون لها الود
ستساعدكم خفيةً. والفرنسيون لم ينسوكم. وسأخبركم بخبرٍ سائرٍ آخر: الحرب
التي ستشنها أوربا على روسيا لم تعد بعيدة. فلا تتراجعوا! متى ما مزق الأوروبيون
روسيا النّهابة عدتم إلى أرضكم الجنة، وارتحتم.

- لتتطّق دائماً بالخير يا جيمس! وإذا كانت إنكلترا التي أوفدتك تقول هذا
فشكراً لكم. - قال زياش إسماعيل، وأضاف ووجهه يُمتّع: - ومع ذلك
أعتقد أن إسماع العالم صوت الأديغة أثمّن من السلاح وأشدُّ أثراً منه. لو عرفت
أني قادر، وأنهم سيسمعونني لنصبت سلماً إلى السماء وأدعّت من هناك على
الأرض كلها مأساة الأديغة. ولكني أفهم أن إنكلترا لن تعطينا السلاح والذخيرة
والمدافع دون مقابل؛ أليس كذلك يا جيمس؟

كان لجيمس بيل رؤيتان للنقاش الذي دار بين موفدي الأديغة. في البداية
ضحك في قلبه من الرأي القائل إن أحداً لا يعطيك شيئاً دون مقابل. "لا
تظنوا أن الأقوام الأخرى تعيش كالأديغة بمضافات وموائد مفتوحة" إطمأ
الضيوف بلا مقابل لم يبق من يفعله غيركم وغير قليل من الأقوام تعيش على
الطرق. وأنا جرّبتُ هذا خلال سنوات طويلة. هل هذا حسن؟ حسنٌ لمن
يأتي إليكم، ولكن لكم؟ أنتم تغدقون عليهم ما تملكون فتبدّرون أموالكم. أهذا
رياء؟ لا، هذا لا ينطبق عليكم. ما هو إذن؟ عندي أنا جواب قاطع ولكنكم
لستم جاهزين بعدُ لإعطاء جواب حاسم. حسنٌ يا إلهي أن يكون هؤلاء

هكذا. أنت من يُبيل الإنسان جزاء معروفه ومن يسلبه منه. لتمدّ يا ربّ في عمر الأديعة دون أن تضرّهم رجولتهم وبراءتهم. الأديعة الذين يقاسمونني لقمتهم ماذا أقول لكم؟ لستُ ممن سمعوا بمأساتكم شفاهاً. بل رأيتموها رأي العين، والجراح التي أصبتُ بها في حروبكم شهودي. المهمة التي كلفوني بها وأنا لا أريدها من قلبي أنفذا خجلاً منها. لا تهمني أسرار إنكلترا ولا أسرار تركيا. أقول الحقيقة لهذين الموفدين اللذين جئتُ بهما إلى هذا الطريق الذي لا وضوح فيه، وأعود معهما؟.. أتوسل إليك يا ربّ، مع أنني أعرف أن مهمتهما فاشلة، أن تُنجحها، وترقق قلوب من سيقابلانهم. هؤلاء ناس صادقون سليمو الطويّة، عشاق حرية، أصحاب رجولة، يستحقون أيّ شيء تقدمه لهم. لو كنتُ سلطاناً لجعلتُ العالم كله يقف إلى جانبهم!.. "

الموفدان الأديغيان على الطريق إلى إنجلترا منذ أكثر من أربعين يوماً. وحين وصلا إلى لندن واستقرا في الفندق نسيا متاعب الطريق. وما لم يستطيعا تفسيره هو الضباب الكثيف في سماء المدينة. أضواء الشوارع والبيوت مضاءة حتى وقت الظهيرة. وداخل عربات النقل تضاء المصابيح. والمراكب على نهر التايمز تتلامع.

- أتساءل ألا يملك هؤلاء شمساً؟ - ينظر الحاج خوشت من خلال النافذة - المدينة تائهة في الضباب. سبحان الله، لن يصدّق الشابسغ إن وصفت لهم الطبيعة التي نحن فيها... ما أدعى طبيعة العالم الذي جئنا إليه إلى اليأس بالقياس إلى نواحيننا! لا أظن أن ليلهم ونهارهم يختلفان. نحن في أمان الله يا إسماعيل.

- لا داعي لليأس، لا يحدث شيء في الدنيا دون علمه يا حاج. الضباب سينقشع بين اليوم والغد، أما أهمّ المهمات فهي ما كُلفنا بها. وليس الأمر أنني

لا أثق في وركفارت الذي استقبلنا لهذه الغاية، ولا أن كلامه غير نافذ. حين كان هذا الأخير يؤدي عمله في السفارة الإنكليزية في إستانبول أفادنا كثيراً في قضايا الأديعية. وركفارت هذا، إن كنت تتذكر، هو من أرسل الكاتب لونغفورت برفقة جيمس بيل إلى نواحيننا. وحين أُعيد إلى إنكلترا لم ينس مشكوراً قضايا الأديعة.

- وركفارت رجل وقور. رأيي فيه أنه رجل لا يختلف قوله عن فعله. - وافق الحاج خوشت زياش، وأخى بعد وقفة قصيرة - سنبتهل يا إسماعيل إلى ربنا الرحيم، وقد صلينا المغرب، ولن نفوت صلاة العشاء، رغم تعبنا، أن تشرق علينا شمس من نحن ضيوفهم، وأن يكون نهارنا القادم خيراً علينا. حين نظر زياش إسماعيل الذي استيقظ أولاً في الصباح رأى أول ما رأى شمس الخريف الحمراء الكبيرة تشرق من جهة النافذة. انتظر قليلاً أن يفيق رفيقه الحاج على نور الشمس، فلما لم يُفّق ناداه:

- يا حاج، يفوتك منظر شمس الإنكليز، وصلاة الصبح.
- هكذا! - جلس الحاج خوشت في الفراش. - لا يجوز تفويت صلاة الصبح، يا ربي، هل شمس هؤلاء مثل شمسنا؟ لا أعرف ماذا أقول! - نهر نفسه - الله الذي خلق العالم، نعم، العالم الكبير، هيأ لنا شمساً واحدة، وقمرًا واحدًا.

- ونجوم السماء أيضاً - أضاف زياش إلى الحاج. وذكره بموعده صلاة الصبح. في الأيام الأولى لم يهدأ زياش وصاحبه. ولم يظهر بين من أتاحوا للمندوبين الأديعيين مقابلتهم من يجهل القضية الأديعية. ووعدهما بالأسلحة التي سافرا من أجلها. ووعدهما بتزويدهما، ليس بباخرة واحدة، بل باثنتين أو ثلاث. وفرح الاثنان لأن أحداً فهمهما. ولكن أشد ما سرهما هو الترحيب الذي كان

مثل زوجة الملك يستقبلهما به، وما كان يقول لهما. الرجل النحيل الطويل القامة الذي استقبلهما أعجب زياش والحاج خوشت. أجلس الضيفين مقابله، وجيمس مترجمهما، ووكفارت صامت، وتكلما بعض الوقت. ومهما قالوا فما فهمه زياش بالتحديد أمرٌ واحد: هذا يفهم القضية الأديغية على نحو أعمق من الذين قابلاهم، رجل حكيم، دقيق الملاحظة.

- في هذه الأيام - قال السير دوغلاس - نحن نعرف ما قلتما وما قالوا لكما من قايلتماهم. نراقب وضعكم منذ عدة سنوات. ونحن معكم بقلوبنا لأنكم تحمون حريتكم. ونحن نثمن رجولتكم التي تمارسونها أمام العالم كله، ونساعدكم سرّاً أو علناً ولن ننتقص مساعداتنا في المستقبل. علينا أن نوقف روسيا العنيدة التي تريد احتلال أوروبا كلها. نحن معكم، نساندكم، غير أننا مقيدون باتفاقية الرقم¹ فلا نريد أن يعرف العالم كله بمساعداتنا.

"لا نريد أن يعرف العالم كله بمساعداتنا" أقلقت كلمات السير دوغلاس زياش. "على ما يبدو - قال لنفسه - لن يدعونا نتكلم في مجلسهم باسم مجلسنا، يحسبون حساب روسيا فلا يسمحون لنا أن نتكلم صراحة في مجلس تركيا. يتلفتون حواليتهم متمنين ألا يراهم أحد أو يعرفهم. يرتبون على ظهورنا سرّاً... أتكون هذه نية هؤلاء أيضاً؟ سأقول له قبل أن يُفَاتِحني"

- لنا رجاء عندك أيها السير دوغلاس. كان بودنا أن نذيع كلمة الأديغة من منبر مجلسكم.

- إذا كنت تريد أن تتكلم في البرلمان فالأمر محسوم. قل ما تريد بشرط ألا تأتي

¹ وُقِّعت في باريس عام 1856 بعد حرب استمرت ثلاث سنوات بين روسيا من جهة والدولة العثمانية وحلفائها الغربيين من جهة أخرى، وانتهت لغير مصلحة الروس عموماً. ولكنها رسمت الخارطة السياسية لأوروبا في القرن التاسع عشر.

على ذكر مساعدتنا القادمة لكم بالسلاح، ولا تذكر ملكتنا بسوء، وتمر علينا في حديثك. لا قيود على الكلام في بلادنا.

- لسنا ممن يغتابون مضيفهم. غير أننا لن نقصر في حق قيصر روسيا. وسأكون حاضراً متى طلبتموني.

- حسناً - وافق دوغلاس بسرعة - سنتفق على الساعة الحادية عشرة من الغد. وأنا لي رجاء عندك. لا يجوز أن تتجاوز كلمتك ست دقائق. أعضاء البرلمان يحق لهم خمس دقائق. وأنت بصفتك ضيفاً لك دقيقة إضافية. - ما في القلب كثير، غير أننا لن نتخطى القواعد.

أستقبل الموفدان الأديغيان في البرلمان في الموعد المحدد. صق أعضاء البرلمان حين تكلم رئيسهم على موضوع الأديغة، وعلى حربهم من أجل حماية حريتهم، وعلى قدوم الموفدين من مجلسهم. ولما دُعي زياش للكلام نهض معه مترجمه جيمس بيل.

- أيها الزعيم الخير للمجلس الذي أُكِّن له كل تقدير واحترام، أيها النواب الحكماء الممثلون للشعب الإنكليزي - بدأ زياش إسماعيل خطابه القصير - وصلنا إليكم قاطعين مسافات شاسعة باسم مجلس الحكومة التي ألفناها حديثاً. ونبلغكم تحيات الأديغة التواقين إلى الحرية. للأديغة هذا القول المأثور: "حين تشتري بيتاً اشتري معه جاراً. وقبل أن تقتني أرضاً إقتن جاراً" نحن لم نختر روسيا جارة لنا. ولا هي اختارتنا. ولكن الله جاور أطراف حقولنا. أعطتنا تركيا التي لم نكن يوماً من رعاياها للروس فدخلت روسيا التي ما كان عليها أن تقبل ما ليس لها إلى أرضنا تقاتلنا. وتؤسس فيها نظامها. وحين جابهاها قائلين: ليس هذا عدلاً، ألقت علينا حمم رصاصها. وأحرقت قرانا ومراعي مواشينا. واحترق في نارها أطفالنا ونساؤنا ومستنونا. ومن الجانبين يسيل دم الأبرياء. ليست

عذاباتنا من سنة أو سنتين بل منذ أكثر من خمسين سنة. وفي بلادنا تغلب المآثم على الأعراس. ولكن هذا لا يعني أن الأديغة عديموا الأعراس وحفلاتها، وعدموا الأطفال. عندنا ما عند كل الأعراق البشرية، غير أن ما نفتقر إليه اليوم هو الأمن. لا تنيرنا الدنيا بشمسها العظيمة من أجل أن تصرع الشعوب الكبيرة الشعوب الأقل تعداداً، وتستولي عليها. ولا أقول هذه الكلمات من رعبنا، ولم نأت إليكم لهذا السبب، بل لأنه لا كبارنا ولا صغارنا يقبلون الرضوخ للظلم، ولن نقبل به ولو كانت نهايتنا على يديه. جئنا إليكم لنُطلعكم على هذا الظلم الذي يُمارَس ضدنا، ونُطلع العالم كله. لا تؤاخذوني: من يكشف عن مأساته فهو مضطر. إن لم يعد قيصر الروس إلى وعيه فستفنى أقوام كثيرة على يديه. نحن الأديغة رأينا واحداً: إما أن نموت وإما أن نموت! لا قرار آخر لنا الآن. اغفروا لي إن كنت مبالغاً في صراحتي. لتحيا والشمس الدافئة تشرق عليكم، ولا هموم لديكم، وما تتمناه قلوبكم تصل إليه أيديكم، وبلادكم تنعم بالسلام، وأنت أيها الرئيس المحترم — قال زياش إسماعيل لرئيس البرلمان متوجهاً إليه، محياً إياه ويده اليمنى على صدره الأيسر: مدَّ الله في عمرك زعيماً، وترك لكم النداء الذي أرسله مجلسنا إلى مجلسكم¹.

¹ في يوم الجمعة الأولى من شهر حزيران عام 1861، دُعي ممثلو الأديغة الأبراز والشاباغ والوباخ إلى الجلسة المخصصة لتوحيد الدولة، وإحياء مطلب الحرية. وقد أصدر المجتمعون بالإجماع قراراً بحماية النظام القائم في البلاد، ومعاقبة من ينقضه. وعقدوا المجلس في الأرض التي تحت سيطرة الشركاسة، ونسبوا إليه خمسة عشر عضواً. وسموا المجلس "المؤتمر العام". وبأمر المجلس جمعوا أقاليم البلاد الاثني عشر. وعينوا مُفَتِّين وقضاةً ومختارَ لكل منطقة. وهؤلاء مكلفون بتنفيذ أوامر المجلس. ولا يخالفون مقررات الهيئة العامة. وعلى كل مئة أسرة

حين انتهى زياش إسماعيل من كلمته نهض الجميع مصفقين، وأوصلوه إلى مكانه مع شارات الاحترام.

وفي اليوم التالي جاء جيمس بيل إلى الفندق ومعه أعداد كثيرة من الصحف.

- ها هي يا إسماعيل - قال وهو يُريه الصحف - كلمتك في البرلمان، لم تبق جريدة في لندن لم تأت على ذكرها. واللجنة الشركسية المجتمعة في إنجلترا تؤيدكم، وتعدادها يزيد. ورئيس هؤلاء آدمون بيلز المحامي العام يريد مقابلتكم إن شئتم.

أن تقدّم خمسة جنود. وترشح مختاراً واحداً. وهؤلاء المختار ملزمون بعباية الضرائب. ويتابعون التغييرات والتطورات الأخرى.

وفيما تسير الأمور في هذا المنحى أرسلت إلينا روسيا الجنرال إفدوكيموف لاحتلال أرضنا. وقد حاصر الأخير أرضنا بهدف إبادة فاضطّر المجلس إلى تجهيز ألف وخمسمئة فارس من النخبة لمحاربة هذا الجنرال. وقد أطلعنا المجلس على أن الشراكسة يحمون حريتهم بدمهم، وأنهم قانعون بما عندهم، وأنهم لا يسيئون إلى أحد، وأن سلوكهم يتماشى مع مطلب الحرية لكل البشر. والدول العظمى تساعد أمثالنا، ولذا باعتبار قيصر روسيا على رأس دولة، نعدّ له عدم التعرض بالأذى لمن عندهم دول، ولمن يحمون حريتهم، ورعايته الدائمة لكل من يقوم بواجباته، مفخرة له لأنه يمثل هو أيضاً نظاماً. وتعبير آخر، ليس له نية احتلال أرضنا. وقد قدم العون إلى الكثيرين. وإن كان بيننا نوع جفاء في الماضي فقد كان هذا نتيجة ضعفنا. والآن إذ نتوجه إلى روسيا باعتبارها قوة عظمى، وأقرب الجيران إلينا فإننا نتوسل إليها أن تعيد الوضع إلى سابقه ولا تتعرض إلى حريتنا.

نقول للقيصر "اسحب جيوشك، ولا تسفك الدم، كل الدول العظمى تعيش الآن في سلام، وتوسط فيما بينها العدالة" وأبلغنا الورقة التي فيها كل هذه المطالب إلى الجنرال إفدوكيموف، وأرسلنا ممثلي المجلس إلى تفليس. ونحن صرنا أحراراً في إبلاغ مطالبنا إلى إنجلترا الدولة العظمى التي من شيمها فعل المعروف والمساعدة، والتي نأمل منها مساندتنا. ونأمل أن تبلغ ما في هذه الورقة إلى من يجب أيها الرئيس المبجل". المؤلف.

- إن كان يؤيدنا في قضايانا الأديغية فلماذا لا نجتمع به؟ - قال زياش،
وسأل: - من هو؟

- هذا من محامي لندن المعروفين، مهمتهم بقضاياكم القومية. وهو الوحيد الذي
لا يوافق اللورد بالمرستون في بلادنا. اللورد لا يقبل اقتراحه بإرسال سفن
أسلحتنا علناً إلى شواطئكم.

- هذا المحامي إذن رجل حقيقي يا جيمس. متى ستقابلنا به؟

- بعد الظهر في حدود الخامسة إن كان الوقت مناسباً، والآن تعالاً أريكما
المدينة. ونهر التايمز، ونمضي بعض الوقت في مكان استراحة.

داروا أرجاء المدينة، وحين دخلوا الهايد بارك، رأى الحاج خوشت رجلاً يتكلم
على مسمع من بضعة أشخاص من منبر، فسأل جيمس:

- ماذا يقول هذا الواقف على منبر؟

- تعال نستمع إليه - اقتربوا منه، وبدأ جمهور المستمعين يزداد - هذا المكان
صمموه ليعبر كل إنسان عما في قلبه. وسيرتقي بعد هذا المتكلم غيره.
وسيتكلم، متدرباً على الكلام، حتى لو لم يسمعه أحد. وهذا المتكلم الآن ينتقد
عمل برلمان، يقول إن اللورد بالمرستون مقصّر في عمله، ولا يعرف كيف يدير
الأعمال، وجبان، ويدمر مستقبل البلاد التي يرأسها. لا يهتم بأمر الطبقة
العامة. ولا ينفذ إلا أعماله الشخصية.

وصعد إلى المنبر غيره. وبدأ كلامه بهدوء بقامة مشوقة طويلة ينظر من فوق
رؤوس الجمهور. وكلما امتد الزمن ارتفع صوته، وبيديه طرفا المنبر.

- يتكلم على سير الأمور في العالم - يفسر القضايا التي يديرها الإنكليز في
العالم. غادر أوروبا، ووصل إلى أميركا. وتوجه إلى الشرق القريب. هذا المتكلم،
تبعاً لطريقة كلامه، أظنه سيصل إليكم. نعم، يتكلم في موضوعكم. يقول إن

روسيا تفعل بالشراكسة في القفقاس ما تفعله أميركا بالهنود الحمر. تسلبهم بلادهم وتحاربهم. نحن هنا نكتفي بتأسيس اللجنة الشركسية، ولا نجرؤ أن نقول لمن ينقض مبادئ العدالة والحرية إن سلوككم غير صحيح، بل معيب. نحن قاعدون مكتوفي الأيدي ننخدع بأقوال بالمرستون المعسولة. كل الصدق والنصر للأقوام التي تحمي حريتها وشرفها!

- وأنت يا حاج قل شيئاً - قال زيايش - لن نفارق الناس الذين يذكرونا دون أن نقول لهم شيئاً ونعرفهم على حالنا.

- ولماذا لا أقول ما دام متاحاً. تعال يا جيمس إن كنت تعتقد أنه ممكن، وترجم لهم كلامي - ارتقى الأفندي خوت المنبر راضياً في داخله: - هاركم سعيد أيها الحضور، يا من أدعو لهم أن يعيشوا يومهم مئة يوم. أدعو أن يتحقق لكم كل خير. نحن أديغة، وموفدو بلاد الأديغة. تكلمنا في برلمانكم أمس. وأنت جرائدكم على موضوعنا. - صفق الحاضرون حين سمعوا صوتاً أديغياً. وصرخ أحدهم: "عاشت حرية الشراكسة!"، ووافقه غيره: "ارفعوا أيديكم عن الشراكسة!". حياهم خوست حسن بوضع يده اليمنى على قلبه، وقال: - نقول لكم شكراً على ثقّكم بنا، وعلى تفهّمكم إيانا. مع أن الأديغة يتداولون القول المأثور "القليل ضعيف" فنحن لا نعدّ أنفسنا ضعفاء. وإن قلنا "من يُهنّ يجد وقتاً للثأر" فلا تؤاخذونا على إقلاقكم لأن الإهانة التي يُلحقونها بنا جاءت بنا إلى هنا عاجزين عن دفعها. سدّت على الأديغة طرق الحياة روسيا الدولة العظمى التي تتوسع على حساب الدول الصغيرة التي تتأخها. تسلبنا بلادنا وحرّيتنا. السلطة القيصرية فقدت صوابها تُفنيننا وتُفني أبناء شعبها. نحن نحمي أنفسنا بقدر ما نستطيع غير أننا عاجزون عن مجابهة الجيوش الجرارة

والأسلحة الفتاكة. نتلقى وعوداً من تركيا وفرنسا وإنكلترا ولكنها عند التنفيذ تبتلع وعودها. يعيشوننا على الكلام. ولكن ما يجب أن تصدّقه أمرٌ واحد: لن نتنازل عن حريتنا لأحد! - حين أنهى الحاج خوشت كلامه وهمّ بالانصراف انتظر حتى هدأ التصفيق، ثم قال: - من عادة الأديغة إذا حلّوا ضيوفاً على أحد أن يحملوا هدية، ومع أننا جئنا غير مستعدين للأمر فهذا حلوان للملكة التي رزقت اليوم بصبية، - أخرج من جيبه حفنة من النقود الذهبية والفضية ونثرها عليهم.

الفصل الثاني والثلاثون

رغم مُضيّ شهر على عودة القيصر إلى سانت بطرسبورغ راضياً عما تحقق له في سهل مامرقوه، من جهة جنرالاته، ومن جهة محاربيه، ومن جهة القوزاق الذين اجتمع بهم وامتدحهم، فإنه يعيش مودعاً قلبه في قمم الجبال البيضاء في عالم الأديغة، وفي غاباتها المتناسقة، وأنهارها السريعة، وبراريها الواسعة، ولياليها المقمرة، ونهاراتها الصاحية.

وما في قلب الجنرال إفدوكيموف الذي اعتادت عيناه منذ عهد طويل على هذه المناظر فلا تمتثل لهما شيءٌ آخر: أيجوز أن تسمح للشراكسة أن يعيشوا في هذه الطبيعة الجميلة! ثم إن هؤلاء يقولون: "أشعتم في العالم أننا أناس متمردون، وبهذه الحجة أعلنتم الحرب علينا، ولكننا نحن أيضاً بشرٌ مثلكم، سنحامي أرضنا ما دام في أعناقنا دم، وفي أجسادنا روح"، "أي بلاد ستحمونها، ولماذا أنتم قاعدون إذن، وماذا تنتظرون؟ أنتظرون من أرسلتموهم إلى تركيا وفرنسا وإنكلترا؟ قد تكونون شجعاناً ولكنكم لستم أذكاء... - اقترب بلامبالاة ساحراً من ورقة مجلس حرية الأديغة التي فيها نداؤها، والتي سقطت منه، واتجه نحو النافذة المتجهة نحو طوابسه.

الجلب المحمّر الذي يعرفك أن شمس صباح الحريف تشرق مطمئنة، يظهر من خلال أغصان الأشجار العارية بعدما سقطت من يديها أوراقها، ملتهباً كلما تقدم الوقت. فتح إيدوكيموف النافذة على مصراعها مع أنه كان يتخيل أن بعض الأخطار تختبئ وراء الأشجار. ثم خرج من الغرفة بعدما استنشق هواء الأبراز النقي معتقداً أنه يحرم نفسه من الصباح الجميل. وحين ارتقى المنحدر راداً بإمءاءة من رأسه على تحية حراس الباب والأبواب الذي شدوا قاماتهم لمقدمه. امثل لعينه سهل مارقوه غير قريب وغير بعيد. وفي اللحظة نفسها انتصبت أمام مخيلته مشاهد اليوم الذي التقى فيه موفدو الأديغة بالقيصر. وتذكر ما كتبه إليه هو وبرياتينسك في التاسع والعشرين من كانون الأول من العام الماضي 1860¹. "حقق قيصرنا ما وعدنا به" - عبر إيدوكيموف لنفسه

¹ لا يزال يعيش في الشمال الغربي من القفقاس الشراكسة الذين يعادوننا. - يكتب في 29 كانون الأول عام 1861 بارياتينسك الذي فوضوه بأمور القفقاس إلى القيصر ألكسندر الثاني - يُخشى من أن يتصل موفدو الدول الأجنبية بالشراكسة القاطنين على سواحل البحر الأسود، ويُشيعوهم بكرايتنا. لم يخطر لأعدائنا في الحرب السابقة أن يجندوا ضدنا هؤلاء الشراكسة القاطنين في هذه المنطقة، ويستغلوهم لصالحهم، ولكن لا يجوز أن نتوقع ارتكابهم للخطأ نفسه ثانية. يكفي كي لا يرفع الشراكسة رؤوسهم حشداً مئة ألف جندي على ساحل البحر الأسود. والسلاح الجيد الذي يمكن لأعدائنا الاستفادة منه هو تهيج المسلمين المتعصبين. وبإمكان نداء الحرب الجهادية أن يصل إلى شرق القفقاس قبل أن نشق الطرق في المنطقة الواسعة التي امتلكنها، ليس من زمن بعيد، ونؤسس التحصينات فيها.

ولهذا السبب فالأمل الوحيد في توطيد سيادتنا على غرب القفقاس هو تمكين قوزاقنا المسلحين من امتلاك الجبال وسفوحها، وتجهيز الطرق لجيوشنا.

ولتحقيق هذا الهدف لا شك أن من الضروري إنشاء مستوطنات قوزاقية بدءاً من أعالي أمار لبا وشحه غواشه وبشك، مروراً بجانبى الجبل، وصولاً إلى ساحل البحر. وعلينا تأسيس تحصينات لحماية مستوطنات القوزاق ريثما ننهي المهمة السابقة في وقت محدد. وأول مكان يجب تأسيس المستوطنات

عن رضاه عن القيصر. وأرسل سراً في إحدى الليالي العقيد المسلم عبد الرحمنوف القريب منه، ودون أن يكون هو في الصورة، إلى بلاد الأبراخ. واعتبر تهيبه لـ "تسي حاتري" ضد القيصر ذكاءً منه، إذ يمكن للقيصر أن يعطي وعداً بالكلام. حين تكون قيصرًا تقود بلاداً كبيرة لن يكنّ الجميع الودّ لك. من يعيبك حاضرون ولو لم تفعل روسيا إلا إلغاء القنانة هذا العام. ولكن إن لم أقل في حضرة سلطاننا العظيم إلا المديح فلا يجوز أن أقول في غيابه ما يعيب. وأن يصدر عني مثل هذا الكلام، وأن أعادي نفسي سيّان. مع أي قلقٍ حين

فيه هو ضفاف نهر شحه غواشه. وعلينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن الأنهار التي ترقد نهر بشره تقصّر كلما تقدّمتنا نحو الشرق. وهذا سيّسهّل مهمة الحراس. (تتمة الحاشية في الصفحة التالية)

"لا يجوز الشك في أن إفدوكيموف وضابطه عبد الرحمنوف ليس عندهم ثقة في أعضاء المجلس. — يكتب المحرر المعاصر في جريدة "صوت الأديغة" حُثّقوه سمير. — وربما كانت تجري بعض أعمال التجسس. ولكن هؤلاء لم يكونوا قادرين على الحجيء من طرف الجنرال المسعور إفدوكيموف، ويقابلونا بوجهة نظر صعبة التصديق دون اعتبار لوجهة نظر القيصر في مثل هذه المقاربة. ما أوامر القيصر ألكسندر الثاني في شأن طرد الشراكسة من أرضهم؟

في الأول من نيسان عام 1861 أمر بارياتينسك الجيش بإنشاء مستوطنات على الضفة اليسرى لنهر بشرة.

والواضح للعيان هو اللإنسانية المطلقة التي تصرفوا بها مع الشراكسة، وبمساهمة القيصر وأخيه الأصغر الأمير الكبير. في يناير عام 1861 لم يكن بقي على موعد زيارة القيصر إلى بلاد الأبراخ، واجتماعه بزعماء مجلسهم إلا سبعة أشهر حين كان هؤلاء يقترفون هذه المظالم. وقد أصدر قبل موعد الزيارة بثلاثة أشهر أمراً بطرد الشراكسة من أرضهم، وضمّ بلادهم إلى بلاده. وفي 24 حزيران من عام 1861 كتب القيصر إلى إفدوكيموف: "... لا نقاش في ضرورة توسيع حدودنا. لن تكون مهمة صعبة على المخلصين حماية حدود بلادنا العظمى، وستكون هذه تضحية منهم، ومهمة القوزاق حماية حدودنا واستيطان أراضي أعدائنا.. ولم يبق على الاستيلاء الكامل على القفقاس مدة طويلة بمعونة الله. وسنطرد الشراكسة خلال سنوات من أراضيهم الخصبة. (تتمة الحاشية في الصفحة التالية)

بدأ قبصرنا بمنح وعوداً لموفدي الأديغة في كلامه فقد غطى بسرعة كلماته التي تخرج من فمه، لا من قلبه: "لا شك أن القفقاس ستصير أرضاً روسية. وإن لم تفهموا هذا الأمر أو لم تتقبلوه فسأؤكد على جنرالاتي أن يستمروا في الحرب إلى نهايتها. وسينفذون أوامري. وعرفت من كلماته الحازمة أن لا تراجع عنده..."

التفت إفدوكيموف للصوت الذي وصل إلى مسامعه. ردّ على تحية العقيد غايمان والمقدم فانيوكوف، وقال لهما:

- تفعلان خيراً يا سادة إذ لا تحرمان نفسيكما من مثل هذا الهواء النقي. -
وسألهما فوراً: - أم تُراكما مللتما؟

- لم نملّ من هواء الجبل. يا سيادتكم - قال غايمان ضاحكاً من خلال شاربيه ولحيته الشقراء - نحن والمقاتلون متعبون من العطالة. الأبراخ يتسلحون ضدنا.

في العاشر من شهر أيار عام 1862، أصدر الكسندر الثاني أمراً بـ "توطين قوزاق نهر بشزة في القفقاس الغربي" وفي هذا الأمر حُدِّدت الأراضي المخصصة للشراكسة: 1 - من أجل إخضاع الشراكسة الذين لا يزالون أعداء تحتل المستوطنات القوزاقية الأراضي الواقعة غرب جبال القفقاس.

2 - والأماكن المخصصة لهؤلاء: المرتفع القفقاسي الواقع بين الجنوب والغرب، بدءاً من أعالي لابا الصغرى إلى منبع نهر بشه شه. ثم نهر مقويس الذي ينبع من ساحل البحر الأسود انتهاء بمصب نهر بشزة من جهة الشمال. - والأراضي المطلة على نهر بشزة ونهر أداغ بدءاً من قلعة أداغ وانتهاء بقلعة دميتريكفوسك، والنهر التالي له لابا الكبرى بمحاذاة المستوطنة القوزاقية رودينكوفسك إلى الشرق - لابا الكبرى ولابا الصغرى. 3 - تبلغ مساحة الأراضي المحددة حوالي 1300000 ديستين.

(الديستين: وحدة قياس مساحة تعادل 10925 متراً مربعاً. المترجم) وهي متاحة للمستوطنات القوزاقية..."

وما حدث حقيقة لم يرد اسم الأديغة الجبليين والسهليين في الأمر القيصري الصادر عام 1861 و"حالة البلاد" الذي علّق عليه عام 1862. لم يبق للأديغة حق في الأراضي التي كانت لهم منذ الأزل. وقد طُردوا بالقوة من أراضيهم، ويكتب الضباط الذين عاشوا تلك الأحداث في مذكراتهم ما عاناه هؤلاء المطرودون الذين فُرضت عليهم الهجرة إلى تركيا. (تتمة الحاشية في الصفحة التالية)

- بأي نوع من الأسلحة؟ - مع أن إيدوكيموف كان يعرف جيداً ما سأل عنه فقد بدا من سؤاله عن السلاح سُخريته.

- ربما السيوف والسيوف القصيرة يا سيادتكم - قال فانيوكوف متخيلاً نفسه في قلب الجنرال.

- ربما ينتظر الآسيويون رداً من القيصر على ما قالوه له: "اسحبوا جيوشكم، وأجّلوا مستوطنات قوزاقكم من أرضنا، ودعونا نعيش دولة مستقلة". - قال العقيد غايمان الذي لم يتأخر عن المقدم فانيوكوف، متطلعاً إلى الأبعد، متذاكياً، وأنهى: - ولكن لن يتحقق شيء للشراكسة المتمردين الحقودين قليلي العقل.

- مهلاً مهلاً يا ضباطنا الشجعان، لا تُفرغوا حقدكم على الشراكسة بهذه

الوحيد الذي كان يعارض طرد الجبلين الشراكسة من أرضهم وتصرف بطريقة مستغربة وبإصرار هو غ. ي فيليبسون. وقد سُوِّج من منصبه في قيادة الجيش في إقليم نهر بشزه، خلال الاجتماع الذي جرى في 29 آب عام 1860. ولم يكن موقفه في ذلك الاجتماع أمام بارياتينسك وإيدوكيموف وميليويتين وغيرهم من الجنرالات. يتذكر ميليويتين رأي فيليبسون: إذا عاملتهم بالمرونة أمكنك أن تعقد مع كل الأديغة في غرب القفقاس مثل تلك الاتفاقية التي عُقدت مع الأبخاز. وكان يعتقد أن الطريقة التي توطّد سلطتنا في تلك المنطقة هي إنشاء بعض القلاع، وشق الطرقات، وإنشاء طرق تحترق الغابات، وتطويعهم حسب عادات السكان المحليين، وعدم الاعتراض على العلاقات التجارية للأديغة المقيمين على ساحل البحر مع تركيا. بل مساعدتهم.

وفي عام 1863 أصدر ألكسندر الثاني أمراً خاصاً إلى إيدوكيموف: "يجب أن تصل حدود روسيا على امتداد ساحل البحر الأسود إلى نهر "بزب"، وإلا ففي حال الضرورة يمكن لأعدائنا أن يستفيدوا من حربٍ يشنها علينا الجبليون القلائل الذين بقوا على الساحل.

ومن الواضح في كتاب السلطة هذا أن القيصر كان يتابع شخصياً موضوع طرد الأديغة من أرضهم المؤلف.

الطريقة. - لم يقبل الجنرال كلامهما - ألم تسمعا كيف تكلم موفدهم تسي مع قيصرنا. ظل يردد "ولو أننا شعب صغير فنحن أيضاً أناس مثلكم. حين نوقف حربنا لأجل حريتنا تنتهي هويتنا الأديغية هناك. وإن قُتلنا من أجل شرفنا فلا عيب بصيينا، لن نتنازل عن أرضنا لأحد؛ ستبقى مهدنا إلى الأبد، أو تصبح قبراً لنا" فتعالى علينا ولم يتواضع لنا.

- بالقياس إلى تسي فالشركسي الذي تكلم قبله - تلعثم فانيوكوف وهو ينظر إلى غايمان - ماذا كان نسبُه؟

- حجمقوه - قال إيدوكيموف بدلاً من العقيد غايمان الذي كان ينتظره بانيوكوف وقد بدا استياؤه من صوته: - نحن ضباط روسيا الدولة العظمى، فلا تخطئوا في شأن المتمردين الشراكسة الذين وصفتماهم بقليلي العقل - الحيوانات! حاربهم وهذه الفكرة في أذهانكم ولو لم يكونوا على هذه الدرجة من السوء. لا توفّروا صغيراً أو كبيراً منهم. أنظر إليك أيها العقيد فانيوكوف فأتساءل: من صنع هذا الزي الذي تلبسه: الكساء والقبعة والجزمة والزنار والخنجر والسيف؟ ثم تسخرون من الشراكسة! - ثم غيّر إيدوكيموف الذي كان له هذا الرأي فجأة: - أفهم أيها الضباط... تفعلون خيراً إذ لا تنخدعون بأمثال الجنرال فيليبسون، وبكتابات كتابنا الثنارين من أمثال بستوجيف - مارلينسك، وبوشكين، وليرمنتوف، وتولستوي، في شأن الشراكسة... هؤلاء "مخربشون" برؤوس الأقلام، ونحن نوسّع حدود بلادنا برؤوس الرماح. إن نظرت بعين الجوارح من وسط سماء الأبراخ رأيت البحر الأسود لأنه لم يعد بعيداً. ما الأمر؟ ألم يعجبكما تعريضي بكتّابنا المشهورين؟ - تظاهر بالسؤال، وقرأ بعض أشعار بوشكين: - "انتظري يا قفقاس يرمولوف آتٍ"، "أنا واقف على ذروة القفقاس وهي تحتي"، أسمعتما؟ هذه أقوال صائبة حكيمة، ولكن متى كتبها؟ -

سأل إيدوكيموف ثانية متضحكاً وأجاب: - كما يقول الشراكسة أنفسهم "زمن أجدادنا ونحن في عَرِّ شبابنا"، "أملات بيك"، "أسير القفقاس"، "بورودينو"، "حكايات من سيياستبول" أنتما لا تخطئان إن قرأتماها وأعجبتهما. مهمتنا الآنية هي تنفيذ تعهدنا للقيصر المنير بإنهاء حرب القفقاس في وقت قصير. بقيت ثلاثة أيام على المهلة التي منحها قيصرنا الكبير للأبزاخ، واليوم هو 13 تشرين الأول.

"ما أشد ما تحوّل هذا ثثراً كأن هواء الصباح النقي أسكره فلا يريم عنا!.. - قال لنفسه العقيد غايمان الذي ينتظر رتبة الجنرال، ثم امتدح جنرال القيصر المدلل: - ليس هذا مثل الجنرالات الآخرين المغرورين الذين لم يعانوا الحرب. عند الحاجة ينصبك أمام العدو بسيف مسلول، ويمتدحك، ويلومك، وينصحك. ولكنه، وقد نسي من كان يغيّر له رُتبه في وقته وفي غير وقته، يتنمر علينا، ولا يفكر في مستقبلنا. أألّمح له بطريقة ما؟ ولكن لماذا أسمع القوزاقي فانيوكوف الموضوع؟ - ثم وجد لنفسه ذريعة: - إن كنت كرهت رتبة العقيد فلمّح له..."

- جواسيسنا قادمون - قال فانيوكوف الذي رآهم على سفح الجبل. - أيّ خبر جاؤونا به يا ترى؟ - سأل إيدوكيموف وهو يفارق الضابطيين اللذين صارا فجأة من محبّتيه، ثم أخبرهما بصوت حاسم: - اجتماعنا عندي بعد ساعة.

كان عدة ضباط مجتمعين عند إيدوكيموف في موعد الساعة الذي أبلغه لهم: غايمان، والعقيد عبد الرحمنوف، والمقدم بانيوكوف، والنقيب دوحوفسكوي،

والضابط العون¹ سمولنسك.

- نسمعك أيها النقيب - حين أنهى إيدوكيموف افتتاحيته غير المطوّلة، قال لرئيس جواسيسه النقيب دوخوفسكوي - ما الخبر الجديد الذي جئتم به من حيث كنتم؟

- قبل كل شيء يا سيادتكم يبدو الجو في الأبراخ هادئاً. - مع أن وجه النقيب كان يخفي أنه مشى على الطرق الجبلية الصعبة فقد نخس والتعب باد على جسده المتداعي - الذرة تُقطف، والكوسا، والبندق، والجوز. ويجلبون الحشيش اليابس إلى البيوت. وضافر البصل والفلفل تعلق في الدور. وأهراؤهم ملاً بالمحاصيل، ولكن في المقام الثاني ما تراه وما تسمعه من خلال كل هذه الأعمال شيء آخر: لا ينقطع صوت المطرقة والسندان في محادثهم، وتسمع أصوات الرجال ووقع حوافر الخيل في كل مكان. وهناك معلومات أخرى: تبعاً لأخبار جواسيسنا الشراكسة فهم بانتظار خمسة آلاف من الفرسان المسلحين سيأتون من الشابسغ والويخ بين اليوم والغد. ويقولون إن موفديهم إلى تركيا وإنكلترا عادا موعودين بالسلاح. وهناك خبر عن قدوم سفينتين محملتين بالسلاح سترسوان خلال هذين اليومين على ساحل الويخ من البحر الأسود. - شكراً يا كابتن، تفضل واجلس - امتدح إيدوكيموف النقيب مع أنه كان مطلعاً على الأخبار التي نقلها. - كانت أخباركم وافية ونقّذتم ما أرسلناكم لأجله. هل سيضيف الضابط العون سمولنسك شيئاً إلى ما سمعنا؟

- يا سيادتكم - قفز الضابط العون - كل ما رواه النقيب دوخوفسكوي صحيح. لا سلام في أرض الأبراخ، يجهزون أنفسهم لحربنا. ولكن، بما أنك

¹ الضابط من ذوي الرتب الدنيا، كالملازم والملازم الأول.

سألت فسأقول رأيي يا سيادتكم: من يثير الأبراخ هو مجلسهم والبلاد التي زارها موفدوهم. يعدوهم بالأسلحة التي لا يتحكمون فيها، يخدعوهم.

- شكراً أيها الضابط أظن رأيك وآراء الحاضرين هنا متطابقة. - قال إفدوكيموف باسمًا في نفسه، وأنهى - ولكن ليس من شأننا تحليل موضوع المجلس، وموضوع البلاد الأجنبية. ما اجتمعنا لأجله، أكثر من تلك القضايا، هو أن ننفذ المهمة التي أوكلها إلينا قيصرنا المنير، وهو موضوع فخر لنا. اليوم، وإن كنا جاهزين لمحاربة الأبراخ، فسنلتزم بمهلة الأيام الثلاثة المتبقية، سنصبر عليها، ما مضى كثيره فسيمضي قليله. ننهي بهذا اجتماعنا القصير اليوم. - أنتم يا غايمان وعبد الرحمنوف وفانيوكوف ابقوا هنا. - حين بقي الأربعة في الغرفة سأل الجنرال: - من منكم، باستثناء العقيد عبد الرحمنوف، يعرف طريق طوابسه المختصر؟ - ثم قال لنفسه: نعم، العقيد غايمان أتى حديثاً من نواحي وارب، والمقدم فانيوكوف لم يمض الكثير على قدومه من بسه باي، والعقيد عبد الرحمنوف عنده معارف كثيرون في الأبراخ تحت ستار الإسلام.

- ولكن يا سيادتكم لا يميز السيف ديناً من دين. - حسم عبد الرحمنوف الموضوع كأنه كان ينتظر ما يلمحون به إليه - مهما كلفتموني من أمر فأنا مستعد.

- ليس في الأمر عدم ثقة بك أيها العقيد. ستتوجه بخيالتك مستفيداً من ساعة هبوط الظلام إلى طريق طوابسه. وإن لم تتأخر فعليكم اعتراض فرسان الوبيخ والشابسغ. هؤلاء ليس لنا معهم هدنة محددة. عرفوهم أنهم قادمون لمحاربتنا. وأنتما يا غايمان وفانيوكوف، كوناهما جاهزين بفرسانكما وأفواج مشاتكما، ومتى أذنْتُ لكما فسأكون معكما شخصياً.

حين نهض إفدوكيموف قفز الضابطان معاً. وحين رأياه يصلي للصليب البادي

من وراء كتفي الجنرال العريضتين قلّدها.

- والآن أيها الضباط - استدار إيدوكيموف بوجه طلق مرتاح وقال - تابعوا أعمالكم. واهتموا بجنودكم. أفهموهم أن كل مظاهر الشجاعة التي يبدونها في حربهم ضد أعدائهم، وأعداء المسيحية، وأعداء البلاد، لن تنساها البلاد ولا القيصر وستكون موضع تقدير. سنجبر، والله والقيصر الذي رضي عنه في قلوبنا، الأبرار المسلمين على مرأى من أبناء دينهم الأتراك على اللجوء إلى ساحل البحر الأسود.

توقف الجنرال إيدوكيموف الذي كان يذرع أرض الغرفة فجأة، وضحك من نفسه في قلبه: "كيف سأكون معهم شخصياً؟ أشعر في داخلي أنني شاب، غير أنني أتحامل على نفسي من ثقل جسدي، وجروحي تنتكئ فلا تمنحني وقتاً للراحة، ما أكثر الضباط والجنود الذين خطفتهم رصاصات الشيشان والشركس من أمامي. خسرت في الحرب شبابي وسنين عزي وصحتي... ليتنا طردنا الشراكسة إلى ما وراء البحر وارتحنا قبل أن نقضي على أيديهم! وهناك تنتظري عشرة آلاف دياستين بين كيسلوفودسك وبيتاغورسك منحوني إياها. - سأحراثها وأزرعها وأربي فيها الماشية وخيول القبرتاي... ولو رأى والدائي المرحومان هذه الأرض لما صدّقوا... - وفي هذه اللحظة أنشد بصوت عال المقطوعة التي خطرت له متصوراً أنها أنشدت له: "أنا واقف على ذروة القفقاس وحدي، والقفاس تحتي". لم أكن أهتم إلا بالسلاح، ولكن بوشكين كان شاعراً ممتازاً حكيماً..."

أخرجت الأصوات التي صدرت من وراء الباب الجنرال من أفكاره:

- جاسوس شركسي أمسك به مقاتلونا في الغابة يا سيادتكم. - أخبره الضابط الذي دخل إلى الغرفة - ورأسه حليق ويرتدي ملابس شركسية. يدعي أنه

محارب في فوج نيجيغورودسكا القوزاقي.

- وبين القوزاق كثيرون ممن نسوا الإبقاء على خصلتهم فحلّقوها. ويلبسون زياً شركسياً، لولا القماش الأحمر الذي يعلو قبعاتهم، والشريط الأحمر على جانبي بناطيلهم... - ضحك الجنرال إفدوكيموف متذكراً أصله القوزاقي - وماذا يقول هذا؟

- يقول إنه كان في إقليم الوبيخ، وأن الحاج برزج أطلق سراحه.
- هذا أمرٌ آخر، هاتوه إليّ - حين رأى إفدوكيموف الأسير المقيد اليدين والرجلين على الباب، قال جازماً لمسكيه باختصار: - حرّره!
- أنا يا سيادتكم - مدّ القوزاقي قامته وقال بصوت حاد - فويتنكو إيفان سافيليش، مقاتل قوزاقي في فوج نيجيغورودسكا. ومن مستوطنة لاينسكا. كنت أسيراً منذ هذا الربيع عند الحاج برزج الذي قُتل قبل أكثر من عشرين عاماً الأتامان¹ فويتينكو سافيلي أندريانش فعرفني من نسبتى، فادعى أن ما فعله بوالدي لا يزال يؤلم قلبه فأمر بإطلاق سراحي. هذه قصتي إن صدّقني. ولأني مسيحي حقيقي فأنا أرسّم إشارة الصليب يا سيادتكم لأضع أمامكم إخلاصي لقيصري باسم يسوع الإله الكبير وأمه مريم، وباسم والدي الذي قُتل بسيوف المسلمين الشراكسة.

- ولماذا لا أصدّق؟... - قال إفدوكيموف بعد أن رسم الصليب أيضاً - ولكن علينا اختبارك من كل النواحي لأننا في حالة حرب. وليس فقط في ناحيتنا بل في ناحية الشرّكس الذين كنت أسيراً لديهم. - وقال الجنرال للضابطيين اللذين كانا يستمعان: - لا تصرفا انتباهكما أيها السيدان عن

¹ الحاكم المحلي عند القوزاق.

فويتنكو القوزاقي، ولا تعامله بما لا يستحق بذريعة أنه كان أسيراً عند الشرکس. إن كان عاد إلینا على نية الخير فسیفهمه الله، ونحن سنعامله من هذا المبدأ. ما رأي الشرکس أيها القوزاقي في إلغاء القنانة في روسيا؟

- سمعت برزج وزان يتهامسان لا علم للعبيد الشراکسة بهذا الأمر. ونحن سمعنا بوصول مثل هذا الخبر إلى الشراکسة. - قال إفدوکیموف، واختتم بقول أدیغي مأثور: ربما نسي أمراؤهم ومتنفذو الأعراق أن الشراکسة أنفسهم يقولون: لا يذاع سرٌّ في الغابة. وهذا أمرٌ يمكننا الاستفادة منه. ثم قال لفويتينك بصوت اللطف: - اذهب يا إيفان سافيليش، اذهب ونقِّد ما يطلبه منك هذان الضابطان.

الفصل الثالث والثلاثون

ساء الجو في جبال الأبراخ على نحو يُسبِك الباردة الخريفية اللطيفة: السحب المثقلة بالمطر البارد نزلت إلى الأرض فلا ترى إن كنت فارساً رأس حصانك، كما يقال. وأوراق الأشجار العنيدة التي كانت تقاوم الخريف الذي يبعثر أوراق الأشجار اليابسة الملونة كفت عن الخفقان. والأغصان الخضراء المشيرة عن سواعدها تبرز من خلال تلك الأوراق العنيدة. وأنهار شحه غواشه وقُجِس وبشك وبسه قويس تتابع سيرها مبحوحة الأصوات. والجوارح التي كانت تدوم في السماء تحطّ على أطراف الصخور منطوية على نفسها، أو تلازم أعشاشها. ومع أن القرى المتناثرة على ضفاف الأنهار المشتتة في الجبل تبدو صامتة في الخريف الرطب فإنك تعرف من الأصوات التي تتعالى منها، من صياح الديكة، والأذان، والطرق على السدانات في المشاغل ونباح الكلاب، أن الأديغة ما يزالون على ظهر البسيطة.

- تنتهي المهلة التي حددها لنا قيصر الكفار بعد غد؛ فما العمل يا برج؟ -

سأل تسي الذي كان يبرز بصعوبة من كسائه القصير - وجيش الشابسغ والويخ الذي انتظرناه نصف نهار تأخر... وهؤلاء غارقون في قضية سخيصة...
- نحن أديغة إن لم نكن هكذا! - قال برج باسماء، وأضاف ما كان يقلقه: -
سنتظرهم إلى الغد إن لم يكتثوا بوعدهم.

- هل ندمر أنفسنا بأنفسنا إذ يعتمد كل منا على الآخر؛ أهذا ما لا تستطيع قوله يا برج؟ - عشنا نحن الأبراخ في جبالنا وتحصيناتنا حين لم يكن معنا الشابسغ والويخ. مهما تصرف الكفار معنا فسيحمينا سلاحنا وعشقنا للحرية، لا داعي لليأس. كم نجونا منذ عهد أجدادنا القدماء من الغزاة. وهؤلاء، وإن انتهى أمرهم، بقيت جبالنا وغاباتنا وأثمارنا، ونحن، كما ترى، نعيش على أرضنا ونحميها.

- إن كان المقصود هم القبقاق - النغوي فهؤلاء يا حاترباي غزونا فرساناً سائحين ثم انزاحوا عنا، ولم يكونوا كمن يحاربونا الآن طامعين في أرضنا. يطلبون منا مغادرة الجبل، ولا يُعلمونا أين نذهب.

- وكيف لا يخبروننا؟ - يستغرب تسي ما يسمعه - ألا يقولون لنا: غادروا إلى تركيا!

- هذا إن لم نقبل الخروج من الجبال. - استدرك برج كلام تسي بحذر لأنه يعرف نزقه.

- ألا تتوقف مرة يا برج عن الكلام - انفجر غضب تسي - أتظل تصحح كلامي؟! - ثم لامه بصوت أنعم: - لم أقل ما لا تعرفه ولم تسمع به... كفى، لسنا اليوم في موقع يكيد فيه أحدنا للآخر. أتساءل ما سبب غياب المستطلعين الذين أرسلناهم في استقبال جيش الفرسان؟ هذا المطر الهاطل وغير الهاطل لا ينقطع... إذن يا حسن بي، يا زعيم الأبراخ الخير، أطلعك على أمر

يشغل بالي: مهما سخرنا من شركائنا في المجلس، الشابسغ والويخ والساز - الأباطرة فمن أي نوع من البشر نحن الأبراخ؟ لا نتفق حتى لو كنا مبروتين إلى عربة ثيران واحدة. لا يتفق ما يفعله الأبراخ الأعلى وما يقولونه مع الأبراخ الأدنى. واستطعنا بصعوبة التوفيق بين الأبراخ القاطنين في قرى نهر شحه غواشه ومضيق فُجيس. ولولا أن الخوف من الحرب مخيم على رؤوسهم لربما ما نجحنا.

- أظن الأبراخ وحدهم، هذا يشمل الأديغة كلهم.

- من سأشملهم؟ هل هم البجدوغ والقيرتاي والجمكوي والبسلني؟ هؤلاء أكثرهم بلا رجولة ولا ثبات على موقف. اغفر لي يا إلهي إن قلت ما لا يقال. هؤلاء من عرفنا أيضاً. هلكوا من وراء التنافر وعدم التفاهم. ونحن؟ ونحن لسنا محمودين. إن شئت يا برج فسأقول لك من نُشبهه، نحن والويخ والشابسغ والساز: نحن مثل الطيور التي تطفئ النار الملتهبة بماء أفواهاها. من يرون النار تحرق أطراف أجنحتنا، ومن نوفد إليهم مندوبي المجلس كالإنكليز يصرفوننا متى أدرنا ظهورنا مع إشارات مهينة، ولا يعطوننا أملاً في المساعدة.

- وهذه الإشارة الخبيثة يُرونها إياها بإصبع تكاد تظهر من فتحة الكم، خائفين ممن نحاربهم بحيث تُرى ولا تُرى - وافق برج تسي - تركيا تلومنا لأننا لم نقف معها في حرب القرم، ناسية ما فعلت بنا باتفاقية أدريانوبول¹.

- أرفق بهاتين الحكومتين اللتين تأتي على دكرهما يا برج فرنسا التي لم توافق على إقامة دولة مستقلة لنا².

¹ عُقدت عام 1829 بين روسيا القيصرية من جهة وتركيا وحلفائها الأوربيين من جهة، و"منحت" تركيا بموجبها الأديغة لروسيا. وصارت حجة بيد روسيا لغزو القفقاس.

² جرت مناقشات حادة في المؤتمر الذي انعقد في باريس بداية ربيع عام 1856 بشأن مصير بلاد الشراكسة. من أجل الاستيلاء على شمال غرب القفقاس اقترحت إنكلترا في مواجهة

- نعم كما كان يروي زان سفري، لو أن فرنسا اللعينة وافقت تركيا وإنكلترا حين طلبتا من روسيا أن تكون لنا دولة مستقلة لما جرى لنا ما يجري الآن من مأسٍ. حين تكون سيء الحظ يعضك الكلب وأنت على ظهر الجمل. لا فائدة من ملاحقة ذنب حصان الزمن الفائق... - سكت تسي لحظة ثم أضاف: - ما يُضحكني هو أنه لما سمع الحاج خوشت أن ملكة بريطانيا رُزقت بطفل نثر حفنة النقود التي جمعناها بشق النفس على جمع من الإنكليز في أحد متزهات لندن لكسب ودّهم إلى قضيتنا. يمكن أن تحييني يا برج أن هذا تقليد أديغي، غير أنني لم أقبل سلوك الحاج خوشت.

روسيا إعادة النظر في اتفاقية أديانوبول من أجل حرية الشراكسة. - يكتب ر. ريبايسيف في كتابه "المسألة الشركسية" - ولكن فرنسا لم توافق وقتها على المقترح الإنكليزي. واستفادت بطرسبورغ من هذا الموقف الفرنسي للاحتفاظ بالأراضي التي احتلتها وتبرئة نفسها. ووجدت روسيا الأمل في التثبيت بأراضي القفقاس التي احتلتها ولو أنها لم تكسب الحرب. ولكن هذا لم يطفى الإصرار الإنكليزي، فعلى الأقل أرسلت ثلاث حملات عسكرية في الأعوام 1857 و1862 و1863 - 1864 إلى سواحل البحر الأسود، من أجل مساعدة الأديغة وحملهم على الوقوف في وجه روسيا. وجُهِزت السفينتان شيزاييك وسامسون بإشراف رئيس اللجنة الشركسية التي أنشئت في لندن المحامي العام أ. بيلز. ووصلت الحملة هذه إلى شواطئ الوبيخ على البحر الأسود. وتركتهم لندن التي كان الأديغة يأملون مساعدتها بالجيش والسلاح وحدهم. و كان هؤلاء جزءاً من (خدمة السياسة البريطانية) وعلى سبيل المثال فقد رجع موفدو مجلس "شاجه" دون أن يُمنحوا أي أمل رغم أنهم استقبلوا استقبالاً حسناً في لندن... المؤلف.

- الحاج ينسب إلى نفسه سفينتين من السلاح بفضل سلوكه. ولكن هذا من فضل وركفارت وويلز، وشكراً لجيمس أيضاً.
- الوقت المناسب لشكر هؤلاء هو عندما ترسو سفن السلاح على شواطئنا. ولكن لو أرسلوا جيشهم يحارب معنا لكان أفضل ما يقدمونه لنا.
- هذه صارت حرباً يا حاترباي!
- وما يمارسونه معنا أليست حرباً؟! ليرَ قيصر روسيا إن كانت الحرب خيراً... أسأل يا برج هل سنجلس هنا طويلاً نروي الأخبار؟ خمدت نارنا، ومن نتظرهم يمتطون أحصنة مغلولة القوائم. ولا نعرف ما يجري في ناحية سهل مامرقوه. انظر! ها هو فارس قادم من جهة نهر قُجيس - نهض تسي وهو يغطي كتفيه بكسائه القصير - هذا لا يحمل خيراً ساراً.
- وما هو فارس آخر من ناحية طوابسه... - قال برج حسن.
- لا أخبار حسنة أيها الزعيمان المباركان - قال غمشت مولى الذي جاء من جهة نهر قُجيس بعدما قفز من على صهوة حصان عارٍ. - الفرسان الخمسمئة أو الستمئة من القوزاق الذين يقودهم عبد الرحمنوف يأتون خبياً إلى هذه الناحية.
- وماذا ينوون؟ - سأل برج تاركاً الفارس القادم من ناحية طوابسه.
- وما يُدريني؟ هؤلاء يتدافعون دون إطلاق النار.
- وهل الفرسان الذين يتبعونهم كثيرون؟
- من الصعب إحصاؤهم. يلتحق بهم الفرسان الذين يصلهم النداء فيتكاثرون.
- وهل يعلم داور بأمر الفرسان القوزاق؟
- داور هو من أرسلني. وهو كان يتجهز ليلحق بالقوزاق.
- ارجع الآن حالاً، وأخبر داور ألا يأتي بجيشه إلى مرتفع مامرقوه. - أمر تسي

عُملت، وسأل مزحج القادم من جهة طوابسه: - ما أخبارك أنت؟
- الجيش الرديف آتٍ.

- الآن فهمت يا برج نوايا إيدوكيموف بواسطة الفرسان القوزاق. استقبل أبناء عرقنا وأطلعهم على أخبارنا. وأنا سأستقبل فرساننا الذين يلاحقون القوزاق. وسأفهمهم وضعنا. لن ننقض من جهتنا المهلة التي لم يبق عليها إلا يوم واحد مع أننا نعرف ما سنفعل بمن نحصرهم بيننا. وإن وافق عبد الرحمنوف، المسلم الدعوي، وكان محظوظاً، أعدناه دون أن يخسر أحداً من جنوده. وإن لم يقبل حصدنا جيشه بيننا.

كان برج حسن بقلبه وروحه في الجهة التي سيأتي منها فرسان القوزاق المتخفون مع أنه تحرك لاستقبال جيش الفرسان الذي وضع أمله فيه. وكان من ينتظرهم واضحين إليه ولكن لا يعرف تفسيراً لعدم إخباره من قبل أحد الجواسيس الذين في الجانب الروسي. "إيدوكيموف مطلع على أحوالنا على ما يبدو - يفكر برج - ونحن لا معلومات عندنا عن أوضاعه. لا، ليس إيدوكيموف ذو العيون الثلاثة مطلعاً تماماً على أوضاعنا: لا يعرف عدد الفرسان الآتين إلينا. أريدون التصدي لنا كما فعل فيليبسون في العام الماضي حين انطلقنا إلى الشابسغ، فأرسل يتصدى لنا وقد تخيل الآلاف الخمسة خمسمئة. ولكن كان لنا مع فيليبسون اتفاق سلام. وكيف ينقض إيدوكيموف مهلة الشهر التي حددها القيصر ولم يبق على انتهائها غير يوم واحد؟ يظن أنه سيغفر له مهما فعل لاعتداده بنفسه. أم يريدنا أن ننقض من طرفنا تلك المهلة؟ نحن لم نشن الحرب على أحد. إن كانوا يظنوننا أغبياء فلن نسمح لهم أن يخدعونا. سترى كيف سيتصرف عبد الرحمنوف حين نخبره أن فرسانه محاصرون. لا أعرف أحداً كره حياته إن كان روسياً أم أديغياً.

حين طُلب من العقيد عبد الرحمنوف قرار برج وتسي إلقاء السلاح أجاہم
وكأنه غيرُ المعنيّ بالموضوع:

- أنتم أيها الأبراخ تنقضون مهلة الشهر التي منحكم إياها قيصرنا.

- أنتم نقضتموها منذ الليلة الماضية! ردّ تسي.

- نحن لم نطلق طلقة واحدة الليلة واللييلة السابقة لها. ولم نُشهر السيف على

أحد. كانت مهمتنا التحدث إلى الجيش الغريب الذي استقدمتموه إلى الأبراخ.

- نسمعك، - قال أحد الفرسان الثلاثة الذي خرجوا من صفّهم - أنا زان

قاربتر، وعلى جانبيّ برزج إسلامبج، ومُرَشَّنَه داود، ووراءنا فرسان من الوبيخ

والشابسغ والساز.

- مهمتنا أن نبلّغكم أن دخولك أراضي الأبراخ التابعة لروسيا يخالف اتفاق

أدريانوبول. بلّغناكم ما علينا تبليغه، وأنتم تعرفون ما تفعلون.

- نحن المسيطرون على الساحة هنا يا أبدراخمنوف! قال برج بصوت واثق -

إن كنتم تريدون العودة سالمين إلى حيث انطلقتم منه فضعوا أسلحتكم أمامنا.

- نقّذوا ما أمّرتم به! - حين أخرج تسي المسدس وأطلق من فوق رأسه بدأ

الفرسان القوزاق الواقفون مقابله، وقد اهتموا، يضعون أسلحتهم. وفعل مثلهم

الضباط الواقفون إلى جانب العقيد عبد الرحمنوف.

الفصل الرابع والثلاثون

في اليوم نفسه ظهر خبر غير منتظر في تامبي حبله: فارس روسي يبدو أنيقاً

بزي الضابط، ومعه فارس آخر اتّخذ من دداي مضيفاً له دون استشارة أحد.

دخل محمد بن دداي إلى الضيوف لغياب والده، وسلّم عليهم دون مصافحتهم

باعتباره أصغر من الضيوف الذين نهضوا له:

- أهلاً بكم يا ضيوفنا الأعزاء!

- شكراً لك يا ولدي.- قال الرجل المتين البنية الذي تعرّف من موقعه في صدر المجلس أنه هو الأسّ - اجلس، لا تقف عند الباب.

- وكيف أجلس في حضرة من هم من جيل والدي! يمكن أن أبقى هنا. ليس والدنا بعيداً من هنا، سيعود حالاً.

- أنظر إليك فأجدك ابن أبيك. كيف حال والدك ووالدتك؟ زوجتي الأخْتُ الكبرى لرفيقي يدج، لا تنساهم، تأتي على ذكرهم باستمرار. حين عرفت أننا آتون إلى الأبراخ رجّنا أن نلتقي بكم فلم نستطع إلا أن نعرّج على تامي حبله. نحن قادمان من القبرتاي، وأعرف أنه لم يبق في القرية أحد من أسرة تامي، ولا أسرة حامرز، ولا أسرة داور. ما أخبار جيرانكم آل مرزخوي، وآل براغنه؟ وهؤلاء أعرف شيئاً عن أحوالهم وعيشتهم: سمعت أن أبا بكر الأصغر محمد هو مفتي الأبراخ من الشخصيات النافذة فيها. وقالوا إن إسلام بن ميشكا هو مختار قريّتهم.

- معلوماتك عن هؤلاء أيها الضيف صحيحة. هم في صحة جيدة، ويقومون بأعمالهم في القرية وفي البلاد. وأما مرزخوي محمد ففي مكانة عالية. وهو عضو في مجلس البلاد ومقرّئه.

- ما سمعته خبر عجيب، لم أعرفه... ربما لم يكن في الأبراخ والشابسغ والويخ مقرئ أفضل منه... لو سمعت هذا الخبر في القبرتاي لما صدّقت. - قال الضيف، واختتم وهو ينظر نحو رفيقه يدج: - والآن أخبرنا باسمك يا ولدي.

- يناديني والدي ووالدي والقرية كلها باسم محمد.

- إذن أنت تحمل اسم النبي محمد؟

- نعم أيها الضيف، أنا لن أرقى إلى مرتبته أبداً، غير أنهم سمّوني باسمه المبارك.

- لا تقل هذا! ومن كان يعرف أن مرزخوي محمد سيكون مفتيكم، وعضو

مجلسكم ومقرئه؟!)

- كل من هو مخلص للدين الحنيف يمكنه أن يكون مفتياً وعضو مجلس ومقرئاً، غير أن هؤلاء لن يستطيعوا أن يقارنوا بمحمد النبي العزيز. لا يجوز أن تقارن نفسك به، حرام.

- والله هذا أيضاً صحيح. والآن سنعرّفك بنا وإن لم تسأل عن القبرتاي التي جئنا منها.

- اغفر لي يا كبير، أنتما ضيفان. لا يحق لي وقد شرفتم والدنا بنزولكم ضيفاً عليه، أن أسأل عن المكان الذي تقدمون منه، وعن سبب حملكم رتبة ضابط روسي، يكفيني أن تُعرّفاني باسميكما. - فرح حين رأى والده من النافذة: ها هو والدي قادم.

- أهلاً بكما يا ضيفي الخير. - قال دداي حالما دخل الغرفة، وصاح حين رأى من أمامه: - أهد أنت يا نقج، لا، يا جامبج¹! مضى على آخر لقاء لنا أكثر من خمسة وعشرين عاماً! - تعانق الرجلان. كنتم دداي استياءه من أن الرجل الذي شاركه أفراحه وأحزانه، والذي كان يسمى نقج، ثم جامبج، وتبين أن نسبه هو أرجان، يحمل رتبة ضابط روسي، وتفحصه ثانية. وما إن مدّ يده ليصافح رفيقه حتى صرخ ثانية: - أنت يا يدج من لم أتعرفك! هيا يا ولد أخبر والدتك أن أرجان جامبج، ويدج، الأخ الأصغر لزوجته أسلانكوز، ضيفانا، وفرّحها. ولتأت بمائدة مستعجلة ريثما يجهز الخروف.

- لا يا دداي، لا تشغلوا أنفسكم. لم نأت لنجلس طويلاً. عرجنا على تامبي حبله لنبلغكم سلام زوجتي، ونتشرف برؤيتكم. يجب أن نعود إلى سهل مامرقوه

¹ الاسم الأول نقج لقرّ، أي تحقير، يعني الأعشى ضعيف الرؤية. واللمز ظاهرة في الأوساط الشعبية من قرى ومدن.

بعد الظهر. لا تؤاخذونا على الرتب الروسية. الآن كل ساعة بل كل يوم، دُعك من السنين، تتغير أحوال الدنيا. شامل غادر الداغستان، والنائب تخلى عن إمامتكم. وانتهى الناس من سيرة "زاس" سقّاح الأديغة.

- ربما بسبب قيام إفدوكيموف ذي العيون الثلاث في بلاد الأبخاخ بدلاً منه في الأبخاخ... - لم يستطع دداي، مع أنه استرد لباقتة الأديغة مع الضيوف إلا أن يقول، ثم أضاف بسرعة: - ولكن ليس من شأننا أن نقيم اتجاه كل إنسان، بل من شأن الله وحده. إنه يعلم كل شيء ويرى. أتتذكر يا جامبج أنه كلما أمر الأمير بتقييد المسكين تورناو بالأغلال، كنا نبتهل إلى الله أن يلطّف قلبه ويملأه بالخير؟

- وكيف لا أتذكر! بل كلما تذكرته ألمني قلبي من جديد.

- وهل تتذكر كيف كنا نعلّم فيدور-فيدور اللغة الأديغة، ويعلمنا هو الروسية؟ - ثم لمّح إليه مماًزحاً إياه أنه غير راض عنه في سيرته: - أظنه نفعلك إذ علّمك لغة من تحمل رتبته. - ثم خجل سريعاً من تلميحه: - ألا يزال هذا المسكين حياً يا ترى؟

- سألت عنه قبل أعوام ضابطاً كان يعرفه فأخبرني أنه ترك الخدمة العسكرية.

- من حسن حظّه أنه ترك الخدمة بعد ما لاقاه هنا، حيث كان أسيراً.

سُمع ضجيج في الخارج، وحين نظر دداي ورأى بضعة فرسان شباب على باب الدار طلب إلى الضيوف ألا يقلقوا، وخرج من الغرفة. وسأل ابنه مُسمِعاً من يقفون إزاءه:

- لماذا لا تدعو رفاقك الفرسان إلى البيت يا ولد؟

- نحن يا دداي لسنا مثل ضيوفك حاملِي الرتب الروسية الذين يحتمون في مضافتك. - صرخ أحدهم - ليخرجوا إن كانوا رجالاً!

- أيُّ عيب هذا الذي تقوله؟ أَلست أدِيعياً؟ أيشاغبون على مضافة أدِيعية؟ لا تجلبوا لي ولكم العار.

- إن كنت أدِيعياً فلا تسمح لمن حاربونا أن يقيموا في مضافتك!
حين رأى بكر الذي كان ماراً على حصانه الشباب الهائجين عاد فتوقف عندهم:

- علامْ يُلخ هؤلاء يا دداي؟

- إن كنت تتذكر يا بكر أرجانه جامبج، الذي كان فلاحاً تابعاً لآل تامبي؛
ثار هؤلاء عليّ بحجة أنه ضيفي.

- أهو نقج؟! - سأل بكر فرحاً لِمَا سمع.

- ليس هذا ضيفاً تفرح به يا كبير، إنه ضابط في جيش من نفنى على أيديهم. - قال أحد الشباب.

- ليعضّ الكلب أباكم؛ تفرّقوا حالاً! كائناً من يكون، حتى لو كان ذا قرنين،
هو في مضافة أدِيعية، وهي حصنه. تعال يا دداي سأسلّم على من لم أره منذ سنين طويلة، وأتعرّف أخباره.

الفصل الخامس والثلاثون

تحمّل الجنرال إفدوكيموف العار الذي ألحقه به جيش الشابسغ والوبيخ فহারه إلى المساء بصعوبة. وثقل عليه الليل أكثر، وظلّ يقوم من الفراش ويعود إليه. ولم يكن عمود الصبح قد انصدع بعدُ حين جمع في بيته عدداً من الضباط: عبد الرحمنوف، وغايما، وفانيوكوف وسيرديوكوف ودوخوفسكوي وسمولينسك وأرجان.

- أهانوك، على ما أرى، يا عقيد عبد الرحمنوف أمس على طريق طوابسه، -
قال إفدوكيموف متظاهراً بتصفح الكتاب الذي أمامه، ثم ارتدّ على الضباط

الآخرين: - وأنتم ألم تفهموا أنكم أهنتم معه؟ يبدو عليكم كأنكم لم تتأثروا البتة بما حدث. اجلس يا عبد الرحمنوف! لا أدعي أن لا ذنب لي في ما حدث. ولكن الأبراخ مارسوا ما يجب أن نتخذه مثلاً في الرجولة والتصرف السلمي: أعادوا إلينا جيشنا مجرداً من السلاح دون أن يطلقوا طلقة واحدة. وعبد الرحمنوف إن كان يعرف ما يستحقه أو كنتم تعرفون سنختبره ثانية أمام من أهانوه. ليس لأني مشفق عليه، بل لأني واثق من الضابط الذي أبدى رجولة في الداغستان والشيشان.

- حياك الله يا جنرال! - نهض عبد الرحمنوف مجدداً.
- أما أنا فالخدمة التي سأقول لك من أجلها شكراً يا عقيد هي حين تأتيني بواحد من برج أو تسي على حارك الحصان. - انتظر إفدوكيموف قليلاً ثم سألهم واحداً واحداً بنظرة خاصة إلى كل واحد منهم عن استعدادهم للجبهة التي هم متوجهون إليها، والضباط يقابلون أسئلة الجنرال بالنهوض جميعاً، ويحيون إجابات قصيرة، مظهرين بأصواتهم الحادة أنهم لا يخوضون حرباً للمرة الأولى. وقال لهم وهم ينتظرون آخر أمر سيصدره جنرالهم إليهم: - الآن أيها الضباط، والمهلة التي لجمت جنودنا تنتهي اليوم، سيكون أمري مختصراً: أظهروا رجولتكم على جبال الأبراخ والله القيصر في قلوبكم! وحين تنظرون من الجبل الآخر إلى ما وراءه لن يكون البحر الأسود بعيداً. مع السلامة. وحظاً سعيداً.
أما أنت أيها الضابط أرجان فتوقف، أريدك.

- أسمعك يا جنرال! - وقف جامبج أمام الجنرال باستعداد.
قال إفدوكيموف بوجه طلق لأرجان وقد اقترب منه ولمس رأسي كنفه:
- استرح أيها النقيب، أسمح لك. نحن الاثنين، نتكلم بثقة متبادلة بغض النظر عن تفاوت رتبتينا وعرقينا وديانتي.

- شكراً لك يا سيادتكم على ثقّتك بي - مع أنه لم يكن يريد أن يُظهر امتعاضه من الإهانة التي يوجهها إليه الجنرال، ويكبت مشاعره فقد لَمَحَ إلى الجنرال بما لا يعجبه: - ولكن رتبتي تشهد على ثقة القيصر فيّ منذ زمن بعيد. - هذا مدعاة للفخر يا كابتن، على أنك لم تحكِ ما في قلبك بكلمات أخرى. - ضحك إفدوكيموف في سره منمقاً كلماته. أجلس الجنرال الضابط الروسي الذي يتأبطه أمامه، وامتدحه: - نعرف رجولتك وصراحك وصدقك. ليست ربتك وحدها ما شَرَّفَكَ به قيصرنا، بل ما على صدرك. ولكن، إن كنت من رعايانا، فوجودنا معاً في حرب الشراكية يجعلني أعتبر من الضروري أن نتكلم معاً بصراحة، متبادلين الثقة.

- فهمتُ يا سيادتكم مصدر عدم ثقّتك... قال أرجان تامبج كاجاً مشاعره الغاضبة، وأضاف: - لهذا السبب كانت ماريا تيمريوكوفنا زوجة القيصر إيفان غروزني غير موثوقة.

- من قلت؟ - سأل إفدوكيموف عن المرأة الشركسية التي سمع باسمها، ثم أصلح كلامه بسرعة: - أتقصد الزوجة الثانية لإيفان غروزني؟ أليس حدث هذا قبل زمن بعيد؟ لماذا ننش التاريخ البعيد الذي لا نعرفه؛ ألم يكن العقيد سلطان خان - جري الذي يستحق الشكر حارس القيصر نيقولاي الأول والد قيصرنا. صحيح، إن لم أخطئ يقال إنه كان من تثار القرم¹.

- لم تخطئ. يا سيادتكم - ابتسم أرجان في سره. - والجنرال زاس حارب من

¹ الحق أنه لم يكن من التثار، بل من البجدوغ الذين كانوا يسكنون شبه جزيرة القرم. وتولى منصب معاون قائد السرية الجبلية القفقاسية لحماية القيصر، ثم استلم قيادتها. وكتب عنه إسحاق ماشباش رواية تحمل اسم خان جري. تُرجمت إلى العربية من مترجم هذه الرواية وصدرت في مايكوب عام 2016.

أجل روسيا متناسياً أنه ألماني.

- نعم، نعم. كان عندنا جنرالات من جنسيات أخرى ألما ن وغيرهم حاربوا شامل سنوات طويلة، وإن لم ينتصروا عليه. الإمام شامل الذي هيّج القفقاس، وأبناء قومك الشراكسة في مقدمتهم، لا أزعـم أنه أُسرَ بفضلي وحدي فأنسى رفاقي الضباط والجنود، ولكن الحق لا يموت مهما حاولت فلن يلومني أحد إن قلت لك الحقيقة. أنا من حالفه الحظ بأسره. وليس هذا وحده يا كابتن. أكدوا عليّ وعليك أن ننهي حرب القفقاس في أرضكم. ولكن وجب إخضاع الأبراخ والشابسغ والوييخ بالسلاح لأنهم لا يرضخون. وأنت، مع علمك بهذا، جئت من القبرتاي بالفرسان من القوات الرديفة الذين كلفوك بقيادتهم.

- نعم يا سيادتكم، جئت من القبرتاي بالفرسان المئة والخمسين الذين كُلفت بهم - مدّ أرجان قامته من جديد ناظراً في وجه إيدوكيموف، معتداً بما سمعه منه: - نحن جاهزون من هذه اللحظة لتنفيذ ما تأمرنا به.

- اجلس، اجلس! استبقيتك للحديث وحدنا في الموضوع الذي طال قليلاً كلامنا فيه. أسمع الطلقة الأولى لمدافع وبنادق جنودنا الذين انتشروا في جبال الأبراخ؟ وسأقول لك سبب عدم إرسال جنودك معهم، ولو كان يزعجك: لم يحن دوركم بعد.

- يا سيادة الجنرال! - جعلت الإهانة أرجانَ ينهض من جديد رغم كونه في حضرة قائد الجيوش الروسية في إقليم بشزه التي تعد ثلاثمئة ألف.

- اجلس يا كابتن أرجان! - قال إيدوكيموف بصوت هادئ حازم، وأضاف: - نفّذ ما أُمِرَ به - ثم أنهى بصوت أنعم: - ليس الأمرُ أني لا أثق شخصياً بك، ولا أني لا أعرف البطولات التي اجتاحتها في الشيشان. وأتعجب لم لم تترفع إلى الآن. ولكننا من بيده الترفيع الآن يا أرجان مرادوفيتش. تعاملوا معك

في تامبي حبله، على ما سمعت، بما لا يتناسب مع درجتك الاجتماعية "الوُزُق"¹. وأنت من أمضى طفولته هنا، وسببوا لك المتاعب.

- هذا صحيح يا سيادتكم ولكن لم يعد في تامبي حبله الآن من لم يفهمني من آل تامبي، ومن آل حمرزقوه. ويقال إن بعض من بقي منهم رحلوا إلى جهة لا با العليا... - واختتم أرجان وأحزانه القديمة تثقل عليه: - هذا حدث قبل أكثر من ثلاثين سنة. وبقينا أحياء من بعدهم ومن بعد حرب الشيشان. والآن لا أريد أن أجلب لنفسني العار بالمهمة التي كلفوني بها.

- لا أظن أن هناك أحداً لا يحب أرضه وبلاده... - قال إفدوكيموف بطريقة لا تعرف منها أهو جاد أم غير جاد، ثم سأل نفسه باسمًا: "ولم لا يوجد، وهذا الجالس أمامي، بَمَ يختلف هذا عن الذين تحولوا إلى روس من أمثال زاس وكلوغيناو وأوريليني وتورناو..." - نعم يا جامبج مرادوفيتش، نعم. الإنسان بغضّ النظر عن قوميته مركب بطريقة سهلة الفهم وصعبته. وعلى سبيل المثال ففي تامبي حبله حيث احتُجزتما أنت والنقيب الركن تورناو يعيش القوزاقي براغنه الذي تحول إلى شركسي، وأولاده، وأحفاده.

"ما الذي لا يستطيع الجنرال أن يقوله إلى الآن؛ بعدما صارحني مباشرة بما يريد أن يقوله، وأنا من جهتي لم أكتمه ما في قلبي، وأخلص له، والقرية تامبي حبله التي كنت فيها، والمكان الذي حاربت فيه، الشيشان، انتهاءً بتواضع رتبتي وعلوّها؟ تبين من عدم زجه فوجنا من القوات الرديفة في الحرب أنه لا يثق بي من جهة الأبراخ أبناء قومي... لماذا إذن جاؤوا بنا إلى هنا بناء على أوامر من تفليس ويجعلون الأبراخ يحتفروننا؟.. - امتثلت أمام عيني أرجان هبة الشبان

¹ طبقة النبلاء في بعض الأعراق الأدغية.

على باب دار دداي. ومع أن مرزخوي بكر كانت نيته خيرة فقد سأل نفسه ثانية وهو يتذكر سؤال الأخير عن ابنته: - هذا يدين آل براغنه ولكنه يتناسى أن كنتهم امرأة روسية؛ أليكون لا يعرف بالأمر؟ لا يحدث شيء في القفقاس الشمالي لا يعرف به إفدوكيموف ذو العيون الثلاث؛ أسأله إذن؟ لا، سأصبر، وسأعرف ما في قلبه نحوي حقيقة..."

- سمعتُ أنك كنت قبل أيام في تامي حبله يا كابتن ... - خرج أرجان من أفكاره حين قال إفدوكيموف كمن لا يعبأ بسؤاله.

- ما سمعته صحيح يا سيادتكم - أجاب أرجان بسرعة على السؤال المفاجئ وكأنه كان ينتظره. ولم يدافع عن نفسه في الموضوع الذي سأله عنه - زرت المكان الذي عشتُ فيه شبابي.

- وكيف استقبلوك فيها؟ أقصد ربتك الروسية.

- من يدخل إلى المضافة الأديغية، وربما أنتم تعرفون هذا يا سيادتكم، يستقبله أيُّ مضيف.

- إذن بعد أن يقوموا بواجبات الضيافة، ويودعوه إلى خارج القرية؟.. - سأل إفدوكيموف بشيء من الرياء، مُشعراً إياه بأن عنده بعض الاطلاع على عادات وتقاليد الأديغة.

- لن ندعك تخطئ في عادات الأديغة ولو كان عندك بعض المعلومات عنها يا سيادتكم. بعد أن يودّع المضيف ضيفه إلى ظاهر القرية تنتهي واجباته هنا. فإن كان عدواً أو تصرف معه تصرفاً شريفاً حقاً للمضيف أن يقول للمضيف الذي ذاق من طعام الأول: الآن أخرج سلاحك. ولكني أهل تامي حبله قاموا بواجبهم قبل توديعي إلى خارج القرية - قال جامبج لنفسه: "سأصارع هذا الرجل بنفسه دون أن أتركه يسألني عما يعرف"، ثم أضاف إلى كلامه

باختصار - كان بعض الشبان هاجموا باب المضافة مستائين من رتبتي الروسية. ولولا مرزخوي بكر كانوا آذوني.

- من هذا الذي ذكرت اسمه يا كابتن؟ - سأل إفدوكيموف مع أنه كان يسمع أخبار مرزخوي بكر، وأخيه محمد الأفندي، وقريبهم براغنه، ثم تظاهر بأنه يتراجع: - أهو الذي تبني الفتاة الروسية ابنةً له، وزوجها من آل براغنه ذوي الأصل الروسي؟

- نعم يا سيادتكم، صحيح. عشنا في القرية نفسها أنا وآل مرزخوي وآل براغنه ومن كنتُ بضع ساعات في ضيافته دداي. وتوسّطنا للنقيب الركن تورناو كي يُطلقوا سراحه.

- لا يمكن ادّعاء أن محمد أفندي الذي يحتقر الروس له فضل على روسي... - غمغم الجنرال إفدوكيموف، ثم خصص كلامه بصوت أحزم: - لا تفارق فمه كلمة "غزوة" ضدنا. أصحيح أن موقفي الأفندي وأخيه بكر من الدين مختلفان؟

- على ما أخبرني دداي يا سيادتكم فبين الأخوين مثل هذا الاختلاف.

- حين نهض إفدوكيموف مرتاحاً لما سمع قفز أرجان من مقعده بقامة ممشوقة. وقال له الجنرال ذو القامة المتينة الممتلئة في اللَّفَّة الثانية من دَرْعه أرض الغرفة:

- عُد إلى مجلسك يا كابتن - بعدما تصفح الخريطة العسكرية المعلقة بالجدار قليلاً، ورجع بقامته القوية إلى مجلسه أضاف إلى كلامه: - على ما يبدو شهدت على صحة الأخبار التي نقلها جواسيسنا. إن أردت الحق، يا جامبج مرادوفيتش، ما كنت أريد أن أسفك دماء قومك الأبراخ وأعاقبهم بما لا يستحقون. وقصرنا العظيم جاء إلى هنا تاركاً مشاغله من أجل أن يقابلهم ويتحدث إليهم. ولكن أمثال تسي، مستغلين نداء المجلس الذي لن ينفع في

شيء، دمروا حياة الأبراخ فلم يفهمونا. في دولة روسيا تعيش أقوام كثيرة متباينة، ولكن القيصر لا يذهب يتوسل إلى كل قوم يعارضونه. ولا يعتبّ علينا أحد الآن لأنه لا يكرر كلامه إلى من لم يقبلوا دعوته إلى السلام. وسأقول لك شيئاً آخر يا كابتن ما دمت بدأت الموضوع: لم يبق في الأبراخ يا كابتن منطقة، حتى جبال توبا البعيدة، لم يتعرف عليها جواسيسنا ولم يختبروها. والدول التي كان الأبراخ يتأملون مساعدتها تركيا وإنكلترا وفرنسا، زارها موفدو قيصرنا. وقد أصبحنا أحراراً في ما نقول ونفعل لأنهم أفهموا الوضع لمن لم يفهمونا. أنا أشفق على الناس الأبرياء من الأبراخ الذين يضلّهم أمثال تسي وبرج والأفندي مرزخوي الذي يدور في فلکهم، والذين سيهلكون على أيدي المدافع التي لا تعرف وجع الإنسان، والبنادق، والسيوف، والخناجر. وأنتم رغم أنكم من قومهم جاء بكم من القبرتاي عقولكم فوقفتم إلى جانبنا فوجاً كاملاً. وأنا مسرور لهذا، ورفعتم الروح المعنوية لمقاتلتينا.

- أنا ضابط لروسيا، وفي خدمتها! - قفز أرجان جامبج من مجلسه وقال.
- هذه مفخرة يا كابتن، مفخرة - مرة أخرى طلب الجنرال من الضابط الجلوس وهو يمتدحه، وقال لنفسه "أ يكون هذا الضابط متشدداً أكثر مما ينبغي بحيث يجعلك تشك فيه؟" وأضاف له في اللحظة نفسها: - تحدثنا جيداً ناسين أن قواتنا هجمت. هؤلاء، وإن لم نكن معهم في هذه اللحظة يا كابتن، سأعتبر أننا كنا معهم، ولكني واثق أننا سنعيد الكلام في الموضوع نفسه قبل مرور الكثير من الوقت. والآن، وقد ألغيت القناة في روسيا¹، سنفكر في طريقة لإطلاع الأبراخ على الموضوع الذي يخفيه زعمائهم عن مقاتليهم لأني رأيت

¹ عام 1860

فيك قناعة متينة وفطنة واضحة.

- لا يمكن أيها الجنرال اتخاذ العبودية ممسكاً في الأبراخ - جزم أرجان جامبج بسرعة.

- الآن الأبراخ يعدون أنفسهم ليسوا من رعايا روسيا؟ - سأل إيدوكيموف عما كان يشغل باله.

- هذا سبب، ولكن الأبراخ، كبارهم وصغارهم، يفخرون بأنهم دون عبيد، وبأن جبال بلادهم وغاباتها وأنهارها وطرقها السرية منَع لهم.

- القائد سوفوروف احتل في أوربا تحصينات أقوى مما لدى الأبراخ. - قال الجنرال إيدوكيموف باسمًا - وبعده بقرن وضع المحاربون الروس الأشاوس الذين هزموا نابليون وأعادوه من حيث أتى، أقدامهم في باريس. وقوزاق بلاتوف رقصوا على أبواب بيوت المدينة. ومن أين للمتتمردين الأبراخ أن يعرفوا هذه المعلومات؟.. ولكن، ومع ذلك، يجب أن نستفيد من الخلافات التي بين قياداتهم لأن الطرفين لا يريدان سفك الدماء.

- مع أن الأعراق الأديغية سهلٌ تحطيمها واحداً واحداً يا سيادتكم - أسرع أرجان بالقول دون أن تعرف أنه معتدٌ بما يقول أم لا - فحين يتوجهون إلى ساحة الحرب ينسى كلٌ عينه التي كانت تنظر شزراً إلى الآخرين. ولكن كوننا لا نعرف التراجع يمدني بالقوة في ما أقول وما أفعل لأني أعرف كيف هي الرجولة الأديغية الأنيقة .

- إن كنت تخلص لما تقول فهذه مفخرة يا كابتن، مفخرة - مرة أخرى قال إيدوكيموف باسمًا في نفسه لمن نخض له - ستقود فوجك حالاً إلى جهة داخله وحامشك، حيث يحارب العقيدان غايمان ودوخوفسكوي. أعطيك كل الصلاحيات لتفعل ما يستطيعه فوجك.

- أسمعك يا سيادتك - قال أرجان جامبج الذي كانوا ينادونه في تامبي حبله: "نَفَج"، والفخور الآن برتبته الروسية، بصوت جهوري تظهر فيه قسوته، واختفى بسرعة من بين مصراعي باب الجنرال.

الفصل السادس والثلاثون

الجيش الروسي الذي احتل مضيق فارزه كاملاً يقصف بمدفعه الجبال - الغابات التي يتحرك فيها فرسانُ عدوه ومشائته. وحين يحاول الجيش عبور النهر من بعض معابر الضيقة يغير عليهم مجموعات الأبراخ المسلحون العارفون جيداً بنقاط الضعف، فيصدونهم ملحقين بهم الخسائر.

وليس الجانب الأبرخي دون خسائر - يُخلون القتلى والجرحى الخطرين على ظهور الخيل وبالعربات. والجرحى الذين على أرجلهم لا يزالون في ساحة الحرب. وفي قرى أبراخية كثيرة، وصولاً إلى توبا البعيدة، تقام المآتم. ويُسمع في كل مكان صيحة طلب النجدة "مارج" التي يهب لها من نبت شارباه ولحيته ومن لم ينبت. والجوارح التي شئت رائحة اللحم، والتي تستنشق رائحة البارود تحوم في السماء، وتصرخ من على حواف الصخور في الجبال، ووحوش الغابات تحتبئ فزعة.

الناس الذين لم يستطيعوا مجابهة العدو يرحلون بصغارهم ومُسنيهم تاركين وراءهم بيوتهم ومتاعهم ومواشيهم إلى عمق الغابة الجبلية. وإذا التفتوا رأوا بيوتهم التي أشعل العدو النار فيها وإسبلاهم ومساجدهم تحترق. والكلاب تنبح والأبقار تحور... وقرى داخا وحامشك وغوزه ربل وملجاب وغيرها عمتها نيران العدو.

أكد العقيد دوخوفسكوي على النقيب أرجان قائد وحدة قاذفي اللهب:

- لا تتعرضوا إلى المحصولات الحديثة، ولا إلى أكوام الحشيش اليابس المصفوفة؛ سنحتاجها.

- هل سمعت أيها الجندي داور أوامر العقيد؟ سأل أرجان بالروسية أخت زوجته الأصغر، ونهره: - كم قلت لك ألا تتكلم بالأديغية؛ اذهب ونقذ مهمتك!
- في ذاك البيت يا كابتن - يقول الآن داور لأرجان - عجوز مسنّ مريض.
- وإن كان فيه! نحن لم نأت إلى هنا للشفقة - حين دفع جامبج الباب برجله رأى في الفراش العجوز يلوح له بالخنجر.
- أشهر عليّ خنجرك إن كنت رجلاً أيها الكافر عديم الإيمان! - جلس العجوز المبتور الرجلين في الفراش.
- ابتعد أرجان عن الباب وصرخ على داور:
- لماذا أنت واقف؟ هات - انتزع منه الجمرة المتلظية، ورمها على سطح غرفة العجوز.
- الناس الذين أحرقت قراهم يلجؤون إلى القرى المجاورة لهم، أو المواجهة. والجيش الروسي الذي يتعقب هؤلاء يتصدى له رجال الأبخاخ. وهم يؤخرون تقدمه ريثما يتبعد الراحلون التعساء. وحين يستطيعون بقوتهم صدّ المهاجمين فما يرونه في كل اتجاه مأساة: نار ودخان ورماد وأناس قضوا برؤوس الحراب.
- القرى التي انتكبت بلهيب النيران ليست واحدة أو اثنتين أو ثلاثاً.
- مهلاً يا إسلام، أسمع أصوات حديث بالأديغية... - أوقف مرزخوي بكر حصانه.
- كيف لا تسمع أصوات حديث بالأديغية ونحن على أرض أديغية؟! - قال براغنه إسلام، ونظر نحو دداي.
- أعطني لجام حصانك يا دداي، واعرف على مهلك ما لا يستطيعون تفسيره. - قال بكر لدداي وهو ينصت إلى الاتجاه الذي يمكن أن تصدر منه أصوات قاسية .

- سأستطلع غير أني أظني عرفت لمن هذه الأصوات... - تسلل دداي إلى الغابة الكثيفة، ورأى في فسحة خالية من الشجر أرجان جامبج وداور يدج المتجابهين برأسي حصانيهما.

يقول داور لأرجان:

- ما تفعله في أرض الأبراخ عيب.

- وماذا تريد أنت أن تفعل؟

- أفضل أن أحارب بالسلاح على أن أرمي النار.

- وإن جُرحتَ فبأي عينٍ أنظر إلى أختك؟

- لا أظنه مدعاة للخجل أكثر مما فعلت بالعجوز المعاق الذي كان يلوح بخنجره.

- يا داور إن تجاوزت هذا الحد فلن أوفّر عليك حياتك!

- أيها الصهر أعرف أنه لا شيء يردعك عما تقرر أن تفعل. ولكن لا تغترّ بكتافياتك الذهبية. ستكون نهايتك عليها. - ارتفع داور يدج على الركابين برجليه وردّ على أرجان.

- وهل كتافياتك أنت مما يمكن أن تعتدّ بها؟

- وعلى كتافياتي القماشية، كما على كتافياتك الذهبية، رماد قريتنا.

- يا يدج، أفهم ما لا تستطيع تحمّله - قال جامبج وقد لان قليلاً، وأضاف بعد وقفة قصيرة - ولا تظنّ أني عديم الإحساس... ولكن نتيجة الرحلة ونتيجة الإحساس المرهف مختلفتان. لا تتوقع الرحمة ممن شهرت عليه السيف.

تعال، أماننا الكثير مما نفكر فيه؛ لنلتحق بفِرساننا!

نظر دداي بعض الوقت في إثر الفارسين الأديغيين اللذين تجادلا، غير عارف سبب الجدل. ثم قال لرفيقه حين عاد إليه:

- لم تُخطئ، ما سمعناه كان أصواتاً أديغية... أرجانه جامبج وداور يدج اللذان نعرفهما بدا لي أنهما مختلفان؛ أليس عجبياً؟

- لا تهتم كثيراً بالأمر! - قاطع براغنه إسلام كلام دداي.

- توقَّعتُ أن يكون الأديغيان اللذان شهرا السلاح في وجهنا على وفاق... هذان لم يبتعدا. لنطارذهما ولنقبض عليهما... ولكنهما ليسا وحدهما.

- إذن لن نلحق بمجموعة من الفرسان لن نقدر على مجابهتها ونحن ثلاثة. - قال بكر - عدم اتفاق الأديغيين اللذين جاءنا بالسلاح خبر حسنٌ لنا. ثم فكَّر قليلاً وأنهى: - ما كان ليخطر لي أبداً أن "نقج" ويدج سيجابهانا يوماً بالسلاح. وكما كان والدنا يقول: ربما كتب الله أن يحدث هذا. لا يأس ونحن على أرض الأبراخ، نتنفس هواءها ونُظِّلنا سماءها. سنمضي إلى الاجتماع الذي دُعينا إليه.

الحرب التي شتَّها إفدوكيموف لم تكن كتلك التي كانت تجري أيام الجنرال فيليسون والنائب محمد أمين التي تتخللها فترات من الصلح. أرض الأبراخ تحاصرها جيوش القيصر من جهات ثلاث، فلا يبقى إلا اتجاه طوابسه التي يمكن أن تأتي منها مساعدات من جهة الشابسغ والوبيخ. وحالياً كان جيش المشاة - الفرسان الذي جاء به سيرديوكوف وفانيوكوف من جهة مايقواب وشتحاله أخطر الاتجاهات. وتحت تصرف هؤلاء مدافع ليس للأبراخ منها، يمكنهم أن يقصفوا بها أي موقع. أما الجيش المجهز في الشيشان والداغستان فكان يتصدى له الأبراخ الذين يعرفون مواقعه، فيكبّدونه خسائر فادحة. ولكن أكثر ما كان يؤلم الأبراخ ويُشعرهم بالإهانة هو قدوم الفوج الرديف من القبرتاي إليهم محارباً.

- أراك لا تقول شيئاً يا كبيرنا؟ - سأل دداي بكر، وصورة الذين قاسمهم

مشقات الحياة في شبابه والآن يطاردونهم بالحرب لا تفارق خياله.

- وماذا أقول؟ أليس ما يشغل بالي هو ما يشغلك أيضاً؟ سيأتي غداً يومٌ مثل يومنا هذا. وقد يكون أثقل من البارحة، وستشرق الشمس، وتتساقط أوراق الأشجار، ويسقط بعضنا في الحرب، ولكن النهار القادم لا يتوقف على هذه الأحداث. - وبعد وقفة قصيرة أنهى بكر كلامه: - والقوات الرديفة من القبرتاي التي حملتك على السؤال أيضاً يا ددای. سيهلك هؤلاء عاجلاً أم آجلاً بجريرة ما جنوه على عرقهم البريء.

- الجفاء الذي لاحظته بين أرجان وداور لا أظنه يستمر طويلاً... - قال ددای لنفسه وسأل براعته: - وما رأيك أنت يا إسلام؟

- أجيب بالقول الأديعي المأثور: الحجر الذي ترميه أمامك تعثر به.

- لن تقول أصدق من هذا يا إسلام... ما العمل؛ هذا ما يختبرنا به إلهنا في دنيانا الفانية... أبناء العرق الواحد يتحاربون - لا يمكن أن تكون هذه طريقة اختبار... أليس صحيحاً يا براعته، أنت أدرى بهذا؟

- أنت يا ددای يجري على لسانك الكثير... - قال بكر بلا مبالاة إلى ددای وراءه.

- لا أعرف إن كنت أبلغ، وهذا مما يشغل بالي... نعم يا بكر فهمت... لا يُفشى سرٌّ في الغابة ولا في الظلام.

قال أحد الفارسين اللذين خرجا من الغابة فجأة وسارا أمامهم:

- سلامنا لكم يا إخواننا الأبراخ. نحن هربنا من الفوج الرديف وتوجهنا إليكم.

سلاحنا سلاحكم، وسلاحكم سلاحنا. اسمي قانشاوي، ورفيقي برسي.

- هذه بطولة تفتديان بها شرفكما. إن كنتما ستنضويان تحت لواء حرية الأديعه - أجاب بكر حذراً - تفضلاً!

- كان أفضل شيء - لم يُطق ددای صبراً - لو جئتما بـ "نقج" على حارك الحصان.

- ومن هو نقج يا أخي؟ سأل قانشاوي.

- من ندعوه في قریتنا باسم نقج هو أرجان جامبج.

- هل تقصد الكابتن أرجان؟ - سأل قانشاوي، وحدد بسرعة: - لن يسمح أخو زوجته الذي لا تفارقه عيناه راكباً أو راجلاً أن تصل إليه.

- أیكون داور يدج من هذا النوع من الناس؟ - سأل ددای الآن، وشرح سبب السؤال: - وهذا أيضاً من قریتنا وولد في حیننا.

- لماذا تستغرب يا ددای الأمر؟ - قال براغنه إسلام - زماننا زمان انعدام الثقة وانعدام الرحمة... من كان يدري أن هذين الرجلين من قومنا سيعودان إلى وعيها ويصقان معنا؟ الله يرى كل شيء وكل شيء بيده.

- نعم، صحيح يا أخي - ساهم الآن برسي الذي كان يريد منذ وقت أن يقول شيئاً ولا يتركون له الفرصة - إن كانوا أخطؤوا فلْيُعِدِ الله الرشد إليهم، وليشملهم برعايته!

- حسنٌ أن يكون الله في قلوبكم، ولكنهم ينتظروننا هناك في برج حبله. - خرج مرزخوي بكر من أفكاره، وقاد المجموعة التي زادت فارسين في طريق جبلي ضيق عبر الغابة.

الفرسان الخمسة أفكارهم مختلفة كاختلاف لباسهم وخيلهم وأشخاصهم. ولكنهم، وإن كانوا يختلفون قليلاً أو كثيراً، فما كانوا يؤولون إليهم مرهقين مهمومين هو الحرب الدموية الدائرة في الأبراخ. يقول بكر: "أيّ مأساة جرت لنا، أيّ إبادة لعرقنا يشنونها علينا؟..." ويدين براغنه إسلام نفسه بهذا المعنى وإن كان من خلال فكرة أخرى: "ما أشد ظلم أبناء قومنا من جهة الوالد!"

وهما مهمومان بمصير قانشاوي وبسري وإن كانا راضيين عما فعلا، يقول دداي قلقاً: "هذان الأديغيان اللذان عادا إلى رشدتهما أهما جديران بالثقة؟" يتمنى أن يهمس به لبكر ولكنه لا يجد الوقت المناسب.

- يا بكر، يا كبير، إن سمحت لي أريد أن أسألك - لم يُطق دداي صبراً.

- أسمعك يا دداي - أجابه بكر دون أن يلتفت إليه.

- ماذا تفصّل أن نفعل بملايس هذين اللذين انضمّا إلينا من الفوج الرديف القبرتاي؟

- أترى عليهما كتافيات؟

- لا، تخلّصا منها.

- وماذا إذن؟

- وكيف لي أن أعرف!

تبادل قانشاوي وبسري النظرات بسبب الحديث الذي سمعاه عن عدم الثقة بهما. ونظر إسلام إلى دداي نظرة سخط. وأسرع بكر بحصانه دون أن يجيب.

الفصل السابع والثلاثون

لم يتقدم جيش القيصر في بلاد الأبراخ من جهة حمشك إلا بضعة فيرستات خلال ثلاثين يوماً. وفي خلال هذه الأيام حولوا قرى الناس الذين رحلوا بأرواحهم إلى رماد. ولكن الضباب الذي غطى الأرض لاحقاً والثلج الذي فاجأ الجيش أوقفوا تقدمه. ووجد الأبراخ المقاومون للمشاة الروس الذين كانوا يهجمون بعد قصف مدافعهم الوقت ليعيدوا تجهيز أنفسهم.

لم يكن برج وتسي اللذان كانا ينتقلان من ساحة معركة إلى أخرى يهدأان. وكالعادة كان يرافقهما مرزخوي محمد الأفندي، لا يُنسي محاربي الأبراخ صلوات الابتهاال إلى الله. ويجلس معهم إلى نيرانهم، يدعو إلى الله من أجلهم،

ويمتدحهم، وينشد معهم الأذكار، ويقاسمهم لقمة الطعام.

إن نظرت إلى الأسفل من مرتفع حَجَجَ ظهرت مواقع الجيش المعادي غير متقاربة ولا متباعدة لا تصل إليها طلقات المدافع والبنادق. وأحياناً تُسمع أصوات طلقات بنادق متفرقة تمزق سكون الطبيعة البيضاء القلقة، وتُسقط أصداؤها تُثَفِّ الثلج الناعم من أعالي الأشجار، ثم تصمت وتختفي تحت سفوح المرتفعات وأسافل الأشجار كأن شيئاً لم يحدث. وتلتقي أدخنة نيران الطرفين المتجابهين في السماء فتتحد. وتشمس الشتاء المبكر، غيرُ العابئة بما يجري على الأرض، تحترق في الظهيرة المتجمدة.

بلاخوه باتر الذي كان يقلِّب بيساره البندقية القديمة الثقيلة كأنها لعبة أطفال، فيتفقدوها، يلوم ابنه مزحِب:

- بندقية جدك ليست لعبة يا ولد. ستصل إليك نار العدو وأنت تحاول إطلاق النار منها. ستكون هذه أسهل استعمالاً لك.

- وأنت يا تات؟ أأتركك دون بندقية؟

- أنا ألا يمكن أن أحصل على شيء مما يرسله إلينا الوبيخ ريثما تُشفى يدي المجروحة؟

- ويدك يا كبير ستشفى - يقول غُمشت راضياً بأنه سُئِل - وسيصلك شيء من سلاح الوبيخ الذي طال انتظارنا له. - اجعلنا موضع ثقتك، لن نسمح للعدو أن يصل إليك؛ أليس صحيحاً يا هارون؟

- وهل يحتاج هذا إلى سؤال! لن نضعف يا غُمشت. - يعبرُ كوبا هارون عن رجولته في حين يثبت القبعة على رأسه - وأنت يا برسر أراك لا تقول شيئاً!

- ليت مدفعاً كالذي بيد الكفار كان تحت يدي! كنتُ أريْتُكم ما أفعل بهم أكثر مما أقول لكم. - لم يدع برسر زوال نفسه يفارق صحبه.

- إن كان الأمر هكذا يا زوال، لأني أسئ منكم ليس قليلاً، فلن أسمح لكم أن تسبقوني. - مازح بلاخوه باتر أقرانه - بندقية أول جندي معادٍ أشهر عليه سيفي بيسراي ستكون لي... لا تضحكوا، لا تضحكوا، ليس هذا الكلام دعابة!

اقترب برج يرافقه تسي ومحمد أفندي من المجموعة التي كانت تتضحك، وسأل بلاخوه الذي رُبطت يده اليمنى إلى صدره:

- ما الأمر يا باتر، هل ترفع معنويات الشباب الأصغر منا؟
- أنا لا أرى، يا زعيم الأبراخ، إلى الآن بين هؤلاء من غلبه اليأس. - ردّ بلاخوه باتر على برج حسن بمزحة، وأضاف: - لنترك الأمر إلى الغد. لا أعرف كيف ستتجلى رجولة هؤلاء. ومع ذلك أنا واثق منهم.
وفي هذه اللحظة اتجهت عيون الجميع إلى سهل حَجُج الذي صدرت منه طلقات بنادق. ورأوا على ظهر المرتفع فارساً أبراخياً يتعقبونه بالطلقات. وعدداً من الفرسان انطلقوا لاستقباله.

تعرف محمد أفندي على الفارس الذي وقف أمام برج حسن:
- هذا أنت يا يدج! - وقال للآخرين بسرعة: - هذا الفارس من قريننا تامي حبله، ابن داور أَلْمَجْرِي، ومَن على حارك حصانك؟
- هل عرفته يا أفندي؟ هو "نقج"... أنتم أحرار في ما ستقررونه بشأن صهري أرجان جامبج. وأنا أضع نفسي تحت تصرفكم.
حين أنزلوا نقج أرجان جامبج المقيد اليدين والرجلين، العاري تماماً، من حارك الحصان، وأجلسوه أمام المجموعة، قال برج باختصار:
- فُكِّوا قيده، وغطُّوا ظهره بما يدفنه!

- أيُّ رحمة وأيُّ دفء يا برج بدلاً من أن نسفك دم الخائن الأديغي؟! - قال

تسي لا يستطيع صبراً، ووافقه آخرون بأصوات متجاوبة.

- لا يا جماعة، لا تدعونا نتصرف من منطق النزق والحمية! - رفع برج يده ونصحهم - سنتصرف معه بما يستحق، ولكن ليس الآن. سنخضعه إلى محاكمة.

لم يطل الأمر بالمحكمة حتى أصدرت حكمها: أبلغ المنادون في الأبراخ أنه أُلقي به من الجدار الصخري في اليوم الثالث من صدور الحكم بحقه.

الفصل الثامن والثلاثون

الأيام الدافئة من بداية الربيع بعدما انقضى شتاء عام 1862 البارد التي ستختبر مزيداً من عذابات الأبراخ مزقتها مدافع القيصر. يُحْيَل إليك أن الصدى المتناثر للبرق والرعد المخيمين فوق الجبال يصدر من كل اتجاه. لم يبق في الأبراخ من لا يعرف أن هذه الأصوات، ولو أن الموسم موسم البروق والرعود، ليست إلا أصوات المدافع الحاملة للمأساة. ولم يبق في القرى من يستطيع حمل السلاح، اللهم إلا بعض المسنين والأطفال. ولم يعد يُسمع فيها إلا النواح على الضحايا. وتوقفت حفلات "الجابشه"¹ التي تخفف عن ذوي الجروح العميقة آلامهم.

وإن أخذت تامي حبله، القرية الصغيرة مثلاً، فقد استقبلت خلال أسبوع ستة شهداء وأحد عشر جريحاً. وفي حيِّ براغنه وحده ثلاثة جرحى: بكر ودداي وابنه محمد. ومع أن كتف مرزخوي بكر أصيبت بجرح عميق فلا يخلو يوم من

¹ نوع من حفلات السمر أو المنوعات كان يُقام كما يقول الكاتب للترويح عن ذوي الكسور أو الجروح المؤلمة، يشارك فيها شباب القرية وبناتها، وشباب القرى المجاورة، تستمر حتى الساعات الأولى من الصباح، ويقدم فيها نوع من المعجنات قاسٍ يسمى "أباوه" أي شيء يُصدم بالفم، ثم يوزع قطعاً صغيرة يتهاذاها الشباب والبنات.

زيارتين أو ثلاثٍ لجاريه دداي وابنه محمد الراقدين في الفراش. وفي هذه اللحظة، وفيما يجَهِّز بكر نفسه لعيادة جاريه جاءت نفست لزيارة والدها الذي كان يغطي كنفه بكساء صوفي قصير، ولا يزال على رجله، عانقته وسألته مرتاحة لتحسُّن حاله:

- كيف كان حالك الليلة تات؟

- كما ترينني يا ابنتي، جرحي يلتئم. ولم يعد يؤلمني. وهل أنا مشكلة؟ بل دداي. كان وضعه خطيراً ليلة البارحة. أفكر أن أعوده الآن.

- وكيف لا يكون في وضع حرج والرصاصة في بطنه... - قالت جانشر، وأخت والألم يعصر قلبها: - هذا المسكين لم يبق من عمره الكثير.

- أين عصا والدنا، لا أجدها؟ - أنهى بكر كلامه مغمماً مع أنه تجاهل كلام زوجته - لا أظن دداي وصل إلى هذه المرحلة. لا تقولوا ما لستم متأكدين منه... ها هي عصا الفارس معلقة على الجدار.

- ما الأمر تات أثقل عليك تمشيكي؟ سألت نفست تحاول أن تُنسي والدها ما لم يعجبه، وسحبت العصا من الجدار - هذه عصا متينة جيدة.

- نعم يا ابنتي، كانت لجدك. الآن لن تجدي مثلها. نحن في عصر كفّ الناس فيه عن الانتفاع بشيء. ستفيد هذه محمد بن دداي الذي جُرحت رجله. ابقيا أنتما الأم وابنتها. - وقال وهو يخرج من الغرفة: - لا تدعيها تُطيل بقاءها عندك والأطفال ينتظرونها. ولا تُخرجيها فارغة اليدين.

- هل سمعت ما قال والدك وكأنه خائف أن يطلّك آل براغنه؟ - نظرت جانشر إلى ابنتها ضاحكة، وقالت للرجل الذي تخطى الباب ولو أنه لن يسمع كلامها - لن أدعها جالسة والأطفال متشوقون إليها. ولكن لِنَعُدْ فارغة اليدين كما أُنْتُ.

- لا أتذكر وقتاً تراجعتم فيه صحة تات مثل هذا العام - نهضت نفست دون أن تهتم بأقوال أمها وتوجهت إلى النافذة المتجهة إلى باب الدار. وتعقبت بنظراتها والدها المتأبط عصا إلى الجيران، مشفقة عليه.

- نعم، نعم، يا صغيرتي. لو لم يكن إلا ما عانينا... ليبلُ الله من جرح والدك كائناً من كان بالكوليرا! كاد يخرب بيوتنا كل آل مرزخوي - وقفت جانشر وراء ابنتها وتابعت زوجها بنظراتها - يُكابر على ألمه ولكن ها هو الجرح يميل بكتفه اليسرى. ويصعب عليه رفع يده... ومع ذلك يجهّز نفسه للعودة إلى حيث ترك رفاقه يحاربون. كلامك يؤثر في والدك أكثر من كلامي، كلميه يا ابنتي، وانصحيه!

- يا أمي لن أستطيع أن أقول لوالدي: لا شأن لك بالمكان الذي فيه رجال قريتك. ألا تعرفين طبيعتنا نحن آل مرزخوي؟ بل إني سأقف إلى جانب والدي ووالد زوجي ووالد طفلي ومن تُحمل إليه العصا محمد بن ددائي، وعند الضرورة كل من في صدره قلبٌ أديغي. ألا تفهمين يا أمي ضرورة أن نحمي أنفسنا؟
- لا أعرف ماذا تقولين - ضمت جانشر ابنتها كما لو كانوا يسلبونها منها.
- هذه مسائل ليست من شأن النساء. والدك المسكين مهموم لأنه لم يستطع أن يفِي بنذره الذي نذره من أجلك.

- يا أمي - انتزعت نفست نفسها من ذراعي أمها ثم رجعت وعانقتها.
- نعم يا صغيرتي، نعم. إن سمعت كلامي فلن أسمح لك أن تقولي مثل هذا. الله سيفهمنا ويرحمنا. اذهبي واستئذني حماك وهاتي لي صغيريك. سيبعثان الأمل في قلبي. وأدعو الله من أجلك... - ومع أن جانشر كانت تفكر في جدتها الراقدة تحت شجرة بلوط في فرزه فإنها لم تستطع أن تذكرها لها صراحة.

- كفى يا أمي، لم يمض وقت طويل على زيارتهما لك.

- وهل عجيب إن كانا هنا قبل أيام، والآن أحب أن أراها.

- حسناً يا أمي سأتي بهما حالاً.

"يا إلهي، إن قلت ما لا يجوز فافهمني، واغفر لي" - ارتعت جانشر حين بقيت وحدها مع أفكارها المتضاربة، وابتهلت إلى الله من أجلها هي. - "أنا وبكر والصبية التي أوكلت تربيتها إلينا بعلمك نعيش في الدنيا الفانية تائهين. وما ذنب الأب والأم اللذين خرجت من بينهما ابنتا؟ قد يكون والدها حياً وفي صفوف من يقاتلوننا وإن وجدت الأم التي لا نعرف اسمها ولا نسبها قبراً في أرضنا، ولكنه لن يعرف سرنا أبداً. وربما لم يعد حياً... ليس الروس وحدهم من يحاربوننا بل بينهم أديغة منا. ماذا ينتظرنا غداً وبعد غد، وفي الأيام التالية؟ نحن عشنا عمرنا ولكن ما ذنب أولادنا. لماذا غضبت علينا يا الله؟ لا، لا، اغفر لي. افهمني، هذه خرجت من لساني عفواً، لا من قلبي. احمنا، احم كل من في قلبه الخير من الطرفين. وأحيني لأرى فرحة حفيدي. وأظللنا بسمائنا وشمسنا. واجعلنا نجد السلام على أرضنا..." - أخرج صوت الطفلين القادمين من جهة الباب جانشر من أفكارها.

حين رأى محمد الواقف مستنداً على أحد عمودي الردهة جازه العجوز قادماً أسقط من يده خفية غليونه، واستقبله باشاً وعرجه بادٍ عليه:

- تفضل يا بكر، تفضل، سأل عنك والدنا منذ لحظات.

- كيف حال والدك إن شاء الله؟

- لا بأس به اليوم بالقياس إلى البارحة. أكل، ويريد أن تُخَفِّف له لحيته وشاربيه.

- هذه هي الحال؟ - سأل بكر مرتاحاً لِمَا سمع، وأضاف مرتاحاً أكثر: -

هذا خبر سارّ يا محمد، سررتني. وأنت كيف حالك؟ أراك واقفاً على رجلك. وهذه العصا ستنفعل. أعدها إليّ متى شُفيت لأنها من تراث والدي. — وحين دخل الغرفة امتدح دداي الذي كان في الفراش محاطاً بأسرته: — عفارم يا دداي، عفارم¹!

— كنت أستحق الـ "عفارم" لو كنتُ أنا وأنت وذاك الولد، في المكان الذي تقصف فيه المدافع الروسية... يا ربي ما أخبار ذلك المكان يا تُرى؟ ماذا ستقول النساء اللواتي يأتين لعيادتي؟! لم يبق في القرية لابسو قبعات إلا الأطفال الصغار... لو صادفتُ يدج ابن داور ألمجري جارنا السابق لهُناؤه على تمكنه من عديم الإيمان نقج، وأثّبت على شجاعته. ولكن متى يمكنني أن أقابله... من يعرف؟ بلّغوه رضاي عنه إن رأيتموه قبلي. نعم يا بكر، نعم يا نقج، ما حدث لنا مأساة... أيمكن يا بكر أن تخفف لي لحيتي وشاربي! أسرع يا ولد وأعطه عدّة الحلاقة...

في ظهيرة اليوم التالي رحل دداي على نحوٍ مفاجئ.

الفصل التاسع والثلاثون

في تمام الساعة الثامنة، وصل الضابط العون سمولنسك، المُستدعى من ممثل القيصر في تفليس رومانوف، قلقاً من استدعائه، وحالما وصل إلى بوابة المحترم الكبير نهض العقيد الذي كان أعلى بكثير في رتبته وفي مهمته، وقال له: — لا يزال أمامك خمس دقائق على الموعد، تفضل واجلس.

كان مساءً صيفياً. والغرفة التي ليس فيها إلا العقيد تضيئها الشمس، وعلى الجدار ذي اللون الذهبي — الفضي صورة كبيرة لألكسندر الثاني وكأنه يقول

¹ عبارة تشجيع تركية تقابل في العربية: أحسنت، وفي الفرنسية: براؤو!

لك: ألا ترى ما أكبرني وما أعظم قدرتي. وفي ناحية الجدار الآخر تطوي الساعةُ الجدارية الكبيرة الأيامَ والشهور والقرون صامتةً.

حين بقيت على الموعد المحدد له دقيقة واحدة نهض العقيد. ولما سمع الدقة الأولى للساعة فتح الباب وأدخل الضابط العون سمولينسك إلى قاعة القيصر. استدار معاون القيصر لشؤون القفقاس الذي كان يتمشى على أرض القاعة الكبيرة، وتأمل بعينين زرقاوين حادثين الضابط الذي تسمر أمامه وهو يحببه، وقال له باختصار:

- لن أقلق بشأن المهمة التي أوكلتها إليك أيها النقيب لأني أثق بك. ستوصل هذا الكتاب حالاً إلى كوتايسي، وتسلمه باليد إلى الجنرال الحاكم كولويوبياكين. وستنفذ معه المهمة التي أوكلتها إليه باسمه. مع السلامة أيها الرائد نعم، نعم ابتداء من اليوم أنت رائد، وعربتك وحراسك بانتظارك. يكتب الضابط العون سمولينسك الذي ساهم في إحراق المجلس الأديغي، والذي رفعه نائب القيصر في القفقاس إلى رتبة رائد، ذكرياته على النحو التالي¹:

"... كان مقاتلو الكونت إيدوكيموف الذين يحاربون في الشمال الغربي من جبال القفقاس يشقون الطريق إلى البحر الأسود برؤوس الحراب والفؤوس. في أواسط تموز عام 1862 جاء الجنرال الحاكم التابع لكوتايسي ن. ب. كولويوبياكين إلى سوخومي. وفي اليوم التالي لوصوله لوحظ على قادتنا حركة ناشطة قلقة خلافاً للعادة. وكنا نخمن نحن أيضاً أنهم يتحضرون سرّاً لمهمة ما، ولكن لم يُطلعونا على حقيقة الأمر.

¹ س. سمولينسكي. "مذكرات. المجموعة العسكرية ت 105. رقم 10، 1875. المؤلف.

كانت السفن جاهزة للإبحار، والمحاربون يركبون مراكب كبيرة تسير بالمجاذيف. وما إن ركبنا نحن حتى رفعوا المرساة. ورفرف العلم فوق المركب. وانطلقنا.

بدأ عمود الصبح ينبلع، والجبال تبدو شاحبة محمرة. ونحن نسير دون أن نصدر صوتاً قدر الإمكان. وأبلغ المحاربون أن يركب كلٌّ منهم في طريق العودة مركبه الذي أتى فيه، والمعروف من علمه، إذ أن لكل مركب علماً خاصاً. اقتربت المراكب كلها في وقت واحد من ساحل "شاجا" وتوقفت. وحين قفز المحاربون منها ووطئوا الرمل تراجعت المراكب وألقت مراسيها.

الشاطئ الرملي الممزوج بالحصى والذي يبلغ عرضه ثلاثين خطوة يصل إلى الريف العمودي المشجر. وعلى الجانب الأيسر من البحر غابة كثيفة تلتف حوله. والطريق الضيق المنطلق من الساحل يمر عبر هذه الغابة. ثم يمر على يسار الريف متعرجاً بشكل غير محسوس عبر الأشجار الضخمة، ثم يرتفع. وطول هذا الطريق الضيق سبعون خطوة تقريباً. وبعده تجد نفسك في البرية التي تتناثر عليها غابة استولت على السهل، تتخللها شجيرات الياسمين البري. وإن سهوتَ فخرجتَ عن الطريق صُعْبَ عليك الرجوع إليه. وفيما نحن سائرون على الطريق رأينا ثلاثة بيوت في المساحة المقتلعة من الغابة، سقوفها قطعٌ من شرائح الخشب، وهذه البيوت الثلاثة كانت تضم مجلس حرية الأديعة. وبين هذه البيوت بالإضافة إلى مقر اجتماع البرلمان مضافة ومسجد.

الوقت لا يزال مبكراً، وربما لا يزال حراس المجلس نائمين. انتبهوا إلينا حين دخلنا المرعى فحسب. ومع ذلك لم يجدوا الفرصة لإغلاق أبواب البيوت.

ووراء مجلس الشراكسة برية متناسقة مرتفعة. وهذه البرية تلتف حول منخفض يتفرع إلى فرعين. وفي هذه الأماكن المنفرجة تعيش قرى كثيرة. وملتقى الطرق الخارجة منها يقودك إلى الأبراج والناخوي وغيرها.

ومن أجل أن تصل إلى الساحل المقابل للبيوت عليك أن تنحدر من مرتفع شبه عمودي مليء بنثار الأحجار الجبلية يجعل المشي عليه صعباً.

تسلق المحاربون الجبل فحاصروا بيوت المجلس وبدؤوا يقذفونها باللهب. وبعدها فقط بدأ يُسمع صراخ وإطلاق نار بنادق. وكان المحاربون يرمون اللهب في البيوت دون أن يكثرثوا لهذه الأصوات.

- ارم النار على هذا البيت - كان جنديٌّ يأمر غيره - النار وصلت إلى جانب واحد فقط. أنا سأفتح الأبواب وسأستطلع إن كان في أحدها شركسي حليق الرأس.

وريشما ألقى المأمور النار في البيت انهماك الآخر في تحطيم الأبواب، غير أنه تبين أنها متينة. وحين لم يستطع فتحها نقب سطح البيت الذي لم تصله النار بعد، ودخله.

- ما الذي تنظر إليه يا سوسويك؟ - سأل الجندي الذي يشعل النار في البيت المجاور.

- أرى بعض الوسائد، أظن أن الشراكسة يقيمون هنا.

- لم نسمح للمساكين أن يناموا في أعذب ساعات النوم - كان سوسويك يمزح وهو ينزل من السطح.

استولت النار على البيوت كلها، وكانت سحب الدخان الأسود المنعقدة فوقها تتصاعد إلى السماء.

كان اشتباك البنادق يشتد، والشراكسة يجرون نازلين من حيث ترتفع النار. وكان صراخهم يقطع نياط القلب.

- أترى هؤلاء الذين لعنهم الله كيف يتجمعون بسرعة كأنهم بأجنحة. كان الجندي يسخر منهم وهو يطلق النار باتجاه مصدر الصوت.

- لا تُطلق جزافاً - قال الضابط العون المتقدم في السن للجندي - ستشيع من إطلاق النار حين نعود إلى ساحل البحر.

البيوت تحترق. ونحن نزلنا من المرتفع عدّوًّا، حتى أصبحنا في الشريط الضيق. والجنود الذين يُحرقون بيوت المجلس ينحدرون وراءنا. ولم يتبقّ إلا سرية من الكتيبة 33 المواجهة للشراكسة. كان الشراكسة يتجمعون على الطرق المؤدية إلى البحر وعلى جانبي المنخفض، ولاسيما على الجانب الأيسر، وجنودنا يردون على الشراكسة الذين يطلقون النار من وراء الأشجار القريبة من منحدر سفح المرتفع. ومن وقت لآخر ترتفع وتيرة إطلاق البنادق، ولكن لم يكن في المستطاع أن نركب مراكبنا قبل أن يعود الجنود الذين صاروا الآن على الشاطئ. الشراكسة يطلقون من وراء كل حجر من أحجار الطريق إن صحّ التعبير. ولا نراهم ولو لم يكن بيننا إلا أربعون خطوة إلى ستين. وجنودنا يُخلون الجرحى من وراء الأشجار القديمة التي نختمي بها إلى المراكب التي اقتربت من اليابسة. وبعد الجرحى يُخلون القتلى.

كانت السريتان تطلقان النار بكثافة بانتظار السرية الثالثة. وكان التحرك مستحيلاً في ذلك الوقت إذ كل من يتحرك يُسقطونه في مكانه. وأكثر من يُقتلون كانوا من يُخلون الجرحى والقتلى. ولذا كنا نخبئ في الرمل، ونطلق النار من وراء أرومات الأشجار على الجبلين. وفي ذلك الوقت كان وراءنا الكابتن باراخوفيتش قائد قوات الإنزال يعطينا التعليمات مخاطراً بنفسه أمام الطلقات.

كان الشراكسة يُهرعون إلى الأماكن التي يجري فيها القتال فيتصاعد منها الصياح والضجيج. وطوال تلك المدة جابهتهم السرية الثالثة فلم تسمح لهم بالاقتراب من البيوت التي كانت تحترق.

أُمرنا بالتراجع. وبالتزامن مع الأمر نزلت السرية الثالثة من يمين المرتفع. ومن

حسن حظها أنها وجدت هذا الطريق وإلا لو نزلت من حيث تسلقنا لتكبدت خسائر فادحة. وكان عليك أن تشق طريقك بالسيوف إن أردت اختراق الشراكسة الذين احتلوا الطرق الأخرى.

الشراكسة يأتون من جهة شاجا وفاردان مشاةً وركباناً إلى النار. ومدافع السفن تطلق النار عليهم كي توقف اندفاعهم. ولكن الشراكسة يأتون من طرق أخرى.

وجنودنا ما يزالون ينفذون واجبهم ولو أن إطلاق النار عليهم يشتد، وخسائرهم تتزايد.

- هل ترى كثرة هؤلاء المحتشدين كأن الجنّ يلاحقهم؟! يقول أحدنا.

- أتساءل من أين يأتي كل هؤلاء بهذه السرعة؟ يجيبه الآخر.

حين نزلت السرية الثالثة من المرتفع بدأت السريتان الأخريان تمتطيان المراكب. وتوقفنا نحن مرة أخرى من أجل لجم الشراكسة الذين يلاحقونا بعدما نزلنا من المرتفع. وحين كانت السريتان الأخريان تركبان المراكب أمطرتهم مدافع مراكبنا فلم تسمح للأعداء أن يهاجمونا بالسيوف.

لم يكن مسموحاً للسريتين الابتعاد بعيداً وإن امتطنا المراكب؛ وإلا كان الشراكسة الذين هاجموا السرية الثالثة قطعوهم بالسيوف.

ما إن وصلت السرية الثالثة إلى الشاطئ حتى بدأت السفن تطلق نيران المدافع على الأعداء في المرتفع. وأكثر ما نفعت في هذه اللحظة هي السفينة "طوابسه" التي اقتربت من اليابسة. وكانت السفينة "رس" توزع نيرانها على الجانبين.

ولم يقصّر الجنود الذين في المراكب، ولم ييخلوا بالذخيرة. وحفّرت طلقات المدافع الساحل: كانت تفصل التراب عن الحجر، وتدمر الغابة، ولم يكفّ

الشراكسة عن إطلاق النار رغم أن الدخان غطى الموقع كله.

كنا نستطيع طوال وجودنا على الشاطئ الاختباء وراء الأحجار وغيرها. والآن نحن في المراكب مرصوصين. واستفاد الشراكسة من هذا الوضع فأوقعوا بنا خسائر كبيرة. وكان القتلى أكثر من الجرحى. ولم نتوقف نحن عن إطلاق النار ريثما ابتعد المركب الكبير الذي نستقلّه عن الشاطئ. وكانوا هم يرموننا أيضاً. وأصيب الجندي الذي على يساري في جبينه ففقدى دون أن ينبس ببنت شفة. وبعده سقط جندي آخر على رجليّ. وأنّ الجندي الشاب الذي على يميني، ثم هالك. كان قائد قوات الإنزال في مركبنا، وما يزال، يُصدر أوامره الضرورية إلى السرية التي ما تزال على الشاطئ. ولهذا السبب لم نكن نحن قادرين على الابتعاد في عُرض البحر في حين كانت المراكب الأخرى ابتعدت.

لا أتذكر إن كنت جالساً وظهري إلى العدو، ولكن حين أتذكر ما جرى تخطر لي رغماً عني مثل هذه الأفكار: "مرعبٌ أن تنظر في عين من يسلم الروح". وأنا كنت في مثل هذا الموقف ولا أعرف السبب. غير أنني لم أكن أريد أن تصيبني الطلقة في جبرني أو في صدري. لا بد أنني كنت أفكر في ذلك الوقت قائلاً في نفسي: "إن كان لا بد أن تصيبني الطلقة فلنصيبني في مؤخرة رأسي أو في ظهري، سيكون هذا أسهل عليّ".

كانت الطلقات تقع في الماء من أمامي ومن ورائي ومن الجانبين مصفرة. وتثقب جانب المركب الأيسر بالرصاص. ولحظة الموت حاضرة تأتي من كل مكان. والجنود يقعون في أسفل المركب وهم يثنون.

أحدهم يقول لي:

- ازحف إلى جهتي.

وهو طبيب وحدتنا. لا أستطيع الحركة دُعك من الزحف. الجثث تغطي

جسدي.

كان الشراكسة يركزون رميهم على المراكب البيضاء فكانت خسائرها أكثر. وحين قُتل موجّه الدفة حلّ محلّه الفني الآخر بيريتيتكين. وجرح موجّه مركب آخر هو وريادكين. وحين شرع كوزلينك بعد وريادكين بقيادة المركب جُرحت يده أيضاً. ولولا أن الزورق البخاري الذي يُقلّ البحّارة اقترب وساعد الجنود، حين قُتل جميع قادة أحد المراكب الكبيرة، لكان صعباً التنبؤ بما سيحدث لهم. كان الشراكسة يرون المراكب تسير قريباً من الساحل فيجرون. وأحياناً كانت السفن تقصف هؤلاء بالمدافع. ولكننا لم نرها صرعت أكثر من فارسين. كان عدد الفرسان الذين يطاردوننا من على الساحل في حدود خمسمئة.

من جهتنا خسرنا سبعين جندياً. ومن بين هؤلاء كان الضباط الكبار الثلاثة. وخسر الشراكسة خمسين بين قتيل وجريح. ومع أن خسائرنا كانت أكبر فقد كان لنا ما يرفع من معنوياتنا. انطلقنا من الجهة التي لم يتوقعها الشراكسة منا وفاجأناهم بالهجوم. ولو عرف هؤلاء نوايانا قبل يوم لربما لما عاد أحد من السرايا الثلاث سالمًا.

بعد الظهر، وفي تمام الساعة الرابعة، وصلنا إلى غاغرا. وهناك دفنّا قتلتنا، وأودعنا الجرحى المشفى. وتوجهت سفينة الشحن ألبروس دون تأخر إلى سوخومي. ووصلت في الصباح التالي إليها. وأنا ركبت في الحادية عشرة ليلاً إلى طوابسه. ولم أتم لأنه وجب عليّ قضاء الليل مع الضباط الجرحى. وفي الثانية عشرة من اليوم التالي وصلنا إلى سوخومي..."

يَمَ يمكن أن تعلق على هذه الأحداث؟ نحن من عليه تفسيرها؟ أهنالك تاريخ عادل؟..

الفصل الأربعون

مع أن الإهانة التي لحقت بالأبراخ والشابسغ والوبيخ في شأن مجلسهم صعبة التحمل فقد جابه هؤلاء جيش القيصر المكون من ثلاثمئة ألف جندي مدججين بالسلاح¹، قائلين وهم يتراجعون نحو البحر الأسود يائسين دون معين، والدول التي كانت تؤلبهم تخلّت عنهم، وموتاهم وجرحاهم يثقلون عليهم، وقراهم تحرق على مرأى منهم: "لَمَّا لم يكن هناك مَوْتَتان فليمت الإنسان بشجاعة، فإما أن نموت وإما أن نموت".

- إلى أين تذهب يا بكر قبل طلوع الفجر؟ - سألت جانشر الرجل الذي كان يُسرج حصانه، وأضافت بحذر: - وجرحك لم يشف تماماً.
- وهل بقي الآن قبل الفجر، وبعد الفجر... - غمغم بكر، وردّ على المرأة: ألا تسمعين قصف المدافع؟ أتريديني أن أقيم في القرية وحيداً بين النساء؟..
وها هو جارنا محمد لم يتأخر. - ثم أضاف بصوت اللطف: - مصيرنا مصير رجال القرية. وبيت براعنه لم يبق فيه رجل. انتبهوا إلى أنفسكم. وحفيدانا الصغيران عانقيهما نيابة عني... - تألم قلب بكر لأنه لم يستطع الوفاء بنذره

¹ "... حشدنا في غرب القفقاس جيشاً يمكنه أن يحتل العالم من مصر إلى اليابان، قوامه 280 ألف جندي مدججين بالسلاح. - يكتب لاحقاً الجنرال ر. أ. فاديوف في كتابه "حرب القفقاس" - كان علينا من أجل امتلاك البحر الأسود إخضاع الشراكسة فرادى بالقوة. كان من الواجب ليصبح الساحل الشرقي للبحر الأسود أرضاً روسية لإخلاء المنطقة من الشراكسة. ولا بد أن يلقي مَنْ عنده مثلُ هذا الهدف مجاهدة. ولذلك حاربنا مُضاعفين قواتنا من أجل إخلاء المنطقة من الشراكسة. كان الكونت إيدوكيموف قد قال وهو يلتزم بهذه المهمة: "أعدّ نفسي لا أملك الحرية في تنفيذ ما يريد أي جبلي قبل أن أحقق لروسيا آخر هدف" وهذا ما حدث..." المؤلف.

أن يصحب نفسي إلى قبر جدة هذين الحفيدين. وعاهد نفسه أن يحقق نذره متى عاد.

- سأحقق لك هذا يا بكر، فلا تقلق. ونحن مصيرنا مصير القرية. - أمسكت جانشر بلجام الحصان ليتمكن زوجها من الركوب مع أنها ارتعبت لما سمعته. لم يلتق بكر وجماعته وهم خارجون من القرية بأي رجل بل بأي امرأة. بدت القرية مهجورة بلا أناس لولا أن الوقت مبكر جداً. ومن سيؤذن لصلاة الصبح؟ والكلاب والمواشي؟ لم تكن أصوات هذه أيضاً تُسمع. وخرّ "فُجيس"¹ الذي كان يأتي بالإجاص يجري بين ضفتيه صامتاً. والسماء التي لا تدوم فيها الجوارح الجافلة تزحف فيها الآن بضع سحب بيضاء بلا مبالاة. وتهب ريح تصدر منها رائحة حريق الحرب فوق قمم الجبال.

- ما وُضِعَ رجلك يا محمد؟ - سأل بكرٌ الفارسَ الذي على يساره عسى أن يرفع من روحه المعنوية.

- لم أعد في حاجة إلى عصا والدك فأرسلتها إليك قبل أيام. - أجاب محمد العجوزَ كأنه غير عابئ بحال رجله، وسأله بدوره: وأنت يا بكر، ما حالك؟ - سأقول لك حالي يا جار متى عرفتَ أيّ كتفٍ من كتفيّ متهدّل - مزح بكر مع رفيقه الشاب، ولم يستطع أن يكتفم ما يزعجه: - نحن لسنا مشكلة، نعرف لماذا ركبنا وأين نذهب، المشكلة هي من تركناهم في القرية من مسنين ونساء وأطفال لا يعرفون ما ينتظرهم.

لحظة ارتقاء بكر وصحبه مرتفع "فُجيس" سُمع وقعُ حوافر خيل. تدافع قرابة مئة فارس أبزأخي إلى مخرج الغابة التي في المنخفض، والتحقوا بالجماعة. وبعدهما

¹ اسم النهر يعني ماء الإجاص.

جَزَوْا مدة سأل بكرُ الفارسَ الشاب الذي حاذاه:

- سلاحك سلاحِي يا ولدي؛ أين نحن ماضون؟

- جيش العدو يتجه إلى مرتفعنا.

- أسمع يا محمد؟ اتبعني يا ولدي! - قال بكر إلى مَنْ وراءه وحثَّ حصانه.

وحين صاروا على ظهر المرتفع الواسع رأوا عليه قرابة خمسين فارساً قوزاقياً لم يُجابهوا الأبراخ الشاهرين سيوفهم بل التجؤوا إلى مخرج الغابة. والأبراخ توقفوا ولم يحاولوا مطاردتهم. ولكن المدافع الروسية بدأت فجأة تقصفهم. والفرسان الأبراخ قبل أن يجدوا الوقت ليعودوا إلى رشدهم هاجمهم الفرسان القوزاق من الأجناب والخلف. وهجم جيش المشاة المعادي.

- أيها الأبراخ! الله معنا، لا تيأسوا! - أصدر بلاخوه مزحِبَ أمراً قصيراً إلى مرؤوسيه الفرسان: - انقسموا إلى ثلاث مجموعات، وجابهوا الكفار. الأبراخ ليس جباناً!

- بدلاً من جيش المشاة دعونا نشنت فرسان القوزاق كأننا مرتعبون، سيكون أمرهم سهلاً. حين جرى مرزخوي بكر ناقضاً أمر بلاخوه بدأ فرسان القوزاق الذين لم يفهموا ما حدث، والذين تفرقوا يجابهون الأبراخ فرداً. ووجب على الطرفين التراجع متكبدين الخسائر.

اقترَب مزحِب وبيده السرج واللجام اللذان انتزعهما من الحصان الصريع من بكر، وصارحه غير قادر على ضبط نفسه:

- يا مرزخوي، ألقيت في جيشي الخيَال الرعب فبدّدته!

- يا ولد - قال بكر دون أن يرفع عينيه عن الجثث الثلاث أمامه - احذر مما تقول! ألا أنك تستقل هؤلاء الثلاثة القتلى؟ - الرصاص يستوي عنده السيف الفولاذي والشجاعة والجبن. هيا لا تدينوا بلاخوه - قال لمن هم أصغر منه

والحيطون به - ابجثوا له عن حصان قوزاقي... وجثث القوزاق اتركوها لأصحابها يجدوها بغضّ النظر عن كونهم كفاراً... يا حسرتي يا محمد التعيس يا ولدي. - يمسح بكر بيده على من غُطّي بكساء أسود قصير - أي مصيبة حلت بنا؟ لم يجفّ تراب قبر أبيك دداي المسكين بعد... بأي وجه سأحملك إلى أمك التعيسة؟!

- إن سمحت لي يا مزحّب يا قائد فرساننا - قال غُمشت مولى لبلاخوه - لن نجعل الأخ الأكبر لمحمد أفندي يذهب وحيداً بالجثمان إلى القرية. سأشيّعه، وسنخبر القرى المجاورة لأن من صارت أرضه قبراً له لم يكن محروماً من الرجولة. - وبعدما مشت جماعة بكر التي كانت تنقل الجثمان على التابوت الخاص بالحصان إلى تامبي حبله قليلاً لم يستطع غُمشت إلا أن ييوح بما كان يثقل عليه: - لا تلم بلاخوه مزحّب الذي جابهك متناسياً تقدّمك في السن يا بكر. ونحن لم نعد نستطيع لجمه بعدما قتل الكفار والده.

- وهل فارق باتر الحياة؟ ومتى حدث هذا؟

- قبل أسبوع على الأكثر... مزقته قذيفة مدفع في سهل "بفاف" فأعدنا بجميع جثمانه بصعوبة.

- ليجعله الله من أهل الجنة! باتر رجلٌ أبزأخي حقيقي! لو عرفتُ لعزّيتُ مزحّب. ماذا بإمكاننا أن نقدم له وأنا لم أخالط الناس في الشهرين الماضيين... - كنتُ سمعتُ من أخيك الأصغر محمد أفندي أنك تعاني من جرح بليغ يا كبير... هذا هو الأمر يا بكر، الكفار لم يتركوا بيدنا شيئاً. ما فعلوه بنا قبل أيام لا يجوز أن نغفره لهم أبداً. هاجمونا من جهة البحر، وأحرقوا مجلسنا، أملكنا الوحيد.

أوقف مرزخوي بكر الحصان بحكّمة اللجام وكأنه يدين أخاه بالخبر المأسوي

الذي سمعه. وضربه بعقبه فقفز الحصان.

- أيُّ يوم منحوس يومي هذا! - قال وقد بلغ الحزن أعماقه، وسأل غُمشت

مولي وكأنه زعيم الأبراخ: - ماذا سنفعل الآن يا مولي؟

- لا داعي لليأس يا بكر كما يقول أخوك الأصغر محمد أمين، الله الأحد

سنُدنا، وهو سيحمينا. لن نسمح للكفار أن يرتقوا مرتفع قجيس والله معنا.

على ما أرى، لم تقابل أخاك منذ زمن طويل.

- منذ أن عاد بي إلى البيت جريحاً.

- وهل تعرف أين هو الآن؟

- ربما كان يحارب حيث رجال الأبراخ.

- لا يا بكر، لا. - قال غُمشت بصوت أكثر خفاءً - وكيف يكون موفد

الله الأحد في ساحة الحرب! لن أخفي عنك، أليس أخاك، لأني من بضعة

الأشخاص المطلعين على أخباره: ذهب إلى الموفدِ الأول لله، سلطانِ الأتراك.

- من أجل أن يجعلهم يلومون من أحرق المجلس!

- من أجل أن يساعدونا بالجيش والأسلحة.

- أيُّ أناس زعماء الأبراخ! هل عقولهم ساهية عما يحدث؟ - اشتعل بكر

غضباً على الزعماء، شاملاً فيهم غُمشت الذي يوافقهم: ما الفائدة من أن

تتوسل إلى السلطان الذي يحجزون سفنه في البحر؟!

- يا بكر - ارتعب غُمشت لما سمع، - لم تقل شيئاً يتعلق بزعمائنا، ولا أنا

سمعت... وهم في الأصل ليسوا أصحاباً وإن كتموا... يا بكر، نحن أملنا بعد

الله في هذه اللحظة، هو أخوك الأصغر أفندي الأبراخ. أندم على أنني لم

أستجب له حين طلب مني مرافقته إلى تركيا. لا يا كبير، لا. أنا أتأمل أخباراً

سارة من محمد الرجل اللبيب الذي حبب الله إليه الإسلام. ولست وحدي...

- كفى يا عُمشت! - صرخ بكر بصوت عالٍ على المرائي الذي لا يحبه قائلاً
في نفسه "وهل تعرف أخي أفضل مما أعرفه؟" ثم لطفه: - ساحني، ليس من
عادتي أن أنهر في حضرة جثمان - وحين سأل عن الجثمانين المحمولين في عربة
قادمة على الطريق ووراءها ثلاثة فرسان، أجبر الاسمان اللذان سمعهما بكر على
الترجل: كانا براغُنه إسلام، وصهره براغُنه عُجيس.

الفصل الحادي والأربعون

الأبزاخ تبدو كخلية نحل مكسورة. في كل مكان تصفر الطلقات في الهواء.
وتصلّ السيوف. وتقصف المدافع. والإنسان الظالم ليس عليه لجام: يصرع من
يصل إليه، ويقتلعه، ويتركه بلا روح.

لا تميز السحاب من الدخان على قمم الجبال. والقرى التي لم يستطع رجال
الأبزاخ حمايتها، بعدما تعهدوا بها، تحترق. ومُسِنُو هذه القرى، ونساؤها
وأطفالهنّ بأيديهن أو على صدورهن، هجروها ويبحثون عن مأمّن لأرواحهم.
الجيش الروسي الذي اكتسب الخبرة في حروب الداغستان والشيشان
والقبرتاي، يحارب الآن في الأبزاخ ومهمته الوصول إلى البحر الأسود غير عابئ
بالخسائر التي يتكبدها.

ولم يكن أخو ألكسندر الثاني ميخائيل رومانوف الذي وُضعت القفقاس في
يده، وأوكلت إليه قيادة كل الجيوش الروسية فيها، يسمح لهذه الجيوش أن
تشكّ في أن عليها إنهاء حرب القفقاس. ولم يكن أمثال الجنرال إفدوكيموف
والأدميرال لازاريف يألون جهداً في البر والبحر لتقريب هذه النهاية. ونداء
المجلس وإن لم يُسمع في أنحاء الدنيا، فبعد إحراقه، وعلى مبدأ إن كانت يدك
مُدھنة فامسح بها رأسك، بمعنى لا أحد غيرك ينفعك، وجب على الأبزاخ أن
يحموا أرضهم وحرّيتهم برجولتهم التي لن تنفعهم. ومع ذلك فإنهم يأملون،

يعيشون على الأمل الذي لا نهاية له، قائلين ألا يمكن لأحد بعد الله أن يحميننا، أن يفهمنا، يمدّ يده إلينا، غير مدركين أن نهايتهم في البحر الذي يدفعونهم إليه، وأنهم سيملحون ماء هذا البحر بدموعهم، وأن عظامهم ستتحول إلى حصى فيه.

- ألم تعد تلوح الآن أي بارقة أمل؟ - سأل بلاخوه مزحج الذي كان يجفف ساعديه وساقيه بعد الضوء على شمس الشتاء المبكر.

- ولم لا؟ - قال كوبا هارون - أملنا في الله الذي سنقف في حضرته نصلي الظهر، وبعده برج وتسي ومرزخوي محمد أملنا.

- نعم، نعم. - وافق غُمشت مولى كوبا هارون الذي امتدح زعماء الأبراخ. - زعمائنا، بعد الله الأحد، معقد أملنا، أنت تفكر جيداً يا جبار، لا تسمح لنفسك بالخطأ.

- إن تمدح زعمائنا - ابتسم بلاخوه مزحج ذو اللحية والشوارب السوداء - فاعتبر نفسك أخطأت يا مولى.

- لا يا بلاخوه، لم يسمعك أحدٌ غيرُ الله - قال غُمشت من خارج قلبه كأنه ارتعب من الفكرة، ووجد لنفسه ذريعة - لا تدعونا نتكلم بسوء على زعاماتنا في الوقت الذي سنمثل فيه أمام الله بقلوب صافية... سمعتُ أن محمد أفندي جاء من تركيا بأخبار طيبة.

- وهذا الذي تأتي على ذكره لا أريد البتة أن أسمع اسمه - تتمم بلاخوه - لم نر جديداً عليه بعدما غاب شهراً كاملاً في تركيا إلا الطربوش المغربي الأحمر اللماع على رأسه.

- لا، لا يا مزحج - لم يغيّر غُمشت رأيه - سمعته بأذني يتكلم على سفينة السلاح التي سيرسلونها من هناك.

- وأي سلاح؟ - سأل بلا اهتمام كوبا هارون الذي كان يفرش كساءه القصير سجادة صلاة.

- وماذا سيكون؟ ألم أقل إنه سلاح، سلاح نرفعه في وجه الكفار.

- إن كان مثل البارود والسلاح الصديء المرسل إلينا قبل أعوام فسأعيده إليهم، ليَهْنُؤُوا به! - قال بلاخوه، ثم أضاف: - حاجتنا إلى أمثال المدافع الروسية.

- ألا يمكن أن يكون ما سيأتوننا به كمدافع الكفار...

- بقينا نتوقع هذا حتى صرنا كمن انثكبوا بكلبهم... - غمغم كوبا.

- مهلاً يا مزحِب ويا هارون لا تخطئاً، لا تأثماً ولا تجلباً لنفسيكما الذنب - اسنعلج غُمشت لِمَا رأى دون أن يعبأ بما قيل - ليس مندوباً أن تقفا أمام الله والسلاح إلى جنبيكما!

- أيعقل أن يُكره أداء الصلاة بالسلاح وأنت في حرب؟! حسناً لن نقف أمام الله العزيز مسلحين - حين خلع بلاخوه مزحِب الخنجر والسيف والزنار، ووضعها على مسافة من يده اليمنى عند الضرورة فعل رفيقه ما فعل. وحين انتهوا من صلاتهم حمل عدم الثقة بلاخوه الذي مرَّغ القوزاق شفّتيه بلحم الخنزير مرة وهو أسير عندهم على القول: - عجيبٌ أن الكفار لم ينقضوا صلاتنا هذه المرة أيضاً. يتظاهرون بأنهم يتناسون ظلمهم فيتحلون بشيء من الإنسانية... هذه هي الحسنة الوحيدة التي أسداها إلينا الجنرال إوداكيم¹ ولكن لو قابلته في ساحة الحرب ومعه من أحرق مجلسنا، أليس نسبُه قَلْبِيَاكِرِي، لما رحمته كرمي لهذه الحسنة.

- والجنرال فيليبسون؟ - سأل أحد الذين كانوا يعيدون السلاح إلى أجنابهم.

¹ النطق الأديغي لاسم إيدوكيموف.

- ولم يكن هذا بشاريه المتهدلين إنساناً صالحاً، كان خبيثاً ولكنه لم يكن عديم الرحمة.

- ورغم خبثه استطاع النائب أن يجعله يتصرف كما يريد... - قال غيره.

- أستمع إليكم أيها الأبراخ، ساحوني، فأرانا جميعنا، والله، عديمي الملاحظة.

- قال عُمشت وهو يلبس قبعته المدببة ويخلعها - من كان يقود كل من ذكرتم أسماءهم من الجنرالات وغيرهم والنائب، ومن يقودهم الآن، هو من يريد إخضاعنا بالسلاح، القيصر وأخوه.

- اسمع ماذا يقول هذا، وإلى أين يصل عقله - قال بلاخوه بين السخرية والمزاح، ثم امتدحه مغطياً مبالغته: - لو كان صديقنا الأصيل عُمشت مولى معاوناً لبرج، أقول الحق، بدلاً من تسي لكان نفعنا أكثر منه.

- المهمة التي أوكلتها إليّ وأنت تمزج مهمة صعبة. ولكن هل قليل ما رافقت وجهاءنا؟ وهل قليل ما كنت موضع ثقتهم؟ وهل اكتسبت الحكمة من جماعة برج دون فائدة؟... ونحن يمكننا أن نحل موضوعاً ما يا بلاخوه، وتنفع فيه رجولتنا. ولكن لا أريد أن يسمع تسي حاترباي ما نقوله.

- ما أكثر ما تردد يا عُمشت "رافقتهم" و"كنت موضع ثقتهم"... هل قذفوك علينا ليتخلصوا منك؟ - سأل بلاخوه وسخريته أشد وضوحاً الآن.

- لا يا مزح، لا. - أجاب عُمشت مخفياً اعتباره تلمييحهم إهانته: - لم يحدث بيننا مثل هذا الجفاء. ولكن نازجفاء الزعيمين تحرقك ولو كنت بعيداً عنهما، فكيف إذا كنت بينهما... وإن شئت الحقيقة يا أبناء قريتي فأنا لا أدين أيّاً منهما.

- أتوسع خلية النحل لجماعتين؟

- أليس هذا يا مزح ما أقول؟!

- قل إن كان الوضع هكذا! - تحدى تسي الأمير حجمقوه والقيصر، ثم حملنا نحن الأبراخ عاقبة إساءته لهما. أين هو الآن؟

- وأين سيكون؟ هناك في تلك الربوة - أطلقت المدافع معاً من جهة الراية التي أشار إليها غُمشت. ثم امتدح بعدما أفاق من سببوا له هذا الذعر: - عفارم أيها الكفار، سمحتم لنا أن نصلّي صلاة الظهر في سكينة.

لم يتحرك مشاة الروس على عاداتهم بعد كل تمهيد مدفعي وإن قصفوا أماكن متعددة. والأبراخ الذين يقلون كثيراً عن العدو مقيمون على المرتفع، يتراجعون دون قلق زائد، جاهزين للانتقال إلى مكان آخر. يتطلعون إلى السماء، ليس إلى جهة العدو: ينتظرون الشتاء الذي سيكبح جيش العدو شهرين أو ثلاثة، ينتظرون الثلج إن لم يسقط الليلة فغداً أو بعد غد.

- وبعد الشتاء؟ ما مصيرنا؟ - لا يتوقف غُمشت الذي قلبه في القرية عن السؤال.

- ألن يفكر زعمائنا إلى وقتها في مخرج لنا؟ - يسأل كوبا هارون متوجساً مما يقول.

- أمّن بعد ما فوّتنا من أيدينا رأس حصان السلام نحاول الإمساك بذنبه الذي سيصفعنا به؟! يتسم برسر زوال ساخراً مما سمع.

- إذن - تدخل في الحديث كوبا هارون يريد أن يعرف إن كان ما يشغل باله حقيقياً - سأتكلم على موضوع سمعت به، ولا أعرفه: هل قال الجنرال إودكيم

حين ذهب برج يتوسل السلام منه: اتركوا البلاد وهاجروا إلى تركيا؟

- أيها الأبراخ - غضب بلاخوه مزحّب: - لا تدعونا نقول ما لا يليق بنا ولا فائدة فيه! - ثم أنهى بعد سكتة بصوت ألطف: - منذ زمن بعيد يقترح إودكيم طريق البحر. ولكنني أشهد على أن برج حسن لن يتصرف هذا التصرف

المهين. - وأضاف لنفسه: "وإن قلت هذا فما يُدريني ما سيتصرف هؤلاء؟" ثم نهر نفسه مُسمِعاً الآخرين: - أكيد هذا لن يحدث! من المعيب أن تُشيع عن هذا الرجل الممتاز مثل هذا. ندمر أنفسنا بأنفسنا مرددين مثل هذا الكلام، متآمرين أحدنا على الآخر... ماذا قلت يا عُمشت؟ هل قلت: هذا ليس مستحيلاً؟

- لم أقل شيئاً يا مزحِب... ما أشد ما تعلّقت بكلامي اليوم!
- هكذا؟ إذن دعونا نغني من أغاني الأجداد أغنية نُشعر فيها القوزاق أننا لم نفقد الأمل.

- وهل يمكن أن تكون "ذِكراً"؟ - أسرع عُمشت بما يتقنه هو.
- ويمكن أن يكون أحد الأذكار التي أنزلها الله علينا، ولكن أليس الأفضل أن يكون بلغتنا الأبخاخ من أجل أن نعيش أرواحنا قليلاً؟ هات يا برسر أغنية "قوجه بردقوه محمت". ونحن سنردد معك موقعين الرعب في قلوب المدفعيين القوزاق.

- الرعد يدوي في طوابسه - بدأ برسر الأغنية، وردد معه الآخرون بعض الوقت، ولكن القوزاق كمن كانوا ينتظرونها بدؤوا يرددون أغنية قوزاقية، فصدع صدى الأغنيتين غير المتجانستين، المتنافرتين جبال الأبخاخ. وبلاخوه وبرسر وكوبا يطلقون النار من مسدساتهم في الهواء، وفي اللحظة نفسها يجيب الآخرون بمثلها.

لا هي حرب، ولا هي تسليية...

- أسرع يا مرثّق إليهم - يقول تسي الماشي وراء العربة المحمّلة بالجثة لأفمُعَت
- ليتوقف الأبخاخ عن الغناء! عيب أن تغني على روح هذا المرحوم الذي نعود بجثمانه.

- أيها الأبراخ - قال أقمعت للأبراخ المجتمعين الذين تعرّف عليهم - نعود إلى قريبتكم برجل مات قبل أوانه... هو أزشت ابن برج حسن. صرخته قذيفة مدفع.

- ما ألم خبر هذه المصيبة الذي أسمع! - قفز غُمشت وأسرع لاستقبال العربية، وهو ييكي منكباً على الجثمان المغطى بسترة قصيرة سوداء: - أيّ مأساة أن ترحل عنا في هذه السن! وكيف سيعيش والدك التعيش بعد هذه المأساة؟ يا أزشت ما هذه الحرب المنحوسة التي تسببنا لأنفسنا فيها... لا يبقى في الأبراخ من يرتدي قبعات. وأنت لحقت بهم يا أزشت!

- أبعدوا هذا عن الجثمان... - غمغم تسي لا يُعجبه ما يسمع، وعَنقه: - أيّ مناحة هذه يا غُمشت على رأس المرحوم؟ تحلّ بشيء من الرجولة... مصير برج هو مصير الأبراخ. أسرعوا وأخبروا أسرة المرحوم. واستدعوا برج حسن الذي يحارب في جبهة قجيس.

ركب بلاخوه مزحِب حالاً إلى الجهة التي حددها تسي. ووجد برج حسن، الذي سأل حالما سمع اسم ابنه:

- أجريح هو أم ميت؟

- جثمان ابنك في بيتك يا حسن بي...

قعد برج حسن على جذع شجرة، وقال بعد سكتة:

- لم نشهد فرح ابنا، مثله مثل العديد من شباب الأبراخ... وأصحابي كلهم مثلي. لا يؤاخذني كبار آل برج! ليدفنوا الولد، وليس عندي غيرُ هذا أقوله يا مزحِب.

الفصل الثاني والأربعون

- لا يجوز أن يعرف ما أقوله غيري وغيرك لأني سأسافر غداً أو بعد غد -
أكد الجنرال إيدوكيموف على المقدم سيرديوكوف - على طريق مايقواب حتى
بيتاغورسك، من يعرف، قد يقتنصنا المتمردون الشراكسة، أرسلوا مجموعات
الفرسان القوزاق إلى كل فيرست كأنهم يتمشون. وأكرر كلامي: ليكن القوزاق
منتشرين هكذا كيفما اتفق على الطريق.

ثم قال بعد قليل لنفسه والعتاب يغلبه "أنا أنتظر من الممثل الجديد للقيصر في
تفليس أن يدعوني، وأطلععه على سير أعمالنا، وهو آخر دعوته إلى أسوأ وقت
في هذه الناحية من حيث ثدرة الطرق، والوحل يغطيها. كان الأنسب أن يأتي،
وهو قائد المنطقة، وقد ترفع إلى رتبة أعلى، إلى حيث المعارك الطاحنة...
القيصرة يبدؤون الحروب، ثم يلقون عبئها علينا. نُجرح فيها ونُقتل، ينسبون
مفاخر النصر إلى أنفسهم، ويدينوننا على الأخطاء والنواقص. الحق أن هذا
الكلام لا ينطبق على قيصرنا: لم ينسني، رفع رتبتي، وأهداني هدايا قيمة،
وشرفني، أنا القوزاقي العامي، بلقب الكونت النادر. وقد أتى إلى هنا، قاطعاً
كل هذه المسافة، من أجل الاطلاع على أحوالنا، ومقابلة الشراكسة... ولكنه
رأس علينا من لا شأن له بنا، ومن يحمل أعلى الرتب، ليقاسمنا وإن لم يستحق،
انتصارنا. ما العمل؟ هكذا تجري الأمور دائماً: تزرع الشجرة، وتنميتها بعنايتك،
ومن سيأكل ثمارها حين تنضج جاهزون... حسناً، لينسب أيُّ كان المديح
لنفسه، ولكن ليتنا ننتهي من حرب القفقاس التي أصابتنا بالعمى والصمم،
ونستريح..."

مع أن إيدوكيموف كان يفكر بهذه الطريقة فإن المستوطنات تدشن في كل
مكان، والعمال المدنيون الذين يشغلونهم منتشرون في الغابات، على مرأى من

عينيه. ولكن ما كان يشغل باله أكثر من غيره أمر آخر: كيف سيستقبله ممثل القيصر في القفقاس؟ ماذا سيقول له، وما المهمات التي سيكلفه بها؟ أيمن أن يقول له، كما يفعل كل من يستلم منصباً جديداً، كفاك واقعد في بيتك، ويُجَلِّ أحد الجنرالات المقربين منه محله؟" يمكنه أن يفعل مثل هذا ما دمنا أوصلنا حرب القفقاس التي استنزفت قواي إلى خواتيمها. ها هو يرمولوف الذي أخضع القبرتاي، دُعَاً من زميله كاسريف، من يتذكرهما الآن؟ ولا يتذكر أحد خلفه بارياتينسك إن كان ما يزال حياً... والآخر زاس، فيليامينوف، وفيليبسون، الجنرالات كذلك... أيمن أن يفعل بي هذا؟ إن فعل بي هذا فلن يقبل منه أخوه الأكبر القيصر الذي ثمن انتصاراتي. ومع ذلك لا يمكن التنبؤ بما يدبره لك من أنت في خدمتهم... لا تسمح للخواطر المزعجة يا جنرال أن تغزو رأسك. هم ما زالوا محتاجين إليّ إلى أن أسوق الشراكسة إلى ساحل البحر. ماذا نقول؟ "لا تُبدّل الأحصنة على المخاضة".

حين ترك إفدوكيموف وراءه حوالي مئة فيرست متجاوزاً إلى يساره قرية إرمل حبله، واستدارت عربته بسرعة، خرج من أفكاره. لا شتاء في هذه المنطقة بالقياس إلى مناطق الأبراخ إلا الرياح الشديدة. ويدلك على أنها أثلجت كتل الثلج المتجمد هنا وهناك على جانبي طريق عربته. قمم الجبال البيضاء في الناحية التي يأتي منها متقابلة، وفي بيتاغورسك التي سيقضي ليله فيها يبدو جبل أوشحه مافه¹. الهواء البارد ينثر وقع حوافر القوزاق أمام العربة ووراءها.

¹ تعني الجبال المبارك أو جبل الخير، وهو المعروف خارج القفقاس باسم "ألبروس" عاشُرُ جبال العالم وثاني جبال أوربا ارتفاعاً 5642 متراً. ويرتبط اسمه ببعض الأساطير اليونانية كاسم بروميثيوس سارق النار المقيد إليه. يقابله في أساطير النار: نسرُن جاكه، أي نسرُن الملتهجي.

والجنرال الذي يغطي رأسه باللباد ورجله بجزمة دافئة لا يحس بالبرد. وما يُقلِّقه أكثر مما يريحه. ولكنه لن يتكاسل بحجة الشتاء في الأبراخ وصعوبة السير في جبالها. — العام المقبل 1864 سيكون ربيعُه آخر ربيع للحرب في القفقاس. وهذا ما سيقوله الجنرال إيدوكيموف لممثل القيصر حين يقابله.

استقبل ممثل القيصر في تفليس مرحباً الجنرال إيدوكيموف على غير ما توقَّعه الأخير. وحين سأل عن مسأله الحربية أجاب باختصار:

— في ربيع هذا العام يا سيادتكم سننتهي من حرب القفقاس.

— لو تحقق هذا لكان حسناً يا نيكولاي إيفانوفيتش. هذا أملنا فيك، قيصرنا المنير وأنا. قل إن كنت تريد شيئاً. نحن جاهزون لأي مساعدة.

— زيدوا عدد السفن التي ستنقل الشراكسة إلى تركيا — مرة أخرى لا يزال كلام إيدوكيموف مختصراً.

الفصل الثالث والأربعون

نهاية حرب القفقاس الدائرة في الشمال الغربي منها بدت للعيان، كما قال إيدوكيموف، في شتاء عام 1864. وفي كتاب الضابط دوخوفسكوي "جيش دوخوفسكي جنوب جبال القفقاس" يكتب كما يلي: "كان جيش دوخوفسكي جاهزاً للدخول في الحرب في 19 شباط عام 1864. وفي هذا الموعد ساهمت السرية الثالثة من الكتيبة القفقاسية الثانية، وسرية المشاة الخامسة، والكتائب الأولى والثانية والثالثة من جيش سيفاستوبولسكا، وسرية المشاة الخامسة. والكتيبة الأولى من جيش كوبان، والكتيبتان الثالثة والحادية والعشرون من المشاة، والكتيبتان الأولى والثانية من جيش البحر الأسود، والكتيبتان الأولى والثانية من جيش باكينسك، وجيش المدفعية التاسع عشر. وكتيبة القبرتاي المشاة، والقسم الثالث من جيش فرسان تفيرسكوي، وجيش

القبرتاى الرديف المؤلف من مئتي فارس.

الشراكسة الذين يرون جيشنا يرتعبون. يقولون إنه لا حصَرٌ لجيش قيصر الروس. وإذا نظرت من قمة الجبل رأيت من مسافة بضعة فيرستات الجيوش الروسية المتتابعة التي تقصد البحر الأسود.

كلما ارتقينا الجبل زاد عدد من يعترضوننا. وبدأ الفجر يحمل الثلج الرطب. والأديغي الراصد فوق شجرة كبيرة على الطريق الضيق تجمد من البرد، وتدلى رأسه الحليق على صدره، وقبعته أسفل الشجرة. والكساء الممزق ملفوف على الجسد المتجمد، وهو حافي القدمين. لا بد أنه من المستطلعين الذين يتابعوننا. وفي يوم واحد أحرقنا عشرات القرى الشركسية.

جاء وفد من الشابسغ برئاسة شاوه قاسبولت الذي هو من أشد الناس مدعاة للاحترام عندهم. كانوا يحاولون إثناء الحرب بالسلام لأنهم فهموا جيداً أن الحاكوف الشابسغ غير قادرين على مجابهتنا بالسلاح. وأوضح هذا اعتبارهم أراضيهم السابقة الممتدة حتى الشابسغ من أملاك القيصر، وتعهدهم بعدم المطالبة بها. وما يترجونه هو أن يرحلوا إلى تركيا مع أملاكهم الخفيفة دون اعتراض منا..."

بعد إحراق المجلس لم يستطع الأيزاخ والشابسغ والوييخ مهما فعلوا أن يتماسكوا. وظهر من الاجتماعات الثلاثة التي عقدوها تباعد المكونات الأديغية الثلاثة، وعدم تطابق آرائهم، وانعدام الثقة فيما بينهم.

ارتسم من جديد أمام عيني زان قاربتر الاجتماع الأخير الذي عقده في المرعى الذي يضم رماد المجلس. لم يحس والده سفربي، وهو الذي عاش حياته متأملاً إقامة المجلس، ساعياً وراء وحدة الأمة الأديغية، بالخلافات العرقية داخل الأديغة. وظلوا يستنون نزاع الأعراق من مسألة الأكبر عمراً والأصغر حتى

تصارعوا في الاجتماع. وقِيمُوا برج وتسي وهو نفسه على مستوى واحد في المهمة التي كلفهم الناس بها. واستطاع برج بصمته تجاوز مسألة الصلح التي طرحها قاربتر، وصار كل ما فعله بجمع المجلس بلا معنى. ومع أن قاربتر لا يعرف معنى الجبن فقد ركب اليوم غير قادر على البقاء في البيت بعدما أحس بالفزع.

ورغم أن طريق إيكاترنودار وأبنه خاليان اليوم فالدافع التي لم يحصل عليها الأديغة قَطَرها الروسُ عليهما أمس. ومشت عليهما جيوش المشاة والفرسان. والرسالة التي أرسلها بنفسه منذ شهرين إلى القيصر بقيت بلا جواب. قال قاربتر في نفسه: "يصبح ثرثاراً معنا إن أراد، ويصم أذنيه إن أراد، وإن كانت مصلحته في نقض كلامه نَقْضُهُ. يتهمون الجنرال إيدوكيموف بما جنى وما لم يجن ولكنه لم يتصرف نحو الأبراخ بما ليس للقيصر علمٌ به. وجائتُنا نحن؟ علام يتكنم هؤلاء معاً؟ ولستُ بريئاً من الموضوع، أَلستُ من أَمَلهم بالصلح مخفياً المسألة عن أبناء قومنا الشابِغ؟ يجري في هذه المسألة شيء لا أعرفه... ما العمل، وماذا نأمل؟ بإمكاننا مقاومة الغزو شهرين أو ثلاثة أيضاً، نلجهم على حساب ضحايانا... وماذا بعد؟.."

لم يستطع قاربتر أن يتجاوز مقبرة قُلمات التي تضم والده ووالدته. وقف بين القبرين وحمل إليهما الأسئلة نفسها. ولكنه خرج منها أيضاً دون جواب، اللهم إلا أنه نَفَس عن ضيقه.

في المساء حين بقيت الأسرة وحدها سألت المرأة السؤال نفسه وكأنها عرفت ما يغتلي في قلب زوجها:

- بإمكانكم يا قاربتر أن تتصدوا للروس الآن مرة أخرى، وتلجمو اندفاعهم مقابل خسائر بشرية كبيرة... وبعدها؟

- وأيُّ " بعدها" - أعاد قاربتر السؤال وكأن ما سألت عنه لم يكن في ذهنه،
مخفياً فرعه من السؤال. - وما هو " بعدها"؟

- ثم ماذا سيجري لنا نحن الأديغة؟ هل ما سيبقى لنا هو الهجرة إلى تركيا؟
الناس يُهرعون إلى الساحل ليلاً ونهاراً.

- لو عرفتُ ما ينتظر أسرتنا، دُعِكِ من الأديغة... - قابل قاربتر الزوجة
بنظرة لا تحمل جواباً.

- لو اتفقتم على مصالحة الروس، لو وافقتم الأمير حجمقوه، لسلم عرق
الأديغة، لا أسرتنا وحدها. وكان الطرفان شكراكم...

- تخطئين إن كنتِ تتأملين أن يشكركِ الروس الذين كنا، والدي وأنا، ضابطين
في جيشهم. - غضب قاربتر مما قيل له، - حتى لو صالحتُ هؤلاء خادماً
الأديغة، ولو عيشوني في الجنة، لن أسمح لهم أن يأخذوني إلى بطرسبورغ كما
فعل الشيخ شامل فيسخر الناس مني. أفضل الموت أو الهجرة إلى تركيا على
هذا الحلّ.

نظرت المرأة في وجه زوجها فِرعة.

واليوم ركب قاربتر إلى نواحي قرية باسْتُك لا يستطيع النوم. لم يبق في الشابسغ
طريق كبير أو صغير لا يصل إلى البحر الأسود. حقاً إن الإنسان المرتعب يجد
في نفسه قوة لم تكن عنده. الشابسغ الذين تجاوزوا مصادر عيشهم وحدود
إنسانيتهم لا يعرفون توقفاً ولا التفاتاً إلى وراء. كل الناس، من يستطيع ومن
لا يستطيع، صاروا على طريق تركيا. ومن لا يعرفون إن كانت تركيا قرية أم
بعيدة، وهل سيصلون إليها أم لا، أكثرُ ممن يعرفون. ولما كان الله على علم بما
جرى لهم فسيرحمهم وسيجدون في البلاد التي توجهوا إليها، وإن لم يعرفوا لغة
أهلها وطبائعهم وعاداتهم، الراحة والأمان؛ أليسوا من دين واحد؟!

وماذا عن الأرض التي حماها أصحابها قرونًا، والآن عاجزون عنها؟ هذه الجبال، والغابات، والحقول، والمراعي، والأراضي الملتفة حول المرتفعات، والقرى المبنية في السهول الضيقة، والمقابر؟ يتلو السؤال سؤال. ماذا ينتظر النازحين المهاجرين اضطراراً إلى بلاد غريبة؟ وإن قرر شخص أو أسرة الرحيل فالقرار مشكلة؛ في حال الضرورة إذا كنت فرداً أمكنك أن تخفي نفسك في أي زاوية. وقد تجد من يُشفق عليك. ولكن كم من الرحمة تحتاج البلاد الغريبة لتستقبل مئات الآلاف من المهاجرين! في مثل هذه الحالة حين يصبح هم كل واحد نفسه فحسب تتحول النوايا الطيبة إلى القسوة.

"ما كانت تتمناه روسيا تحقق لها تماماً" - قال قارباتر لنفسه - قال القيصر للأديغة يوماً: "إن كنتم لن تسمعوا أوامري فارحلوا إلى تركيا" كيف يمكن أن تقول مثل هذا الكلام القاطع أمام العالم؟ كيف تقول هذا على بلاد ليست لك، ولا علم لها بما تقول؟ هذا يبين بوضوح وجود اتفاق سري بين روسيا وتركيا¹. ويشهد على ذلك إمدادهم بالسفن.

¹ يكتب د. س. نوفيكوف القائم بالأعمال الروسي في تركيا إلى كارسييف قائد مركز تأديب الجيش القفقاسي في 5 كانون الأول عام 1863 بشأن نهاية الاتفاق الذي كان لروسيا مع الحكومة التركية بشأن تهجير الأديغة إلى تركيا:

"... تحدث الوزراء الأتراك في مجلسهم في هذا الموضوع. وقد أبلغني وزير الشؤون الخارجية التركي علي باشا القرار الذي صدر عن المجلس. وافقت تركيا على استقبال الجلبين القفقاسيين. ولكنه يلّمح إلى أنه إذا كان عدد هؤلاء كثيراً جداً فإن النفقات ستزيد. ثم يجب أن تكون تركيا هي من ستختار الأماكن التي سيتجهون إليها.

وسُجبر على ترك أرضك ولو لم ترغب. يقال إن العقاب إن رفرف كثيراً انكسر جناحه. كلّفنا أنفسنا سنواتٍ طويلةً شاقّة من الجهد في مهمة لسنا قادرين عليها، مأخوذين بالمديح، خائفين أن تهان رجولتنا. دمرنا أنفسنا بأنفسنا ونحن نتجادل ونتعاتب. لم يظهر بيننا من يقول لمن ركبوا طريق تركيا: ما تفعلونه عيب، لا تتدعوا أنفسكم . وأنا لم يعد لي ولأسرتي طريق غير تركيا" ما رآه قاربتر على طريق باستوك يجرح القلب. لن تتحمل ولو كان قلبك من حجر؛ سينفجر. الجثامين التي لم تُدفن، والخيول والمواشي الأخرى النافقة على جنبات الطرق. والريح تنثر روائحها الواخزة. الناس الذين أفقدهم جيشُ الأعداء المجرم ومشاؤُ الطريق الشفقة لم يبق لهم ما يفكرون فيه إلا النجاة بأنفسهم: يتنازعون طريق الجبل الضيق، ومن تخرب عربته يُدحرجونها إلى الهاوية، ويتشاجرون، ويتجادلون. لن تعرف أن هؤلاء هم من كانوا يجابهون العدو بالأمس.

"أيّ مأساة أصابتنا نحن الأديغة؟" - عصر الألم قلب زان قاربتر، فانحرف عن طريق عربات الثيران غير قادر على رؤية منظر المتسابقين إلى البحر، ورجع من طريق الفرسان الأقصر إلى البيت. وحين وصل مساء إلى البيت قال لامرأته: - لا يجوز أن نتأخر أكثر مما تأخرنا. سنرحل إلى تركيا! مصيرنا مصيرٌ غيرنا.

أريد أن أضيف ثانية أني لم أجد جواباً حين سألتني علي باشا عن عدد المهاجرين. الحق أني لم أعرف بَم أرد عليه. ولكنه ارتعب حين قلت له، من أجل طمأنته، إنهم خمسون ألفاً. لن أكتمك أن تركيا غير مرتاحة للأمر الذي أصدرتموه بترحيل الأديغة إلى هذه البلاد. ولذا لا شك في أن تعجيل المحادثات التي بدأناها مع تركيا بشأن هذا الموضوع قبل أن تغير رأيها أو تتراجع سيكون مفيداً..." المؤلف.

في اليوم التالي ركب زان قارباًتر مع أسرته في السفينة "تيرغ" وغادر بلا رجعة أرض الأديغة.

الفصل الرابع والأربعون

كما يُدان الزعماء في كل مرة تتدهور فيها أحوال البلاد، تجددت، رغم مضي سنتين، أقوال تسي وحره الكلامية مع القيصر ومع الأمير حچمقوه والآراء المتناقضة: ومن يدينونه يزيّدون كل يوم، وهم أكثرُ ممن يساندونه. وزاد على هذه الضجة الجفأُ بين زعيمَي الأبراخ برج وتسي.

صارت إعاقَة الجيش القيصري الذي استطاع الأبراخ إعاقته عبر طرق بداية الربيع الرديئة أصعب الآن في الصيف - بداية الخريف. ومع ذلك وظّف الأبراخ كل رجولتهم من أجل منع الجيش الروسي من التقدم. غير أن من الصعب أن تجابه بالرجولة وحدها جيشاً أكثر عدداً وأحسن تجهيزاً. الطرق إلى أماكن العيش التي يهاجمها جيش العدو يبلّغ عنها المنادون، والناس الذين سيجاهون الغزاة يستنفرونهم. يمضون فرساناً ومشاة من جهة ضفة نهر بشك، ومضيق قُجيس إلى طوابسه. ويحشدون المدافع القليلة المتبقية لهم، مودعين أملهم فيها، إلى حيث الحالة حرجة.

- هذا ما يدلّك على أن قيصر الروس لا عِلْم له... - يشير تسي إلى المواقع التي تصدر منها أصوات دوي المدافع، والقرى التي تُحرق - وهذا لا يصلح أن يكون قيصرًا.

- لم يخطر أن يحدث هذا لنا... - غمغم برج مدرّكاً لماذا يقول هذا، عارفاً إلى من يلمّح به، دون أن يذكر اسمه.

- يا برج! - احتدّ تسي لما سمع. - أنت تردد هذا الكلام باستمرار، من تدين به؟ أنا؟

- أنت وأنا وبرزج. - كلنا مذنبون.
- نحن مذنبون إذ نحمي قومنا؟ - التمتعت عينا تسي كجمرتني لهب.
- لحماية القوم أساليب كثيرة.
- إن كنت حكيماً هكذا يا برج فما هذه الأساليب؟
- لم نُطع الأمير حجمقوه - أجاب برج كاظماً غضبه بصعوبة.
- اسمع يَمَّ يعيّرنا هذا الآن! - ابتسم تسي كأنّ ليس في قلبه حقد، وأضاف متهماً إياه: - لم أفهم طبيعتك يا حسن بي منذ أن عرفتك. لماذا بقيت ساكناً كمن فمه مسدود إذا كنت تؤيد حجمقوه؟!
- وهل أعطيتنا الفرصة لنتكلم؟ - أجاب برج بسرعة، ثم اختتم شاملاً نفسه بما يقول: - كفى، ليس موقفنا الآن مما يسمح بتمييز البريء من المذنب.
- قال الفارس أفعُتْ مرتوقوه الذي وصل مسرعاً إليهما، معتبراً تسي أقرب إلى الزعامة كما كان يفعل دائماً:
- جاءنا سبعمئة فارس من ناحية توبا يا حاترباي. وأتى حوالي مئتي راجل من ناحية بشك.
- لم يحنث جيراننا أهل توبة بوعدهم لنا. - قال تسي مرتاحاً، وأكثر ارتياحاً لرفع شأنه هو، ولكنه سأل ثانية غير راضٍ عن عدم معرفة الفارس بعدد المشاة.
- مئة وتسعة وثمانون يا حاترباي.
- تعلّم أن تتكلم هكذا يا أفعُتْ! عُدَّ الناس، حتى الخراف تُعدّ. حسناً، أرسلوا أربعمئة فارس من سبع المئة إلى ساحل بشك، ناحية طوابسه. وليُقف الآخرون رديفاً وراء المحاربين في قُجيس. ما الأخبار يا مرتوقوه حيث أرسلتك، في نواحي الشابسغ والوبيخ؟
- وليس في تلك الأنحاء ما يسرّ. الجيش الروسي احتل الشابسغ، ويتجه الآن

إلى الوبيخ.

- استنفر القيصر رجولته ضدنا إذن ، أليس كذلك؟ هذا إذن ما حدث...

حاصرونا من كل الجهات... وزان قاربتر ما أخباره؟

- أراك أرفع من أن آتي لك على ذكر من سألت عنه يا حاترباي! هاجر إلى

تركيا ونجا بجلده. وحين قالوا له: ما تفعله عيب، هذه خيانة، أجابهم: لا أريد

أن أتكلم على خيانتكم أنتم، ولا أن أشهدا ثانياً.

- وآل زان؟ - صرخ تسي لما سمع وعيناه السوداوان تهربان منه - وهل نسي

آل زان خيانتهم؟ أليس جدُّ زان قاربتر من باع أرض أُنابه إلى تركيا؟ ووالده

سفرني وقاربتر ألم يكونا ضابطين في الجيش الروسي؟ أليس آل زان من بعث

الفوضى في إقليم الأديغة؟ والآن يغسلون وجوههم أمام الأديغة؟! اسمعوا:

أُكتموا عن الأديغة خبر نزوح زان إلى تركيا... الآن فهمت لماذا لم يكن يريد

مقابلة القيصر الروسي... تصرف من ورائنا تصرفاً سخيفاً. وما أخبار الحاج

برزج؟

- يقال إن الحاج برزج يحول في أرجاء الوبيخ لا يترجل عن صهوة حصانه. غير

أن هناك من يقول إنه لا يزال في زيارة إلى تركيا. - أضاف أغمُت الآن بمزيد

من الحذر.

كان برج الذي يعرف طبيعة تسي يكتفي بالإنصات إليه ولا يناقش أقواله.

وبرج نفسه لم يكن مرتاحاً. كان أمامه اليوم وغداً ما يجب أن يفكر فيه وما

يجب أن يحل من أمور أكثر من أمور البارحة.

- أراك لا تقول شيئاً يا برج؟

- وماذا أقول يا حاترباي؟ أفكر في ما قلتَ حتى لو كانت الحال كأننا قلنا ما

يجب وانتهينا.

- كل ما نقوله نحن الاثنين مما يتعلق بشخصينا يبقى بيننا. - لجم تسي حاترباي الحصان على المرتفع الذي رقي إليه، وقال لبرج دون أن يُسمع رفاقه - ولكن لا يجوز أن نزرع اليأس في قلوب من يتأملون أن نكون سندهم. على طريق الجبل رأوا أيضاً كثيراً من الناس. وكذا في المضيق. المشاة والثيران والخراف والأبقار... والوضع مماثل في ظاهر بشك. ابتعدوا عن عُرض الطريق كي لا يعرقلوا سير المهاجرين. تعرّف الناس على الزعماء. ومن يتحملون مأساتهم دون أن يُمعنوا النظر إليهم. وبينهم من يهددوهم بقبضاتهم، ومن يعتفونهم. وليسوا قليلين من ينظرون إليهم دون أن تعرف ما في قلوبهم. وفي عربات الثيران جرحى حالتهم خطيرة وجثامين لم يجدوا الفرصة لدفنها. وأكثر موجات النازحين من النساء والطفال والمسنين، وصبياناً لا يزالون عاجزين عن حمل السلاح.

- أيها الزعماء الذين أملنا فيهم بعد الله ماذا ينتظرننا؟ - سأل عجوز يأكله الهمم، وهزّ رأس عصاه بالاتجاه الذي يأتون منه: - الجيش الذي أدعو الله أن يرسل إليه الكوليرا ينهبنا. نحن نهلك، يلحقنا الخراب والدمار. أستحلفكم بالله أن تقولوا لنا كلاماً ينقّس عن أحزاننا.

- وماذا نقول لكم... - لو ضمن تسي حاترباي ألا يسمع هذا الكلام الذي قيل له لما فضل عليه شيئاً. - نجابه العدو بقدر ما نستطيع. الله شاهدي على أننا لن نسمح له أن يتجاوز مضيق قُجْبِس.

- ليس اليوم نسمع هذا - صاح من وراء المتجمهرين عجوز آخر. - نعم يا كبير، ليس اليوم فحسبُ تجري حربٌ في إقليم الأديعة. - قال تسي مقتنعاً بذنبه - ليس من اليوم نلجم العدو في إقليم الأبراخ... خسرتُ في الحرب أخويّ الأصغرين، والولد الوحيد المتبقي لبرج حسن بي... ونحن أيضاً

مَن يعرف ما كُتِبَ على جبيننا؟... نفهم مأساتكم... توزّعوا في قرى الجبل!
قررنا أن يقاسمكم أسطبلاتكم وطعامهم ومنازلهم.

- مهلاً، مهلاً يا تسي، وأنت أيضاً يا برج!- أقبلت العجوز التي كانت تمسك
قرون الثورين تحت العربة - الآن اسمعوني أنا. بقيتم ترددون هذا الكلام
وتعلّلوننا بالألماني حتى فقدتُ عجوزي وأولادي الثلاثة في الحرب. وقُتل ابن
أكبر الأولاد، وقد صحبت جثمانه لأنهم لم يدعونا ندفنه. وهذا الصبي من
إرثه... أيُّ عذاب جلبتموه لنا!.. لماذا لم تصالحوا السلطان الذي لن تستطيعوا
هزيمته.

غطى الدم عيني تسي مما سمع من كلام العجوز، وأجاب وهو يكظم غضبه
بصعوبة:

- أفهم يا أختي ما مرق أعماق قلبك: مأساتك، مصيبتك. الله يفهمك. وهل
يقبل القيصر الروسي الصلح؟ ولو صالحناه ماذا كان سيقول لنا زوجك الراحل؟
وكذلك الآلاف من شهداء الأديغة؟

- هؤلاء كان الوحيد الذي بأيديهم أرواحهم فدفعوها. لسنا اليوم في وضع
يسمح لنا بالتشدد. البجدوغ والجمكوي والمخوش والبسلني لم يأكلهم سلطان
الروس. ولو صالحتموه لما أكلنا نحن أيضاً.

- ليس هناك ما يستدعي أن نركع أمام العدو! - لم يعد تسي يتحمل المزيد.

- أفضل أن نركع على أرضنا أمام العدو على أن يفنى الأديغة.

- هيا يا عجوز آل تابش - خرج عجوز من بين من كانت معهم، وواساها -
اصبري، كلامك فيه نصيب من الصحة. ولكن هؤلاء لا يسمعون مهما قلّت
لهم... سدّت الرجلوة الفارغة آذانهم. هيا لندفن الجثامين التي في العربات...

تسي حاترباي رجل عاش حياته من أجل الرجلوة والاستقامة. ظل يقول إن

من ينتصر في الحرب هو من يكون رابط الجأش ومتشّيتٌ بأرضه. ولم تكن هذه المبادئ عنده مجرد كلام. لم يكن ليقف شيء أمامه من أجل حرية قومه وحماية أرضه ، دون أن يعني هذا أنه عاش دون أن يخطئ أحياناً، ودون أن يُسيئ إلى غيره، ودون أن يندم على ما فعل أحياناً أخرى.

ما الذي جرى لتسي اليوم؟ ليس السبب الكلمات التي انتقدته بها عجوز آل تابش، دون أن يعني هذا أنه لم يتأثر بها، بل ما جرح شرف حاترباي هو كلمات الرجل العجوز: "هؤلاء لن يسمعونك، سدّت الرجولة الفارغة آذانهم". ثم إنه ليس للمرة الأولى يسمع هذا الكلام. بل من كل من نجا بجلده من الأبخاخ. ويتهمونونه بما يجري الآن من فناء القوم. يقول لنفسه: هذا ما يجعلهم يقولون: "معروفي انقلب عليّ نحساً وجاري صار عدوي". - وإن اعتقدت أنك قادر على حماية الرجولة بحد السيف وحده فأنت على خطأ. يجب أن تخطو خطوة أخرى غير الرجولة ولكنها مؤلمة. ولكن هل حقاً عشت بـ "رجولة كاذبة"؟ لماذا لا أزال حياً إذن؟ الأبخاخ يموتون بسبي. ومن عشت لأجلهم يدينوني..."

حملت الإهانة التي تفجرت حاتربي على أن يحث حصانه بعقب رجله، فأسرع الحصان. وحين لحق به أقمعت وداور أشار إليهما ألا يتبعاه، وقفز وهو على ظهر حصانه من الضفة العمودية، فكانت فيها نهايته.

الفصل الخامس والأربعون

حزن برج حسن لما فعل زان قاربتر بنفسه أكثر مما حزن لانتحار تسي حاترباي.

- لم أتوجس البتة أن يفعل بنا ابن زان سفري ما فعله... - قال برج حسن وهو يهز رأسه مع قلبه الحزين، وأشهد على كلامه قولاً أديغياً مأثوراً: - لم يكن

قد فهم لماذا قال قدمائنا الحكماء: "لا تهجر طريق والدك القديم، ولا قريته القديم"... كيف تتجاوز المهمة التي ناضل والدك من أجلها حتى سقط من على سرجه، وتترج إلى بلاد غريبة على ظهر سفينة؟ على ما يبدو فقد أخذ معه أصلاً انتهى، وعظماً بلا لحم. ونحن هنا ندين تسي الذي أحرقتة الإهانة، ودفع ثمن رجولته.

- نعم يا كبير، نعم يا زعيم الأبراخ - قال محمد أفندي الذي كان جالساً كأن فمه مسدود بالرماد - صحيح ما يقال إن الأب كالجوزة والأم كالعين. أوافقك على ما قلت عن زان قارباتر. تركنا في غمرة ضياعنا ونفذ بجلده. ولكني لا أوافقك في ما قلت عن تسي يا حسن بي الذي ستحميه حكمته ورجولته. هو لن يقبل طريقة موت تسي ولو ركع لله على ركبته. وأنا أيضاً لا أوافق على هذا. حين أحس تسي أن أموره لن تنجح وهو يقاسمك الزعامة التي لم يره الناس أهلاً لها، ألقى بنفسه في الوهدة دون أن يعرف أين وكيف.

- مهلاً. اسكت قليلاً يا أفندي. - قال برج حسن كأنه خجل أن يرفع رأسه المطرق. - لا أسمح لك أن تقول هذا على من استشهد، نعم من استشهد.

- هذا ليس شهيداً، بل انتحر - ارتفع صوت مرزخوي محمد رغماً عنه مع حرصه الدائم على ما يقول، ولم يتوقف عند ما قال، وهو يكاد يبكي: - كان الأفضل لو ضحى بروحه، مثل أبناء الأخوين براغنه، ومثل أخي بكر، أمام جيش العدو... أين هم، ومن أين تأتي بمثل أبنائهم الذين التجؤوا إلى الجبل؟ يا إلهي احننا، افهمنا في ما نقول وما نفعل. - وخلافاً لعاداته، مدَّ محمد أفندي يده إلى عينه، ثم ركض إلى إحدى الصخور واختفى وراءها.

- لا تقولوا له شيئاً، دعوه يستريح... - قال برج حسن وقد طفا على السطح ابنه الذي قضى في الحرب العام الماضي، وأمّه التي لم تتحمل هذا - وهذا

المسكين عنده من يبيكه ومن يشفق عليه.

الفصل السادس والأربعون

الربيع الذي أتى يسلب العيون لم يكن كالشتاء الذي أعطى الأبراخ شيئاً من الأمل. ولكنهم لم يعودوا في وضع يسمح لهم بتأمله والإحساس بجماله بقلوبهم وعيونهم. دخان النيران أعمى عيونهم، ودوي المدافع أصمّ آذانهم. كان يُسمع صوت لهفة الناس في كل مكان. وجنائهم غائرة، ووجوههم ذابلة.

الجيش القيصري يتجه إلى ساحل البحر حيث الجو دافئ، وإلى المكان الذي ستنتهي فيه الحرب التي سيفنى فيها عرق الأديغة. والآن لم يبق عند الأبراخ ما يوقف زحف هذه الجيوش. وكل الناس باستثناء برج يبحثون عن خلاصهم، كلٌ وحده. عالم الأبراخ مما يقال فيه "الشمس تشرق وهي تبصق دماً".

بالقياس إلى ما قبل أيام فمحمد أفندي الذي رجع إلى وعيه يقول للناس بلاء فمه:

- أيها المسلمون، يا من أدعو الله أن يُحسن إليهم. أسرعوا إلى الشاطئ. السفن التي ستقلكم إلى تركيا بانتظاركم. في تركيا، جنة الله على الأرض، ستسبون ما يجري لكم. أسرعوا إلى حيث يمضي بكم الله، وأنتم احفظوه في قلوبكم.

الناس الذين يتقبلون مواعظ محمد أفندي ينظرون إليه بعين الأمل ولو أن طريق تركيا الذي يسرون فيه ثقل عليهم. ومن لا يصدّقونه ينظرون إليه بعيون غاضبة. وغيرهم لا يسمح لهم عذابهم أن يسمعوا شيئاً. ومن في قلوبهم شكٌ يسكتون رهبة من الله الذي بعثه إليهم.

- لم تقع عيني على برج خلال هذا الأسبوع. أيمكن أن يكون فعل بنفسه حين رأى أموره خاسرة ما فعله عديم الإيمان تسي؟ - سأل محمد أفندي غُمشت مولى حين خرج فيض الأبراخ من مضيق خدج متوهماً أنهم صاروا في عهده

الآن، ودون انتظار جوابه أضاف له: - لأجل هذا كنت أقول لهم: إحتفظوا الله في قلوبكم. لا تنسوه، ولا تخالفوا أوامره، واسألوني أحياناً أحكم من الزلزل... لم يدعهم الله يُفلحون لأنهم كانوا يفعلون ما يريدون، متظاهرين أنهم يسألونني ويطيعونني. ونحن يعاقبنا بقدر ما نستحق. إن كنت تستطيعي ولن تتجاوز أوامري فسأعبر بك يا غُمشت، وأنت لا أهل لك ولا أسرة، إلى تركيا.

- صحيح، يا موفد الله المبارك محمد أفندي، أعتقد ان الله كتب لي أن أعيش أبتّر... ولكن لا أستطيع أن أترك عالم الأبراخ الذي كرمني الله فأطلعني عليه، ساجني يا أفندي، فأنقل في وقت شدتهم إلى عالم غريب لا أعرف عنه شيئاً. ألن يبقى هنا بعض البؤساء من أمثالي؟ سيكون مصيري كمصيرهم. ماذا نقول، نحن الأبراخ، "خيرٌ لك أن تعيش فقيراً طاهر القلب من أن تعيش على فعل الشر"

ابتسم محمد أفندي مخفياً سُخطه لما سمع، قائلاً في نفسه: "اسمع ما يقول هذا الفقير المعدم حليق الشاربين..."، ثم ردّ ملاطفاً إياه:

- هيا يا غُمشت! ولماذا أسخط عليك؟ إن صار طرف رداك بيدراً لك فأنا أحوله من أجلك إلى مخزن للحبوب.

"مع أن برج وتسي أوكلا إليك منصب أفندي المجلس الذي كنت تطمح إليه فأنت لم تحقق شيئاً أكثر مما حققت. وحين ساء وضعك لم تجد غيري تعرض عليه اصطحابه إلى تركيا - ابتسم غُمشت في سره - وأنت واحد ممن أوقع الأبراخ في مأساة لا نهاية لها عن طريق الخداع. وإن كنت تسخر مني فلن أدركك في حياتي في تركيا وقد اشتهيت ما في طرف رداي، ولكن سترى نفسك في هذا الموقف..."

"لماذا أصحب معي هذا وهو لا يوافق آرائي بل يعارضها؟.. ما حاجتي إليك

حتى تعبر معي، كانت كلمةً عابرةً مني" - لحظةً لام مرزخوي محمد نفسه وقد صار الفارسان اللذان يتوافقان قولاً ويتباغضان قلباً، رأيا الناس على طريق البحر الأسود فقال محمد أفندي وقد خرج من أفكاره بسرعة:

- تعال، نبتعد عن هؤلاء بأن نسلك الطريق الموازي لطرف الغابة، ولا نُؤلم قلوبهم ولا قلوبنا. ولكننا لن نسمح لليأس والضعف أن يستوليا علينا. لا، لا. لا تفكر في الطريق الواصل إلى جهنم، نحن سنجد أنفسنا في تركيا، جنة الله على الأرض. وسيعوضنا الله بعض متاعبنا.

- لو تحقق هذا لكان خيراً. غير أن بعض الشكوك تساورني.

- لا تسمح لها! - غضب الأفندي الذي يرفع رأسي عظمي كتفيه. وأضاف دون أن يوقف حصانه على الطريق الضيق: - هذه من وساوس الشيطان والجرّ الأروياء، لا تسمح لهم أن يخدعوك، الله أكبر!

- نعم، الله أكبر، إنه كبير، رحيم، سيففهمنا.

- إنه لا ينسى أمته، غير أنه لا يغفر لمن يحيد عن دينه القويم.

- ومن يتب ويعدّ إليه؟

- أي سؤال هذا يا غُمشت؟ - التهب محمد أفندي غضباً، ولكنه عض على غضبه فأعاد السؤال: - لا يُسأل موفد الله مثل هذا السؤال بذريعة أنك تعرفه شخصياً. ومع ذلك لن أدعك يا مولى بلا جواب. الله يغفر لمن يندم ويعود عن الخطأ. إنه يعلم كل شيء ويرى، ويسمع. وأنت تروّ في ما تقول وتفعل. وصلاة الظهر قريبة، سنقف في حضرته. سندعو إليه أن يُحسّن إلى من سُلبت منهم أرضهم، ولا يجرّمهم من وجهه ورحمته، وأن يرسل الكوليرا على الأعداء الكفار. لن نتجرد من أسلحتنا فمن يعرف في هذه الظروف الرهيبة؟.. - بعد أن فرغا من وضوئهما وصلاتهما قال محمد أفندي لمولى: - تامبي حبله لم تعد

بعيدة، وأنا عليّ أن أعرج عليها. وأنت كنت تريد توديع برج حبله فاذهب إليها. سنجتمع هنا غداً بإذن الله. الله حريص على عباده فاحرص أنت أيضاً على نفسك. احرص ألا تقع في أيدي القوزاق.

تابع غُمشت بعينه عمامة محمد أفندي البيضاء حتى تجاوز المرتفع وانحدر، وحين همّ بالسير قفز إلى ذهنه سؤال: "أيّ تامي حبله يتكلم عليها هذا؟! منذ زمن بعيد أُحرقت... ربما كان يريد إلقاء نظرة أخيرة على أطلالها... هذه هي الحال، المصيبة حين تمسّك لا تميز فلاحاً من أفندي، من أمير، من زعيم... منذ أكثر من أسبوع لم أر برج حسن. ولما سألت عنه في طوابسه قيل لي إنه شوهّد في نواحي توبا. وغيرهم - لا يمكن أن يكون كل الناس يودّونك - قالوا إنه نجا بجلده، بل إني حين سمعت أنه استسلم لإفدوكيموف لم أصدّق فقال لي محمد أفندي "هذا غير مستبعد"... هذه حال من أفل نجمه، يتهمونه بما فعل وما لم يفعل. ولكن مهما قال أي شخص عن جاري برج حسن فلن أصدّق إلا أن أشهد بشخصي و أرى بعيني. ومع ذلك لا أعرف... - قال لنفسه، ثم نحر نفسه بصوت جعل الحصان ينصب أذنيه: - ما الذي تقوله يا غُمشت؟ أيّ عيب هذا؟!"

بعدما سار قرابة نصف ساعة وارتقى المساحة الخالية من الشجر رأى بضع عربات ثيران يركبها بعض الناس ويتبعها آخرون، ويسبقها فرسان. ولما كان برسر زوال المجرّوح رأسه ويُدّه اليسرى بين من هُرّع لاستقبالهم فقد سأله الأخير:

- ما الأخبار على الساحل الذي أنت آت منه؟
- لا خير في المكان الذي وجهتم إليه رؤوس ثيرانكم.
- ما أملنا، وأنت لا خير حيث وجهت رأس حصانك. العدو قادم من ورائنا

محرّقاً قرانا.

- ومع ذلك فالأفضل ألا تبتعدوا.

- لا أعرف كيف ستفهم هذا الأمر... يقودنا الأمل في النجاة بأشخاصنا، أم تظننا نتصرف بإرادتنا؟ - سأل برسر زوال دون أن يعبأ بمن يتحدث إليه الفارسان، والتحق برفاقه، وقال لعمشت وراءه دون أن ينتظر الجواب: - إن كنت راجعاً إلى برج حبله يا عمشت فالأرجح ألا تراها ثانية.

لم يهدأ قلب عمشت الذي كان يُخيل إليه أن قريته تحترق فيما يرتقي مرتفعاً وينحدر من غيره إلى أن رآها. لما رأى برج حبله المستندة إلى المرتفع القريب هادئةً أسرع بحصانه. لم ير أي أبزاحي في طريقه حتى وصل إلى الساحة التي تتوسط القرية، ثم إلى الحي الذي يقيم فيه هو وبرج، اللهم إلا بعض الفرسان القوزاق الذين لم يتعرضوا له. ترجل أمام عقيد يظنه قريباً منه ويتأمل منه الخير، وقال شاملاً بحديثه بضعة القوزاق الراصدين له:

- تحية لكم، أيها القوزاق، أنا عمشت مولى من برج حبله، أسمعكم إن كنتم تريدون شيئاً.

- نحن وجدنا ما نريد، وبانتظاره. - قال العقيد سيرديوكوف، ونظر نحو ساقية "تجن" التي يصلي بجانبها الزعيم برج حسن.

- هل استسلم لكم برج؛ أهو أسيركم؟

- لن نأسره إلى أن ينتهي من صلاته.

- مهلاً إذن، لحظة، لا أريد أن تفوتني صلاة العصر. وقف عمشت مولى، بلا وضوء، إلى يسار برج حسن قائلاً في نفسه: من لم يفهمنا إلى الآن لا يفهمنا بعد الآن إن شاء، وهمس في أذنه كمن يتلو دعاء: أنا معك، لاداعي لليأس.

حين أنهى برج صلاته، ردّ على عمشت همساً في أذنه:

- حياك الله، إن كان سلاحي سلاحك فلا مخرج لنا غيره - نهض برج حسن متمهلاً وقال لسيرديوكوف: - تحلّيت بالرجولة إذ سمحت لنا أن نكمل صلاتنا. والآن استلّ سيفك إن كنت رجلاً! - استل برج حسن سيفه وتوجه إلى سيرديوكوف الذي كان ضامناً أن الزعيم الأبرازي صار أسيره. واستل الحرس القوزاق سيوفهم. وعُغِشت الذي تصدى لهؤلاء دون أي صوت جاءته ضربة من الخلف صرخته قبل أن يجد الوقت ليستعمل سيفه. ولم يستطع برج حسن مجابهة القوزاق العديدين فاستشهد مثل كل الذين دفعوا حياتهم في بلاد الأبراز.

الفصل السابع والأربعون

لم يقدّم مرزخوي محمد أفندي بزيارته التي كان قررها إلى تامبي حبله. ماذا يفعل في القرية التي صارت رماداً فيؤلم قلبه؟ الآن كلٌّ ونفسه. وأين تذهب ولا مال لك؟ وإن ذهبت فمن يسأل عنك؟ نحن، وجهاء الأبراز، ننجو بأنفسنا كي لا نقع أسرى بيد الكفار، ولكن ماذا يأمل هؤلاء البؤساء القانطون؟ أنا، في حال الضرورة، بصفتي رجل دين، يمكن أن أعمل في أحد مساجدهم مقرئاً، بل مؤذناً ولو لم أتقن التركية تماماً.

حين وصل محمد أفندي إلى مخرج الغابة وجّه حصانه إلى الصخرة التي دفن تحتها كيس نقوده الذهبية والفضية.

"إذا كان تسي فارق الحياة، وزان هجر أرضه، وبرج اختبأ في الغابة، وبرج مشغول بقضايا الشخصية، - نصح محمد أفندي نفسه - ففيم يحتاجني من كنتُ أحبهم على الإيمان بك يا إلهي... نعم، نعم، لا تدع عيون الأبراز الهائجين الذين لا يَلَوون على شيء الآن تقع عليك. هؤلاء مهمما قلت لهم، ومهما عاتبتهم، ومهما نصحتهم، لم يعودوا يعرفون إن كنتُ أنت أو أنا موجوداً

يا إلهي... اغفر لي وافهمني وارحمي. أنت في قلبي لا تفارقه، ولن تفارقه. الكيس الذي دفنته تحت هذا الحجر الأصم الأعمى لا يعرف به غيرك وغيري؛ أأجده يا ثرى؟ - بعدما قفز محمد أفندي من على صهوة الحصان ملهوفاً قلباً ووجهاً، ونقب أسفل الصخرة برأس خنجره بعض الوقت أخرج الكيس الصغير. ثم ركب بعدما حشره في ثنايا ثوبه، ناظراً في كل اتجاه، قائلاً: "لا يزال على رباطه"، "لا يزال مليئاً، سينفعي ما خلفه لي المسكين غش مرزبج وقد أصبحت في وضع صعب. سأدعو له، ولو أنه قضى على يدي، وأنا أبلغه رضاي عنه، أن يجد راحته حيث أرسلته، ولو أنه لن يكون من أهل الجنة" - توجه محمد أفندي إلى البحر عبر طريق سري كي لا يلتقي بقوافل النازحين. كل طريق سري يُفضي إلى الطريق العريض. لما سار محمد أفندي طوال الليل وصل مع الفجر إلى مثل هذا الطريق، فانعطف إليه وهو يرى البحر من بعيد. أوقفته المأساة التي يراها في فجر الربيع المتأخر: الجثث على جانبي الطريق وعلى امتداده. وفي مكان آخر تحت الأشجار القريبة البعيدة. والعربات المهجورة على ظهر المرتفع. وفي السهل. وعلى بقايا نيران الحطب شبه المنطفئة يجلس الناس المرهقون. وعلى صدور الأمهات أطفالهن المرضى. ومن كل مكان تُسمع أصوات النساء يندبن موتاهن. ومن الساحل أصوات أناس يتصايحون ويتدافعون على مداخل السفن، ولعنات تنصب من هذا على ذاك، ومن ذاك على هذا. وإطلاق نار من مسدسات. والشمس الحمراء التي يُحرقها عن بكرة أبيها ما يحدث في أرض الأبراخ والشابسغ والويخ تشرق. وفيما يبحث مرزخوي محمد أفندي الذي يُحِيل إليه أن رؤوس الأشجار تَحترق، عن مكان يعطف فيه رأس حصانه دون أن يتعرفه أبناء قومه إذا بصوت نسائي يُفرغه، فيسأل وقد عرف صاحبة الصوت:

- أهذه أنت يا نفست؟ ما أحسن الصدفة التي جعلتني أعثر عليك... لم أترك مكاناً لم أبحث عنك فيه. وأين أملك والأطفال؟

- نانا وكولس يا ممت - ارتقت نفست على صدر عمها، وقالت - دفنّاها على حافة الطريق إلى طوابسه... ووالدنا فارق الحياة، وآل براّعنه أيضاً... ولا نعرف إن دُفنوا... والذين أوصلونا إلى شاطئ البحر فقدوا كل حسّ إنساني!.. إن شاء الله يرتدّ ظلمهم عليهم... وليُقضوا في الطاعون الأسود!

- مهلاً يا نفست، اسكتي، ولا تدعي لاشين الصغيرة تبكي... - يمسح محمد أفندي على ظهر لاشين الصغيرة الملتصقة بأُمها، ويده الأخرى على ابنتهم نفست. - لا مشكلة بعدما التقينا... واطمئني على والدك وعلى آل براّعنه، أنا دفنتهم. بقيت كُتّنا وكولس الصغيرة... وهاذان اعتبريهما من أهل الجنة إذ قضيا في ساحة حربٍ على الكفار... وأنت أيضاً يا أختي - يقول للعجوز التي يلتصق بها صبي في حدود الخامسة عشرة. - حسنٌ أن جئتم إلى هنا، ولم يأسركم الكفار. ها هي تركيا جنة الله على أرضه، ستصلون إليها قريباً بإذنه تعالى. وما إن نصل إلى شاطئها حتى ننسى العذابات التي ابتُلينا بها على طريق جهنم. وأنت من أي أسرة يا أختي؟

- هذه سَمّاي يا ممت - قالت نفست مرتاحة لإبلاغه اسم العجوز - وحفيدها عليمبج. لولا نانا هذه لربما ما رأيتنا أنا ولاشين...

- حياك الله يا أختي، ورضي عنك. لن ننسى أبداً ما عملت لأجلنا. هذا الطعام الذي خصّكم به الله - مدّ الكيس الذي فيه بضع قطع لحم مجفف، ونصف قالب من الجبن إلى سَمّاي. - كلوا، أنا سأعود بعد متابعة أعمالنا. وليبقى حصاني المسرح هنا. ربما يظهر من يشتريه. سأتابعكم بعد قليل.

حين اختفى محمد أفندي عن عيون الواقفين، نزع عمامته حتى لا يتعرف عليه

من كان يعرفه، وارتدى قلنسوة منقوشة تغطي رأسه ووجهه، ورشا الحراس بلبرة ذهبية ليكون بين ركاب أول سفينة تبهر إلى تركيا.

الفصل الثامن والأربعون

انتكست مشاغل الحاج برزج في الوبيخ على نحو لم يتوقعه: كان قد فهم من أول رسالة أرسلها إليه الجنرال غايمان أن مصيره سيرتبط بمصير الأبراخ والشابسغ. ويكتب الضابط دوخوفسكوي هذا الوضع كما يلي: "... يحیی الجنرال غايمان عرق الوبيخ. أنتم تعرفون أننا كافأنا الأبراخ والشابسغ على تجاوزهم معنا بالموافقة على نزوحهم إلى تركيا. والآن أنتم الوبيخ بقيتم وحدكم. والأمر الخاص بكم هو: عليكم أنتم أيضاً الهجرة إلى تركيا دون ممانلة. ولهذا عليكم أن تتجمعوا في نهر "شكه" عند فاردان، وبداية نهر شجه..."

فكر برزج جراندوقه، ليس في أجرة ركوبه فحسب، بل في أربعمئة أسرة من فلاحيه سيصحبها معه. وذهب إلى الجنرال غايمان برفقة مسني الوبيخ، ولو أن الوقت قصير، ليرجوه أن يمهله ريثما يستعد للرحيل.

وهذا دِكْرُ هذه الواقعة في مذكرات دوخوفسكوي: "بعد الظهر جاءنا خمسة عشر من مسني الوبيخ يتزعمهم برزج جراندوقه. ومع أن الجنرال غايمان كان يعرف أن هؤلاء لم يأتوا متذللين فقد سألهم بعناد:

- لماذا جئتم إلَيَّ أيها الوبيخ؟ أين هم من تعتمدون عليهم، القادمون من أوروبا ليساعدوكم؟ وأين هي مدافعكم؟ لا أرى أحداً ممن يساندونكم؟

- نحن فهما - أجاب الحاج برزج - أن لا أحد نعتد عليه، وأننا بقينا وحدنا. ولكننا نحن أيضاً عرق كامل. لنا الحرية في أن نقول ونناقش ما نفكر فيه وما فيه نفع لنا.

- أنتم الوبيخ من سيحدثوننا؟ إن كنتم أقوىاء جداً وشجعاناً فاغلبونا.

- مع أننا بعيدون عن التفكير في النصر فلا نزال قادرين على مجابهتكم. ولكن عرقنا سيفنى نهائياً في هذه المجابهة. كان بودنا أن ننهي المسألة بسلام ولا نتسبب في خسائر للطرفين.

- لا ترووا لي حكايات! أعرف جيداً جداً من أنتم!.. إذا كان الوبيخ نسوا الطريق إلى البحر فليسألوا الأبراخ والشابسغ! لا شيء أقدمه لكم ولن يكون! قال الجنرال غايمان لهم، وانصرف

حين فهم برزج جراندوقه أنه لم يبق مخرج جهاز نفسه في مهلة ثلاثة أيام، واتجه مع أسر فلاحيه إلى المركب الذي حضّروه لهم.

رأت نفست وسماي اللتان وعدهما محمد أفندي بالعودة إليهما الحاج برزج متجهاً إلى المركب فقالت سماي لحفيدها عليمبج: - يا ولدي، أسرغ، عرّف جراندوقه عليك، ذاق يوماً من طعام جدك. وأنت أركبك على ظهره. لا بد أن يساعدنا! اذهب يا صغيري واعترض طريقه قبل أن يركب السفينة. وأخبره أنني معك.

قفز عليمبج من الأمل الذي نبت فجأة، واعترض الحاج برزج:

- أيها المحترم! هل عرفتني؟ أنا عليمبج، ونكراس تيمه جدّي... أنا وجدتي

سماي هنا على الشاطئ منذ أكثر من شهر. هل يمكنك أن تساعدنا؟

- من هذا الذي اعترض طريقي؟ - غضب برزج كما لو أن أحد أعدائه يمنعه

من الجلاء إلى تركيا. وسأل ساخراً مبتسماً الصبي الذي فقد قوته: - أقلت لي

نكراس؟.. والله عجيب أنك نسيت كونك جزؤ كافر! ألا ترى يا عديم الإيمان

كيف يطردنا قوم جدك الكفار من أرضنا؟

اتقد عليمبج من الإهانة، وردّ على زعيم الوبيخ دون وعي:

- ضحى جدي بحياته على أرض الأديغة، ووالدي أيضاً.

- اغرب عن وجهي يا سليل الكفار!

- يا مصيبي يا عليمبج، يا ولدي الوحيد! -.. ارتمت سماي والريح يعصف بها لحماية حفيدها - امض يا ولدي، امض، الذنب ذني! يا حسرتي ما كان علي أن أدعك تتوسل إلى هذا... - رمث برزج بنظرة غاضبة - لن يفهمنا! لن تجعلك جريرة هؤلاء، هؤلاء الأديغة البائسين، تُفلح. امض يا ولدي، امض! سماي مهمومة بالعبور بعليمبج عبر المخاطر، وبحماية من صارت رفيقة طريقها، هي وابنتها لاشين، ولم تلتفت إلى ما وراءهم.

كانت سترى، وإن التفتت، المناظر نفسها التي تراها منذ شهر: الناس الذين على باب السفينة يتصارعون، ويتصايحون. يفتحون الطريق لمن لهم صولة كالحاج برزج. ويسيروا فوق الجثث وفوق الناس الذين لم يبق لهم حول. لم تعد تسمع على الشاطئ غير صياح البشر الذين أفقدهم الظلم صوابهم، وغير بكاء الأطفال. ومن يركب السفينة يودعهم أرضه التي يهجروا بطلقة مسدس. ويجعل الطفل الذي لا يفهم شيئاً يقبل المسدس، ويأخذ حفنة من ترابها. والجوارح التي شمت رائحة الجثث تحوم الآن أكثر انخفاضاً.

الفصل التاسع والأربعون

في أيام ربيع عام 1864 التي انتهت فيها الحرب الروسية - القفقاسية أرسل ممثل القيصر في القفقاس ميخائيل رومانوف إلى سان بطرسبورغ هذا الكتاب: "طهرنا الإقليم الممتد من شمال غرب نهر لانا والذي يشمل طوابسه وبشره من أعدائنا الذين كانوا يسكنونها" وعلق القيصر ألكسندر الثاني على هذا الكتاب بيده: "الشكر والحمد لله"

وسأطلعكم الآن على كتاب للجنرال غايمان أرسله إلى القيصر يشهد على الظلم الذي مورس بحق الأديغة، والهادف إلى التصفية العرقية "... في ظهيرة

الخامس والعشرين من آذار من عام 1864 احتلنا قلعة نافاغينسك، الآن تسمى شاجه، دون طلقة بندقية. ودمرنا آخر وكرٍ للشراكسة. هذا هو الوضع اليوم، ولكن يجب أن نذكر مع هذا إمكان تغييرهم في المستقبل. وسنشهد على الموقع الذي نحن عليه بمثل هذا القول المأثور: "اطرق الحديد قبل أن يبرد".

تعداد السفن التي ستُقلّ الشراكسة إلى تركيا قليل رغم أنهم جاهزون الآن للهجرة. والمهاجرون الذين ستنقلهم السفن متجمعون على شاطئ البحر. السفن غير الكبيرة في حركة دائمة. وإلى طوابسه تأتي السفن الكبيرة. ولكن تعدادها لا يُقارَن بعدد المهاجرين. بعد شهر تقريباً سترعم الأشجار. والآن سيلجأ الشراكسة الذين لم يعبروا البحر إلى الجبال والغابات. وفي هذه الحال سيتعين علينا طردُهم من جديد من هذه الأماكن، وسنتحمل خسائر بشرية.

أرى أن نعمل بجد من أجل إنهاء موضوع طرد الشراكسة، علينا أن نزيد كثيراً عدد السفن التي ستنقلهم عبر البحر. وأكرر مرة أخرى أن لهذا الموضوع الأولوية، وإلا ذهبت جهودنا السابقة عبثاً. لن تجد ولو بحثت أي قرية للشراكسة يعيش فيها الناس! ولكنهم لا يزالون يختبئون في الغابات الجبلية الكثيفة. علينا أن نرسل قناصين إلى كل طريق لتعقبهم، ومرة أخرى علينا تطهير أرض الشراكسة منهم..."

"... إقليم نهر بشزة الذي ضممناه إلى الأرض التي استولينا عليها جهّزنا فيه 52 مستوطنة روسية صغيرة و 100 مستوطنة قوزاقية كبيرة. ووطّنا فيه 4374 أسرة. - يكتب الجنرال إيدوكيموف إلى وزير الدفاع الروسي - الذين صادفت هجرتهم عام 1864 كان موضوعهم أسهل بكثير بالقياس إلى السنوات الأخرى.

حين كان الشراكسة يُطردون في مارس - إبريل من الأراضي التي استولت

عليها الآن مستوطناتنا الروسية لم تتعرض لهم جيوشنا في بيوتهم ومزروعاتهم. ولذلك فعند القادمين القوزاق ما يسكنونه. ثم إن قرروا أن يبنوا لأنفسهم بيوتاً فعندهم وفرة من المواد الأولية. والقمح الذي سيحصلونه جاهز. وقد استفاد من استقدمناهم إلى حد الكفاية من هذه الإمكانيات المقبلة. وما جمعه كثير من القوزاق من محاصيل زراعية سيكفيهم في الشتاء. وسيزيد ما يبدرونه في الموسم القادم.

منذ عام 1861 يهاجر سكان إقليم بشرة في مجموعات إلى تركيا دون انقطاع. وبسبب المستوطنات القوزاقية التي نجحها في أمكنة سكن أولئك المهاجرين لم يكن للسكان الحق في البقاء في أراضيهم. ولذا أصدرنا أوامر حازمة إلى هؤلاء أن يرحلوا إلى تركيا خلال وقت قصير. ولحل هذه القضية بدأنا بالعرق الأخطر من الأديغة الذي يظهر فيه زعماء جيدون، وهم الأخطر علينا ويخرقون حدودنا باستمرار ويكلفوننا أفدح الخسائر. ولما لم يكن من الممكن عقد اتفاقيات سلام معهم فقد حاصرتهم جيوشنا فجأة، وطردهم، وهم راضون، إلى تركيا.

حلّ عام 1862 الذي كان من أصعب الأعوام علينا. وقد تغير مجرى الحرب التي جرت في غرب القفقاس. وفي ذلك العام سيطرنا على الأراضي الواقعة بين إقليم نهر شحه غواشة كاملاً من جهة، ومن جهة أخرى بدءاً من شرق البحر الأسود حتى "أدوغ". وحصرنا الأبراخ بين نهر شحه غواشه وسوب. ومن الواضح أننا لم نُبقي لليجرقواي والمخوش والجمكوي أراضيهم، وهؤلاء طردهم إلى تركيا..."

الفصل الخمسون

21 أيار عام 1864

حدد الجيش الروسي يوم انتصاره في الحرب الروسية - القفقاسية في مضيق قباد بهذا اليوم.

كأن الطبيعة تعاكس من عندهم عيداً فالسحب التي تحجب وجه السماء تنثر على الأرض رذاذاً ناعماً. والجو في كل مكان رطب غير أن جيش القيصر لا يعبأ بهذا. الجنود الذين نجوا من الحرب يطيطون من الفرح. ورغم المطر تلمع أحذيتهم ومعاطفهم ورؤسهم. وعلى رؤوس رماحهم تهطل قطرات من المطر كأنها دموع الأديغة، وتصل إلى محاجرهم..

جنرالات القوات الخاصة الذين أحرزوا النصر لقيصر روسيا واقفون. وإلى جانبهم يقف من أحرز المديح بالدم الأديغي الذي سفكوه بدءاً من أرابشاي وأراكس على الساحل الأديغي للبحر الأسود حتى الجبال القفقاسية. والجيش التي احتلت الشيشان والداغستان متجمهرة في جهة أخرى. وفي هذه اللحظة تشعر الجيوش التي يقودها إفدوكيموف، من قوزاق الدون وبشزة، بالسرور لأنهم سيمرون أمام ولي العهد الذي سيلقي عليهم نظرة الرضا، وسيكيل لهم المديح. ووراءهم تقف الجيوش التي تضم السيبيلدنس، والميغريل، واليميريتين، بلباسها الجورجي.

حانت لحظة الدعاء إلى الله بمناسبة إحرارهم النصر.

ولي العهد ميخائيل رومانوف يقف على منصة محاطاً بالجنرالات. ووراء الجنرالات المقاتلون الذين أحرزوا وسام صليب جورجيف، والضباط الذين أبدوا شجاعة في الحرب.

وبعدما أنهوا الدعاء، ورثوا ألوية الحرب بماء الدعاء، طاف ولي العهد على

الجيش ممتطياً حصاناً، شاكراً إياهم. ثم وقف أمام جيش القفقاس وقال للجنود:

- نتمنّ عالياً الرجولة التي تحلّيتُم بها لإنهاء حرب القفقاس بالنصر، واحتلال أرض القفقاس الغربي. نهنئ كافة أفراد الجيش. والحمد لله الكبير الذي زرع فيكم كل هذه القوة. أنتم الذين لم يسألوا عن أرواحهم كي تصبح القفقاس بيد روسيا، تستحقون الثناء والرضا. وسيبقى في قلوبنا إلى الأبد رفاقكم الذين دفعوا حياتهم ثمناً للنصر ولم يعيشوا ساعة النصر هذه!

- يا ولدي ما الذي يقوله بصوت خشن هذا الذي يؤشر بيديه هناك؟ - لا تتحمل سماي الكلمات التي تصل إليها ولو أنها لا تفهم معناها. وتنتظر إلى نفس التي ليست مسرورة لهذا الخطاب.

- يشكر الجنود على إنقاذهم الحرب. ويحتفل بنصرهم. - تحبب نفسي.

- أيشكرهم على أنهم قتلوا الناس ووجهوهم إلى طريق جهنم، طريق العذاب! - أيتفعلون به؟

- نعم نان. ونحن أما كُنّا سنفرح لو انتصرنا عليهم؟ أما كنا احتفلنا؟.. يسأل عليمبج.

- اسكتْ!، إخش الله! - نهرت سماي الصبي جافلة - جميعنا، نحن وهم، سنقف يوماً أمام الله. وسنبتهل إليه أن يغفر لنا قسوتنا.

ارتفعت أصوات الطبول وصيحات النصر "هورا". ولكن عالم الأديغة لم يتأثر بدفع شمس الربيع التي بزغت من وراء السحب...

الفصل الحادي والخمسون

انتهت الحرب الروسية القفقاسية، ولكن مأساة الأديغة لم تنته مع نهاية الحرب. يتجه من نجا منهم من الحرب إلى شاطئ البحر من كل الطرق والدروب، عيونهم إلى الورا، لا يعرفون ما ينتظرهم، وأملهم أن يعودوا يوماً¹.

يتذكر ل. أ. تيخومиров الذي شهد هذه الأحداث: "... كنا نسكن في "تيمرقوه" حين بدأ طردُ الشراكسة من غرب القفقاس بعدما احتلَّ الشرق. رأيت بعيني المأساة الكبيرة التي حدثت في غرب القفقاس، وعانيته في قلبي. لا أتخيل أنه يمكن حدوث مثل هذه المصيبة، لم تمرّ مصيبةٌ، بما فيها الهجرة الكبرى، أسوأ منها. مرّت أمام عيني حكايات طرد الشراكسة من أرضهم. وإن كنت نسيت شيئاً منها أو التبس عليّ بعضها فما أقوله له أساسه. وبها يمكن أن أنافس العلماء.

عقد بارياتينسك في عام 1860 اجتماعاً في فلاديقفقاس لبحث ما يجب فعله للسيطرة على غرب القفقاس بعد احتلال شرقه. وقد عُرض في الاجتماع حلان للمسألة. كان رأي الجنرال فيليبسون أن الشراكسة يمكن إقناعهم بالسيادة الروسية إذا أُطِّعوا على مقدار القوة العسكرية الروسية ومدى التسليح، وإذا عوملوا معاملةً إنسانية. ولكن كان تصديق الفكرة، دُعًا من تنفيذها، صعباً. فمن جهة سيفقد الشراكسة أملهم في أن يتابعوا نمط حياتهم الذي ربّوه إذا أصبحوا تحت النير الروسي: حين كان الشراكسة يعيشون أحراراً خلال قرون لم

¹ "... حين أرسلت عام 1872 ثمانية آلاف وخمسمئة أسرة ممن طُردوا إلى تركيا رسالةً إلى القيصر ألكسندر الثاني يعبرون فيها عن رغبتهم في العودة إلى بلادهم. - يكتب زَحمه قاسبولات في كتابه "الأديغة: الصراع والطرْد" - كتب القيصر على الرسالة: "لا رجعة". المؤلف.

تكن روسيا قائمة. كان اليونان القدماء يعرفون الـ "كيركيس" وتعبير آخر "الشركس - الأديغة". ومنذ هذا التاريخ هوجم الشركاسة خلال آلاف السنين، ولكنهم كانوا يتخلصون من الغزاة بسرعة. ولم تكن حريتهم تنتقض. وتبقى أراضيهم لهم، ويرتبون عيشتهم كما يريدون. وحدث أن عزل الشابسغ أمراءهم في غمرة حروبهم. إنهم لا يقبلون أي سيادة عليهم، ولا سيما سيطرة الغريب، بمن فيهم سلطان تركيا.

وكانت نوايا إيدوكيموف مختلفة. لا يمكن التعايش مع الأديغة، ولا يمكن غض النظر عنهم. والسبب هو أن هذا الوضع يمكن أن يخرب أمن روسيا؛ فإن شئت تركيا أو دولٌ أخرى حرباً على روسيا كان الشركاسة دعماً كبيراً لهم. ولذلك يجب إبادة الأديغة كي لا يسيئوا إلى أمن روسيا. وكيف تبيد هؤلاء؟ أفضل حلٍّ هو طردهم إلى تركيا، وتوطين الروس في أراضيهم. ومن كان يمكن أن يفكروا هذا التفكير هم أمثال إيدوكيموف. وهو ابن أسرة فلاحية، وسيق إلى الخدمة في الجيش القيصري، ولم يخل بقوته وبوقته ليستحق لقب العسكري الحقيقي. واستمر في خدمته مستفيداً من طبيعته الميالة للظلم. ولم يكن يتورع عن شيء لمصلحته الشخصية. تأمل إيدوكيموف الذي لم يكن عنده أي تحصيل علمي في العلاقات الروسية - الأديغية بعقل سديد ونشاط فائق وتجردٍ مما يسمى الرحمة، فاختر إبادتهم بدلاً من مصالحتهم. وبهذا عبّر الجنرال إيدوكيموف عما في قلب ممثل القيصر في القفقاس بارياتينسك.

كان بارياتينسك يبحث عن مثل المديح الذي استحقه يرمولوف وفورونتسوف عن طريق الحرب على الجبلين بدءاً من عام 1835 التي جرح فيها عدة مرات. لم يكن هناك أي شخص قادر على الانتصار على الجبلين، ولكن ظهر من يتسنى له ذلك وهو بارياتينسك. وحقق ما كان يتمناه. وكان قد فهم جيداً ما

قاله إيدوكيموف بخصوص الأديغة: إما نحن، وإما هم. لن نستطيع العيش معاً هنا. ولذا قرر بلا تردد: إن كان الأمر هكذا فليمت هؤلاء. ونحن نعيش مكانهم هنا.

لا أظن أن برياتينسك يمكن أن يتفق مع إيدوكيموف المتحمس لإبادة أي شعب كامل. أعرف أنه كان من الصعب أن يفعل هذا. كان برياتينسك مثقفاً جداً. كان حقاً رجلاً عاش حياة مترفة، ويجب النساء. وكان يعتقد أن مهمته هي الحرب والنصر والسلب والإمساك بالزعامة. ولكنه كان ظالماً إلى حد يتورع عنه كرومويل ونابليون. ولم يجد برياتينسك حلاً آخر من أجل إنجاز المهمة وإخضاع شمال القفاس. وافق برياتينسك إيدوكيموف، ولم يكن الأخير قادراً على فهم ما يعتمل في قلب برياتينسك. لم يكن من الذين في قلوبهم رحمة وحرص على حياة الآخرين. ومع أن طباع سليل الأرسقراطية وطباع الجنرال سليل العامة من الناس مختلفة فقد اتفقت نظرتهم إلى الموضوع لأن كليهما كان جاهزاً، لا يتورع عن شيء لتوسيع حدود روسيا وتقويتها.

ومع أن برياتينسك كان يتمتع بصلاحيات واسعة فقد كان عليه استشارة القيصر في ما يقرر. ولكن ألكسندر الثاني، ربيب جوكوفسك لم يكن يجذ القوة المفرطة والقسوة. والآن إن انتشر خبر ما قُرر بشأن الأديغة فسيشاع في أوروبا كلها أن الروس ليسوا بشراً، بل هم وحوش. وكان عنده "روح بطرسبورغ" كما عند الجنرال فيليبسون. وفي عام 1861 مرض برياتينسك، وتخلّى عن منصبه عام 1862.

ورغم أن برياتينسك لم يستطع الإمساك بزمام الأمور في غرب القفقاس فإنه لم يكن عديم النفع في تحقيق هذه المهمة: وطّد سلطة إيدوكيموف، واعتبر سياسته في إبادة الأديغة صائبة. ولكن القيصر ألكسندر الثاني لم يوافق

بارياتينسك الذي ناقشه في تنفيذ خطة إيدوكيموف. والحق يقال إن القيصر لم يستبعد تماماً أفكار إيدوكيموف: اتفقا على رأي واحد، واختلف ما فعلاه. استفاد من كل الإمكانيات الدبلوماسية من أجل سلب الأديغة أرضهم. وكان رأي إيدوكيموف هو إحلال القوزاق محل الأديغة ما إن يُخلوا أرضهم. ولكن كيف يمكن جلب هؤلاء إلى هنا؟ تقرر إرسال القوزاق على شكل جيوش كاملة. واتفق على أن يُختار نصفهم من جيش لينينا والآخر من جيش البحر الأسود. ولكن الجيشين تمردا على الأمر. وجابه القوزاقُ الجيوش التي أرسلت لإخماد التمرد، وكاد الطرفان يشتبكان. وكان منصب أتامان إيكاترينودار¹ في ذلك الوقت، إن لم تحيِّ الذاكرة، بيد الجنرال كوساكوف. وكان قد هرب من المدينة التي جرى فيها التمرد غير أن القوزاق لاحقوه وأعادوه. وهم يهتفون: "أنت أتاماننا، ومهمتك تأييد مطالبنا". وباختصار: أعطوا لكوساكوف ورقة القرار الذي ينقض الحريات التي كانت منحتها لهم إيكاترين الثانية، كي يوصلها إلى إيدوكيموف. وكان القوزاق يقاومون كل من لا يؤيدهم. وكان الجنرال يعقوب كوخارينك قوزاقياً حقيقياً محترماً جداً من قومه. ولكنه حين تكلم في بطرسبورغ مؤيداً فيليبسون لم يغفروا له. وفي إحدى رحلاته إلى ستافروبول أبلغوا الأديغة أنه هو الجنرال بابيش الذي سلب أرض الأديغة فألبَّوهم لمهاجمة عربة كوخارينك، وفي هذه اللحظة تخطى عنه حراسه القوزاق واختبئوا.

مع أن كوخارينك الذي أوقعوه بيد العدو بهذه الطريقة من الخيانة جابه المتآمرين بالسيف، فقد عجز بديهة عن الانتصار عليهم، ووقع بيد الأديغة

¹ الأتامان زعيم محلي عند القوزاق. وإيكاترينودار مدينة وقلعة قوزاقية على ضفة نهر بشرة الفاصل بين الأديغة البجدوغ والقوزاق.

مشخناً بالجراح. ولكنه لم يُعمّر طويلاً فمات متأثراً بجراحه. ولم يكتف القوزاق بما فعلوه ببابيش فهاجموا قريته واغتصبوا أوائل من وقعن بأيديهم.

عرّضت تصرفات القوزاق أهداف إيدوكيموف للخطر. والآن صار لزاماً عليه أن يجابه القوزاق أيضاً بالإضافة إلى الأديغة. وكان من شأن هذه الأحداث أن تجعل القيصر يرتاب في نوايا إيدوكيموف، وتجعله يسيء النظر إليها. وهنا تراجع إيدوكيموف، وبدأ يبحث عن وسائل أخرى لتحقيق ما ينويه بحق الأديغة. وغيّر الأمر الذي كان أصدره في موضوع ترحيل القوزاق. وسحب الجيش من مستوطناتهم. ونقل إليهم عبر مقابلاته لهم اعترافه بالأخطاء التي ارتكبتها نتيجة سوء التفاهم. وأصدر حالاً معايير جديدة في ترحيل هؤلاء. قرر الآن ترحيل أسرٍ منفردة، ليس من قوزاق بشرة وحدهم بل من قوزاق منطقة التين ومن منطقة تبريك أيضاً، دون التعرض للجيش الكاملة وللقرى القوزاقية الصغيرة. ومن أجل ترغيب هؤلاء في الرحيل حمل الدولة على مساعدتهم في الامتلاك. ارتاح القوزاق، وخرج من بينهم عدد كاف في رأي إيدوكيموف لاستيطان أراضي الأديغة. ومن أجل ألا يرتاب القيصر في أي شيء من مشروع توطين القوزاق أبلغ إيدوكيموف حين قابل بشخصه ألكسندر الثاني أنه هو المسؤول عن الأخطاء، وأن لا ذنب للقوزاق في ما حدث.

وعلى كل حال لم يكن إيدوكيموف ليتورع عن شيء مقابل أن يضع القيصرُ غربَ القفقاس تحت تصرفه. ولهذا كان هو أيضاً يخاطر بنفسه، ولا يرحم أحداً. ويقدم للقوزاق عطاءات كثيرة: يُسكنهم في البيوت التي جهزها للجيش مسبقاً، والمحتوية على إسطبلات، ويقدم لجيش بشرة الذي أعيد تجميعه مساعداتٍ مالية. وظلت الدولة تساعدهم في التغذية من ثلاث إلى خمس سنوات. وبالنهاية كانت الأمور تجري في هذه المنطقة على نحو جيد.

ولكن كان من الناحية الأخرى خوفٌ من نوع آخر: كان من المحتمل أن يشفق القيصر على الأدعية فلا يطردهم. ووقتها كان سيتعين تخيير الأدعية بين الانتقال إلى أماكن أخرى، كلٌّ كما يختار، إما إلى إقليم نهر بشرة، أو ضواحي مايقواب، أو النزوح إلى تركيا. ولكن إن قرروا عدم النزوح فهل يتسع هذا الإقليم للأدعية كلهم؟ وحينها، وبتكليف حكومي، بدؤوا بتقديم أرقام منقوصة جداً لتعداد الأدعية. والآن لا أستطيع أن أذكر الرقم المقدم، ولو من أجل عدم إثارة الأحزان، ولكنني شاهدٌ على أنهم قدموا رقماً كاذباً، ينقص ثلاث مرات على الأقل عن الرقم الحقيقي. وحين ظهر عدد المطرودين انكشف الكذب. ولكن بعد ما حدث ما حدث. والرقم الذي ذكرناه في ما سبق احتاجوه لدقيقة واحدة. — فقط من أجل خداع القيصر ورجالات الدولة.

والحق أن تقديم أرقام منقوصة كان ذا أثر ضارٍّ من ناحية أخرى. والسبب هو أنه جعل التفكير على النحو التالي ممكناً: إذا كان عدد الأدعية قليلاً إلى هذا الحد فإنّ بقاءهم في أراضيهم لن يكون تأثيره سلبياً جداً. ومن أجل إبعاد مثل هذه الفكرة عن ذهن القيصر كان يجب إقناعه بأن الأدعية لن يقبلوا الانضواء تحت سلطة الدولة الروسية. وقد تحقق هذا لإفدوكيموف عام 1861 ودون أن يكون لبارياتينسك يدٌ في الموضوع.

وفي السنة نفسها زار القيصر ألكسندر الثاني شمال القفقاس. وقد قرر إفدوكيموف أن يخدع القيصر والأدعية كي تسير الأمور كما يريد قبل زيارة القيصر. كان بين الأدعية من يخدعهم الجنرال منادياً إياهم بـ "الأصدقاء". بدأ الجنرال يجمع هؤلاء ويحدّثهم عن حبه للأدعية، وعدم رغبته في إخراجهم من بلادهم، وإن كان جابهمهم فإنما بأمر من بارياتينسك. وها هو القيصر الروسي قادم الآن، وهو يريد مقابلة موفدي الأدعية، ولا أحد يفوقه إنسانيةً، ويرغب

في أن يُسعد كل الأعراق البشرية. ولذا يمكن للأديغة أن يحملوا إليهم مطالبهم ليقطعوا الشك باليقين. ولا شك في أنه سيحقق لهم مطالبهم. كان إيدوكيموف يُشيع مثل هذه الأفكار بين الأديغة.

من السهل خداع الجبلين الذين لا علم واسعاً لهم بالسياسة. جاء القيصر في كانون الأول عام 1861 إلى جيشنا المحتشد عند فزاشه. وقد اجتمعت وفود من الأبخاخ والشابسغ والويخ، ومن أعراق أخرى في هذا المكان. وحملوا إلى القيصر كل ما في قلوبهم: إزالة قلاع الجيش الروسي من أراضيهم، وسحب الجيش، وعدم تشييد قرى روسية في الأرض الأديغية، وفي كل الأحوال عدم رغبتهم في أي نوع من الوصاية الروسية. فإن نُقِدت لهم هذه المطالب كلها قبلوا بحكم السلطة القيصرية الروسية، وعاشوا بسلام.

كان واضحاً ما سيلبي اللقاء لأن من الصعب تصديق أن روسيا المنتصرة دائماً يمكن أن تستجيب لمثل هذه المطالب القاسية. فهم القيصر أن من المستحيل عقد أي اتفاق مع الأديغة، وفي الشهر نفسه أجاب بالموافقة على الورقة المتضمنة أفكار إيدوكيموف. وشرع الجنرال بكل طاقته عاقداً العزم على التنفيذ بأسرع وقت ممكن.

كان الأديغة يتأملون الحماية من تركيا وأوروبا. وقد أرسلوا موفديهم إليهما، ولكن لم يحصلوا على شيء. صحيح أن تركيا قبلت بالاتفاق مع القيادة الروسية استقبال الأديغة. كانت روسيا، وقد ألجأت الأديغة إلى شاطئ البحر، مشغولة بزيادة عدد السفن التي ستقلهم، ولذا كانت تستغل الأموال المتبانية.

وكما قلتُ سابقاً كان الأديغة يعارضون الهجرة، وكان هذا سبباً في تضامنهم، وحرصهم الفدائية. ولكن اليأس كان يتسرب شيئاً فشيئاً إلى نفوسهم فيتوقفون. وكان الجيش الروسي يضعهم في موقف حرج. ويبنى في القرى التي يجبرهم على

هجرها بيوتاً وإسطبلات للقوزاق.

أصيب الأديغة باليأس مما يحدث لهم. وتحول أكثرهم إلى اللامبالاة، ولا يريدون الرحيل إلى أي مكان. ولا يعرفون أين يتجهون. ولا يُمنحون الفرصة للتفكير. ويلجؤون إلى القرى التي لم تُسلب بعد، وإلى أعماق الغابات. ولكن كان يُعتر عليهم فيها أيضاً.

كانوا يعبئون الأديغة المتجمهرين على شاطئ البحر الأسود في السفن والمراكب العادية، ويُنقلون إلى تركيا. وتجاوز عدد من صاروا وراء البحر نصف مليون. وكان من الصعب العثور على مراكب تنقل كل هؤلاء. فيقيم المطرودون التعمساء شهوراً على الشاطئ.

يُست الحكومة التركية من أعداد المهاجرين. ويُعتقد أن السبب هو المغالطة في أرقام المهاجرين الأديغة. بدأت المراكب الكبيرة، والعادية المتوسطة ذات المجاذيف تُرسل إلى الأديغة لعبور البحر. وكان الناس الذين يُكدسون في هذه المراكب مقابل أجرة مرتفعة يموتون بالكوليرا وغيرها من الأمراض المعدية الأخرى. واستمرت مأساة الاستعجال القلق هذه أربع سنوات حتى عام 1864.

كنت شاهد عيان على الظلم الذي يمارس ضد الأديغة. كانوا يُطردون من غابة بسه مز، ودخان قراهم التي تُحرق يتصاعد شاهداً عليه. لم نعرف أن هذا العدد من الناس يقطن الجبال. ولا أحد غير الله يعرف كم من الأديغة قضى في تلك الفترة من البرد والجوع والمرض. ولم يُخص أحد عدد الجثث التي تفسخت في الغابات والجبال، بل لم يخطر لأحد أن يفعل هذا. وكانت الجثث على ساحل البحر تُدفن على عجل لصعوبة إحصائها. ولم يكونوا يفكرون إلا في تجنب العدو من الجثث.

وحسب الروايات، وعلى سبيل المثال، يموت كل يوم مئتان من كل خمسين ألفاً في المناطق المختلفة التي تجتمع فيها الأديغة في تركيا. وهل كان الوضع من جانبنا أفضل؟ كان الأديغة المطرودون إلى تركيا منتشرين على امتداد الساحل. وأكثر المغادرين ينطلقون من ميناء بسه مز. وحسب الإحصاءات الرسمية فمن بين خمسمئة ألف أديغي على ساحل البحر أبحر مئة ألف من هذا المكان.

ولابد من القول، في كل الأحوال، إن بين الأديغة من استطاع الاختباء في مضائق الجبال. وفي ثمانينيات القرن التاسع عشر، بعدما اختبؤوا زهاء عشرين عاماً، خرج بضع مئات من هؤلاء من مخابئهم، واستقروا على الساحل في قريتين، إحداهما بسه فاباً¹، والأخرى نسيت اسمها. ولم يتعرض أحد هؤلاء، وطمانوهم على حياتهم.

كان يتجمع من الأديغة باستمرار زهاء عشرين ألفاً في بسه مز. يرتدون الأسمال، وأكثرهم مرضى. وبين الأطفال كثيرٌ من الأيتام. ونصف هؤلاء يعيشون بين أنقاض القلعة القديمة في مدينة بسه مز، والنصف الآخر في واديها وخليجها. وكانت الحياة في أنقاض قصر سيريرياكوف لهم لأن الجدران كانت سليمة ولو دون سقف، فتحميهم من الريح. وهؤلاء ينتظرون السفن أو المراكب التي تُقلّهم إلى تركيا.

الناس الذين لم يبق لهم مكانٌ يرصدونه ولا أملٌ إلا تركيا، يبيعون مواشيهم وأمتعتهم البيئية، وملابسهم، وغيرها بأرخص الأسعار. وكنت تعثر على أحصنة ممتازة وأحصنة سبق. ويتم البيع كله بنقود فضية لا بعملات ورقية، ولم يكن سكان بسه مز حينها يملكون ذهباً.

¹ يعني مشرب ماء.

ولما كان موت الأديغة من المرض والمُخل على مرأى من أهل البلدة فقد بدؤوا يحملون إليهم الطعام واللباس. ووالدتي مع نساء آخر من فاعلات الخير كنّ يساعدن النساء الضعيفات جسدياً. وبدأ كثيرون يتبنّون الأيتام.

حقاً لم أر بعيتي من رُثوّا في أسر قوزاقية، ولكني أعرف بعض الأسر من بسة مز ممن رُثوّا أطفالاً من المهاجرين. وعلى سبيل المثال فقد ربى الدكتور صانع المشروبات ميخائيل فيدوتوفيتش بينشول ولداً ممن يُغطّون على كل شيء فيهم. ومنحه نسبته وعمّده في الكنيسة، ودّرّبه على الخدمة. وانتهى الولد المسمى سيرغي إلى ولد عاقل مهذب. وحين كبر أعطاه ميخائيل، وقد صار عجوزاً، كرمّ عنب في وادي سوس - حبله يعمل فيه. ثم تزوج سيرغي، وفتح باب التجارة في بسة مز، وأبواباً أخرى للعمل. واختير بعدها زعيماً على مدينة بسة مز. وكان غنياً ومحترماً جداً.

وتبنّى آل رودكوفسك طفلاً أديغياً يربونه. وكانت أمي احتضنت طفلاً وطفلة أديغيين. وعمّدتهما كليهما. وصارت الفتاة حين كبرت جميلة جداً، حلوة الطباع مهذبة. ثم تزوجت من جندي جاء إلى بسة مز للحرب وعاشت سعيدة. غير أن الصبي الذي سمي أليكسي لما عمّدت تبّين عن ولد غليظ الطباع مشاكس حاقد على الجميع، فصار صعباً على الأسرة تحمّله. من الصعب عليّ أن أقول الحقيقة عن أليكسي لأنه لم يكن من النوع الذي يُطْلَعك على ما في قلبه. ولا أعرف إن كان يكره الروس على إحراقهم بلادهم، غير أنه كان يبدو عليه عدم رغبته في العيش معنا. والحق أنه ليس مستغرباً ألا يحب الأديغة الروس. ونادرٌ أن تجد في التاريخ البشري من يشبههم في إبادة عرق.

من الصعب معرفة عدد الأديغة الذين كانوا يقطنون من ساحل البحر الأسود إلى نهر لابا. وفي اعتقادي أنهم كانوا أكثر من مليون. ومن قضوا في الحروب،

وخلال طردهم، وفي الطريق إلى البحر، ومن ماتوا على الساحل نتيجة المحل، والبرد، والأمراض، عدة مئات من الألوف.

وهكذا "طُهرت منهم" الأرض التي لا أجمل منها، والتي عاشوا عليها آلاف السنين. وكان الأديغة الذين انتكبوا من مظالم الروس يلعنوهم وهم يركبون السفن، ويتوسلون إلى أرضهم ألا تُغَلّ حبة واحدة على الروس. ولكن الطبيعة التي لم تتأثر بالمأساة العظمى للأديغة استقبلت الروس بوجه طلق ولم تُنقص شيئاً من جمالها..."

وفي عام 1896 كتب الضابط أ. ف. ستاروستايفسك ذكرياته في مطبوعات "أخبار أوربا": "... سواء نتيجة خدمتنا أم بسبب فضولنا، كنا نأتي من مكان احتشاد جيشنا يومياً تقريباً لنراقب الأديغة البؤساء. ماذا كنا ننتظر نحن؟ ماذا كان أمثالنا من أصحاب المناصب الصغيرة يستطيعون أن يقدموا لهؤلاء التعمساء؟ كانت البلاد محتاجة إلى أن يصبح هؤلاء في تركيا.

كنت تحتاج إلى قلب قوي لترى المأساة التي تحدث على الساحل. الناس الذين فقدوا بيوتهم وإسطبلات مواشيهم يعيشون معاً أسابيع في أودية الأنهار التي تصب في البحر الأسود، بين ركام الأحجار والرمال. يعيش آلاف من الناس في الأرض الضيقة التي حُددت لهم ليلهم ونهارهم. وليس في الأرض التي يُمنع عليهم مغادرتها شجرة واحدة، ولا ظلّ. والأجسام القليلة اليابسة لا تكاد تكفي ليشبوا عليها قطعة لحم أو يُعدّوا عليها قدراً من الحساء.

وهكذا يندثر نظام حياة كامل أسسه الأديغة على مر القرون. وضحايا هذا الزلزال ليسوا آحاداً، ولا عشرات ولا مئات بل يعدون بالآلاف. كم من الأديغة قضوا على ساحل البحر من الأمراض ومن غيرها، وكم منهم لم يصل سالماً إلى الساحل التركي، وكم مات على هذا الساحل؟ لم يَقم أحد بالإحصاء، بل من

يحتاج إليه؟!

كنا نرى مأساتهم، ونفهم ما ينتظرهم، قلوبنا تتألم، ولكن ماذا بيدنا نقدمه لهم؟ نلّمح لجنرالنا من وقت لآخر أن هؤلاء محتاجون إلى النار والملح وما شاكلهما، وأنهم محتاجون أن نسمح لهم بارتياح سفوح الجبال القريبة. في البداية كان يستمع إلينا عن طيب خاطر، وكان كمن يعطف على بعضهم، ثم ينهرنا إذ لا شأن لنا بالموضوع. ويذكرنا بأنه هو نفسه ليس إلا مأموراً، عليه التنفيذ فحسب، وأن هذه مسألة تتعلق بالدولة. "مسألة دولة" ما أشد الظلم الكامن في هذه العبارة! كم من مثل هذه المآسي حدثت في التاريخ البشري منذ القدم، وإلى الآن، بذريعة مصلحة الدولة؟..."

وهذا ما يكتبه الفرنسي الذي شهد مأساة الهجرة إلى تركيا أ. فونفيل: "... الأديغة الذين كنا معهم وحاربتنا لم يبق مسوّغ لوجودنا معهم مزيداً من الوقت مع أننا كنا واثقين من سلامة طويّتهم.

منذ أن احتل الروس طوابسه كانت السفن التركية ترتاد الساحل الشرقي بكثرة، تنقل من يهجرون بلادهم بأجرة مقبولة إلى ضواحي سامسون أو طرابزون. وكان هذا سهل المنال لنا جداً إذ أننا نستطيع العبور بوحدة من السفن الكثيرة المغادرة دون أن يلاحظنا الروس.

ولم يكن الروس يقفون حجر عثرة البتة في طريق هجرتهم لأن ما يهمهم هو أن يغيبوا عن أنظارهم وكفى.

قرنا - نحن الفرنسيين - أن نتوزع على المراكب فرداً فرداً ونُبحر. وقد اخترنا هذا الحل مخرجاً كي لا يعتقلنا الروس مجتمعين. وإن قُبض على أحدها كان لنا أمل أن يصل غيره إلى تركيا.

كان الأديغة مشغولين ما إن يظهر مركب على الشاطئ بمساومة صاحبه. وفي

المساء حين تهب الريح مواتية تبحر المراكب ممتلئة بأكثر من طاقتها؛ إما بسبب لطفة الأديغة على الوصول إلى تركيا، وإما بسبب جشع أصحاب المراكب. والمركب الذي يتسع لخمسين أو ستين شخصاً يُحشر فيه من ثلاثئة إلى أربعئة. ولم يكن المهاجرون يحملون من الزاد إلا حفنة من الذرة وجرة من الماء. والوصول إلى تركيا يستغرق من خمسة أيام إلى ستة. ولقطع هذه المسافة لا يمكن تصوُّر الاضطهاد الذي يلحق بهم من أصحاب المراكب.

وحين تهب العواصف الممطرة تغوص المراكب إلى جوف الماء. والمراكب قليلة الركاب تتسبب الرياح في خضَّهم على متنها، وهم الذين لا يعرفون وجهتهم، وصدِّم بعضهم ببعض حتى ليكاد يعصر بعضهم بعضاً. ولم تكن أوقات الصحو بأفضل، فالمراكب لا تريم من أماكنها لتوقُّف الريح، فينفد زاد المسافر ويصبح على شفا الموت جوعاً.

يروى لنا البحارة الأتراك ما يروونه من تعاسات هؤلاء الفارين بأرواحهم: غرقت بعض المراكب بركابها. وبعضها مات نصف ركبها فكانت جثثهم ترمى في البحر. ومع ذلك، وبسبب عدم اكتراث هؤلاء الجلبين بأنفسهم، وبسبب الذعر الشديد، يغامرون بأرواحهم. والهَمُّ الأول لهم هو أن يجدوا أنفسهم في أي مركب بأسرع ما يمكن، مستسلمين لفكرة أن ما يصيبهم هو من الله. فهم في جميع الأحوال، سواء ماتوا في البحر أم على المركب، واثقون من عجزهم عن دفع القدر.

كان وضع البلاد يبعث على اليأس، وما ينتظره الأديغة على الشاطئ هو وصول المراكب بسرعة. ولم يكن يخطر ببال هؤلاء البؤساء أن يشيدوا ما يقيهم المطر أو الريح من ظل أو عريشة، لأن يأساً مطبقاً استولى عليهم. أمراً واحداً في أذهانهم وقلوبهم وهو الوصول بأسرع ما يمكن إلى تركيا؛ لم يبق أملٌ غيره.

يقضون سحابة نهارهم على مرتفع من الشاطئ يرصدون أي مركب يظهر في البحر ليلفتوا انتباه ربانه بأي طريقة، وليقنعوه بالاقتراب من الشاطئ.

كنت غادرت "فاردان" بصحبة الربان يعقوب. كنت أقابله كثيراً على الشاطئ في ما مضى، وكثيراً ما نفعتني في مناسبات أخرى. أجلسني في مكان أرى منه ما يجري وأسمع ما يقال. ولكن أستطيع القول إنني لم أر شيئاً تقريباً بسبب الضباب وما يرافقه من ظلام. كان الرجال ينقلون نساءهم وأطفالهم عبر الماء الذي يغمرهم إلى أوساطهم. ولم يكونوا يتخذون أماكنهم إلا بعد أن يُنزلوا النساء في قلب المركب ويتخذن محلاتهن. وكان همُّ يعقوب ألا يبقى مكان شاغر. ورغم أن المركب امتلأ عن آخره لم يكن عاجزاً عن إيجاد مكان لوافد جديد طارئ. الرجال يجلسون على السطح مقرفصين حتى ليكادُ البحارة المكلفون بعملٍ ما على السطح يمشون على رؤوس الركاب.

جلس يعقوب إلى جانبي. رفع الأشرعة وانطلقنا. ليست الرياح قوية جداً ولكن سرعة المركب مقبولة. ومع الصباح صرنا في غرض البحر. وفي هذا الوقت فحسبُ استطعتُ أن أعد الركاب واحداً واحداً: كانوا ثلاثئة وسبعة وأربعين. حدثت جلبة في المركب عند الظهيرة حين ظهرت نقطة سوداء في الأفق، ثم تبين أنها سفينة. وفيما أنا مستغرق في مراقبتها لاحظت أن بعض رجال الشراكسة يتحدثون إلى زعيم مسنّ لهم.

سألت يعقوب:

- من هذا العجوز الذي يتحدثون إليه؟

أجاب يعقوب بصوت منفعل:

- دَعْكَ منه، لا يقول شيئاً مهماً!

- وهل يُعقل ألا يقول شيئاً؟! بل يبدو لي أني أنا موضوع الحديث.

لم أتفق مع يعقوب لأني كنت أرى الناس ينظرون نحوي:

- ألا تُخبرني ماذا يقول! لا تُخفِ عني شيئاً!

- حقاً إنه يتكلم عليك. لا يتحدث عنك بخير. ستفهم كل شيء قريباً جداً.
لم يكن خافياً على أحدٍ ما يسببه لي هذا الحديث من قلق. وألححت على يعقوب ثانية أن يصارحني.

- يريدون أن يرموا بك في البحر، ولكن في حال تبين أن السفينة روسية فحسب- قال لي يطمئنني إلى حد ما - يخشون أن يعتقلهم الروس إن وجدوك هنا، ولكنهم إن لم يجدوك فلن يعترضوا المركب. هذا كل ما في الأمر.
بدأت أراقب السفينة وقد فقدت كل أمل لي في الحياة. كان يبدو لي أن نقطة السواد لا تتحرك. ولشدة ما حدقتُ فيها فقدت عينايا القدرة على تمييز الأشياء. ثم رأيتُ العلم التركي على السفينة. فعدت إليّ الطمأنينة.

مضى اليومان الأولان من الطريق دون حوادث تذكر. واليوم الثالث هو اليوم الذي أُلقيت فيه جثث امرأتين وطفل في البحر قضوا عصرًا بين الأجساد نتيجة الازدحام. وفي اليوم نفسه مات رجلان وامرأة. وفي اليوم الرابع خمسة عشر شخصاً. وفي اليوم الخامس ظهر الشاطئ التركي. كانت قوانا قد وهنت من التعب والجوع. نفذ الزاد في يومين، ولو كتب علينا أن نبقي في المركب وقتاً إضافياً بقدر ما أبخرنا لغرق نصفنا قبل الوصول إلى طرابزون.

الثلج ما يزال يغطي قمم جبال "آسيا الصغرى" ولكن أشجار الزيتون التي على الشاطئ مكللة بكاملها بالزهر الرمادي. مشينا مدة محاذين الشاطئ لأن المرسى كان قرب بلدة "آجي" التي يمكننا بجانبها فقط إنزال النساء والأطفال بأمان. وكانت تظهر أحياناً من القرى غير الكبيرة سطوح البيوت البيضاء ومآذن المساجد. والشراكسة ينظرون بفضول إلى بلادهم الجديدة. يرددون دون

انقطاع "الله أكبر" "الله أكبر" يعبرون عن امتنانهم لله الذي أوصلهم أحياء إلى هنا.

سبق لي أن زرت بلدة آجي، ولذا تعرفت بسهولة على القلعة التركية الصغيرة غير البعيدة عنها، ورأيت أناساً كثيرين قادمين من جهتها. ولما اقتربنا أكثر من الشط، تبين أنهم أدبغة. وسمعنا بكاءهم.

كان على الشط أربعة عشر مركباً شبيهاً بمركبنا. بعضها فارغ يستعد للقفول إلى الشاطئ الآخر وإقلال الأدبغة، وبعضها ينزل المهاجرين القادمين الذين سبقونا ووجوههم الشاحبة تشي بالمهالك التي اجتازوها كما اجتازنا.

ألقينا المرسى، وجاء الرجال وهم في الماء بالنساء والأطفال والجثامين. وأخيراً حان دوري: وضعت رجلي على البايسة وقلبي يفيض فرحاً. كنت قد تعبت جداً، والجوع هديني، وقدماي تَحْمَلَانِي بِمَشَقَّة؛ فمنذ يومين لم أذق شيئاً، ولم أشرب ماء منذ أيام. اقتربت من الماء الذي ينبع من أسفل الجبل، وارتويت، فرجع إليّ العزم. كنت أحاول الوصول إلى طرابزون بأسرع ما يمكن لأنني أعرف صعوبة وضعي بصفتي غريباً بين هذه الجموع.

وعلى ما علمت فقد قضى خمسة عشر ألفاً من الشراكسة الذين هاجروا في بداية الشتاء دون أن يُصْغَوْا إلى نصائحنا. وصلوا ولم يكن معهم ما يكفي من الطعام، ووضعهم الصحي متراجع جداً، وجلبوا معهم إلى طرابزون الأمراض السارية من جذري وطاعون وغيرهما، ولهذا مات كثيرون من سكان تلك البلدة، ولهذا بدأ الأتراك المذعورون من الأمراض التي حملها الأدبغة يحجرون عليهم في الشاطئ، ونشروا الجنود لمنعهم من دخول البلاد.

وضعت قدمي على شاطئ آسيا الصغرى في ذروة الهجرة الشركسية. كان في بلدة آجي وحدها خمسة عشر ألفاً منهم. ورغم برودة الجو كانوا يسكنون

عرائش من أغصان الزيتون فحسب. ويعيشون بعدما استنفدوا زادهم على القليل من الطعام الذي تجود به تركيا من حين إلى حين.

شهدت كيف كان الطعام يوزع عليهم: جيء بثلاثة مستوعبات للخبز، وُترك إليها معبر ضيق محروس بالجنود المسلحين. وكان على الأديغة أن يمرؤا بينهم فُرادى إلى حيث يحصلون على الخبز. ولكن كان مستحيلاً أن يحظى به كل هؤلاء فلا يكاد يكفي لنصفهم. وعلى النصف الآخر الانتظار إلى الوجبة التالية.

ولما كنت قد تحولت في كل تلك الأماكن التي لجأ إليها المهاجرون اقتنعت في هذه اللحظة بأنهم رغم كل هذا الازدحام كانوا يتبعون بكل صدق نهجاً معيناً بهم: كانوا متوزعين حسب الأسر، و كل أسرة تستوطن ظل شجرة محددة. وكل ما يشهد على "ثروتهم" هو الصندوق الذي يضم بعض ملابسهم وأغظيتهم، والكيس الذي فيه شيء من الحبوب. والنساء يسلقن وعبونهن دامعة ما بقي لهن من الذرة.

دعا المؤذن مع الغروب إلى الصلاة. توضع الرجال وتوجهوا إلى الكعبة، وبسطوا فرواقهم أمامهم. كانت الأشعة التي ترمي بها الشمس الغاربة تنير وجوههم فتكسوها بإمارات خوف مكتوم.

الإمام يتلو من القرآن، والجميع يهمهمون وراءه، ثم يهون على ركبهم، وكلما تحرك المصلون سُمع صوت صليل السيوف والبنادق المعلقة على أجنابهم، صوت ينم عن أن هذا العرق القوي، رغم الهزيمة، حمى حريته مادام عنده شيء من القدرة. وبعد الأدعية دفنوا الجثامين. كان أربعة رجال تحت النعش دائماً، ويحل محلهم غيرهم باستمرار. ووراء النعش رجال حمولته، والنساء وراءهم بخطوة يندبن

المتوفى. كانت مآتم الأديغة صعباً تحمّلها إذ يتردد صوت البكاء وصداه بين الجبال فيعصر القلب.

وأخيراً، ودون مشقة تُذكر، وجدتُ العجوز المَروح ذا اللحية البيضاء أحمد الذي دلني عليه يعقوب، والذي سيوصلني إلى طرابزون. ورغم أنهم كانوا يفتشون كل سفن طرابزون فقد وعدني أن يوصلني.

- أنا قادر على أن أصل إلى أي مكان - قال لي جواباً على توجُّسي. مهمتي هي العبور خفية بين سفن حاكم طرابزون.

- ومع ذلك فكيف سترتب الأمر؟

وبدلاً من أن يجيئني نهض وقادني إلى الإسطبل القريب من بيته، وأراني حوض الماء الطويل الذي تستقي منه الدواب. وتبين أن هذا المشرب ما هو إلا زورق جاهز يتسع لثمانية أشخاص. فاطمأن قلبي.

لما حان وقت السفر انضم إلينا المجذفون بنداء من أحمد. دفعوا الزورق إلى الماء وانطلقنا.

شرعت أصوات الأديغة تخفت شيئاً فشيئاً. ثم لم يبق أمام عيوننا إلا النار المرتفعة من أماكن سكنهم. ومع أن فرحي كان يزداد كلما اقتربنا من طرابزون لم أكن أستطيع أن أبعد عن قلبي الأديغة البؤساء الذين كنت ضيفاً عليهم، ورفاق سلاح، والذين أفارقهم إلى الأبد.

لم يكن أحمد الذي أركبُ زورقه عابثاً إلا بشؤونه. لا يُقلقه شيء من كل ما يراه وما يسمعه. لا يههمه إلا أن تخترق عيناه الضباب.

- ما أتعس هؤلاء الأديغة المساكين! قلت له أريد اختبار لا مبالاته.

- ليس لنا أن نغير شيئاً من أمرهم. هذا ما كتبه الله عليهم - أجابني بصوت هادئ.

- ومع ذلك ألن يقتلهم جميعهم البرد والجوع؟!

- قال العجوز دون أن يقلقه شيء: بنات الأديغة سيكنّ أرخص من أي وقت مضى في سوق إستانبول...

